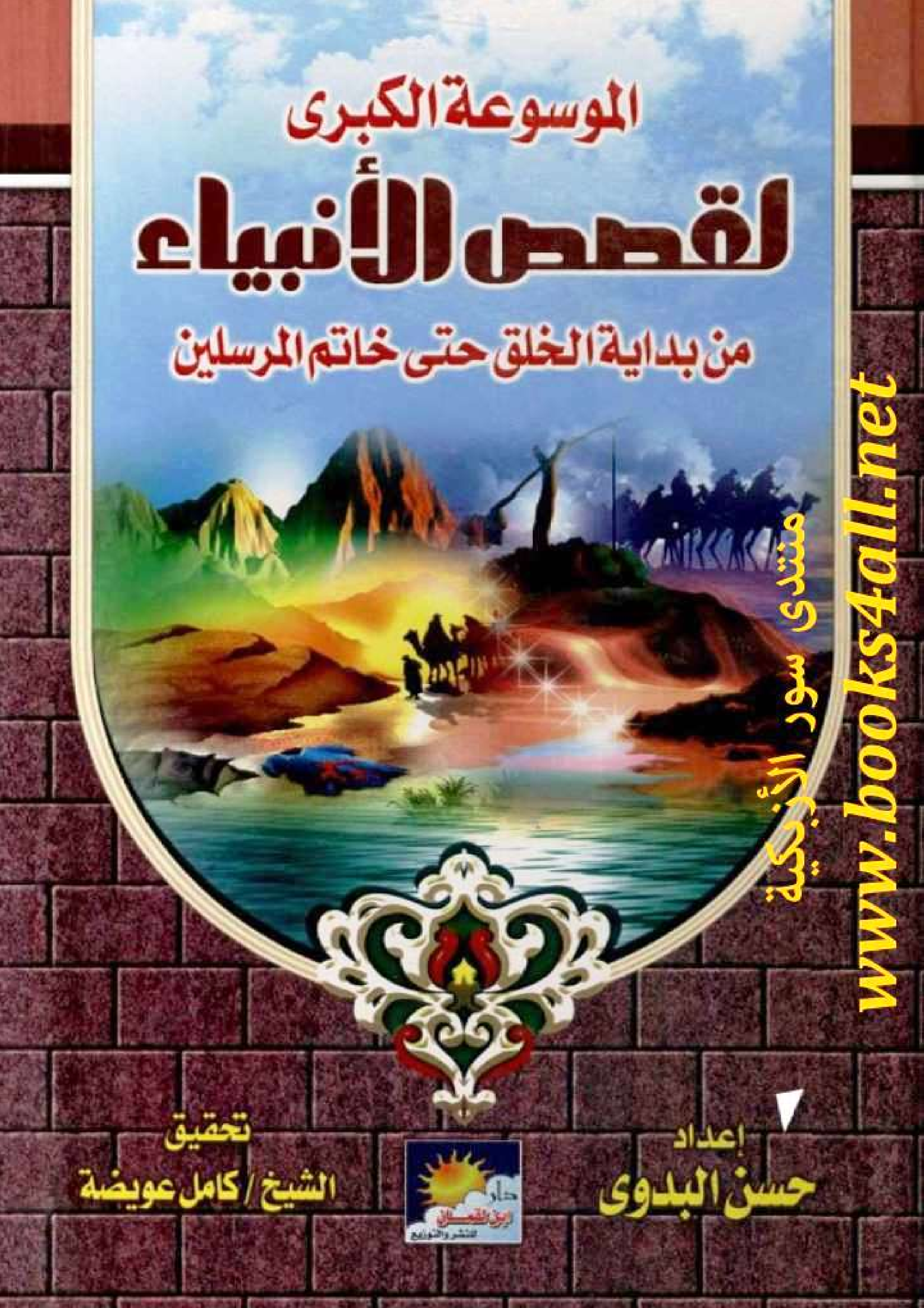

الموسوعة الكبرى
لقصص الأنبياء
من بداية الخلق حتى خاتم المرسلين
إعداد
حسن البدوى
تحقيق
الشيخ / كامل عويضة
دار ابن الهيثم للنشر والتوزيع
www.books4all.net
منتدى سور الأزبكية


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الموسوعة الكبرى لقصص الأنبياء

من الخلق إلى بداية خاتم المرسلين ﷺ

إعداد

حسن البدوى

تحقيق وتعليق

الشيخ/ كامل عويضة

دار ابن لقمان للنشر والتوزيع

كتاب ابن لقمان

●● اسم الكتاب : **الموسوعة الكبرى لقصص الأنبياء**

●● إعداد الأستاذ : **حسن البدوى**

●● تحقيق وتعليق الشيخ : **كامل عويضة**

●● تليفون ـ ٣٧٤٠٥٦٧/ ٠١٢ ـ ١١٢٤٣٨٧/ ٠١٠

●● إخراج فنى : **صلاح بدير شبكة**

●● كمبيوتر : **ماجدة فاروق عيسى**

●● رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٥٥٠٧

●● الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977 - 366 - 074 - 5

التوزيع الداخلى مؤسسة الأهرام.
القاهرة. ش الجلاء ت: ٠٢/٧٧٠٤١٩٤

رئيس مجلس إدارة السلسلة

حسن البدوى

فكرة السلسلة ورئيس التحرير/نبيل خالد

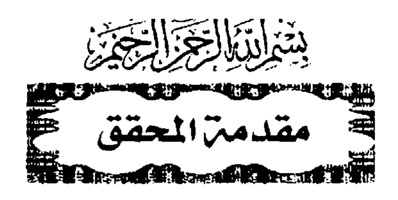
البريد الإلكترونى

Nabil_khalid73@hotmail.com

☎: ٠١٢٣٧٤٠٥٦٧

المدير الإدارى/ سمير البدوى

E - Mail: Lookman2000@hotmail.com



مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: عندما توجهت إلى الله سبحانه وتعالى واستعنت به لتحقيق هذا الكتاب الذى قام بجمعه وإعداده صديقى العميد حسن البدوى، فكنت أظنُّ أنَّه كتابًا هيِّنًا، ولكن حينما استرسلت فى قراءته وضبطه، وجدته كتابًا ليس هيِّنًا، فقد صاغه صاحبه بأسلوب قصصى ممتع يَشُدُّ القارئ شداً، فلا يستطيع أن يغلِق صفحاته قبل الانتهاء من قراءة الموضوع لحسن تعبيره ، ولذلك فإنى أرى أن هذا الكتاب ـ يُعَدُّ منهجًا كاملاً وشاملاً، وحجة على مدى الزمان، يأخذ منه الباحثون ويحيط بعلمه المعتبرون، فالكتاب قاموسًا أساسيًا فى السيرة النبوية منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام فى الجنات العاليات إلى نهاية عصر المسيح عليه الصلاة والسلام،وكان من فضل الله تعالى أن قمتُ بتحقيق الكتاب على هذا النحو:

أولا: قابلت الآيات القرآنية بمظنها فى المعجم المفهرس للقرآن الكريم، من إعداد الشيخ فؤاد عبد الباقى عليه رحمة الله تعالى.

ثانيًا: قابلت الأحاديث والآثار بمصادرها فى المعاجم والمسانيد، مثل: المعجم المفهرس لأطراف الحديث النبوى للاتحاد الأممى للمجامع العلمية، وموسوعة أطراف الحديث للإمام المزى، وموسوعة أطراف الحديث للشيخ محمد سعيد زغلول.

ثالثا : الحكم على الأحاديث والآثار: بالصحة، والحسن، أو الضعف.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يرحم موتانا وآبائنا وسائر المسلمين، وأن يتغمدهم برحمته، ويكثر من حسنات الصالحين، ويعفو عن المذنبين، وأن يجعل أمة المسليمن فى عليين مع الأنبياء والشهداء والصديقين، وأن يجمعنى بأخى العزيز حسن البدوى فى جنات الفردوس مع المتقين العاملين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كامل عويضة

مصر. المنصورة شارع جامع نصر الإسلام بعزبة الشال

الإهداء

- إلى أبى وأمى يرحمهم الله..
- إلى أبى وأمى التى ولدتنى وأمى (خالتى) التى أرضعتنى..
- وإلى زوجتى التى ساعدتنى وتحملتنى..

•• إليهم أهدى هذا الكتاب الذى أطلب من الله أن يكون فى ميزان حسناتهم وراجيا من الله لكل من يقرأ هذا الكتاب أن يعينه على التمسك والإخلاص لتعاليم ديننا الحنيف وهدى رسولنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحابته إلى يوم الدين.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حسن إبراهيم البدوى

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا نهتدى لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على نبى الرحمة ورسول الشفاعة محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله وخاتم الأنبياء والرسل وعلى آله وصحابته أجمعين.

*** أخى القارئ وأختى القارئة:**

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بداية كانت نيتى فى كتابة هذا الكتاب أن أجعله للأطفال وبعد وعندما بدأت فى الإعداد له وتجميع المراجع الدينية المختلفة وجدت أنه من الصعوبة بمكان أن أكتب للأطفال من أعمال الغير وتبسيطها لهم.

وأصبح الحل للخروج من هذا المأزق أن أبدأ أولاً بالكتابة للكبار ومن عملى آخذ منه بعدها للأطفال.

ولاأدعى لنفسى تأليف هذا الكتاب.... فأنا لست مؤلفه.... فالكتاب الدينى ليس له مؤلف.... ولكن كاتب.... أجتهد وأخذ مواد الكتاب من مصادر مختلفه أهمها القرآن الكريم ثم الأحاديث النبوية. وبعد ذلك ممن كانت لهم الرياده فى السبق بالكتابه فى المجال الدينى.... يرحمهم الله وأن يجعل ما تركوه لنا علماً نافعاً لا ينقطع عملهم فى الدنيا به.

وقد اطلعت على عدة مصادر من هذه الكتب وجدت فيها علماً نافعاً وسردا للوقائع والأحداث كل بطريقته فى زمانه. منها من يقرأ النص القرآنى عن القصة ويكتبها بطريقه أدبية فلسفية تبعدها عن الجو الروحى الدينى.

ومنها من يستعين بالنصوص القرآنية وكتب أهل الكتاب.. بما يجعل القارئ العادى يمل فى متابعتها.

ومنها ما يحتاج لمن يقرأ هذه الكتب أن يكون رجل دين على درجة عالية من ثقافة وعلوم الدين. وحيال ذلك: وجدت أنه من الواجب عليّ أن أستعين بالله ثم أجتهد محاولاً ترتيب هذه الأحداث طبقاً لما جاء فى كتاب الله وأحاديث الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام.

وأمهات الكتب والمراجع المختلفة وكتب الرواد السابقين يرحمهم الله أموات وأحياء وأثابهم الله عنى وعن المسلمين قراء هذا الكتاب خير جزاء وأخص منهم على سبيل المثال لا الحصر.

- الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى يرحمه الله

- الأستاذ / عبد الوهاب النجار يرحمه الله

- الأستاذ / أحمد بهجت متعه الله بالصحة والعافية والرحمة وطول العمر وغيرهم كثير ممن استعرت منهم تفسيراً لآية أو جملة أو نص وأطلب من الله أن يجزيهم عنى خير الجزاء والثواب.

فأنا لا أدعى لنفسى علماً... بل أنى لا أساوى قطرة فى محيط علومهم.

وكل ما استطعت فعله هو الاجتهاد والتبسيط على القارئ قدر استطاعتى وترتيب الأحداث مع ذكر ما يهم القارئ منها حتى ولو كانت فى روايتها غرابة أوفى أحاديث ذكرت ضعيفة.

حتى أكون قد قدمت للقارئ كافة جوانب ما قيل فى القصه.

والله أسأل إن كنت قد اجتهدت ما يقرب من العامين فى تجميع ماده هذا الكتاب أن يجعله فى ميزان حسناتى يوم لا ظل إلا ظله ولا رحمة ولا مغفرة إلا منه. ولا شفاعة لمخلوق إلا لنبيه المصطفى رسول الرحمة المهداه عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. هذا وبالله التوفيق

حسن إبراهيم البدوى
٣٠ شعبان ١٤٢٥ هجرية
١٤ أكتوبر ٢٠٠٤ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُو الَّذي خلَقَ السَّموَات والأرْض في ستة أيامٍ ثُمَّ اسْتوىٰ على الْعرْشِ يعْلمُ ما يلجُ في الأرْض وما يخْرُجُ منْها ومَا ينزلُ من السَّماء ومَا يعْرُجُ فِيهَا وهُو معكُمْ أيْن مَا كُنتُمْ واللَّهُ بما تعْملُون بصيرٌ﴾ صدق الله العظيم [الحديد: ٤].

آيات من خلق الله

لم يكن قبل الله شئ. . . . قال تعالى

﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]

فكل ما سواه تعالى مخلوق له. . . خلق العرش. . . والسماوات والأرض وما بينهما وخلق الملائكة، والبيت المعمور فى السماء السابعه فوق الكعبة المشرفة، يدخله ليطوف به ويصلى فيه سبعون ألف ملك كل يوم فإذا خرجوا منه لم يعودوا ويدخله سبعون ألف ملك غيرهم. يسجدون ويسبحون ويحمدون ويكبرون لله الخالق العليم قال رسول الله ﷺ:

« ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامه قالوا جميعاً: ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لا نشرك بك شيئاً» (١).

ولله فى خلقه شئون. . . فمن الملائكة من له جناح وجناحان وثلاث وأكثر من ذلك. . . وقد ورد فى صفة الملك جبريل عليه السلام أمر عظيم.

قال الله تعالى **﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾** [النجم: ٥]

قالوا: كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط (مدنهم) وكن سبعاً بمن فيها من الأمم وكانوا قريباً من أربعمائة ألف وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضى والمعتقلات والعمارات وغير ذلك. رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ

---

(١) أخرجه الطبرانى (ح/ ١٧٥١) وقال الهيثمى فى (المجمع) (١/ ٥٢) فيه عروة. .

بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى.

وقوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى خلق حسن وبهاء وسناء.

كما قال فى الآيه الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقه: ٤٠ والتكوير: ١٩]

أى جبريل رسول من الله كريم أى حسن المنظر ذى قوة. أى له قوه وبأس شديد عند ذى العرش مكين أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾، مطاع ثم أمين، أى مطاع فى الملأ الأعلى أمين، أى ذى أمانة عظيمة. سماه الله الروح الأمين ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام الذى ينزل عليهم بالوحى فيه الأخبار الصادقه والشرائع العادلة. وقد كان يأتى إلى رسول الله ﷺ وينزل عليه بصفات متعددة من البشر. وقد رآه على صفته التى خلقه الله عليها مرتين . له ستمائة جناح كما روى البخارى عن طلق بن غنام عن زائده الشيبانى. قال: سألت زراً عن قوله تعالى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩، ١٠].

قال حدثنا عبد الله ابن مسعود أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن راشد عن أبى وائل عن عبد الله قال: « **رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل من الدر والياقوت مالله به عليم**»[(١)].

وقد ورد فى صفة الملك إسرافيل عليه السلام:

هو أحد حملة العرش وهو الذى ينفخ فى الصُور بأمر ربه نفخات ثلاثة:

أولاهن نفخة الفزع. والثانية نفخة الصعق. والثالثة نفخة البعث

والصُور قرن ينفخ فيه كل داره (جزء) منه كما بين السماء والأرض. وفيه موضع أرواح العباد حين يأمره بالنفخ للبعث فإذا نفخ تخرج الأرواح تتوهج فيقول الرب جل جلاله وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى البدن الذى كانت تعمره فى الدنيا، فتدخل

(١) اسناده حسن. أخرجه أحمد (١/ ٤١٢، ح / ٦٤٠)

على الأجساد فى قبورها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ، فتحيى الأجساد، وتنشق عنهم الأجداث، فيخرجون منها سراعاً إلى مقام المحشر.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: « **كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وإنتظر أن يوزن له**» [1].

قالوا: كيف نقول يا رسول الله؟ «قال قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» .[2]

وفى صحيح مسلم عن عائشه: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» [3].

وفى حديث الصور أن إسرافيل أول من يبعثه الله بعد الصعق لينفخ فى الصور وذكر بعض الأئمه بأن إسرافيل أول من سجد من الملائكه فجوزى بولاية اللوح المحفوظ وقال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ** ﴾ [البقرة:٩٨]

عطفهما على الملائكه لشرفهما فجبريل ملك عظيم قد تقدم ذكره. وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر والنبات وهو ذو مكانة من ربه عز وجل ومن أشراف الملائكه المقربين.

فهؤلاء الملائكة المصرح بذكرهم فى القرآن وفى الصحاح هم المذكورون فى الدعاء النبوى «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل».

فجبريل ينزل بالهدى على الرسل لتبليغ الأمم. وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق فى هذه الدار وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه.

وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للقيام من القبور. والحضور يوم البعث والنشور

---

(١) اسناده حسن. أخرجه الترمذى (ح/ ٢٤٣١) وأحمد (١/ ٣٢٦. ٤/ ٣٧٤) وصحيح الجامع (ح/ ٤٥٩٢).

(٢) صحيح. أخرجه الترمذى (ح/ ٢٤٣١، ٢٣٤٢) وأحمد (١/ ٣٢٦، ٣/ ٣٧٤) والحاكم (٤/ ٥٥٩) وصححه. وأقره الذهبى. وصححه الشيخ الألبانى. انظر: (صحيح الجامع) (ح/ ٤٥٩٢).

(٣) صحيح. أخرجه مسلم فى (المسافرين، ح/ ٢٠٠) والترمذى (ح/ ٣٤٢٠) والنسائى (٣/ ٢١٣، ٨/ ٢٧٨) وأبو داود فى (الاستفتاح، باب «٦») وابن ماجة (ح/ ١٣٥٧) وأحمد (٦/ ٦١، ١٥٦).

ليفوز الشكور ويجازى الكفور. فذاك ذنبه مغفور. وسعيه مشكور.

وأما ملك الموت، فليس بمصرح بإسمه فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحاح. وقد جاء تسميته فى بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم.

قد قال تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجده: ١١].

أقســــام الملائكــــة

الملائكة عليهم السلام إلى ما هيأهم الله له أقسام. فمهنم حملة العرشِ ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش وهم الملائكة المقربون ومنهم جبريل وميكائيل عليهما السلام. وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب.

ومنهم سكان السموات السبع يعمرونها عباده دائمه ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء كما قال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

فمنهم الراكع دائماً، والقائم دائماً، والساجد دائماً. ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم سبعون ألف.

ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاع ومساكن ومآكل ومشارب وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وخازن الجنه ملك يقال له: رضوان جاء مصرحا به فى بعض الأحاديث. ومنهم الموكلون بالنار وهم الزبانية. ومقدموهم تسعه عشر وخازنها مالك وهو مقدم على جميع الخزنة. وهم المذكورون فى قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر ٤٩].

وقال تعالى ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨ ,٧٧].

وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ عليْها تسْعة عشر (٣٠) وما جعلْنا أصْحاب النّار إلاّ ملائكة وما جعلْنا عدّتهُمْ إلاّ فتْنةً لّلّذين كفرُوا ليسْتيْقن الّذين أُوتُوا الْكتاب ويزْداد الّذين آمنُوا إيمانًا ولا يرْتاب الّذين أُوتُوا الْكتاب والْمُؤْمنُون وليقُول الّذين في قُلُوبهم مّرضٌ والْكافرُون ماذا أراد اللّهُ بهذا مثلاً كذلك يُضلُّ اللّهُ من يشاءُ ويهْدي من يشاءُ وما يعْلمُ جُنُود ربّك إلاّ هُو وما هي إلاّ ذكْرىٰ للْبشر﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

ومنهم الموكلون بحفظ بنى آدم. ملائكة يحفظونه من بين يديه، ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه،

ومنهم من يسجل عليه أعماله الطيب منها وغير الطيب، بحفظ أعمال العباد.

قال تعالى: ﴿عن الْيمين وعن الشّمال قعيدٌ ما يلْفظُ من قوْلٍ إلاّ لديْه رقيبٌ عتيدٌ ﴾

[ق: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وإنّ عليْكُمْ لحافظين كرامًا كاتبين يعْلمُون ما تفْعلُون﴾

[الإنفطار: ١٠ ـ ١٢].

وفى حديث منسوب إلى ابن عباس: قال رسول الله ﷺ **«إن الله ينهاكم عن التعرى استحيوا من الله والذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجزمه حائط [١] أو بعيره»**.

ومعنى إكرامهم أن يستحى منهم فلا يملى عليهم الأعمال القبيحة التى يكتبونها فإن الله خلقهم كراماً فى خلقهم وأخلاقهم. ومن كرمهم أنه قد ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب**» [٢] وفى رواية عن عاصم بن ضمرة عن على «ولابول» وفى رواية رافع عن أبى سعيد مرفوعا: «لاتدخل الملائكة بيتاً

(١) جزمه حائط: بقيه حائط..

ضعيف جداً. ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد» (١/ ٢٦٨) والألبانى فى«ضعيف الجامع»(ح/ ٧٦٢)..

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (٤/ ١٣٩ فتح البارى) ومسلم فى (اللباس، ح/ ١٠٢).

فيه صوره ولا تمثال»(١).

وفى روايه مجاهد عن أبى هريرة مرفوعا: « لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو تمثال»(٢).

القرين للإنسان من الملائكة والجان

حديث منسوب إلى ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ

« ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» (٣)

قالوا: وإياك يا رسول الله قال ﷺ: **« وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير»**(٤).

خلـــق الجـــان

قال الله تعالى: **﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** [الرحمن: ١٤ ـ ١٦].

وقال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾** [الحجر: ٢٦، ٢٧].

وعن طريق الزهرى عن عروه عن عائشه قالت: قال رسول الله ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم»**(٥) قال كثير من علماء التفسير أن الجان قد خلقها الله قبل آدم عليه السلام.

وهم كبنى آدم يأكلون ويشربون ويتناسلون ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون. وأما كافروا الجن: فمنهم الشياطين، ومقدمهم الأكبر إبليس عدو آدم أبى البشر.

---

(١) صحيح. أخرجه أبو داود (ح/ ٤١٥٣، ١٤٥٤) والترمذى (ح/ ٢٨٠٤) والنسائى فى (الزينه، باب «١٠٦») وابن ماجة (ح/ ٣٦٤٩) وأحمد (١/ ١٠٤)..

(٢) ضعيف. رواه أحمد وأبو داود والنسائى..

(٣) صحيح. أخرجه الطبرانى فى (صفات المنافقين، ح/ ٦٩،٦٩ مكرر) وأحمد (١/ ٣٨٥، ٤٠١).

(٤) صحيح. أخرجه مسلم (ح/ ٦٩٧٠) وأحمد (ح/ ٣٧٧٩).

(٥) صحيح. أخرجه مسلم فى (الزهد، ح/ ٦٠ وأحمد (٦/ ١٥٣/ ١٦٨) والبيهقى (٩/ ٣).

وقد سلطه هو وذريته على آدم وذريته. وتكفل الله عز وجل بعصمة من آمن به وصدق رسله واتبع شرعه منهم. كما قال بها ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠, ٢١].

وقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٤٤].

وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى سورة البقرة وفى الأعراف وفى سورة سبحان وفى سورة طه وفى سورة ص. والمقصود أن إبليس أنظره وأمره الله إلى يوم القيامه محنه لعباده واختبارا منه لهم كما قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن

يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١].

فإبليس لعنه الله حى الآن منظر إلى يوم القيامة بنص القرآن. وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن.

وقد قال الله تعالى: **﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** [النساء: ٧٦].

وقيل أن إبليس قبل معصيته العظيمة. كان اسمه عزازيل.

وقال رسول الله ﷺ **«عرش إبليس فى البحر يبعث سراياه فى كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزله أعظمهم فتنه للناس»** [١].

وقال رسول الله ﷺ **« إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينهم»** [٢]، والتحريش: الإغراء بين الناس وبين الكلاب.

والشيطان هدفه الأساسى أن يوقع الناس فى المعاصى والزنوب وأن يفرق بين المرء وزوجه وبين الأخ وأخيه والابن وأبيه وأمه وقد نصحنا وأوصانا رسولنا الكريم بقراءة المعوذتين. . وخاصة قل أعوذ برب الناس.

وفى فضل سورة البقره أن الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه، وفى فضل آيه الكرسى أن من قرأها فى ليلة لا يقربه الشيطان حتى يصبح.

وكانت الشياطين قبل خلق آدم. قد خلقها الله سبحانه وتعالى وأسكنها الأرض فأفسدوا فيها وقاتل بعضهم بعضا.

فأرسل الله عليهم جنداً من ملائكة السماء حاربتهم وقتلت منهم وطردت بعضهم وأسرت البعض الآخر. وسكن المطرودين منهم جزر البحار.

*****

---

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٤) وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨٩) وعزاه إليه.
(٢) صحيح. أخرجه أحمد (ح/ ١٤٣٠٣).

قصة آدم عليه السلام

ذكر الله سبحانه وتعالى قصة خلقه المبارك لآدم أبو البشر فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم. . . وعلى سبيل المثال لا الحصر. . . سأذكر بعض هذه المواضع من سورة البقره الآيات من ٣٠ ـ ٣٩ ـ وفى سورة آل عمران. الآية ٥٩.

وفى سورة النساء الآية ١ ـ وفى سورة الحجرات آيه ١٣ ـ وفى سورة الأعراف. آية ١٨٩ وفى سورة الأعراف أيضا من الآية ١١ ـ ٢٥ ـ وفى سورة طه آية ٥٥ ـ وفى سورة الحجر ٢٦ ـ ٤٤ وفى سورة الإسراء: ٦١ ـ ٦٥ ـ وفى سورة الكهف آية ٥٠ ـ وفى سورة طه آية ١١٥ ـ ١٢٦ ومدلول هذه الآيات المباركة أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الكون وخلق كرسى العرش والملائكة والجان والسماوات والأرض وأبدع الله سبحانه وتعالى فى خلقه.

كما علمنا في كتابه الكريم ﴿ **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [البقرة: ١١٧].

ويقول سبحانه فى سورة فصلت ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: ١٠]

ليس من المتصور أن يخاطب الله سبحانه الخالق العظيم الأرض والسماوات، ولكنه سبحانه يصور لنا بهذا الأسلوب الذى يسهل علينا فهمه وأن الكون أصبح مهيئاً لحدث جديد. ففى سورة البقره آيه ٣٠ خاطب الله الملائكة قائلا: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقره ـ ٣٠ ـ ٣٢]. ذلك الحوار من رب الكون والمخلوقات لخلقه من الملائكة إلا تهيئتهم لهذا الحدث الجديد. خلق جديد ليس منهم ولا من الجان، وحيرة الملائكة فى ذلك هو ما حدث فى الأرض من قبل بين الجان فهذه الحيرة حسمها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾

فتهيأت الملائكة لهذا الحدث الكبير. وقال تعالى فى سوره [ص].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٦٨]

ثم أمر الله ملكاً أن يهبط إلى الأرض ويأخذ قبضة من ترابها تجمع كل عناصرها وألوانها. ولهذا جاء الإنسان على اختلاف ألوانها ومن كل عناصرها.

ووضع الملك القبضة من التراب على باب الجنة كا أمر ربه، وعجن رضوان خازن الجنة هذه القبضة بماء النهر الجارى فى الجنة يقال له (التسنيم) حتى صارت طيناً متماسكاً. وتركت هذه الطينة بعد عجنها فترة حتى تخمرت وتعفنت وانبعثت منها رائحة. وكان يمر إبليس بهذه الطينة ويعجب أى شيئ سيكون من هذا الطين.

خلق الله الإنسان من ماء وتراب لأنهما طاهران نغتسل ونتوضأ بالماء وإن لم نجد نتيمم بالتراب وصور الله ـ تعالى جلت قدرته ـ آدم من هذه الطينة فى صورة حسنة جميلة وشكل متناسق بديع، وتكوين معجز لا يقدر عليه سوى خالق عظيم جلت قدرته وتعالى شأنه وكماله. طاف إبليس حوله ودخل فيه فوجده أجوف فعرف أنه خلق لا يتمالك ونفخ الله من روحه سبحانه فى هذا المجسم من الطين الجاف. فأخذت الروح تَدُبُّ فيها شيئاً فشيئاً إلى أن دبَّت فيه الحياة فتحرك جسده.

لما أخذت الروح تسرى فى جسد آدم.. فوصلت إلى صدره ثم إلى بطنه فلما وصلت إلى ركبتيه تعجل وهم بالجلوس فلم يقدر، فقال الله تعالى: **﴿وكان الإنسان عجولا﴾** كان الإنسان عجولاً أراد آدم أن يقف على قدميه قبل أن تصل إليهما الروح.

سجود الملائكة لآدم وعصيان إبليس

أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود لآدم تكريماً له. فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر.

فتح آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له ما عدا واحداً يقف هناك. لم يكن آدم قد عرف أى نوع من المخلوقات هذا الذى لم يسجد له. ولم يكن يعرف اسمه .

وكان إبليس يقف مع الملائكة، ولكنه لم يكن منهم. كان من الجن... والمفروض، بوصفه أقل من الملائكة، وأن تنطبق عليه الأوامر التى تصدر لهم. ولكن الغرور والجهل والحقد يتملكه. لما نفخ الله فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس، وقال الحمد لله (أول ما نطق به آدم) فقال الله تعالى له: يرحمك الله ياآدم.

آدم: هذا هو إسمى... آدم... سماه الله آدم... لأنه جاء من أديم الأرض.

وسمع آدم قول الله سبحانه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة صٓ: ٧٢].

آدم يعـــرف عـــدوه

من الحوار الذى دار بين الله الخالق وبين إبليس الجنى المخلوق وعصيانه لأمر ربه وعدم الطاعة فى السجود لما أمره الله. ،إدعاؤه أنه خير منه فى الخلق. عندما قال:

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾. ومااللذى يدرى إبليس بأن النار أفضل من الطين وأن الله الذى خلق النار وخلق الطين هو الذى يعرف من الأخير بينهما وأن الخضوع لطاعة الله وحده هى الواجبة فى الأساس.

فلما أمره الله بالخروج من الجنة وأن عليه لعنة الله إلى يوم الدين (يوم القيامة) وطلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون. أى تأجيل تنفيذ الحكم عليه إلى يوم القيامة. فقبل الله التأجيل إلى الوقت المعلوم لله وحده هو الذى يقرره. وقول إبليس اللئيم وقسمه لله بأن يغوين آدم وذريته أجمعين على العصيان والكفر بنعم الله... إلا عباد الله المخلصين.

كان آدم يتابع ما يدور حوله. وهو يشعر بالحب لله الذى خلقه وكرمه وأسجد له ملائكته. وفى نفس الوقت بالرهبة من الله عندما طرد إبليس من رحمته. ودهشه من هذا المخلوق الذى يكرهه بغير أن يعرفه ويتصور أنه أفضل منه بغير أن يتحاور معه.

عجب آدم لجراءة ذلك المخلوق فى الحوار مع الله خالقه وزاد عجبه أن الله سبحانه وتعالى كان يمكنه أن ينسفه نسفاً ولم يفعل ذلك لأنه سبحانه يعطى الحرية لمخلوقاته. . . من يؤمن به ومن لا يؤمن به من يطعه ومن لا يطيعه.

آدم يتعلم الأسماء

غرس الله فى نفس آدم معرفة لا نهاية لها بالأسماء وخواصها وفائدتها ورغبة وحباً للمعرفة لا نهاية له يورثها لأبنائه من بعده. وهذا هو السر فى تكريمه.

الملائكة لا يعرفون الأسماء

عرض الله سبحانه وتعالى تلك الأسماء على الملائكة وقال:

﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

عجز الملائكة عن الرد ولم يعرفوا إجابة لأسماء الأشياء التى عرضت عليهم إعترافاً بعجزهم قالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

آدم يجيب الله

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

أدرك الملائكة أن آدم هو المخلوق الذى خلقه الله ليعرف ويورث هذه المعرفة لذريته. كما فهموا السر فى أنه سيصبح خليفة فى الأرض، يتصرف فيها ويعمرها ولهذا أمرهم الله بالسجود له تكريما. . لا عبادة له. . لآن العبادة لله وحده فكان آدم يعرف أسماء كل شئ ويتحدث أحيانا إلى الملائكة ولكنهم كانوا مشغولين عنه بعبادة الله لأنهم خلقوا لك كان آدم يحس بالوحدة.

حجم جسم آدم

قال الرحمة المهداه ﷺ: « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» [١].

(١) صحيح متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، ح/٣٣٢٦) ومسلم فى (الجنة، ح/٢٨٤١).

وقال ﷺ : « **كان طول آدم ستون ذراعاً فى سبع أزرع عرضاً**» .[١].

وقال ﷺ: « **خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا. ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه، ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**» .[٢]

عمـــــــر آدم

عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ « إن أول من جحد آدم وكررها ثلاث مرات. أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارى إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر قال: أى رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قال: أى رب كم عمره؟ قال: ستون عاماً. قال: أى رب زد فى عمره. قال: لا إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً. فكتب الله عليه بذلك كتابا وأشهد عليه الملائكة. فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه قال إنه قد بقى من عمرى أربعين عاما. فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود. قال ما فعلت وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة» [٣] .

يـــــوم خـــــــلق آدم

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

« **خلق آدم فى آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة**» .[٤]

---

(١) إسناده قابل للتحسين. أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٥، ح/ ١٠٨٥٥) وذكره ابن كثير فى (البداية والنهاية) (١/ ٨٨). .

الزراع= ٣ قدم والقدم = ٣٠ سنتيمتر الزراع = ٩٠ سم أى أن طول آدم = ٥٤ متر بإرتفاع عمارة من ١٨ طابق وعرضه = ٦,٣٠ متر. .

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (٤/ ١٦٠، ٨/ ٦٢ فتح البارى) ومسلم فى (الجنة، ح/ ٢٨). .

(٣) إسناده قابل للتحسين. أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٤، ح/ ١٠٨٥٥).

(٤) صحيح. أخرجه مسلم (٨١/ ١٣٣) وأحمد (ح/ ٩٦٧٤).

آدم يشعر بالوحدة

علم الله آدم الأسماء كلها واختصار الأشياء فى رموز هذه سحابة وهذا عصفور وهذه شجرة وهذا نجم وهذا كوكب وأسماء الملائكة. وزادته هذه المعرفة حب الكلام والشرح لمن يسمع منه وكان يذهب إلى الملائكة ليحدثهم عن الأسماء التى يعرفها. لكن الملائكة كانوا مشغولين عنه بالعبادة لله عز وجل ولهذا كان آدم وحيداً لديه ما يقول ولا يجد من يستمع إليه وشعر بالوحدة والعزلة.

خلق حواء

نام آدم وهو على هذه الحالة من الوحدة ولكن الله الخالق المبدع لم يتركه فى وحدته وحيرته فهو أعلم به من نفسه.

فخلق حواء من ضلعه الأيسر وجلست بجانبه وهو نائم. استيقظ آدم من نومه. فوجد بجانبه امرأة جميلة آية فى الحسن من إبداع الخالق جالسة عند رأسه تنظر إليه فى حب ورحمة ومودة بعينين جميلتين... أى حوار من الممكن أن يدور بينهما بعد هذا اللقاء الأول؟ ألا يكون هذا الحوار ممكنا؟

سألها : من أنت؟ قالت: أنا منك

قال آدم: لم تكونى هنا قبل نومى؟ قالت: جئت أثناء نومك

قال آدم: من أين جئت؟ قالت خلقنى الله من ضلعك الأيسر أثناء نومك رحمة من الله حتى لا تتألم.

قال آدم: لماذا خلقك الله ؟ قالت لتسكن إلى.

قال آدم: الحمد لله الذى جعلك منى أثناء نومى ولم يهنى ولم يؤلمنى.

سألته الملائكة... من هذه يا آدم ؟

قال آدم: هى امرأة.

قالوا من أين جاءت ؟

قال آدم : خلقها الله من جانبى الأيسر أثناء نومى.

قالوا وما اسمها ياآدم ؟

قال آدم: حواء.

قالوا ولما أسميتها حواء؟

قال آدم: لأنها جاءت منى وأنا حى.

قالوا: أتحبها ياآدم.

قال آدم: نعم أحبها فقد خلقها الله منى لتكون سكناً لى.

آدم وحــــواء فـــى الجـنـة

أصدر الله تعالى أمره إلى آدم أن يسكن الجنة هو وحواء بقوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

سكن آدم وزوجته حواء الجنة وألبسهما الله من حللها الجميلة وأكلا وشربا من طعام الجنة لذة للآكلين ولذة للشاربين.

إبلـيس يوســوس لهـمـــا

واغتاظ إبليس لما وجد آدم وحواء وما عليهما من سعادة وسكن وهناء ونعمة أنعمها الله عليهما من معيشة هانئة وما عليهما من لباس الجنة الجميل الذى لا مثيل له. فأخذ يوسوس لهما بأن كلا من ثمار الشجرة التي نهاهما الله عنها.

هنا أتوقف مع القاريء وقفة قصيرة.

إذ تختلف الروايات التى تكلم فيها الكثير من الأئمة بأن آدم وحواء قد سكنا جنة فى الأرض، ورواية أخرى تقول جنة السماء.

وسبب الاختلاف أن إبليس لما خرج من رحمة الله بعد أن عصاه ولم يسجد لآدم كما أمره. فإن الجنة لم تعد مأواه ولهذا يقولون بأن وسوسته لهما كانت فى جنة بالأرض. ولكن الرواية الأخرى تبعتها رواية الهبوط بأن هبط آدم فى مكان بالهند اسمه سيرلنكا الآن وهى كانت من أرض الهند قبل أن تستقل وأن حواء هبطت فى جده.

وأنا أميل بأن الجنة هى جنة الله فى السماء لأن الأحداث كانت كلها هناك وأن الله إذ نهى مخلوقاته عن شيئ فإنما يترك للمخلوق الحرية فى السلوك كما ذكرنا من قبل.

وأن هناك رواية عن كيفية دخول إبليس الجنة تقول: بأن إبليس قد وقف على باب الجنة فوجد طاووس جميل يذهو فى ألوانه ويقترب من باب الجنة فناداه وطلب منه أن يدخله الجنة ولم يكن الطاووس يعرف بمنعة من الدخول إذا كان يدخلها من قبل مع الملائكة. فقال له الطاووس لا أستطيع أن أدخلك ولكن انتظر فسأحضر لك من يحملك. ودخل الطاووس وأحضر له حية كبيرة وكانت وقتها من أجمل المخلوقات فى الجنة لألوانها الزاهية وملمسها الناعم ومسالمتها وعدم إيذائها للغير. وفتحت الحية فمها ودخل إبليس إلى جوفها ودخلت وحين اقترابها من آدم وحواء وهما يتنزهان بين أشجار الجنة ويستمتعان بكل ما حولهما من نعيمها ورحيقها وأصواتها العزبة الهادئة خرج من جوف الحية وقطف من ثمار الشجرة التى نهاهما الله عن ثمارها ووسوس لهما بأن الله قد نهاهما عنها لأنها شجرة الخلد. من يأكل منها لا يموت أبداً.

تردد آدم فى البداية ولكن إبليس الشيطان لم يتركه وظل يحرضه على الأكل منها وقال: ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠] مد آدم يده وقطف من ثمارها وأكل منها وأكلت حواء. فنزع عنهما الله لباس الجنة فظهرت عورتهما فأخذا يتواريان خجلا وأخذا من ورق الجنة ما يوارى سوءتهما.

قال الواحد الأحد: ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١].

هلل إبليس ورقص فرحاً بما فعل بآدم وحواء وكان سبباً فى خروجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض.

آدم وحـــواء يهبطـــان إلـــى الأرض

بعد أن شعر آدم وحواء بخطئهما ومخالفتهما أمر الله. وعرف آدم أن لا نجاة له من

عدوه إبليس إلا باللجوء إلى الله وطلب مغفرته.

قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ولكن الله قبل توبتهما وأمرهما بالهبوط إلى الأرض لتتم حكمته فى الاستخلاف فيها.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٩].

كثرت الأقاويل والروايات عن مكان هبوط آدم وحواء ولكن أشهر هذه الروايات تقول: أن آدم هبط فى الهند ومعه الحجر الأسود وبعض أوراق الجنة فنثرها فنبتت شجرة الطيب هناك وأن الله قد علمه من علوم الزراعة وأخذ معه بعض من بذور الجنة وسيقان الأشجار.

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال: أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول: العفو العفو فقال الله: فراراً منى. قال آدم: بل حياء منك ياسيدى.

قال الأوزاعى عن حسان بن عطية: مكث آدم فى الجنة مائة عام. وفى رواية ستين عام وبكى على الجنة ٧٠ عام، وعلى خطيئته سبعين عاماً وعلى ولده حين قتل أربعين عاما. رواه ابن عساكر.[١]

---

(١) قلت: هذا أثر ضعيف الإسناد.

وعن الحسن قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجده (ويقال أن التسمية لهذه المنطقه التى أُهبطت عليها جِدَّه بكسر الجيم أى الجدة الكبيرة حواء. لهذا السبب وأهبط إبليس اللعين بدستميسان من البصرة ببضعة أميال وأهبطت الحية بأصبهان وأصبحت الحية عدوة للإنسان بعد أن كانت فى الجنة مخلوق مسالم جميل تطيع سيدنا آدم وبهذا اكتملت حكمة الله فى إهباطه لآدم وحواء ومعهما أعدائمها إبليس وأعوانه والحية غير أعدائهما وذريتهما من وحوش وضوارى الأرض [١].

آدم يتعلم الزراعة

أُهبط آدم إلى الأرض وحيداً وبدأ يشعر بالجوع بعد أن كان كل شيئ ميسراً له فى الجنة. وبدأ يفكر، ويقال أن الله سبحانه وتعالى كان قد زوده بحبوب وسيقان من نباتات الجنة وبدأ فى بذرها، وقيل: أن حبة القمح التى بذرها كانت تزن أكثر من مائة ألف حبة من مثيلها على الأرض وزرع سيقان النباتات وبدأت تنمو وتزهر، وأيضاً زرع القمح الذى يقال أنه أيضا نمى فى الحال. بعد أن كد آدم وتعب فى حرث الأرض ويقال أن الله قد زوده بثور أحمر. وبعد أن استوى الزرع، فحصده ودرسه(استخلص الحب من سنابله) هذا ويقال أن الله أنزل إليه الملك العظيم جبريل ليعلمه. ثم بقى القمح واشتد الجوع بآدم فنظر لجبريل وقال آكل؟

قال جبريل: أصبر. ثم قطع حجرتين من الجبل فجعلمها رحىً (قرصين) فطحن بهما آدم القمح.

فلما صار دقيقا قال آدم لجبريل : آكل؟

فقال جبريل: إصبر. ثم علمه كيف يعجن فعجن، وكيف يخبز فخبز فلما نضج الخبز، قال آدم لجبريل: آكل؟

فقال له: إصبر، حتى تغرب الشمس، فيتم لك صوم يوم كامل. فكان آدم أول من صام فى الأرض وكان أول غزاؤه الخبز هكذا شعر آدم بشدة التعب والمعاناة فى الأرض. فلكى يأكل بذل كل هذا الجهد الكبير. حرث الأرض وبذر الحب وحصد الزرع ودرسه

(١) قلت: هذا أثر مرسل صحيح.

وطحنه وعجنه بالماء وأنضجه على النار وصام يومه ولم يأكل إلا بعد غروب الشمس.

كل هذا الجهد على الأرض ليأكل وبدأ آدم فى التفكير فى كسائه وغذائه وشرابه وعاد يفكر فى وحدته التى أصبح عليها بعد أن ابتعدت عنه الزوجة والحبيبة حواء بدأ فى البحث عنها وكان كما عرفنا أن آدم كان عملاقاً ضخماً يبلغ طوله ستون زراعاً وعرضه سبعة أزرع (٥٤ متر طول × ٣٠, ٦ متر عرض) وبدأ يبحث فى الأرض وقد أمره الله أن يبنى بيتا لله فى الأرض تحت البيت المعمور فى السماء وقادته الملائكة لمكانه ووضعت له القواعد وبنى آدم البيت الحرام فى مكة ووضع الحجر الأسود [1] حجر الجنة فى مكانه وأمره الله بالطواف حوله ففعل.

وتذكر آدم قول الله سبحانه وتعالى حين قال: **﴿ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾**. وشعر فى نفسه بهذا الشقاء الذى هو فيه. وعاد للبحث عن حبيبته وزوجته حواء ويقال أنه وجدها فى منطقة عرفة فعرفها ويقال أنها سميت بهذا الإسم لذلك. ثم اشتهاها وعاشرها فى منى وهى المعروفة بهذا الاسم إلى الآن وقيل إن جبريل قال لآدم تمنى قال آدم أتمنى المغفرة والرحمة وهذه الأماكن فى أرض الحجاز المعروفة باسم السعودية الآن.

وهذا الشقاء الذى عاشه آدم وزوجه فى الأرض. يقول البعض بأن آدم عليه السلام هو السبب ولولا وقوعه فى خطيئة الأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه هو وحواء ما أصبحنا على الأرض وبقينا كلنا فى الجنة إلى اليوم.

وهذا قول جاهل. لأن الله سبحانه وتعالى حين كلم الملائكة قبل خلق آدم قال: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٣٠].

أى أن الله قبل خلق آدم قال إنى جاعل (فى الأرض) خليفة ولم يقل إنى جاعل (فى الجنة) وقد خلقه على الفطرة أى أنه يختار بعقله وقلبه ويمكنه أن يصيب ويخيب

---

(١) قلت: وفى الحديث الذى أخرجه النسائى وأحمد والخطيب وغيرهم: «الحجر الأسود من الجنة».
أخرجه النسائى (٥/ ٢٢٦) وأحمد (١/ ٣٠٧، ٣٢٩، ٣٢٩، ٣٧٣، ٣/ ٢٧٧) والخطيب (٧/ ٢٦٢).

ويعلم أن الشيطان يمكنه أن يؤثر فيه بل يقيناً سيؤثر فيه فهو الخالق للإثنان. ولكن العبرة فى هذه الأفعال والحوارات التى يظهرها الله لنا بينه وبين خلقه من الملائكة والجان والإنسان هى لبنى البشر جميعاً أن من يطيع الله يفوز برضوانه وجناته ومن لا يطيع الله فقذ خاب فى الدنيا والآخرة. ولكن آدم عليه السلام وحواء تابا إلى الله وندما على ما فعلا وقبل الله توبتهما.

ذرية آدم

ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير فى تاريخه عن بعضهم: أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً فى عشرين بطنا [١]. قاله ابن اسحاق وسماهم والله تعالى أعلم. وقيل: مائة وعشرين بطنا فى كل واحد ذكر وأنثى أولهم قابيل وأخته قليما. وآخرهم عبد المغيث وأخته أم الغيث ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا وإمتدوا فى الأرض ونموا كما قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١].

وقد ذكر أهل التاريخ: أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمه والله أعلم.

قابيل وهابيل

أول ما وهب الله لآدم وحواء من ذرية فى أول بطن كانا قابيل وأخته قليما وبعدهما فى البطن الثانية كانا هابيل وأخته ليوذا.

وكبر الأبناء وكان يفرح بهما آدم وحواء ويداعبا أبنائهم ويسعدا بها وكانت حواء قد تعلمت غزل الصوف من قص شعر الضأن (الأغنام) وقام آدم بأعماله الكثيرة المجهدة إلى أن كبر أبناءه قابيل وهابيل وعلمهما الزراعة ورعى الأغنام واختص قابيل بالعناية بأعمال الزراعة والذى قام بها خير قيام واختص هابيل بأعمال رعى الأغنام والإبل والأبقار وقام بها أيضا خير قيام وكان يسعد بكثرة تزاوجها وزيادة عددها وكان يقرب أطيبها قرباناً لله. وعاشت الأسرة فى سعاده وهناء.

(١) قلت: هذا الأثر إسناده ضعيف.

التزاوج بين الأبناء

أمر الله سبحانه وتعالى :أن يزوج آدم أبناؤه: ابن البطن الأول إلى بنت البطن الثاني وهكذا على ألا يتزوج الأخ فى نفس البطن الواحدة.

أخـــلاق قابيل وهابيل

قابيل: كان فى طباعه شدة وفى أخلاقه عنف وكأن قلبهُ قدّ من حجر، أما هابيل: فكان خيراً بطبعه، فى قلبه سماحة وفى خلقه لين وفى طبعه عطف وخير.

صفة قليما وليوزا

قليما: كانت على حظ وافر من الجمال الذى ورثته عن أمها حواء.

ليوزا: لم تكن على نفس هذا القدر من الجمال لأختها ولكن الله قد منحها نفساً طيبة وأخلاق حميدة ورقة فى الطبع تفوق الجمال الظاهر فى أختها قليما.

ابليس يغتنم الفرصة

عندما يأمر الآباء أبنائهم فإن طاعة الأبناء واجبة ولأن آدم عليه السلام قد تلقى الأمر واضحاً من الله بألا يتزوج الأخ أخته فى البطن الواحده (توأمه) وسوس الشيطان لقابيل وفتنه فى جمال توأمته فى البطن قليما وحرضه على معصية أبيه وأن أبيه آدم يفضل هابيل عليه ولذلك يريد أن يزوجه بالجميلة قليما. وحاول آدم مع ابنه قابيل أن يوضح له أن الله هو الذى أمره بذلك وأن قليما لا تحل له بشريعة الله التى شرعها بعدم زواج الأخ من أخته فى البطن الواحده (توأمه) دون جدوى فقد تمكن الشيطان منه وأسر فى نفسه وملأ الحقد قلبه على شقيقه هابيل.

قربان لله من إبنى آدم

لما اشتد خلاف قابيل مع أخيه هابيل. طلب آدم عليه السلام منهما أن يقدم كل منهما قرباناً إلى الله مما تحت يده من النعمة. وأنه سيتركهما لزيارة بيت الله الحرام هو وأمهما حواء.

فقدم قابيل حزمة من الزرع وقدم هابيل كبش أملح ثمين جميل الشكل والطلعة

ليس به أى شائبة وكان يحبه ويسعد كلما نظر إليه ودعى الله أن يتقبله منه. وانتظر أمر الله. وإذا بهما يريا كبش هابيل يرفع أمامهما إلى السماء وتبقى حزمة الزرع. . أى أن الله قبل قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل.

زاد حقد قابيل على شقيقه بفعل ما بداخله ووسوسة إبليس وأعوانه من الشياطين له.

وبدأ قابيل يتوعد شقيقه ويتحرش به ويقابل ذلك بصفاء وسماحة نفس وطيبة وقال له ذات مرة: لأقتلنك. قال هابيل فى سماحة وهدوء. ما أنبأنا الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧، ٢٨]. الله يذكر كلام القتيل ولا يذكر كلام القاتل.

الأخ يقتل أخيه

أشعل الشيطان قلب قابيل على أخيه هابيل ودله على الوسيلة التى يقتله بها ودله على حجرٍ يضرب به رأس أخيه. فما أن رأى هابيلَ قادماً حتى استدرجه، وكان قابيل أكثر قوة فى الجسم من شقيقه هابيل فوضع قابيل رأس أخيه على حجر وهوى بالحجر الآخر على رأسه فحطمه. . ومات هابيل. . . مات الأخ الطيب النفس قتله أخيه الأكبر قابيل ولفظ أنفاسه بين يديه. . .نظر قابيل لجثة هابيل وقال لنفسه هكذا ياقابيل. . قتلت أخاك. . . قتلت الطيب الصديق. . قتلت عف اللسان وقد استسلم بين يديك فى أمان وسلام ولم يُصدِّق أنك قاتله. . ويل لك ياقابيل. . كيف هان عليك أخيك دمه يجرى أمام عينيك وشقيقك أصبح جسده ساكناً هامداً. . قتلت أخيك ابن أمك وأبيك. . كيف بك أن ترتكب هذه الجريمة، فكانت أول جريمة من بنى آدم على الأرض.

رقص إبليس فرحاً وغنى طرباً وسمراً. فقد أفلح مع ابن آدم كما أفلح مع أبيه من قبل لقد سالت دماء بنى البشر على الأرض. ونجح فى أن يبذر بذرة الشر بين الأشقاء، فيسهل عليه بعد ذلك أن ينشرها بين الناس إلى يوم القيامة .

قابيل يتعلم من الغراب

حمل قابيل جسد شقيقه وحار فى أمره. . .ماذا يفعل بهذا الجسد؟ ماذا يقول لأبيه آدم وأمه حواء ماذا يقول لشقيقته؟ لقد خرجا معاً وهو يعود وحده. . وهل يعود بجثة شقيقه

المضرجة فى الدماء [١]

وفجأة سمع صرخة شؤم كبيرة وإذا بغرابان يقتتلان وقتل أحدهما الآخر وصرخ بعد قتله وأرقد الغراب القاتل الغراب المقتول على ظهره وسوى جناحيه وبدأ بمنقاره ومخالبه حفر الأرض إلى أن أكمل حفرة تسع الغراب المقتول. ثم حمله بمنقاره ووضعه فى الحفرة وأهال التراب عليه وصرخ وطار بجناحيه فى الهواء وهو يصرخ.

قال قابيل ما أوضحه الله لنا فى كتابه الكريم ﴿ **قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٣١]

قام قابيل ينبش الأرض بأظفاره وحفر لجثمان أخيه حفرة وضع جثمانه بها وغطاها بالتراب وهكذا نقص أبناء آدم واحداً وكسب الشيطان واحداً (بجبل قاسيون شمالى دمشق فى سوريا مغارة على شكل فم إنسان مفتوح يظهر فيها اللسان والفكين وبعض الدروس والأسنان ومتسعة لدخول إنسان بقامته. يقال أن هذا الجبل عندما شعر بهذه الجريمة النكراء إهتز وفتح هذا الفم يريد أن يلتهم قابيل وجاء جبريل عليه السلام ووضع إصبعيه أعلى الفك السفلى ومنعه من أن ينطبق عليه.. وقال للجبل ليكن حسابه مع الله. وظل هذا الفم مفتوحاً ليومنا هذا).. والله أعلم [٢].

وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه فعلقت ساقه إلى فخذه وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت تنكيلاً به وتفجيلا لذنبه وبغيه وحسده لأخيه من أبويه.

قال آدم عليه السلام حين علم بالجريمة وهو يتمزق ألما على المقتول كما ذكر الله عز وجل فى كتابه ﴿**قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ** ﴾ [القصص: ١٥] وصلى آدم على ابنه عند قبره قيل أن آدم ظل يبكى على ولده هابيل أربعين سنة.

وقيل أن آدم وحواء عندما عادا من حجهما وعلما بجريمة قابيل حزنا حزناً شديداً وظلت الأم تبكى على قبر ولدها كثيراً.

---

(١) ذكر بعض الرواه أنه لما قتله حمله على ظهره سنة وقال آخرون حمله مائة سنة..

(٢) شاهدت هذه المغارة فى برنامج تلفزيونى.

وقيل أن آدم عليه السلام عندما سأل قابيل عن أخيه رد عليه بجفاء وعندما اتهمه أبوه آدم بقتل أخيه قال قابيل وأين دماءه إن كنت قتلته وكانت الأرض وقتها قد اهتزت وشربت دماء هابيل.

عندها دعا سيدنا آدم وقال لعنة الله على الأرض التى تشرب الدماء ومن يومها ولا تشرب الأرض الدماء... ولكن تبقى عليها الدماء حتى تجف وقيل أن آدم دعى على ابنه قابيل فنطحه ثور من فوق جبل وسقط وتمزق جسده أشلاء.

ورواية أخرى: بأنه عندما وجد العداء حوله من كل جانب تزوج وهاجر إلى عدن وأصيب أحد أبناءه بالعمى وكان يسحبه ابن له وكان قابيل لا يحب أن يترك أحداً يمر به إلا ويقذفه بحجر ومر به ابنه وحفيده، فقال الحفيد لأبيه هذا جدى قابيل. فخاف الابن الأعمى على ابنه من أن يقذفه قابيل بحجر فرمى الأعمى حجراً طائشاً فقتل به أبيه قابيل فقال الولد لقد قتلت أباك قابيل فدفعه أبيه الأعمى فقتله وإن كانت هذه الرواية صحيحة وإن كان قابيل قد تزوج فهو بالقطع لم يتزوج أخته الجميله الحسناء قليما لأنها احتقرته لفعلته وجريمته النكراء والأب والأم رفضا أن يفوز القاتل بزيجته التى تمناها وقيل أن آدم وحواء عندما كانا فى البيت الحرام شعرا بأن الأرض قد اهتزت سبعة أيام وأن الطيور والحيوانات ابتعدت عنه بعد أن كانت قريبة منه مستأنسة بوجوده حتى الحيوانات المفترسة منها. ولاحظ فى رحلة عودته أن ثمار الأشجار بدأت تصاب بالتلف بعد أن كانت تبقى على حالها فترة طويله دون تلف وأن الطعام أيضاً بدأ فى التلف وقال لزوجته الحبيبة حواء إن هذا لا يحدث إلا بحدث جلل قد وقع فى غيابنا..

وكانت صدمتهما وفجيعتهما فى هابيل القتيل وفى قابيل قاتلة.

الله يخفف آلام آدم وحواء

تملك آدم وحواء حزن شديد ولم تعد الحياة كما كانت فى سعادتها المحدودة على الأرض رغم التعب والشقاء عليها. إلا أن الله قد من عليهما بحمل جديد أشرق له وجه حواء بنور جميل زادها جمالا على جمال وزادها حسنا حتى وضعت وكان الإبن هذه المرة آية من آيات الجمال وانتقل النور الذى كان على وجه حواء فترة حمله إلى وجهه

وتعجب آدم من جلال هذا الإبن السعيد وسماه شيث [١] وكان عمر آدم حين أنجبه مائتان وخمس وثلاثون عاماً. وأنس بمجيئه والداه ونسيا به حزنهما وألمهما على ابنهما هابيل.

وأوصى آدم ابنه (شيث) أنه حجة الله على خلقه وخليفته فى أرضه من بعده وظل (شيث) فى حياة والده دهراً طويلاً.. يعمل بوصية والده فى حياته ووالداه يرعياه بعناية ويسعد هو وحواء بنجاحه وطيبته وورعه وبره لوالديه وزاد نسل آدم وزوج شيث وأبنائه من بناته من بطون مختلفة كشريعة الله التى شرعها ليعمروا الأرض بنسلهم المبارك

وفــــــاة آدم ووصــــيته

كثر نسل آدم وحواء وانتشروا فى الأرض وكان آدم نعم الأب لهم فقد كان دائماً يوصيهم بتقوى الله ويحثهم على البعد عن مزالق الشيطان ودائما كانت قصة قتل قابيل لشقيقه هابيل من الدروس التى يعلمها لهم وكان يخص ولده (شيث) بقيادة أبنائه وأحفاده من بعده فهو الذى اختاره الله نبى من بعده.

وجاء على الأرض ليل هبت فيه الرياح بعنف وتساقطت أوراق شجرة عجوز كان قد غرسها آدم ومالت أغصانها منكفئة إلى الأرض وكأنها تبكى.. كانت الشجرة حزينة وأغصانها ترتعش.

وعلى ضوء.. تسلل إلى كوخ آدم البسيط وعلى فراش من أوراق الشجر رقد آدم ومن حوله أبناؤه وأحفاده. ويعلو وجهه الوضاء الجميل خلقه الخالق المبدع شحوبا ووهنا. وأبناؤه وأحفاده يشعرون بضعفه، وجلسوا فى انتظار وصيته..

وتحدث آدم وأوصى أبناؤه بتقوى الله وأن للنجاة من النار طريق واحد هى هدى الله. وطمأنهم بأن الله لن يتركهم وحدهم على الأرض. وإنما سيرسل من صلبه من أبنائهم وأحفادهم أنبياءه ورسله لهدايتهم وإنقاذهم وسيختلف الأنبياء فى الأسماء والصفات والمعجزات ولكنهم سيجمعون على شيء واحد لا خلاف فيه هي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) معنى اسم «شيث» هبة الله».

واشتهى آدم من ثمار الجنة فذهب بعضه فى طلبها.

وقرب ابنه (شيث) منه وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

بحث أبناء آدم عن ثمار الجنة دون جدوى. فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفان وحنوط ومعهم فؤوس ومساحى ومكاتل فقالوا لهم. يابنى آدم ما تريدون؟

قالوا أبونا مريض ويشتهى من ثمار الجنة، فقالوا لهم ارجعوا فقد قضى أبو كم فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم فقال: إليك عنى، فإنى إنما أتيت من قبلك فخلى بينى وبين ملائكة ربى عز وجل فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه [١] وحفروا له، وصلوا عليه، ثم أنزلوه فى قبره ثم حثوا عليه بالتراب. ثم قالوا يابنى آدم هذه سنتكم.

وروى ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ عن محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « **كبرت الملائكة على آدم أربعا، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً، وكبر عمر على أبى بكر أربعاً، وكبر صهيب على عمر أربعاً**» [٢]

مقدار عمره عليه السلام

وقد اختلف فى مقدار عمره عليه السلام، فقدمنا فى الحديث عن ابن عباس وأبى هريرة مرفوعاً أن عمره اكتتب فى اللوح المحفوظ ألف سنه. وهذا لا يعارضه ما فى التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثون سنة. لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذا خالف الحق الذى بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم. وإن كان كلامهم على مدة مقامه فى الأرض بعد الإهباط وذلك تسعمائة وثلاثون سنة شمسية وهى بالقمرية تسعمائة سبع وخمسون سنة ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه فى الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره فيكون الجميع ألف سنة. وقد ماتت حواء بعده بسنة واحدة.

---

(١) أي طيبوه بأعشاب طيبة الرائحة من الجنة.

(٢) إسناده ضعيف جداً. أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٩٦) وابن عساكر فى «التاريخ» (٢/ ٣٦٤) وابن عدى فى «الكامل» (٦/ ٢١٤١).

موضع دفنه

واختلفوا فى موضع دفنه فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند، وقيل بجبل أبى القيس بمكة المكرمة. ويقال: إن نوحا عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء فى تابوت فدفنهما ببيت المقدس. حكى ذلك ابن جرير.

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم. ورجلاه عند صخرة بيت المقدس.[١]

خلافة آدم فى الأرض

وقال عطاء الخرسانى: لما مات آدم بكت عليه الخلائق (كلها من أبنائه وأحفاده والطيور والحيوانات والزروع والأشجار وكل من هو حيى على الأرض) سبعة أيام[٢]. رواه ابن عساكر فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وكان نبياً بنص الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر مرفوعاً «أنه أنزل عليه خمسون صحيفة».

نقاط للمعرفة

١ - إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب الأرض الذى يحوى عناصرها الأساسية وألوانها الأحمر والأبيض والأسمر وبين ذلك ولذلك كان من نسل آدم من هذه الألوان ولكن من نفس عناصر تراب الأرض. ومنها العنصر الطيب والعنصر الخبيث وقال تعالى: ﴿ **قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥] وكثر نسل آدم وانتشر وعَمَّرَ فى الأرض وصار إلى قبائل ودول وعائلات وأقوام واختلفت اللغات التى يتحادثون بها وأقيمت الحدود وتسلحت القبائل والأقوام بالأسلحة الفتاكة ليقاتل الإنسان بعضه بعضاً. بل قامت الحروب الطاحنة والتى كان من نتائجها القتلى بالملايين والمشوهين أيضاً. ليس فقط الحروب ولكن استعبد الإنسان لأخيه الإنسان لمجرد اختلافه

---

(١) قلت: هذا أثر ضعيف الإسناد.

(٢) قلت: هذا أثر ضعيف الإسناد

في اللون. . فالأبيض يقتل الأحمر لإبادته والإستيلاء على الأرض والأبيض يخطف الأسود ويبيعه عبداً له حق الملكية عليه وله الحق حتى فى قتله ونسى أنهما من أصل واحد من آدم وآدم من تراب.

ولما عم الظلم فى الأرض بين الإنسان وأخيه الإنسان اختار الله من البشر أنبياء ورسل ليضعوا فى الأرض دستوراً سماوياً ينظم حياتهم ويوقف العداوة بينهم منهم من آمن بالأنبياء والرسل ومنهم من كذبهم وآذاهم بل وقتلهم رغم أن الله أيدهم بمعجزاته. ونسى الإنسان أصله.

نسي الطين المسوم أنه طين فصار تيها وعربدا

وظل الإنسان عجولاً فى حياته على الأرض. ومن رحمة الله بعباده من البشر توالى تكليفه الأنبياء والرسل.

وقد روى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال ﷺ: « **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا**». قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال ﷺ: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير**». قلت يا رسول الله من كان أولهم؟ قال ﷺ: «**آدم**». قلت: يا رسول الله نبى مرسل. قال ﷺ: « **نعم خلقه الله بيده. ثم يفتح فيه روحه ثم سواه قبلا**» (١).

*****

(١) ضعيف جداً. رواه ابن حبان (٣٦١ ـ إحسان) وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٦٦ ـ ١٦٨) وفى سنده إبراهيم بن هشام بن يحيى الدمشقى.

* قال أبو حاتم كذاب كما فى الجرح والتعديل (٢/ ١٤٢) وقال الذهبى: متروك، وكذبه أبو زرعه كما فى «ميزان الإعتدال» (١/ ٧٣ ، ٤/ ٣٧٨).

قصة شيث عليه السلام

شيث بن آدم وأمه حواء. ثانى الأنبياء بعد آدم وأول رسول بعد مصيبة آدم وحواء فى ولديهما هابيل القتيل وقابيل القاتل وأسماه (شيث) ومعناه هبة الله.

وكان عمر آدم وقت مولد شيث مئتان وخمس وثلاثون عاماً. أى أن شيث عليه السلام عاش مع أبيه يتعلم منه ويعاونه سبعمائة وستون عاماً قبل أن يموت آدم عليه السلام.

وأوحى إلى آدم عليه السلام من الله بأن شيث هو خليفة الله فى الأرض بعد آدم وأنه نبى قومه.

زاد نسل آدم كثيراً بعد شيث وانتشروا فى الأرض يعمروها واهتم آدم بتعليم شيث كل ما تعلمه من الله سبحانه وتعالى من أسماء ومعرفة ووصاه بنسله خيراً. وبعد رحيل آدم.. حمل شيث المسئولية.. مسئولية إخوته وأبنائهم وأحفادهم وأبناء شيث وأحفاده فقد كثر عددهم.

فيقول المؤرخون أن آدم عليه السلام عاش حتى رأى من نسله أربعمائة ألف من بنيه وأحفاده. والله أعلم

غير ما زاد على ذلك من بعده. فأراد الله أن ينظم العلاقات الإنسانية بين بنى البشر بعد أن زادت أعدادهم وزاد انتشارهم فى الأرض وبدأت تتشابك مصالحهم فحمل الروح الأمين جبريل صحيفة إلى نبى الله شيث وقد بلغه فيها أنه رسول الله إلى بنى البشر وتعددت الصحف التى أنزلت عليه من رب العزة إلى أن وصلت إلى خمسون صحيفة.

أخرج الطبرانى فى تاريخه عن أبى ذر مرفوعاً «أنه نزل عليه خمسون صحيفة» فلما حانت وفاته أوصى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده. ثم بعده ولده قينان ثم بعده ابنه وهلابيل، وهو الذى يزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة [1] وأنه أول من

---

(١) أخرجه الطبرانى فى «التاريخ» :(١/ ١٥٣).

قطع الأشجار وبنى المدائن والحصون، وأنه هو الذى بنى مدينة بابل ومدينة السوس الأقصى، وأنه قهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها وأنه قتل خلقاً من مردة الجن والغيلان وكان له تاج عظيم وكان يخطب الناس، ودامت دولته أربعين سنة. فلما مات قام بالأمر بعده ولده يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده خنوخ وهو إدريس عليه السلام على المشهور.

*****

قصة إدريس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة، والصديقية، وهو أخنوخ هذاوهو فى عمود نسب رسول الله ﷺ على ماذكره غير واحد من علماء النسب وكان ثالث بنى آدم من الأنبياء بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وإذا كان للأنبياء والرسل جنسية كما فى زماننا هذا. لقلنا أنها تعنى الأرض التى ولد عليها وعاش عليها.

وماذا نفعل فى جنسية سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام.

فالإنسان من أصل واحد هو آدم عليه السلام والأرض لله جميعاً. وإن كنا نتصور أن زيادة نسل أبونا آدم عليه السلام وانتشار أبنائه (أجدادنا) فى الأرض سعيا للرزق والاستقرار بجانب مصادر المياه وزراعة الأرض التى تصلح للزراعة لقلنا أن إدريس عليه السلام مصرى الجنسية. (وإن كانت مصلحة الجوازات) لم تكن قد نشأت بعد. فقد نشأ فى مصر وعاش على أرضها ومات فيها.

نسبه (يلاحظ القارئ أننا بدأنا ذكر الأنساب. مع أنه لم يمض وقت طويل على تشعب ذرية أدم عليه السلام) آعنى بكلامى أنه بدأت الفروع تتباعد فى الآرض وبدآ من التاريخ البعيد تعلق بنى البشر فى أصولها رغم أن الأصل واحد هو آدم وآدم من تراب. وإدريس هو أخنوخ بن يرد بن مهاليل بن فينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليهم السلام وقد ذكر ابن إسحاق أنه أدرك من عمر جده آدم عليه السلام ثلاثمائة سنة وثمانى سنين.

وذكر ابن اسحاق أيضاً: أنه أول من خط بالقلم وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين. وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه فى حديث معاوية بن الحكم السلمى لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال «**إنه كان نبى يخط به فمن**

وافق خطه فذاك» (١)

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام: إنه أول من تكلم عن الكتابه، ويسمونه هرمس الهرامسة.

إن النبى إدريس كان أول من خط الكتابة وعلمها للناس ويقال أنه تعلمها من أبوه يرد ولكنه علمها للناس. ويقال عنه أيضا أنه أول من خاط الملابس بيده وعلمها للناس بعد أن كانوا يضعون جلود الحيوانات والصوف المغزول من وبرها حول الإنسان دون خياطه. ويقال أيضاً أنه برع فى الطب وكان يعالج الناس بالأعشاب وكان يعرف مواقع النجوم وأسمائها وكان يتوقع حالة الطقس.

فيمن بعث إدريس عليه السلام؟

بعث فى قوم قابيل قاتل أخيه هابيل. فقد كان نسل القاتل فاسداً قيل أنهم ارتدوا عن عبادة الله الواحد الأحد وأنهم أول من عبد النار وقيل أنهم كانوا يعبدون الأصنام وكانوا يمارسون السحر والدجل فى حياتهم والفاحشة ولأن الفساد ينتشر بين الناس أسرع من انتشار الخير.

وقد نزل الروح الأمين على إدريس بالهداية لقومه ومنع الفساد بينهم والتمسك بالصحف التى أنزلها الله على رسوله شيث. وزيد عليها بثلاثون صحيفة.

وقد حارب قوم قابيل وهذمهم وأخذ منهم أسرى وسبى منهم واتخذ منهم عبيداً وإماءاً. وقد كانت أرض مصر وقتها أرض الترحال إليها لخير نهر النيل فيها هى وأرض الفرات بالعراق. ونشأت حولهما حضارات عظيمة.

وكان النبى الرسول شيث عليه السلام جد إدريس قد جاء إلى مصر وكانت مصر تعرف فى ذلك الوقت باسم (باب لون) وجاء معه من قومه الكثير ومن نسل قابيل أيضا.

فسكن قوم قابيل السهول والوديان وسكن قوم شيث الهضاب والجبال ونبغ إدريس

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم فى (المساجد، ح/ ٣٣) وأبو داود فى (الاستفتاح، باب ٣٥) وأحمد (٢/ ٣٩٤).

من صغره فى أعمال كثيرة ودار الزمن دورته فأصبح على ملك مصر أحد أبناء قابيل ويدعى (محويل).

وجاء الوحى بنبوة إدريس وبدأ فى دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد وبالطبع لم يعجب ذلك الملك محويل فرفض هذه الدعوة وحاربها وأراد قتل النبى إدريس ولكن الله حفظه وسعى النبى إدريس إلى الوديان والسهول وطاف بلدان عديدة يحمل رسالة الخير والهداية للناس ويدعوهم لعبادة الله الواحد.

وقد آمن بدعوته الكثير من الملوك والرعايا وقد طاف بلدان عديدة حتى قيل عنه أنه طاف الأرض كلها وأيده الله بمعجزاته التى تساعد فى ترحاله وتبليغ دعوته التى كان يدعو فيها إلى الطهارة والصلاة والصيام والبعد عن عبادة الأصنام وأعمال السحر والشعوذة والبعد عن الفواحش وقد ساعد على بناء العديد من المدن فى الأراضى التى حل بها.

وعاد إلى مصر بعد أن بلَّغ رسالته وقد وجد أن الملك محويل قد مات وجاء من بعده آخر آمن بدعوة إدريس وأنزله منه منزلة عالية وأصبح ينفذ ما يأمره به إدريس عليه السلام. وبدأ إدريس عليه السلام فى أعمال تفيد البلاد ولاحظ غرق أرض مصر وقت الفيضان وهروب الناس إلى الأرض المرتفعة. فانتظر إلى أن انتهى الفيضان وهبط إلى وادى النيل وقاس المقاييس وقام ومعه نفر بتهذيب مجرى نهر النيل حتى يسير فى مجرى منتظم. وكان بذلك رائداً من رواد البحث فى أمور مجرى نهر النيل العظيم.

ويقول البعض أن النبى إدريس عليه السلام قد تولى ملك مصر وأطلق عليه اسم هُرْمُسَ «المثلث» ومعناها أنه جمع بين الملك والحكمة والنبوة ويقال أيضاً أنه استطاع أن يحول الرصاص إلى ذهب.

وقد ذكر بعض العلماء أنه تزوج من امرأة إسمها (إدَّانهُ) بنت ياويل ابن محويل بن خنوخ بن فاين بن آدم وأنجب منها ولداً أسماه (متوشلخ) وقد استخلف إدريس ابنه على أهله وأوصاه بهم خيراً وحذرهم من الاختلاط بأبناء قابيل.

مقابلته للرسول محمد عليه الصلاة والسلام

من قوله تعالى ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾

ماثبت فى الصحيحين فى حديث الإسراء [١] أن رسول الله ﷺ مر به وهو فى السماء الرابعة.

وقول ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾. قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففى هذا نظر وإن أراد أنه رفع حيا إلى السماء ثم قبض هناك فلا ينافى ما تقدم عن كعب الأحبار والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس فى قوله ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك. والحديث المتفق عليه من أنه فى السماء الرابعة أصبح وهو قول مجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصرى : ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾ قال: إلى الجنة. وقال قائلون: رفع فى حياة أبيه يرد بن مهلابيل والله تعالى أعلم. وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح بل فى زمان بنى إسرائيل.

قال البخارى: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس. واستأنسوا على ذلك بما جاء عن الزهرى عن أنس فى الإسراء أنه لما مر به عليه السلام قال له:

(مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح) [٢] ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم مرحباً بالنبى الصالح والإبن الصالح. قالوا. فلو كان فى عمود نسبه لقال له كما قالا له.

وهذا قد لايكون الراوي قد حفظه جيداً أو لعله قد قاله له على سبيل الهضم والتواضع.

يقول بعض المفسرين عن تفسير الآيتين المذكورتين فى سورة مريم قوله تعالى ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا﴾ [آية ٥٦] ﴿ورفعناه مكانا عليا﴾ [آية: ٥٧] أى أذكر يامحمد فى الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازما للصدق فى جميع أحواله، موحى إليه من الله.

---

(١) انظر: قصة الإسراء والمعراج من البداية والنهاية.

(٢) اسناده ضعيف. أخرجه ابن عساكر (٣/ ٣٣٥، ١٠/ ٤١٦) ومختصر العلو (٨٨).

قال المفسرون: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خط بالقلم وأول من لبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أى رفعنا ذكره وأعلينا قدره، بشرف النبوة والزلفى عند الله ويقول الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله فى الظلال:

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس. ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم وليس من أنبياء بنى إسرائيل لأنه لم يذكر فى كتبهم. والقرآن يصفه بأنه كان صديقاً نبياً ويسجل له أن الله رفعه مكاناً علياً. فأعلى قدره ورفع ذكره (١).

ويقول الإمام سيد قطب رحمة الله عليه: وعلى أية حال فنحن نكتفى بما جاء عنه فى القرآن الكريم، ونرجح أنه سابق على أنبياء بنى إسرائيل.

وهكذا عزيزى القارئ لم أترك كتاب أو تفسيراً تكلم عن نبى الله إدريس عليه السلام إلا وسجلته لك. بل أن بعض الكتب التى صدرت فى مجال قصص الأنبياء لم يذكر فيها عنه شيئ. وأترك لك عزيزى القارئ أن تختار وتستفتى عقلك وقلبك ففى هذه القصة ركائز اجتمع عليها الكثير ومازاد عنها قد ذكرته لك والله تعالى أعلم.

*****

(١) وهناك رأى نذكره لمجرد الإستئناس به ولا نقرره أو ننفيه، يقول به بعض الباحثين فى الآثار المصرية القديمه، وهو أن إدريس تعريب لكلمة (أوزوريس) المصرية القديمة. كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا وكلمة اليسع تعريب لكلمة اليشع. . وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة. فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم. وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق بأوزوريس الذى جعلوه إلهاً لهم. وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء.

قصة نوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متشولخ بن أخنوخ وهو (أخنوخ هو إدريس) بن يرد بن مهلابيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام. وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرون. فيما ذكره ابن جرير وغيره.

لاحظ عزيزى القارى: أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل من الأنبياء آدم وشيث وخنوخ (إدريس).

وشيث قد عاش مع أبوه آدم سبعمائة وخمس وستون سنة وخنوخ (إدريس) قد أدرك من عمر جده آدم ثلاثمائة سنة وثمانى سنين، كما سبق أن ذكرنا ونحن الآن بصدد قصة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وستة وعشرون. وقيل بمائة سنة وستة وأربعون أى أن مولده كان فى حياة إدريس عليه السلام وربما أيضا شيث عليه السلام وقيل أنه جاء بعد آدم عليه السلام بعشرة قرون، . واختلفوا فى تحديد القرن أهو مائة سنة أم المقصود بالقرون هم البشر من بنى آدم فقد كانوا يعمرون طويلا وذكر الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾

[الإسراء: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤].

وإذا كان االمقصود بالقرون هو بنى آدم وتعاقبهم كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة وقوله الفصل. فهي أيضا تعنى لنا الأزمان لأنهم كانوا يعمرون طويلا.

ولكن إذا راجعنا عامود النسب لوجدنا أن بين مولد سيدنا نوح وجده آدم عليهما السلام من آباء وأجداد ثمانية غير آدم وتداخلهم فى أعمارهم فلا نجد رغم أعمارهم الطويلة فاصلا زمنياً كبيراً وذلك من رحمة الله بالبشر. كلما وجد منهم انحرافاً عن

عبادته أرسل فيهم نبياً يرشدهم ويعيدهم إلى طريق الهداية وعبادة الله الواحد.

وقد ذكرنا أن أعداد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر. كحديث الرسول محمد ﷺ. المذكور فى آخر قصة آدم عليه السلام رغم ضعفه.

ورد فى شأن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام أن ذكره الله تعالى فى العديد من سور القرآن الكريم، وذكر فيها قصته حكاية لرسول الله محمد ﷺ.

إبليس يمارس غوايته لبنى آدم

عاد إبليس يمارس هو وأعوانه غوايتهم للبشر والبعد بهم عن عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وبعد وفاة إدريس عليه السلام زاد الفساد وانتشر بين الناس وعم الظلم وظهرت على الأرض لأول مرة عبادة الأصنام.

فكان من بنى آدم رجال صالحون يدعون إلى الخير والمحبة والمودة بين زويهم من البشر ويدعون إلى صالح الأعمال. وكان يقال لهم [ود] و[سواع] و[يغوث] و[يعوق] و[نسرا] وكان كل منهم يتسم بمكارم الأخلاق ويتمسك بطاعة الله فى من حوله من بنى آدم معيناً ومعاوناً ومحباً وناصحاً وكان لكل منهم صفاته الحميدة التى تجعل من حوله يحبونه ويحترمونه

توالى رحيل الرجال الخمسة الصالحون عن الدنيا وعادت أرواحهم فى أمان إلى صاحب الأمانة التى استودعتها أجسادهم.

وتوالى بكاء الناس ولوعتهم لفراق الرجال الصالحين الواحد تلو الآخر ووجدها إبليس فرصة له فوسوس هو وأعوانه من الشياطين أنه يجب على بنى البشر ألا يتركوا رحيل كل من الرجال الصالحين دون ذكرى لهم حتى لا ينسوهم وينسوا أعمالهم الطيبة.

ووسوس إليهم أن يجب عليهم أن يصنعوا تماثيل فيها ملامحهم الطيبة ويضعوها فى أماكن عباداتهم حتى يحيوهم ويدعون لهم أثناء عبادتهم وظهر لهم فى صورة بشر وساعد فى عمل هذه التماثيل. وفرح الناس بهذه الفكرة وجاءت التماثيل مطابقة لأوصاف كل منهم. وكلما دخلوا للعبادة حيوا هذه التماثيل قبل عبادتهم.

عبادة الأصنام

وتحركت عجلة الزمن ومات من مات وجاءت بعدهم أجيال انتشر بينهم الفساد وكان لذرية قابيل دورهم البارز فى نشر هذا الفساد وجاءت فرصة الشيطان إبليس ووسوس إلى الناس. . ماذا تعبدون؟ لم يجيبوا قال اعبدوا ما عبد آباؤكم وأجدادكم. . كانوا يعبدون هذه التماثيل ويحتفون بها ويقدمون إليها القرابين وهى تمنحهم الخير والنماء ومنهم من يسير السحاب وينزل المطر ومنهم من يخصب الأرض ويخصب النبات والحيوان ومنهم من يسعد الإنسان ويزيد ذريته.

فرح الناس وجنح الكثير منهم إلى هذه العبادة التى كانت غائبة عنهم فأقاموا لها الأعياد وقدموا لها القرابين والنذور وسموا كل منها بإسمه الذى دلهم عليه بعض الرواة منهم المعمرين وأرشدهم معهم إبليس ومعاونيه. بل لم يكتفوا بذلك بل دفعهم الشيطان إلى عمل نماذج من هذه التماثيل من الأحجار والأخشاب ووضعوها فى بيوتهم تبركاً وعبدوها من دون الله.

وإذا انتشرت عبادة الإنسان لما صنعه بيديه من حجر أوخشب وترك عبادة الله الواحد القهار.

ماذا تكون حال البشر غير الجهل والغباء والقهر والظلم بينهم فالغنى يقهر الفقير والقوى يغتال الضعيف ويستبد به ويستعبده. لأن لاراد لما يفعلون وتنكسر النفس البشرية ولا ملاذ لها لأن عبادتهم أصبحت لتماثيل بشر لا تنفع ولا تضر.

وقال الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤] .

وبعد الناس عن فطرتهم التى خلقهم الله عليها وصوروا لأنفسهم آلهة من صنع أيديهم ظناً منهم أن لها سلطان عليهم وأنها تحميهم وتمنحهم.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

رســالة نــــوح

يقال أن نوح قد بعث فى أرض الهند مهبط آدم عليه السلام من الجنة حيث كان يعيش جمع من ذرية آدم. يقال لهم بنى راسب وجد نوح نفسه بين قوم ضلوا طريق العبادة لله وتمسكوا بجهلهم بعبادة تماثيل من صنع بشر قبلهم فتلوثت عقولهم بالضلال والجهل وخلت قلوبهم من الرحمة.

أخــلاقــه وسجــايـاه

هيأ الله نوح لرسالته فكانت نشأته صالحة وسيرته حميدة بين الناس واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث فقيل: كان خمسين سنة وقيل: ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة. حكاها ابن جرير، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس.

نصحــه لقومـــه

وكان نوح على الفطرة مؤمناً بالله تعالى.. قبل بعثه إلى الناس وكان فى شئون حياته دائم الشكر لله ويحمده ويذكر نعمته عليه ويعاود الشكر وقال تعالى عن نبيه نوح ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣]

أوحى الله إلى عبده نوح أن يدعو أهله لعبادة الله ويتركوا عبادة الأصنام وبدأ نوح فى دعوته وحذرهم من عذاب الله وقال لهم قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩] لمست دعوة نوح الفقراء والمستضعفين فى الأرض ووجدوا دعوته ملاذا لهم وأنها تسوى بين الناس فى عبادة إله واحد خالق كل شيء. وكما لمست قلوب وعقول البعض فإن البعض الآخر قد ركبه الكبر والغرور وقال رؤساء القوم الذين تمسكوا بالعناد وكفروا بما يقول.

مجــادلتهم وعنادهم

وقالوا له يانوح إنما أنت بشر مثلنا. لم يقل لهم نوح غير ذلك ﴿فقال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قوْمه ما نراك إلاَّ بشراً مثْلنا﴾ [هود: ٢٧] لم يجد نوح منهم إلا الغرور والاستكبار وعدم الإستماع إلى مايقول قال لهم: ﴿ اسْتغْفرُوا ربَّكُمْ إنَّهُ كان غفَّاراً (١٠) يُرْسل السَّماء عليْكُم مدْراراً (١١) ويُمْددْكُم بأمْوالٍ وبنين ويجْعل لَّكُمْ جنَّاتٍ ويجْعل لَّكُمْ

أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

لم يترك نوح طريقاً لهدايتهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام إلا سلكه خاطب عقولهم وأفئدتهم قال لهم قول الحق فى كتابه: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٣ ـ ٢٠]. كل ذلك لعلهم يتذكرون نعم الله عليهم لعلهم يهتدون ولكنهم لم يزدادوا إلا عنادا وضلالا وكفرا. وبلغ منهم الكفر والعناد بأن كانوا يوصون أبنائهم بعدم اتباع دعوة نوح وكانت أجيالهم تتعاقب على الكفر والعناد: ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح:٢٧].

رغم طول ما مكث فيهم نوح من العمر يهديهم ويعيد النصح لهم وقد بين الله موقفهم منه: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٢٢ ـ ٢٤].

تطاولهم على نبى الله

لم ينتهى جدالهم وعنادهم عند هذا الحد بل بدأوا فى التطاول على نبى الله ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠].

ورد عليهم نوح بأدب الأنبياء وخلقهم العظيم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢].

ظل نوح فى قومه ألف سنه إلا خمسين ناصحاً لهم دون جدوى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]. كان نوح من الرسل أولى العزم الذين تحملوا العذاب من أهلهم وقومهم وعشيرتهم ولم يفتروا عن دعوتهم وظل على إخلاصه للدعوة التى كلفه الله بها ولم يهدأ ولم تلين عزيمته أبداً. وظل يوما بعد يوم وعاماً بعد عام يحاول معهم ويضرب لهم الأمثال دون جدوى كانوا يصمون

أسماعهم ويعمون أبصارهم عنه واستكبروا عن سماع ما يقول لهدايتهم وعودتهم إلى الصواب وعبادة الله. لمن يشكو نوح؟

شكـــوى نــــــوح

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

ياسبحان الله معاناة الأنبياء والرسل وشكواهم إلى الله تتشابه.

وانظر إلى شكوى رسولنا الكريم محمد ﷺ عندما ضاقت به السبل فى مكة واشتد أذى قريش له لمن أسلم معه فاتجه إلى الطائف سائراً على قدميه لعله يجد فى أهلها خيراً للإسلام وفرجاً فى انتشار الدعوة. ولم يلق منهم إلا الإيذاء والإستهزاء. فكانت شكواه إلى الله.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى. إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» [١].

وكان أن أرسل الله إليه الروح الأمين جبريل بالبراق ليسرى به إلى بيت المقدس ليؤم الأنبياء والرسل فى صلاة جامعة بالمسجد الأقصى. ويعرج به إلى السماء تكريما له على سائر الأنبياء والرسل. وتخفيفاً عن معاناته فى دعوته وأحزانه فى فقد زوجته خديجة

---

(١) إسناده صحيح. أخرجه الطبرانى فى «التاريخ» (٢/ ٣٤٥) وذكره السيوطى فى «جمع الجوامع» (٩٧٤٣) وابن كثير فى «البداية والنهاية» (٣/ ١٣٦).

رضى الله عنها وعمه أبو طالب. «فيما سمى بعام الأحزان».

نفس معاناة الأنبياء: اشتد أذى قوم نوح وسخريتهم وعنادهم له.

نـــوح عليه السلام يدعـــو على قومـــه

توجه نوح إلى الله قائلا: ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح: ٢٦, ٢٧].

الله يستجـــيب لدعائـــه

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٢٦, ٢٧].

نـــوح عليه السلام يصنع الفلك

حسم الأمر الله يصدر حكمه على الكافرين بالغرق. ويصدر أمره إلى نوح بأن يبدأ فى صنع الفلك (السفينة) [فى بلاد مصر الساحلية يقولون فلوكه ـ على السفينة الصغيرة أو مركب]. بتعليمات من الله وعلى مرآى منه وتوجيهاته ومساعدة الملائكة وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة، فغرسه، وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة سنة أخرى وقيل فى أربعين والله تعالى أعلم. وكانت من خشب الساج وقيل من الصنوبر.. بنص التوراة. واختلف العلماء فى أطوال السفينة وعرضها واتفقوا على ارتفاعها فمنهم من قال أن طولها ثمانين زراعاً وعرضها خمسين زراعاً ومنهم من قال أن طولها ثلاثمائة زراع وعرضها خمسين زراعاً وهذا الذى فى التوراة. [الزراع = ٩٠ سنتمتر] وقال الحسن البصرى ستمائة فى عرض ثلاثمائة، وقال بن عباس ألف ومئتا زراع فى عرض ستمائة زراع، وقيل: كان طولها ألفى زراع وعرضها مائة زراع.

واتفقوا كلهم على أن ارتفاعها كان ثلاثين زراعاً. وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أزرع. فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للناس والعليا للطيور، وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها وأمره الله أن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا (صدر) أزور يشق الماء. وكان نوح عليه السلام يعمل بحرفة

النجارة فساعده ذلك على العمل الذى كلفه الله سبحانه وتعالى به.

اختلاف العلماء فى طول السفينة وعرضها لا يغير من القصة شيء. لأن الله سبحانه لم يذكر لنا هذه التفاصيل لعدم أهميتها. فالمهم أنها سفينة كبيرة تسع لما صنعت له.

الكفار يهذأون من نوح

لم يترك الكفار نوح ومن آمن معه وهم يصنعون السفينة فى حالهم. بل كانوا كلما مروا عليه سخروا منه. ويتهكمون عليه ويتندرون فيما بينهم على صنعه لهذه السفينة الكبيرة فى هذا المكان البعيد عن أى شاطئ.

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود: ٣٨].

ويرد عليهم نوح

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨] واشتد عنادهم وإيذائهم له وسخريتهم منه ومن آمن معه.

علامات الطوفان

قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

الأمر بصعود السفينة

فهم نوح بما أوحى الله إليه أن حانت ساعة النجاة من القوم الكافرين فبدأ فى تنفيذ أمر الله بأن جمع مما على الأرض من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى من كافة الحيوانات والطيور ومن أهله من آمن منهم. فقد كانت زوجة نوح على الكفر ولم تركب السفينة وكان جبريل عليه السلام معه.

وقيل إن علامة الطوفان قد ظهرت فى بيت أحد أبناء نوح (سام) وكانت له زوجة اسمها رحمة وكانت تخبز الخبز فى تنور من حجر وبينما هى تهم بالانتهاء إذا بالماء يخرج من فتحة التنور. الماء يخرج من النار.

المتضادان: الماء تخرج من النار ولا تطفئها وتخرج الماء وهى تفور من حرارة النار.

عندئذ صاحت رحمة مكبرة قائلة: جاء ما وعد الله به نوح وعلامه النجاة من عذاب الكفار.

بداية الطوفان

اتجه الجميع إلى السفينة وركبوها وبدأت المياه من فتحات الأرض ومن السماء قال تعالى: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ** ﴾

[القمر: ١٠ ـ ١٣].

وبدأ الماء فى الارتفاع على الأرض وهرول الكفار إلى الأراضى العالية والتلال والجبال وزاد الهرج والمرج وارتفع الصراخ وزادت الأمطار وتفجرت المياه من فتحات الأرض والهلع والفزع فى كل مكان ولمح نوح ابنه يجرى فزعاً بين الناس وناداه وطلب منه أن يركب معه ورفض قائلاً سأصعد إلى جبل يحمينى قال تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

ضخامة الطوفان

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشر زراعاً وهو الذى عند أهل الكتاب وقيل: ثمانين زراعاً وعم جميع الأرض طولها وعرضها سهلها وجبالها ورمالها وقفارها، ولم يبق على وجه الأرض صغيراً أو كبيرا إلا وقد غرق. حزن نوح على ابنه... ويقال أن هذا الإبن هو يام وقيل إسمه كنعان وكان كافرا عمل عملا غير صالح فخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك تحركت فى قلب ح عواطف الأبوه.

حزن نوح على ابنه

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

الله يرد على نوح

قال تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

نوح عليه السلام كان يظن أن ابنه من المؤمنين. ولكن بعض العلماء قالوا إن إبنه كان يظهر لأبيه الإيمان برسالته فى الظاهر وباطنه مع الكفار ولما نادى عليه أن يركب فى السفينة رفض وتعجب نوح لذلك. فكيف يؤمن به ويرفض ويتجه مع الكفار إلى الجبال. فهو لم يحزن على زوجته لأنه يعرف بكفرها. أما حالة ابنه فالواضح أنه خدعه بإظهار إيمانه له وإخفاء كفره عنه.

نوح يبدى ندمه إلى الله

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥].

اتجه نوح إلى ركاب السفينة وقال للمؤمنين.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]

وكان مع نوح من أبنائه سام، وحام، ويافث

وأبحرت السفينة فى مياه عاتية صاخبة كالجبال تحيط بها المياه من كل جانب ولا أثر لأى شاطئ حولهم وأسلم نوح أمره إلى الله لا يعرف أين تتجه السفينة ولا أين مرساها ولا من (دفه) توجهها إنما الله سبحانه الموجه لها قال تعالى : ﴿هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ [هود: ٤٢].

وقد اختلف العلماء فى عدد من كان فى السفينة فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار كانوا اثنتين وسبعين نفساً، وقيل كانوا عشرة وقيل إنما كانوا نوحاً وبنيه وأزواجهم الثلاثة وزوجة ابنه يام الذى كفر وهلك مع المجرمين.

وأى ما كان العدد بالنسبة لكل من هلك على الأرض فهو قليل واستمرت السفينة فى الإبحار لا يعلم هداها إلا الله .

قال تعالى : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

ذرية نوح

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم» [(١)].

والمراد بالروم هنا هم اليونان المتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: «ولد نوح ثلاثة سام، ويافث ، وحام وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سام [العرب، وفارس، والروم]. وولد يافث [الترك، والثقالبة، ويأجوج ومأجوج]. وولدحام [القبط، والسودان، والبربر]».

وقيل أن من كان مع نوح فى السفينة من غير أولاده الثلاثة سام ويافث وحام لم يجعل الله منهم نسلاً فلم ينجب غير أبناء نوح الثلاثة فقط. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾.

السفينة وطوافها حول الكعبة

يقال أن نوح عليه السلام كان قد أخذ جثمان آدم عليه السلام معه فى السفينة وأنه فصل به بين الرجال والنساء لطوله الفارع كما ذكرنا (ستون زراع) وروى علْباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوماً وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً. ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه، فبعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة.

---

(١) اسناده ضعيف. أخرجه الترمذى (ح/ ٣٢٣، ٣٩٣١) وأحمد (٥/ ٩، ١١) والطبرانى (٧/ ٢٥٤، ١٨/ ١٤٦) وضعفه الشيخ الألبانى. انظر: «ضعيف الترمذى» (ح/ ٦٣٥، ٨٢٦).

توقف الطوفان

قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

عادت الحمامة تحمل فى منقارها بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين. فكانت البشرى لنبى الله نوح ومن معه بأن السفينة بدأت تستقر على أحد الجبال، وأوحى الله إلى نبيه قائلاً : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٥٣].

فهبط نوح ومن معه إلى أسفل الجودى، فابتنى قرية، وسماها ثمانين، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللغة العربية، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم فيما بينهم.

وهبوط نوح من السفينة أشبه بهبوط آدم من الجنة فكلاهما لهدف تعمير الأرض من ذريته مع الفارق.

نوح وذريته يعمرون الأرض

نفذ نوح أمر ربه وهبط من السفينة ومن معه وانتقى من الطيور أفضلها ومن الدواب الحلال أملحها وذبحها قرباناً لله عز وجل وسجدوا لله شكراً على نجاتهم من القوم الكافرين.

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله أوحى إلى نوح أن عهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض. وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام ذى الألوان الذى يقال له خطأ قوس (قزح) والصح أنه قوس الله.

لأن قزح إسم شيطان كبير والمذكور عن ابن عباس أنه أمان من الغرق.

قال بعضهم: فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر أى أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة.

هبط نوح وأبنائه وزوجات أبنائه ومن معهم من المؤمنين وهبطت الطيور والحيوانات

ليتكاثروا فى الأرض وكانت إرادة الله ألا ينجب ممن نجا من المؤمنين إلا أبناء نوح. وكانت إرادة الله أن يكون عمار الأرض من نسلهم الطيب وفى حديث ينتهى نسبه إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«ولد لنوح سام، وحام، ويافث. فولد لسام العرب، وفارس، والروم، والخير فيهم.. وولد ليافث: يأجوج ومأجوج والترك والقالية ولا خير فيهم. وولد لحام القبط، والبربر، والسودان»** (١).

وقيل أن أهل الكتاب قالوا: مذكور فى التوراة أن مدة الطوفان من بدأه إلى هبوط نوح من السفينة سنة كاملة.

خلق نوح

قال الله تعالى ﴿ **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء: ٣]

قيل: أنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

قال رسول الله ﷺ **«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربه فيحمده عليها»** (٢).

صومه عليه السلام

قال رسول الله ﷺ **«صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى وصام داود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر: صام الدهر وأفطر الدهر»** (٣).

وصيته لولده عليه السلام

لما شعر نوح بدنو أجله دعى ابنه ليوصيه:

قال رسول الله ﷺ : **«إن نبى الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه إنى قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين السبع لووضعت فى كفه ووضعت لا إله إلا الله فى كفه رجحت بهن**

---

(١) اسناده ضعيف. أخرجه الطبرانى فى «الكبير» (٨/ ١٤٦) وابن عدي فى «الكامل» (٧/ ٢٧٢٥).

(٢) صحيح. أخرجه مسلم فى «الدعاء ح/ ٨٩» والترمذى (ح/ ١٨١٦) وأحمد (٣/ ١٠٠، ١١٧).

(٣) اسناده صحيح. ذكر الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٤/ ٢١٩) والزبيدى فى «اتحاف السادة» (٨/ ٣٤٢).

لا إله إلا الله. ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر» [(١)].

عمر نـــــوح

يتصور أغلب الناس أن نوح عليه السلام قد كان عمره تسعمائة وخمسون سنة وهذا خطأ شائع بينهم.

إذ أن القرآن الكريم ينبئنا بأن نوح مكث فى قومه بعد البعثة (التكليف من الله) بالرساله. وقبل الطوفان هذه المدة (ألف سنة إلا خمسين عاماً).

والله وحده أعلم كم عاش قبل البعثة وبعد الطوفان.

فإن كان ما ذكر عن ابن عباس من أنه بعث وعمره أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، فيكون قد عاش على هذا ألف وسبعائة وثمانين سنة.

قـــــبره

قيل أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام بمكة المكرمة. وهذا على الأرجح والبعض قال أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم: بكرك نوح، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك. والله تعالى أعلم.

*****

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم فى (الذكر، ح/ ٨٩) والترمذى (ح/١٨١٦) وأحمد (٣/ ١٠٠، ١١٧).

قصة هود عليه السلام

علمنا عزيزى القارىء فى آخر قصة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام.

أن الطوفان قد أهلك من على الأرض من البشر إلا من نجا مع نوح فى السفينة وأن الله لم يجعل من المؤمنين الذين نجوا معه نسلا إلا من أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه سام وحام ويافث.

وقد شبهت هبوط نوح من السفينة إلى الأرض. بهبوط آدم من الجنة مع الفارق فقد كان آدم أبو البشر أول الخلق من بنى الإنسان ولم يكن قبله غيره. وكان أول من عمر فى الأرض.

وهبوط نوح من السفينة وكان ومن معه أول من هبط على الأرض بعد الطوفان وفناء كل من كان عليها غرقاً. أيضاً بهدف أن يعمروا فى الأرض. وبدأ أبناء نوح الثلاث فى التناسل وزادت الأرض عمرانا بهم.

لم يهبط نوح عليه السلام ومن آمن معه من البشر ومن الطيور والحيوانات ما أمره الله به فقط ولكن أيضا ركب معهم الشيطان وقيل أنه ركب متعلقاً بذنب حمار.

لم يترك إبليس من هبط من السفينة من المؤمنين على حالهم بل مارس وسوسته لهم ولمن جاء بعدهم من أحفاد نوح عليه السلام.

إن كان كل من نجا مع نوح من المؤمنين فماذا يفعل إبليس معهم. فلينتظر أبناءهم وأحفادهم وأجيالهم المتعاقبة.

ووجد الشيطان ضالته فى قبيلة من العرب يقال لهم عاد وهم ينتسبون إلى عاد بن عوض بن سام بن نوح. (وهم عاد الأولى) أول من عبد الأصنام بعد قوم نوح وكانوا يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث.

وكانت هذه القبيلة من ذوات الأجسام الضخمة القوية ولم يكن فى زمانهم أحد فى

قوتهم ولا فى طولهم العملاق وكانوا يقيمون فى بيوت ضخمة لها أعمدة صلبة شاهقة الإرتفاع وكانوا رغم هذه الضخامة والقوة فارغى العقول ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

[فصلت: ١٥].

واغتر هؤلاء القوم بقوتهم وكانوا لا يبصرون غير كبريائهم الكافرة وظنوا أنهم لا يستطيع أحد أن يقهرهم وعبدوا الأصنام ودافعوا عنها وقاتلوا من أجلها ونسوا ما حاق بقوم نوح لما عبدوا أصنامهم التى سموها بأسماء أسلافهم من وسوس لهم الشيطان بهم تخليداً لزكراهم [ود ـ وسواع ـ ويغوث ـ ويعوق ونسرا].

وكانت لهم أصنامهم التى أسموها [صداً، وصموداً، وهراً].

وقد كان أهل عاد أهل ذرع وضرع وعمروا فى البلاد وأزلوا العباد بقوتهم التى منحها الله لهم فى أجسامهم. . . ويقال أن طول الرجل منهم سبعين زراعاً.

قال تعالى عنهم على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ـ ١٣٥].

رغم الخير الذى منحهم الله والقوة فى أجسادهم نسوا أن الله هو المانح وأن الله هو القوى. فصموا آذانهم وعموا أبصارهم وظلوا على عبادة أصنامهم التى صنعوها بأيديهم.

وأقاموا حضارتهم وبيوتهم ذات الأعمدة العملاقة. . . ويقول الدكتور والعالم الجيولوجى والإسلامى المعاصر الدكتور زغلول النجار: « أن إحدى مركبات الفضاء الأمريكية وهى تقوم بأبحاثها لاحظ العلماء وجود آثار لبحيرة جافة من الماء فى أرض الأحقاف مطمورة بالرمال.

وفى رحلة تالية زودوا المركبة بتلسكوبات وأجهزة متطورة تصور فى أعماق بعيدة تحت الرمال وهالهم ما رأوا على أعماق كبيرة من الرمال أعمدة عملاقة لم ير الإنسان فى ضخامتها وارتفاعها مثيلاً حتى الآن» قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ

ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

واغتر قوم عاد بما صنعوا وظلوا على عنادهم يعبدون أصنامهم الثلاث [صداً ـ وصموداً ـ وهراً] ونسوا وصية أبيهم نوح عليه السلام ونسوا ما حدث لقومه عُباد الأصنام واستسلموا لوسوسة الشيطان.

فأرسل الله إليهم نبيه هود عليه الصلاة والسلام وهو: هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن أرم بن سام بن نوح وهو أول الأنبياء والرسل من العرب ويقال أنه أول من تكلم العربية.

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء المرسلين قال فيه: « **منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أباذر** » (١).

بدأ هود عليه السلام دعوته لقومه لعبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام.

قال تعالى: **﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾** [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢].

نفس ما حدث للأنبياء من قبله وتكاد تتطابق نفس العبارات... ما بين دعوة لعبادة الله الواحد ورفض من الكفار ترك عبادة آبائهم وأجدادهم ويطلبون منهم المعجزات الحسية ويرفضون تصديق وعيدهم بعذاب الله.

---

(١) اسناده ضعيف جداً.

وكعادة الأنبياء الذين حملوا رساله التوحيد. . . بخلق كريم وطول أناة وصبر جميل ظل هود عليه السلام ينذر قومه ويحزرهم بأس الله ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم: إذ زادهم فى الخلق بسطة وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأهم أرضاً تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذى يعيشون منه وتنبت الكلأ الذى ترعى فيه ماشيتهم، وأن عليهم أن يستعملوا عقولهم ليتبينوا أن ما يعبدون من دون الله لا يضرهم ولا ينفعهم. وأن الذى يضر وينفع هو الله تعالى الذى أغدق عليهم نعمه وهو الذى خلقكم ثم يميتكم ثم يبعثكم يوم القيامة لتحاسبوا على أفعالكم فى الدنيا كعادة الكفار كانوا يتهمونه بالكذب بل أشد من ذلك إتهموه بالسفه وبالجنون. وقالوا مستهزئين ما أنت إلا بشراً مثلنا.

قال لهم هود عليه الصلاة والسلام: أن الله عندما يرسل رسولا إلى قوم لابد أن يكون منهم يفهم أخلاقهم ويعرف لسانهم ليفهموا قوله ولأنه منهم يعرفون أخلاقه ويعرفون نشأته ويعرفون بصدقه: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣] أنذرهم هود بعذاب واقع إن لم يتركوا ما يعبدون ويعودوا إلى عبادة الله الواحد تحدوه بأن ينزل لهم هذا العذاب وقالوا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لما يأس هود منهم اتجه إلى الله بأن ينزل عليهم آية من آياته لعلهم يهتدون ويتعظون.

لم يهتموا بما قال بل اتهموه بأن أحد آلهتهم قد مسه بالجنون الذى أفقده صوابه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

بداية عقاب الله

منع الله عنهم الأمطار وجفت الأرض وكانت الشمس تلهب رمال الصحراء وأجساد قوم هود وجف الزرع والضرع وبدأت متاعبهم.

وهرع قوم هود إليه. . . سألوه عن هذا الجفاف الذى حاق بهم.

قال هود: أن الله غاضب عليكم، ولو آمنتم فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر

فيزيدكم خير وقوة إلى قوتكم. وسخر قوم هود منه وزادوا فى العناد والسخرية والكفر فزاد الجفاف ومات ما بقى من زرع وجف المرعى ولم يستجيبوا لدعوة هود بل اتجهوا إلى أصنامهم يطلبون منها أن تنزل المطر عليهم وتملأ آبارهم ووديانهم بالماء وقالوا متحدين هود فى أن يكون هناك بعث أو حساب: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ : ١٣٨].

قال لهم إن عذاب الله قريب وطلب من الله النصر﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩].

قال تعالى: ﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وفدهم إلى مكة

كانت عادة من ينزل به شدة من القبائل أن يذهب وفد منه إلى مكان البيت الحرام فى مكة المكرمة ليطوف حول ما بقى من أثره بعد طوفان نوح ويدعون الله أن يزيل عنهم هذه الشدة.

فأرسلوا وفداً من سبعين رجلا تحت إمرة رجل منهم يدعى قيل بن عنز بن لقيم وكانت مكة تحت إمرة رجل يقال له معاوية بن بكر وكانت أمه من قوم عاد فرحب بهم وأكرم ضيافتهم عنده شهراً يسقيهم الخمر وتغنى لهما جاريتان يقال لها الجرادتان. ونسوا ما جاءوا به. فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف فعمل شعراً يعرض لهم بالإنصراف وأمر الجاريتان أن تغنيهم به.

دعاؤهم إلى الله

فأدركوا وتذكروا ما جاءوا من أجله وخرجوا إلى جبال تهامة ودعى رئيسهم قيل بن عنز فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم إسق عاد مَا كنت تسقيه فمرت به سحابات ثلاث حمراء وبيضاء وسوداء فنودى من السماء اختر منها فأومأ إلى السحابة السوداء ظناً منه أنها تحمل الماء. فنودى منها خذها رماداً رمرداً لا تبقى من عاد أحدًا .

عاد الوفد إلى قبيلتهم يبشرونهم بالغيث واستجابة الله لهم وبالسحابة السوداء التى تحمل المطر إليهم. وبدأت تظهر السحابة السوداء قادمة من بعيد.

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها فهد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا فهد؟ قالت رأيت ريحاً فيها كشهب النَّار أمامها رجال يقودونها.

لم يصدقوها وظنوا أنها سحابة الغيث والخير وأخذوا يهللون ويصيحون ويرقصون وهم يقولون « **هذا عارض ممطرنا**».

فقال هود لهم ما أبلغه الله سبحانه وتعالى وحيا: ﴿ **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

عـــذاب الله واقـــع

اقتربت السحابة منها ريحاً عاتية بالغة الشدة لها أصوات مزمجرة صاعقة كأنها الوحوش الضارية. تقتلع كل شيء أمامها خيامهم أشجارهم أجسادهم الضخمة التى كانوا يفترون بقوتها. صاروا يتطايرون كأوراق الشجر والريح تحملهم وتقذف بهم وتخترق أجسادهم وتغطيهم بالرمال وتعريها ثانية من فوقهم ثم تحملهم عالياً وتقزف بهم إلى الأرض بشدة وقسوة ولم تبق منهم أحداً.

قال تعالى: ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢٢].

وقال تعالى يصف مصرعهم: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ** ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨].

ويقول سبحانه: ﴿ **وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

نجاة هود ومن معه من المؤمنين

كوعد الله دائماً لأنبيائه وعباده المؤمنين:

كان هود قد اعتزل قومه هو ومن آمن معه من قومه ورأوا بأعينهم ما حاق بالكافرين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وهكذا مع قصص الأنبياء... قوم من بنى آدم يتركون عبادة الله الحق وينحرفون ويوسوس لهم الشيطان لعبادة الأصنام فيعبدوها ويرسل الله لهم نبى منهم لهدايتهم فلا يصدقوه بل يتهمونه بأن أصنامهم قد مسته بالجنون ويتحملهم هود النبى ويجادلهم بالحسنى دون جدوى ويأتيهم عذاب الله وينجى نبيه ومن آمن معه.

*****

قصة صالح
(عليه السلام)

بُعِثَ النبى صالح عليه الصلاة والسلام فى قبيلة مشهورة يقال لها: ثمود باسم جدهم ثمود أخى جد يس وهما ابنا عابد بن إرم إبن سام بن نوح.

وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك. وكانوا بعد قوم عاد وسلك الشيطان مسلكه الذى اعتاده مع من قبلهم ووسوس لهم لعبادة الأصنام من دون الله فعبدوها وقدموا لها القرابين وأقاموا لها الاحتفالات والأعياد فى مناسبات مختلفة.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهُوَ عبد الله ورسوله صالح.

نسب صالح

هو صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجز بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح وقال الحافظ البغوى أنه صالح بن عبيد بن أسف بن ماشخ بن عبيد بن حازر بن ثمود.

مساكن ثمود

كانت مساكنهم بمنطقة الحِجر وهى بين الحجاز والشام إلى وادى القرى.

ومدائن صالح ظاهرة إلى اليوم. وأعجب ما فيها أنها كانت منقورة فى صخور الجبال ومكانهم يعرف إلى اليوم باسم فج الناقة والمتجه من السعودية إلى الأردن شمالاً يجد ما يشير إلى مدائن صالح.

وقيل عن قوم ثمود: أنهم بقية من العماليق الذين طردهم أحمس ملك مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشر، وقد حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر ولذلك نحتوا لهم بيوتاً بعضها نقر فى الصخر وبعضها كان بناء كسائر الأبنية التى تتخذ من الصخر وقال بعض المؤرخين أنهم بقية من عاد ويؤيد ذلك قول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا

قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٥: ٧٨].

دين أهل ثمود

كانت قبيلة ثمود تدين بعبادة الأصنام يشركونها مع الله فى العبادة. فأرسل الله إليهم نبيه صالح رجل منهم يعظهم ويذكرهم بضلالهم وشركهم وهاديا لهم.

صالح يدعوهم لعبادة الله

إتجه صالح إلى قومه يطلب منهم أن يتركوا عبادة الأصنام ويخلصوا لعبادة الله الواحد الأحد خالق كل شىء: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [هود: ٦١].

يا سبحان الله تكاد الكلمات والحوارات تتطابق فى كل مرة مع كل نبى بينه وبين المشركين الكافرين بعبادة الله ويعبدون حجارة شكلوها بأيديهم. ويردون عليه نفس الرد الذى ردوه من قبلهم مع أنبيائهم.

﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

يا صالح لقد كان لنا رجاء فيك. كنت مرجوا فينا لعلمك ولعقلك ولصدقك ولحسن تدبيرك ولكن هذا الرجاء قد خاب ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فكل شىء إلا هذا وما كنا نتوقع منك أن تقولها. فياخيبة الرجاء فيك. ثم أننا لفى شك مما تدعونا إليه. شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول: لاحظ أخى القارئ أنه نفس الحوار السابق بين أقوام سبقوهم ونزل فيهم غضب الله وعقابه ولم يرتدعوا من بعدهم. وحجتهم الواهية هى أنهم وجدوا آباءهم عليها عاكفين يعبدونها ويقدمون لها القرابين.

وصالح كسابقيه من الأنبياء يتحلى بالحلم والخلق الكريم والصبر على عنادهم ويحاورهم فى ود ولطف ويبين لهم أفضال الله عليهم إذ رزقهم جنات وعيون ماء وخير كثير ومنحهم قوة فى أجسادهم جعلتهم ينحتون بيوتهم فى الجبال ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ

وأطيعون ﴾ [الشعراء: ١٤٢ ـ ١٥٠].

ردهم على صالح

لم يختلفوا كثيراً عن من ضلوا قبلهم وقالوا لنبيهم صالح ما قاله قوم هود له: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

وقالوا: ﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤].

قال كافر منهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال كافر آخر: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

تحـــديهم لـــه

قالوا له إن كنت نبياً كما تدعى فافعل لنا معجزة نراها بأعيننا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فسألهم ماذا تطلبون؟

قالوا: ندعو آلهتنا وتدعوا إلهك ومن يستجيب منهما عبدناه واتفقوا معه على موعد حددوه يوم احتفالهم وعيدهم بآلهتهم الصماء العاجزة وفى الموعد اجتمع القوم وأمام حشودهم بدأوا بالطواف حول أصنامهم يغنون ويصفقون ويقدمون القرابين ويشعلون النيران ودعوا آلهتهم بأن تصنع لهم آيه يردوا بها على ما يدعى صالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٥].

فرغوا من طوافهم ودعائهم لآلهتهم الصماء البكماء العمياء دون رد وإجابة وكيف تجيب وهى حجارة نحتوها هم وآباتهم بأيديهم.

نظر صالح إليهم وهو موقن بعدم إجابة الأصنام لهم فى شيء وهو يسأل الله أن يؤيده ليعيدهم إلى صوابهم ويعبدون الله وحده.

واتجهوا إليه يطلبون منه أن يدعوا ربه ويأتيهم بآية .

سألهم وما تطلبون؟ قالوا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وأشاروا إلى صخرة كبيرة من جبل قريب وطلبوا منه أن يخرج من هذه الصخرة ناقة بمواصفات خاصة (عشار) أى فى بطنها وليد له عشر شهور على وشك الوضع ولها أوصاف محددة فى الشكل والحجم والطول واللون.

اتجه صالح إلى الله وتعبد له ودعى إليه أن يحقق هذه الآية أمامهم لعلهم يتركوا عبادة الأصنام ويعودون إلى عبادة الله وحده وأخذ عليهم المواثيق بذلك.

الله يستجيب لدعاء صالح

لم يخذل الله عبده المؤمن ونبيه الصالح فانشقت الصخرة أمامهم وخرجت الناقة ووضعت وليدها أمام أعينهم.

سجد صالح شكراً لله على استجابته لدعائه وتهلل وجهه فرحاً وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

إتجه الكفار إلى الناقة وها لهم ما رأوا ناقة عظيمة كما وصفوها بكل الأوصاف المعجزة وجدوا معجزة تحدث أمام أعينهم... لم تكن خيالاً ولكنه واقع ووضعت وليدها أمامهم. وجدوا منظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهانا ساطعاً فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وخاصة كبراءهم الذين تتلاقى مصالحهم مع عبادة الأصنام فيجنون من ورائها ثرواتهم وإن اتبع القوم صالح فى دينه فستزول مصادر ثرواتهم فعاندوا وكذبوا عيونهم التى رأت وعقولهم التى وعت وأفئدتهم التى هوت. فحرضوا الناس على التمسك بعبادة الأصنام ونجحوا فى إيقاف المد الإيمانى بين الناس.

آية الناقة

هى ليست ناقة عادية... بل هى ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ خلقها بكل المواصفات الصعبة التى

طلبوها وأن تخرج لهم من صخرة بعينها وأن تكون عشراء على وشك الولادة وأن تلد أمام أعينهم بغير الطريق التقليدى.

أنبأهم صالح بأن الله قد حقق لهم المعجزة التى أصروا عليها تعجيزاً له وأن يتركوا الناقة ولا يقربوها ولا يحاولوا إيذائها وإن فعلوا فسيأتيهم عذاب الله وأن الناقة تشرب من الآبار يوماً ولهم ولحيواناتهم يوماً.

﴿ذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ [القمر: ٢٨].

وتركوا الناقة ترعى فى الوديان وتشرب يوماً ولهم ولحيواناتهم يوماً. ويومها الذى تشرب فيه كانت تعطيهم بدلا من الماء لبناً سائغاً طعمه ألذ وأشهى من باقى النوق والمعجزة هو أن هذا الحليب الذى تعطيه لهم يكفيهم كلهم.

أى أنهم كانوا يشربون يوماً من حليبها واليوم الآخر يشربون فيه الماء.

ولاحظوا أن هذه الناقة ووليدها أمرهما عجيب. فإن دخلت الوادى هى ووليدها خرجت منه كل الحيوانات. وإن آوت فى الظل تركته لها كل الحيوانات وذهبت إلى الأماكن المشمسة. وإن آوت إلى بطن الوادى طلباً للدفىء تركته لها باقى الحيوانات وصعدت إلى أعلى الوادى والجبال فى البرد ورغم الخير الذى كانت تعطيه لهم من حليبها يوماً بعد يوم.

تآمرهم على قتل الناقة

لم يطب لكبار القوم من الكفار عبدة الأصنام وأثرياؤهم منها أن يروا هذه المعجزات أمامهم. ونشط إبليس بينهم يوسوس لهم، وبيتوا النية لقتل الناقة ووليدها، بل ليقتلوا صالح نبى الله بعدهما حتى يعود من آمن منهم بعبادة الله إلى عبادة الأصنام ولتستقر أحوالهم ويزيدون ثرواتهم. ولم يعبأوا بعقاب الله الذى حذرهم منه نبى الله صالح فى قوله: ﴿ ويا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وبدأوا يضعون خطط التخلص من الناقة ووليدها.

وكانت بالقرية إمرأة عجوز غنية تكره صالح كرها شديداً اسمها (عنيزة) وكان لها بنات حسان ولها ماشية كثيرة وكانت ترى ماشيتها وهى تترك الظل وتذهب إلى حر الشمس هى وغيرها من الماشية وتراها وهى تترك بطن الوادى الدافىء فى الشتاء لتصعد إلى الأماكن الباردة إكراماً للناقة ووليدها. وكانت تعجب حين ترى الناقة وهى تشرب من البئر لا تقترب منه أى من المواشى فى يومها فأيقنت أنها ستصيبها خسارة كبيرة هى وغيرها فاشتركت فى التآمر وعرضت بناتها ضمن الصفقة.

وكانت هناك امرأة أخرى جميلة ذات حُسن اسمها (صدوق) ولها من المال الكثير وشعرت قبل عنيزة بالكره لصالح وناقته أيضاً ولأن زوجها تركها وآمن بالله واتفقت المرأتان على ضرورة التخلص من الناقة. فدعت (عنيزة) رجلاً يقال له (قداد بن سالف) وأغرته ببناتها وقالت له إن قتلت الناقة أزوجك من تشاء من بناتى وأعطيك المال الوفير.

ودعت (صدوق) رجلاً من بنى عمومتها يقال له (مصرع بن مهرج) وعرضت عليه مالها وجمالها إن هو عقر الناقة.

واجتمع أشرار الكفار على كؤوس الخمر يتآمرون ويفكرون ويختارون من ينفذ خططهم بقتل الناقة ووليدها أولا ثم يتبع ذلك قتل صالح ليعود إليهم استقرارهم على عبادتهم الكافرة، ويعود إليهم من آمن مع صالح بعبادة الله.

إكتمال عناصر المؤامرة

حاول المستكبرون من قومه وكانوا ذوى عناد ولهم الزعامة فى الأمة فقد رأوا كبيراً عليهم أن يطيعو رجلاً منهم ويصيروا هم سوقة مرؤوسين، لأن صالحاً سيصير بحكم هدايته إياهم إلى الله تعالى رئيساً يفزعون إليه فى كل شأن، ويكون واسطة بينهم وبين ربهم ودالألهم على ما يقربهم إليه وناهياً لهم عما يبعدهم عنه؛ فذهب أولئك السادة إلى المستضعفين من قوم صالح وسألوهم متهكمين: **﴿أتعلمون أنَّ صالحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّه﴾**.

فكان جوابهم بالإيجاب قائلين: **﴿إنَّا بمَا أُرْسلَ به مُؤْمنُونَ﴾** فقال المستكبرون: **﴿ إنَّا بالَّذي آمنتُم به كَافرُونَ ﴾** [الأعراف]

ويقول الألوسى فى روح المعانى: وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر كاهنهم. ثم قال: ولم يزالوا فى سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا جاء الحر بظهر الوادى فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادى فى حرة وجدبة وتشتو فى بطن الوادى فتهرب مواشيهم إلى ظهره فى برد وجدب فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذى يريده الله تعالى بهم والبلاء من الاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم فأجمعوا على عقرها.

وانتهى اجتماع أشرارهم إلى انضمام سبعة من مجرميهم إلى قداد بن سالف ومصرع بن مهرج ليكتمل عددهم تسعة.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

تنفيذ المؤامرة

أوحى الله إلى صالح أن قومه سوف يعقرون الناقة وأن الله معذبهم بذلك.

فأخبرهم صالح بما أوحى إليه وأنهم إذا عقروها فيصبهم من الله عقاب كبير فأنكروا ذلك واستمروا فى تآمرهم.

وانطلق التسعة أشرار وكمنوا فى طريق الناقة فى أثناء رجوعها من شربها فرملها أحدهم بسهم فأصابها فى ساقها وأقبل الآخر بسيفه فعقرها واجتمعوا عليها بسيوفهم فذبحوها وقطعوا لحمها.

ويقال أن الناقة وهى تذبح أصدرت رغاءها ثلاثاً فهرب وليدها إلى أعلى الجبال وحاولوا اللحاق به ويقال أنه دخل فى صخرة ويقال أنهم عقروه مع أمه... ويقال أنه عندما صعد أعلى الجبال رغاء ثلاث.

قال صالح لهم.. لقد خالفتم أمر الله فى الناقة بعقركم لها وأوحى الله إليه ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

كان الله سبحانه وتعالى قادراً على إنزال العذاب الفورى بهم ولكن الله برحمته يمنحهم ثلاثة أيام لعل منهم من يتوب إلى الله ويؤمن بعبادة الله الواحد لم يعبأ الكفار

بوعيد صالح لهم من عذاب واقع. بل تحدوه . . .

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

نفس الغرور ونفس الكبر ونفس التحدى الكافر هو الكافر ونفس أسلوبه مع من أرسلهم الله من أنبياء لهدايتهم ورغم المعجزة التى رأوها بأعينهم فى الناقة التى وضعوا لها المواصفات المغالى فيها وتحديدهم للصخرة التى تخرج منها ورؤيتهم لها تخرج أمام ناظريهم بالمواصفات التى حددوها.

ومع ذلك يتحدون نبى الله صالح أن يأتيهم بالعذاب.

عذاب الله واقع

يقال أنه لما بلغ صالح عقرهم للناقة جاءهم باكيا عليها فتلقوه يعتذرون إليه ويقولون: إن هذا لم يقع عن ملأ منا وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا. فيقال إنه أمرهم باستدراك وليدها حتى يحسنوا إليه عوضاً عنها فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك فلما تصاعدوا فيه وراءها تعالى الجبل حتى ارتفع فلا يناله الطير وبكى الوليد حتى سالت دموعه. ثم استقبل صالحاً عليه السلام ودعا ثلاثاً فعندها قال صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وأخبرهم أنهم سيصبحون من غدهم صفراً ثم تحمر وجوههم فى الثانى وفى اليوم الثالث تسود وجوههم. فلما كان اليوم الرابع أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة فأخذتهم فأصبحوا فى دارهم جاثمين. أصبحوا كلهم أموات مبعثرة جثثهم إلا من نجا من المؤمنين مع صالح قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨].

ونجا الله صالح عليه السلام ومن آمن معه ومروا على جثث الكافرين آسفين لما حدث لهم وهم يرون جثثهم فى كل مكان وقال: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾.

وصدق الله تعالى حين قال فيهم: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣٠، ٣١].

خرج صالح ومن آمن معه حتى أتوا رملة فلسطين وأقاموا فيها.

ويقال أنه ذهب إلى حضرموت وكان أصل ثمود منحدراً منها ومات ودفن هناك ويقال أيضاً أن اتجه مع من آمن معه إلى مكة.

وأنا رأيت قبراً فى جنوب سيناء بقرب الوادى المقدس يقال له قبر صالح لا يبتعد كثيراً عن قبر آخر يقال له قبر هارون... والله تعالى أعلم.

ذكر مرور النبى محمد ﷺ بوادى الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد. حدثنا صخر بن جويريه عن نافع عن ابن عمر. قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فإستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرجوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا: وقال: « **إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم**» (١).

ويقال أن أهل ثمود كانوا طوال القامة وأقوياء فى الجسم وأعمارهم طويلة حتى أنهم كانوا يبنون المنازل من الحجارة وتنهدم وهم على قيد الحياة ولهذا اتجهوا إلى نحت الجبال لتكون لهم بيوتاً. وهى موجودة على حالها إلى الآن بالقرب من مدينة تبوك بالسعودية.

وعلى الله قصد السبيل. والحمد لله رب العالمين.

*****

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ١١٧) وذكره ابن كثير (٣/ ٤٣٥) والسيوطى فى « الدر المنثور» (٤/ ١٠٤).

قصة إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وهو من أولى العزم من الرسل [نوح - إبراهيم - موسى - عيسى - محمد] ﷺ أجمعين.

كان مولده عليه الصلاة والسلام فى مدينة بابل على ضفاف نهر الفرات بأرض العراق ولمولده قصة طريفة أوردها لكم والله أعلم بصحتها.

قصة مولده

قيل كان على هذه البلاد ملك جبار اسمه نمروذ بن كنعان وقد طغى على من حوله من البلاد واستولى عليها وبسط سلطانه عليها وجعل بابل عاصمة ملكه وعمَّرَهَا وَحصَّنها وبنى لنفسه قصراً عاليا لا يوجد مثله.. يطلق عليه المؤرخون إسم **(أبراج بابل)** حيث كان يرتفع فى السماء نحو خمسمائة زراع.

وبلغ من جبروت نمروذ وغطرسته أن ادعى الألوهية، وأمر الناس أن يعبدوه من دون الله ومن لم يفعل ويعترف بألوهيته أمر بقتله وبصلبه ليكون عبرة لغيره وقيل أن النمروذ قد ورث هذا عن أبيه.

كان أبوه كنعان بن سخاريب بن نُوش بن حام قوياً جباراً فى الأرض، وكان مولعاً بالصيد وبلغ من قوته أنه إذا صاح بالسباع والوحوش انشقت مرائرها (مرارتها) من شدة صيحته. وتزوج كنعان من إمرأة فحملت فى النمروذ فلما استوفت حملها ولدته، فنظر إليه أبوه فقال: هذا ولد مشئوم فاقتليه، أو ألقيه فى الصحراء ليموت ولم تستطع المرأة أن تعارض زوجها فيما طلب. فأخذت وليدها وألقته فى صحراء بين بقر ترعى.. فنفرت كل الأبقار عنه وكان كلما اقترب منه وحش فَرَّ منه.

ولكن نمرة ائتلفت به فأخذت ترضعه، فرآه أهل قرية فحملوه وربوه، وسموه النمروذ فلما كبر أخذ يقطع الطريق واجتمع حوله خلق كثير وكونوا عصبة كبيرة.

النمروذ يقتل أبيه

وبلغ خبره إلى أبيه كنعان وهو لا يعرفه ـ فجمع عليه الجيوش وسار إليه والتقى مع ابنه فى معركة حامية انتهت بمقتل كنعان. واستولى نمروذ على ملك أبيه. وكون جيشاً كبيراً أخضع به كل البلاد المجاورة.. وسول له شيطانه أن يدعى الألوهية من دون الله. وظل النمروذ على هذه الحال يذيق من عصاه العذاب، ويقتل كل من يقف فى طريقه أو يتمرد عليه وكانت له جنود ينشرهم فى الأرض يبثون الإرهاب فى نفوس الناس ويذيعون بينهم الشائعات التى تثبت قدرته وسطوته حتى خاف منه الجميع... وأقروا له بما يريد.

رؤيا النمروذ

إستيقظ نمروذ من نومه فزعاً لرؤيا رآها. استدعى العرافين وأبلغهم أنه رأى كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر، حتى لم يبق لهما ضوء.

أخبره العرافون والمنجمون أنه يولد فى ناحيته فى هذه السنة مولود يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه.

فزع النمروذ لما علم منهم بتأويل الرؤيا وأمر أن يذبح كل مولود يولد فى تلك البلاد هذا العام.

أم إبراهيم تحمل به

وكانت عناية الله تحرس إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد كانت أمه حَاملاً به، ولكن الله أعمى عيون الجواسيس عنها، فلم يشعُرُوا بحملها وقدرة الله جعلت حَملها لا يظهر عليها.

وعلم أبو إبراهيم أن زوجته حامل على وشك الوضع، وخشى على ابنه أن يذبح إن أحس به أحد من أعوان الملك. فأخذ زوجته خفية إلى مكان بعيد، فى موضع يُسَمى «وركاء» ويقع بين البصرة والكوفة، وفى هذا المكان يوجد سرداب فى الأرض فأنزل زوجته فيه، ووضع عندها ما يُصلحها من طعام وشراب وتركها وعاد إلى بابل لعمله فكان يعمل خَادماً للأصنام ويصنعها واسمه «تارح» ولكن النمروذ سماه آزر على إسم

صنم من الأصنام كما ذكر في القرآن الكريم **﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهه﴾** كان آزر وهو الإسم المناسب له لأنه لا يختلف كثيراً عن الأصنام التي يصنعها ليعبدها ويبيعها للناس ليعبدوها. أي عقول هذه !!!.

كان يتردد خفية على «ليوثا» زوجته بين الحين والحين وهو يكتم خبرها عن الناس حتى وضعت إبنها دون أن يعرف أحد.

ولادة إبراهيم

وضعت «ليوثا» إبنها بعيداً عن الناس في سرداب بمنطقة وركاء ولم يكن معها سوى عناية الله.

وفرحت بمولودها الذكر وكذا أبوه آزر عندما عاد يطمئن عليها وأطلق عليه اسم إبراهيم. ولاحظ الأب وكذا الأم أن نمو إبراهيم ليس كبقية الأطفال.

عناية الله بإبراهيم

تعهد الله سبحانه وتعالى إبراهيم برعايته وفضله فقد كان نموه أسرع من بقية الأطفال فيومه وشهره وسنته بثلاث ولهذا لم ينتبه إليه أحد من أعوان نمروذ لأنه بالقطع في تصورهم ولد قبل السنة التي حدد فيها النمروذ قتل كل من يولد فيها من الذكور.

لم يكن نمو إبراهيم في الجسم فقط ولكن أيضاً في رجاحة العقل والرشد. قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٥١].

وكان يرى الأصنام التي يصنعها أبوه في منزله من الأخشاب والحجارة وينادي عليها ليبيعها للناس ليعبدوها. وكان إبراهيم في صغره يلعب بها ويحطم بعضها بين يديه ويمتطي ما يستطيع منها. وكان أبوه ينهره على فعله هذا ويحذره من غضب الآلهة عليه. كان إبراهيم ابن سبع سنين وأبوه تخطى السبعين ولأن إبراهيم قد آتاه الله رشده. فقد كان يحاور أباه في عبادة هذه الأصنام وكان يسأله عن اختلاف أشكالها وأحجامها ولماذا هي لا تتضارب مع بعضها إن كانت تفهم ولماذا لم تمنع عنها الأذى حين كان يقع منها واحداً ويتكسر.

يحدثنا القديس برنابا على لسان عيسى كيف سخر إبراهيم من أبيه وهو طفل. . .

يقول أن إبراهيم سأل والده يوماً: من صنع الإنسان يا أبى؟

قال الأب: الإنسان، لأنى أنا صنعتك وأبى صنعنى.

أجاب إبراهيم: ليس الأمر كذلك يا أبى. . . لأنى سمعت شيخاً ينتحب ويقول: يا إلهى. . . لماذا لم تعطنى أولاداً.

قال الأب: حقا يا بنى. . . الله يساعد الإنسان ليصنع إنسانا، ولكنه لا يضع يده فيه فلا يلزم الإنسان إلا أن يتقدم ويضرع إلى الهه ويقدم له حملانا وغنما فيساعده إلهه.

قال إبراهيم: كم إلها هناك يا أبى؟

أجاب أبوه: لا عدد لهم يا بنى.

قال إبراهيم: ماذا أفعل يا أبى إذا خدمت إلها وأراد بى الآخر شرا لأنى لا أخدمه، ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة، ماذا لو قتل الإله الذى يريد بى شرا إلهى. . ماذا أفعل. . . . من المؤكد أنه يقتلنى أنا أيضاً.

أجاب أبوه ضاحكا: لا تخف يا بنى لأنه لا يخاصم إله إلها آخر. . . فى الهيكل الكبير ألوف من الآلهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم أر إلها قط ضرب إلها آخر.

قال إبراهيم: إذن يوجد وفاق بينهم.

أجاب أبوه: نعم يوجد.

قال إبراهيم: من أى شىء تصنع الآلهة؟

قال أبوه: هذا من خشب النخل، وذاك من الزيتون، وذلك التمثال الصغير من العاج. . . أنظر ما أجمله. . . . حقاً لا ينقصه إلا التنفس.

قال إبراهيم: إذا لم يكن للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس. . ولما لم تكن لهم

حياة فكيف يعطون الحياة، من المؤكد يا أبى أن هؤلاء ليسواهم آلهه.

حنق أبوه لهذا الكلام وقال ثائراً: لو كنت بالغ من العمر ما تتمكن معه من الإدراك لشجحت رأسك بهذه الفأس.

قال إبراهيم: يا أبى إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان أن يصنع آلهة... إذا كانت الآلهة مصنوعة من الخشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى، ولكن قل لى يا أبت.. كيف وأنت تساعد الآلهة وتصنع منها أعداد هائلة.. كيف تساعدك الآلهة لتصنع أولاداً كثيرين فتصير من أقوى الرجال.

ضاق أبوه من حواره معه فمد يده ولطمه.

لم ينته حوار إبراهيم لأبيه عند هذا الحد... بل أن أبوه كان يأمره لأن يذهب إلى السوق ليبيع الأصنام وينادى عليها بالآلهة.

فكان يتهكم فى النداء على بيعها بقوله: من يشترى التى لا تنفع ولا تضر.

وكان أبوه يغضب لذلك. لأنه بذلك النداء كان يثير سخرية الناس من الأصنام ولا يشتروها. ويجعلهم أيضاً يفكرون فى أمرها وعبادة ما لا يضر ولا ينفع.

وكان أبوه يضربه لذلك. فقد كانت تماثيلة التى يبرع فى صنعها من مهنة النجارة التى يحترفها تدر عليه المال الوفير... وها هى الآن بدأت تتأثر مبيعاتها بتهكم إبراهيم عليها.

أم إبراهيم

«ليوثا» لاحظت فى سعادة نمو إبراهيم فقد صار صبياً يافعاً يزيد فى جسمه عن من يكبرونه فى العمر ويزيد فى رجاحة عقله سن الشيوخ من قومه.

وكانت مقتنعة بما يقول ويدعو وكانت تشعر فى قرارة نفسها أن ما يقوله لهو الحق ولكن خوفها كان عليه شديد من بطش النمروذ وقد كان أبوه من كبار معاونيه.

فهى من شهور حمله تشعر أن سيكون لهذا الوليد شأناً. فلم تكبر بطنها فى حمله كباقى الأمهات وأخفى ذلك عنها عيون أعوان النمروذ وعندما وضعته فى السرداب

شعرت وكأن عينا ترعاه.

فقد كانت تتركه وحيداً وليداً صغيراً وتعود إلى المنزل لقضاء شئون زوجها وتعود فتجده يمص إبهامه. وتجد أن الله قد فجر من إبهامه العسل أو اللبن أو الماء مما يحتاجه جسم الرضيع.

إبراهيم فى طريق الرسالة

مرت الأيام وكبر إبراهيم وأصبح صبياً يافعاً قلبه يمتلىء من طفولته كرهاً للأصنام وكان فى حيرة من تصرفات هؤلاء القوم... إذ كيف يصنعون بأيديهم تمثالاً ثم يسجدون له ويعبدونه ويطلبون منه حاجتهم فى الرزق والشفاء والولد وغيرها من أمور الدنيا. وهى لا تستطيع أن تمنع من يحاول تحطيمها أو حتى إلقائها على جنبها فهى حتى لا تستطيع أن تعدل نفسها. وهى لا تأكل ولا تشرب ولا تتنفس ولا تتكلم ولا تسمع وقد ضحك إبراهيم كثيراً عندما كان ينفرد بهذه التماثيل ويلطمها على صدغها وقفاها وهى ساكنة ولا تمنع عنها الأذى.

المواجهة

إغتنم إبراهيم فرصة تواجد أبيه مع بعض القوم وسألهم عن هذه التماثيل التى يعبدونها وهم يجتمعون حولها ويرجونها ويسجدون لها ويقدموا لها القرابين وخاصة ذلك التمثال الكبير الذى يتوسط المعبد الذى يجتمعون فيه لهذه العبادة قالوا له: وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل.

قال لهم إبراهيم: لقد كان آبائكم فى ضلال وأنتم أيضا فى ضلال.

قالوا له. أتتكلم بالحق أم أنك تلعب بنا.

قال إبراهيم: أنما ربكم رب السماوات والأرض وأنا أشهد بذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٦].

إبراهيم ينصح أباه

ازداد إبراهيم قناعه بضلال قومه وأراد أن يبدأ بنصح أقرب الناس إليه أبيه فقد كان يحبه وباراً به وبأمه ومشفقاً عليه.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

قال له أبيه: يا بنى أنت تعلم أن هذه التماثيل التى أصنعها هى مصدر الثروة والخير الذى نحن فيه وكنت أظنك ستساعدنى فى عملى وأنت الآن تطلب منى أن أترك هذا العمل.

قال إبراهيم لأبيه فى موده وحب وأدب: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

ولكن الأب يضيق بحوار ابنه له ويهدده بألا يتكلم معه أو مع غيره من الناس حتى لا يصل كلامه هذا إلى الملك نمروذ فيقتله ويقتل أباه معه.

ولكن إبراهيم لا يصمت ولا يخاف من وعيد أبيه فهو يحمل رسالة الهداية للناس التى كلفه بها الله ليبعدهم عن عبادة الأصنام وليعبدوا الله الواحد القهار قال تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥].

لم يستمع الأب لنصح ابنه بل هدده بسوء العاقبة وغضب القوم والملك نمروذ عليه إن شاع بين الناس ما يقول وهدد ولده إن لم يعود عن ما يفعل فسيرجمه ويطرده من داره... الطرد والقتل تهديد من الوالد الضال لولده البار.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

لم يغضب إبراهيم من أبيه ولم يرد عليه إلا بخلق الأنبياء وقال:

﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

إبراهيم وعبدة الكواكب

ترك إبراهيم عبدة الأصنام فترة واتجه إلى قوم آخرين يعبدون الكواكب فجاراهم فى حوار لعلهم إلى رشدهم يعودون ويتركونها لعبادة الله.

فناظرهم فيما يعبدون من الكواكب والنجوم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٥ _ ٨٣].

حاورهم إبراهيم بمنطق وحلم الأنبياء وتدرج معهم فى معتقداتهم الإيمانية وبدأ بكوكب قريب.. غالبا هو الزهرة.. فلما اختفى.. نظر إلى القمر فلما اختفى قال إنى لا أحب الآفلين فنظر إلى الشمس لما أشرقت قال لهم هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال إنى لا أحب الآفلين... هكذا إبراهيم فى حواره ليبين لهم ضلالهم ويشرح لهم بمنطقهم بأن ما يعبدون مسير بأمر الله... وأنه بريء مما يشركون وحاولوا مناقشته والرد عليه... فرد عليهم بأن قال: أتحاجوننى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به. حاول إبراهيم معهم ولكنهم على عنادهم وكفرهم. وهذا الحوار كان مع أهل حران الذين عرف عنهم هذه العبادة.

وعاد إبراهيم إلى أهل بابل عبدة الأصنام.

إبراهيم قرر فى نفسه للأصنام أمرا

عاد إبراهيم إلى أهله فى بابل عبدة الأصنام حاول معهم مرات وحاورهم وجادلهم فيما يعبدون من حجارة وأخشاب يصنعونها تماثيل بأيديهم دون جدوى فقلوبهم شبيهة بما يعبدون من حجارة أو أشد قسوة وأقسم إبراهيم فى نفسه بأن يحطم هذه الأصنام.

وفى أحد الاحتفالات التى كانت عبر ضفة النهر طلبوا من إبراهيم أن يرافقهم فى احتفالهم فنظر إلى السماء وقال: ﴿إني سقيم﴾ فتركوه مسرعين خوفاً من أن يكون به مرض يصيبهم عدواة. فوجدها إبراهيم فرصة له.

فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وبعد أن رحل الناس توجه إلى معبدهم المليء بالأصنام من شتى الأحجام والأشكال وفى وسطهم صنم كبير عليه تاج من ذهب وله عينان من يقوت أحمر.

دخل عليهم وفى يده فأس من حديد ونظر فوجد أمام الأصنام أطعمة شهية كثيرة فهذأ منهم وقال: ما لكم لا تأكلون؟ فلم يسمع بالطبع منهم جواباً.

سألهم ثانيه: ما لكم لا تنطقون؟ فلم يسمع أيضاً إجابة.

فرفع فأسه وهوى بها على الأصنام يحطمها تحطيما ولم يترك إلا الصنم الكبير فوضع الفأس على كتفه وتركهم.

قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

فلما عادوا من احتفالاتهم ودخلوا المعبد هالهم ما وجدوا عليه أصنامهم المحطمة وتصاعد الشرر إلى رؤسهم وأطل الغضب فى عيونهم.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٠].

المحاكمة

تم استدعاء إبراهيم إلى المعبد وفى حضور جمع كبير من الناس دار بينهم ذلك الحوار الذى ذكره الله تعالى فى سورة الأنبياء:

﴿ قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢ ـ ٦٥].

وجد إبراهيم فى اعترافهم بعدم نطقهم فرصة سانحة لإلزامه الحجة قال: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

ولما أعيتهم الحيلة فى حوارهم مع إبراهيم ذلك الفتى الذى يملك الحجة والمنطق ما يخرس ألسنتهم ويوقظ الحق فى أفئدتهم.. لم يجدوا أمامهم إلا سلاح العاجز القوة والبطش به وعرضوا أمره على كبرائهم فكان قرارهم.

الحكم بإحراق إبراهيم

أصدروا حكمهم عليه: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وعرضوا أمره على الملك النمرود فأقر باقتراحهم بأن يحرق حياً وأن يجمع الحطب والأخشاب فى فجوة أمام قصره ليرى عملية الإحراق. فجمعوا من الحطب مالم يجمعوه من قبل وظلوا يجمعونه ثلاث شهور كاملة حتى قيل أن المرأة إذا مرضت تنذر للأصنام إن شفيت لتجمع الحطب لحريق إبراهيم. وامتلأت الفجوة بالحطب والأخشاب بل ارتفعت لعلواً كبيراً وأقاموا حولها جداراً.

وأضرموا النيران فالتهبت وتأججت وعلا لها شرر لم ير مثله قط حتى قيل أن الطير لما كانت تحاول الاقتراب أو الطيران من فوق النيران كانت تحترق من شدة لهيبها. ثم وثقوا إبراهيم بالحبال وحاروا كيف يضعون إبراهيم فى هذه النيران وهم لا يتحملون مجرد الاقتراب منها. فوجد أحد الأكراد ويقال له هذن وكان أول من صنع المنجنيق.. الحل فى إحضار المنجنيق ويقذفون به إبراهيم إلى النار (خسف الله بهذن هذا الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامه).

أحضروا المنجنيق ووضعوا إبراهيم مقيداً فى كفته وهو يقول «لاإله إلا أنت سبحانك

لك الحمد ولك الملك لا شريك لك» ثم قذفوا به إلى النار.

قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»

قال رسول الله ﷺ: «**لما ألقى إبراهيم فى النار قال: اللهم إنك فى السماء واحد وأنا فى الأرض واحد أعبدك**» [1].

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال أمَّا إليك فلا. ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير، أنه قال: جعل ملك المطر يقول متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع.

الله يأمر النار

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال أبو عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: وسلاما على إبراهيم لأذى إبراهيم بردها. وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ولم يحرق منه سوى وثاقه. وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه فلم يصبه منها شيئ.

وقال السدى: كان معه أيضاً ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام فى ميل الجوبه حوله النار وهو فى روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم. فعن أبى هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى النار لم تصب من ولده شيئ إلا أكلت وثاقه فقط قال: نعم الرب ربك ياإبراهيم

وروى ابن عساكر عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام، فنادته يابنى إنى أريد أن أجئ إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك، فقال: نعم فأقبلت إليه لايمسها شيء من حر النار. فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً. وانه قال: ما كنت أياماً وليالى أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشى وحياتى كلها

---

(١) ضعيف. أخرجه الخطيب فى «التاريخ» (١/ ٣٤٦) وأبو نعيم فى «الحلية» (١/ ١٩) وابن عساكر فى «تاريخ» (١٠/ ٣٤٦) وضعفه الشيخ الألبانى انظر: «ضعيف الجامع» (ح/ ٤٧٦٧)..

مثل إذ كنت فيها صلوات الله وسلامه عليه. فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا. فأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا. وأرادوا أن يغلبوا فانغلبوا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وفى الآية الأخرى ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال هذا فى الدنيا. وأما فى الأخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً بل هى كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

خروج إبراهيم من النار

انتظر الملك الطاغية النمروز حتى هدأت النار فأمر جنوده أن يبحثوا فى رمادها عن شيء من رفات إبراهيم. واقتحم الجنود المكان ومعهم مجثاتهم يبحثون عن حطام إبراهيم، فإذا بهم يصابون بالذعر لما رأوا إبراهيم جالساً سليماً مُعَافَى منشرح الصدر باسم الثغر ينطق لسانه بكلمة التوحيد، يكبر الله ويسبحه ويعظمه ويمجده. نظر جنود النمروذ إلى بعضهم فى عجب وفزع مما رأوا عليه إبراهيم لم تصب النار منه شيء إلا الحبال التى كانت تقيده فقد ألقى إلى النار موثقا فإذا به يخرج مطلقاً. وازداد وجهه تألقاً وجمالاً وإجلالاً.

فزع النمروز عندما سمع بذلك وخاف على نفسه وعرشه... من أن يجتمع الناس حول إبراهيم ويعبدون رب إبراهيم. فاستدعاه.

النمروز يحاور إبراهيم

أحضروا إبراهيم إلى مجلس الملك النمروز وإبراهيم كله ثقة وعزة ورباطة جأش فماذا يريد به النمروز وماذا سيفعل أكثر مما فعل أهناك أكثر من أن يلقى حياً فى هذه النيران التى جمعوا لها حطباً وأخشاباً ثلاث شهور .

النمروز يرتعد خوفاً من داخله من هذا الصبى الذى أمامه وهذه المعجزة التى حدثت له.. كيف يظل طيلة هذه الأيام فى النار ولم تحرق منه إلا الحبال المقيدة له.. إذا لم يحرق بالنار كيف تحمل الجوع والعطش.. أية معجزة.. وأى صبى هذا إبراهيم.

سأله النمروز: من ربك؟

قال إبراهيم: ربى الذى يحي ويميت وأنا أدعوك لعبادته.

قال النمروز: أنا أحى وأميت.. يقصد أنه أتى برجلين وحكم على أحدهما بالموت وعفى عن الآخر يكون بذلك قد أحيا أحدهما وأمات الآخر.

قال إبراهيم: فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب صمت النمروز ووجد أنه فى مأزق وأن الحوار بينه وبين هذا الصبى إبراهيم لو امتد فسيكون فى غير صالحه وسيغرى الكثير بالإيمان برب إبراهيم.

فبهت ولم يجد ما يقول ولم يجد ما يصنع مع إبراهيم أكثر مما صنع معه.. هل يأمر بقطع رقبته؟ وإذا حدثت له معجزة أخرى فمن المؤكد أنها ستكون نهاية النمروز وملكه وسيجتمع الناس حول إبراهيم ويعبدون رب إبراهيم فلم يجد النمروز حلاً سوى أن أمر بإبعاد إبراهيم عن بلاده.

قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] قال المفسرون وعلماء النسب والأخبار: أن النمروز كان أحد ملوك الدنيا.

فانه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران: فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان والكافران النمروز وبختنصر، وذكروا: أن نمروز هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الله وادعى لنفسه الربوبية قال زيد بن أسلم: بعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع لنمروز جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه زبابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً

بادية ودخلت واحدة منها فى منخر الملك النمروز فمكثت فى منخره زمناً طويلاً يقال أربعمائة سنة والله أعلم عزبه الله تعالى بها فكان يضرب رءسه بالمزراب (مسيل الماء) فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها.

فى ذلك الزمان كان الناس يزوجون أبنائهم مجرد بلوغهم الحلم فتزوج إبراهيم من ابنة عمه سارة وكانت رائعة الجمال فأحبها إبراهيم حباً جماً ولكنها كانت عاقر لا تلد وظل إبراهيم على حبه لها.

وقد روى عبد الرازق عن معمر عن زيد إبن أسلم: أن النمروز كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة التى ذكرت فى القرآن الكريم ولم يعط إبراهيم على أثرها من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شئ من الطعام. فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: أشغل أهلى إذا قدمت عليهم. فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآتين طعاماً طيباً فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت من الذى جئت به فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل.

هجرة إبراهيم إلى الشام ومصر

لما أمر الطاغية نمروز برحيل إبراهيم عن البلاد لم يؤمن به إلا لوط وامرأته سارة واتجه إبراهيم ومن معه إلى الشام وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فإبتنى إبراهيم مذبحًا لله شكراً على هذه النعمة وضرب قبته شرقى بيت المقدس. ثم حدث قحط وجوع وشدة وغلاء. فارتحل إلى مصر.

●●●●●

سارة والملك الجبار

قال الإمام أحمد: حدثنا على ابن حفص ورقاء هو ابن عمر اليشكرى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات. قوله حين دعى آلهتهم: فقال ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩] وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقوله عن ساره أنها أختى.**

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار من هذه معك؟ قال: أختى. قال: فأرسل بها قال: فأرسل بها إليه. وقال: لاتكذبى قولى: فأنى قد أخبرته أنك أختى. إن ليس على الأرض مؤمن غيرى وغيرك فلما دخلت عليه قام إليها فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول: «اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر.

قال: فغط حتى ركض برجله».

وفى حديث آخر: أن المجرم حين حاول أن يتناول ساره باغتصابها « أخذ فقال: ادعى الله لى ولا أضرك فدعت له، فأرسل فذهب يتناولها، فأخذ مثلها أو أشد منها فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت، فأرسل ثلاث مرات فدعا أدنى حشمه، فقال: إنكْ لم تأتنى بإنسان ولكن أتيتنى بشيطان أخرجها وأعطها هاجر، فجاءت وإبراهيم قائم يصلى. فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم، فقالت: كفى الله كيد الظالم وأخذمنى هاجر».

حدثنا سفيان عن على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال:

قال رسول الله ﷺ :«**فى كلمات إبراهيم الثلاث التى ما قال منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾** [الصافات: ٨٩] وقال: **﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء: ٦٣] وقال للملك حين أراد امرأته هى أختى**» (١)

فقوله فى الحديث «**هى أختى**» أى فى دين الله وقوله لها: «**إنه ليس على وجه**

(١) أخرجه أحمد فى (٢/ ٣٠٤).

الأرض مؤمن غيرى وغيرك» يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك. ويتعين حمله على هذا لأن لوطا كان معهم وهو نبى عليه السلام. وقوله لها لما رجعت إليه «**مهيم**» معناه ماالخبر؟ فقالت: إن الله رد كيد الكافرين، وفى رواية الفاجر وهو الملك وأخدم جارية وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء وهكذا فعلت هى أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ** ﴾ [البقرة: ٤٥] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة. وأم موسى. ومريم عليهن السلام والذى عليه الجمهور أنهن صديقات رضى الله عنهن وأرضاهن. ورأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبينها فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه وكان مشاهداً لها وهى عند الملك، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته فإنه كان يحبها حباً شديداً، لدينها، وقرابتها منه، وحسنها الباهر. فإنه قد قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضى الله عنها.

عودة إبراهيم من مصر إلى الشام

عاد الخليل عليه السلام إلى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية (القبطية لا تعنى المسيحية فلم تكن قد ظهرت بعد ولكنها تعنى أهل مصر فكان يقال لهم قبط وجاءت منها تسمية الغرب لمصر بلغتهم جيبت) ونزح لوط معهم بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل إلى أرض الغور المعروف بغور زغر فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان. وكان أهلها أشرار كفار فجاراً وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل فأمره إن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً وبشره بأن هذه الأرض كلها سيجعلها له ولخلفه إلى آخر الدهر وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض. وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت

ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية يؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله ذوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ماذوى منها**»[(١)].

قالوا: ثم أن طائفه من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً. فاستقر لوطا عليه السلام واسترجع أمواله وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق وعسكر بظاهرها عند برزه وأظن مقام إبراهيم إنما سمى لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم.

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

ظل إبراهيم عليه السلام فى حله وترحاله يدعوا الناس لعبادة الله الواحد الأحد ويتركوا ما جبلوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب والنجوم وعباده الملوك. وظل مخلصا فى الدعوة إلى أن بلغ من العمر ما يزيد على الثمانون عاماً ولم ينجب وكانت زوجته الحبيبة عاقراً وكان له فى بلاد بيت المقدس عشرون عاماً بعد عودته من أرض مصر. وهو يرى الناس على ضلالهم ولهوهم ونسيانهم يوم البعث الذى يحاسبهم فيه الله على ما فعلوا فى حياتهم الدنيوية. ملأ اليوم الآخر قلب إبراهيم بالسلام والحب واليقين. وأراد أن يرى يوم القيامه قبل وقوعه. وطلب ودعى إلى الله وطلب منه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لم يكن طلب إبراهيم إلا درجة من درجات الحب لله فهو أول من على الأرض يقينا بقدرة الله ونجاته ورزقه ونعيمه داخل النار التى قذفوه إليها.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ذبح إبراهيم أربعة من الطير وفرق أجزاءها على الجبال دعاها باسم الله فنهض الريش يلحق بجناحه وبحثت الصدور عن رؤسها وتطايرت أجزاء الطير مندفعه نحو

(١) رواه مسلم (٧١١٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.

الالتحام والتقت الضلوع بالقلوب لقاء العشاق وسارعت الأجزاء الذبيحة للإلتئام، ودبت الحياة فى الطير وجاءت طائرة مسرعة ترمى بنفسها فى أحضان إبراهيم.

اعتقد بعض المفسرين أن هذه التجربة كانت حب استطلاع من إبراهيم. واعتقد بعضهم أنه أراد أن يرى يد الجلال الخالق وهى تعمل، فلم ير الأسلوب ولكن رأى النتيجة. واعتقد بعض المفسرين أنه اكتفى بما قاله له الله ولم يذبح الطير.

ونعتقد أن هذه التجربة كانت درجة من درجات الحب قطعها المسافر إلى الله خليله إبراهيم عليه السلام.

طاب مقام إبراهيم فى أرض فلسطين وبارك الله فى رزقه وكثر ماله من أنعام وماشية وحفر سبع آبار للماء ليكفى بها أنعامه وأهله بعد أن عاد من مصر وستر الله سارة من ملكها الظالم الهكسوسى الذين كانوا يحتلون شمال مصر فى هذه الفترة وبعد أن أوغر إليه حاشيته الظالمة بطرد إبراهيم خوفاً على ملكه من دعوة إبراهيم لعبادة الله الواحد وفى مقامه فى فلسطين غار أهل المنطقة من كثرة أنعام إبراهيم والخير الذى هو فيه فطلبوا إليه أن يرحل عن المكان فسار بزوجته سارة وجاريتها هاجر المصرية وأنعامه وترك المكان. الذى سموه بوادى سبع.

وانتزع الله البركة من الوادى وجفت المياه فى الآبار السبع وهرع الأهالى إلى إبراهيم يطلبون منه العودة إلى الوادى ولكنه عزم على التوجه إلى مكان آخر ورفض العودة معهم فشكوا له قلة الماء وجفاف الآبار وضيق معيشتهم فأعطاهم سبع نعاج وقال لهم أوقفوا على كل بئر من الآبار السبع نعجة من هذه النعاج يأتيكم الماء. فعاد الماء وانتعش الخير فى وادى سبع الذى سمى بعد ذلك بئر سبع.

اعتادت هاجر الحياة مع نبى الله ورسوله وخليله إبراهيم وزوجته سارة فقد آمنت بما جاء به إبراهيم وقد رأت سارة فى هاجر الخلق الرفيع والصحبة الطيبة وقد علمت منزلتها فى قومها قبل أن يأسرها الهكسوس فى حروبهم مع ملوك مصر فقد كانت هاجر أميرة من بيت ملك وما تركها الملك الظالم الذى رغب فى سارة وأراد أن يضمها إلى جواريه إلا لزهده فيها وتعاليها عليه وعفتها منه نظرت سارة إلى الخير الوفير الذى بارك

الله لهم فيه وإلى زوجها الذى أصبح شيخاً كبيراً تخطى الثمانين من عمره وحبه لها لم يفكر فى استبدالها. ونظرت سارة إلى نفسها فقد أصبحت عجوز وعقيم وهذا الخير الوفير يحتاج لمن يرعاه فطلبت من إبراهيم أن يتزوج بهاجر بعد أن وهبتها له. لعل الله أن يرزقهما منها بغلام فتزوجها إبراهيم. ودعا الله أن يرزقه ذرية طيبة، وقد بشره الله تعالى بذلك.

مولد إسماعيل

قال أهل الكتاب لما حملت هاجر ارتفعت نفسها وتعاظمت على سارة فغارت منها فشكت ذلك إلى إبراهيم، فقال لها: افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك. فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيراً. وأمرها بالرجوع، وبشرها أنها ستلد إبنا وتسميه إسماعيل وسيلتف الناس حوله وتكون يده على الكل ويد الكل به ويملك جميع بلاد إخوته. فشكرت الله عز وجل على ذلك.

ورجعت هاجر بالفعل، وقيل: أن سارة قد أقسمت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء فاقترح عليها إبراهيم أن تثقب أذنها وتخفضها براً بقسمها ففعلت. وأن هاجر كانت أول من خفضت من النساء. وجاء ميعادها ووضعت إسماعيل عليه السلام الذى أدخل البهجةوالسعادة على البيت كله وحملته سارة فرحة به وسعد به إبراهيم وأمه هاجر وكان لإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة وقبل مولد إسحاق بثلاث عشر سنة قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

بعد أن هدأت عاطفة سارة وفرحها بإسماعيل ولاحظت تعلق زوجها وحبيبها إبراهيم بوليده وأمه فغارت غيره شديده وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها هى ووليدها فذهب بها بولدها فسار بهما حتى قطع مسافة بعيدة وفى وادى ليس به ماء ولا زرع ولا بشر بمكة عند قواعد بيت الله الحرام ترك هاجر وابنها إسماعيل فى هذا الوادى ليس لهم أنيس ولا ونيس ولا معين غير الله تركهم ليس لمشيئة سارة ولكن لمشيئة الله. ليس معهم من الزاد إلا القليل من التمر والماء.

أى أب وأى أم

أى أب وأى أم. . أى أب يترك وحيده الذى رزقه الله بعد عمر طويل هو وأمه فى ذلك الوادى البعيد لا نبع ماء ولاأرض تزرع لولا قوة إيمانه بالخالق الذى راعاه وهو فى النار وحماه وجعلها برداً وسلاماً عليه وأطعمه فيها وسقاه. وأى أم هذه التى تطيع زوجها ويتركها هى ورضيعها وحدهما لولا قوة إيمان بأن الله سيرعاها وطفلها ويحفظهما من كل شر. تركهما إبراهيم واستدار ليعود. . فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين أنت ذاهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنس ولا ماء ولا ظل ولا زرع وكررت ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت إذا لا يضيعنا. نعم الأم أنت ياهاجر ونعم الزوجة الصالحة المؤمنة الشجاعة. ثم رجعت بوليدها إلى الخيمة المتواضعة التى نصبها إبراهيم فى تلك الصحراء. انطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لايرونه استقبل بوجهه البيت ثم رفع يديه إلى الله فقال ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترضع ابنها وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاه عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه. ثم استقبلت الوادى رفعت طرف زراعها. ثم سعت سعى الإنسان المجهد حتى إذا جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس قال النبى ﷺ «**فلذلك سعى الناس بينهما**» [١] فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه: تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقال: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أوقال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه، وتقول بلغتها المصرية القديمة (زم زم) أى

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم فى (الفتن، ح/ ١٩) وأبو داود (ح/ ٤٢٥٢) والترمذى (ح/٢١٧٦) وأحمد (٤/ ١٢٣، ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤).

اجتمع أيها الماء ولا تتفرق ومن هنا أطلق على هذا الماء الذى انفجر تحت قدم إسماعيل - عليه السلام - إسم (زمزم).

شربت هاجر وسقت طفلها إسماعيل من الماء فهدأ واستكان وشبع منه ونام وصدق رسول الله ﷺ حين قال عن ماء زمزم «**إنه طعامُ طُعْمٍ وشفاءُ سُقْمٍ**» هدأت أم إسماعيل وأيقنت بأن الله معهما ويرعاهما وها هى الماء نبع الحياة تتفجر من تحت أقدام رضيعها.

أفئدة من الناس تهوى إليهم

دعوة إبرهيم يستجيب لها الله.. فيمر أهل بيت من جرهم فى قافلة. فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً (باحثا عن الماء) فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا بعض منهم. فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم بشرط آلا يكون لهم الحق فى امتلاك الماء. كان هؤلاء الجراهمة من عرب اليمن أهل تجاره يقصدون الشام والعودة إلى اليمن فاتخذوا من هذا المكان مركزا لهم. يذهبون إلى الشام فيتركون فيه بعض نسائهم وأطفالهم إلى حين عودتهم ثم يعودون فيأخذونهم ويتركون غيرهم.. وهكذا. وكان إبراهيم يطمأن على ولده وزوجته وقد أكرمه الله فحفظ إسماعيل وأمه وأسعده ما رأى واطمأن قلبه على ولده وزوجته.. حين علم أن هؤلاء القوم يكرمون إسماعيل وأمه وينظرون إليهما نظرة إجلال وإحترام بعد علمهم بقصة تفجر الماء فأدركوا أن فيه سراً عظيماً ملأ نفوسهم هيبة وتكريماً. وقيل أن إبراهيم كان يقطع هذه المسافة الكبيرة بأن الله كان يطوى تحته الأرض طياً وقيل أنه كان يركب البراق.

*****

قصة الذبيح إسماعيل

ما يكاد الخليل إبراهيم يبرأ من ابتلاء يصيبه وظهر له ابتلاء جديد. فقد ابتلى إبراهيم فى قومه وما يعبدون وقد ابتلى فى أبيه على ضلاله وإصراراه على عبادة الأصنام وابتلى فى حكمهم بإلقائه فى النار وهو الصبى.. لم يتراجع عن إيمانه بالله وهو يرى النار على شدتها لم يصرخ طالباً منهم الرحمة والعفو وهم يقيدونه بالحبال ويضعونه فى كفة المنجنيق ليقذفوه فى جحيمها.. لم يثر على والده لكفره وطرده من رعايته بل قال ﴿ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾.. لم يدعوا إلى الله أن يترك له ولده إسماعيل ليسعد به وهو الذى فرح بولادته وهو فى السادسة والثمانون من العمر.. بل نفذ مشيئته وتركه هو وأمه الصابرة هاجر في وادٍ خالٍ من كل مظاهر الحياة. لاماء ولا زرع ولا حتى بشر يأنسون بهم ويعينوهم على الحياة لم يخش عليهما من هوام الأرض وسباعها ولكنه موقن برعاية الله لهما وتركهما وعاد. وبعد أن شب إسماعيل وصار صبياً بعيداً عن دفئ وحنان وعطاء إبراهيم جاءه إبتلاء جديد وأى ابتلاء.

فقد رأى إبراهيم فى منامه أنه يذبح وحيده إسماعيل.. يا الله.. أى ابتلاء هذا لم يقل أنها أضغاث أحلام.. بل رؤيا الأنبياء حق.. لم يشكُ إلى الله كيف يهبه ابنه وهو طاعن فى السن وما يكاد يفرح به حتى يأمره بإبعاده عنه وهو رضيع ثم هو يأمره بذبحه. لم يضعف إيمان الخليل ولم يتردد.. بل ذهب إلى إسماعيل وسعى معه فى أمور يومه فى طلب الرزق. ولكنه تردد فى كيفية التنفيذ.. هل يأخذ ولده عنوة هل يذبحه غدراً؟.. الخليل لا يفعل ذلك بل توجه إلى وحيده وحبيبه إسماعيل ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢] يسأله الخليل.. أب يسأل إبنه الوحيد.. أنه مكلف بذبحه فماذا يرى فى ذلك.. لم يتركه الصبى ويهرع إلى أمه أو أحداً غيرها ليحميه.. لم يقل له ياأبت لقد تركتنى وأمى رضيعاً فى وادى غير ذى زرع ولا ماء ولا بشر غيرنا ولم أراك إلا قليلاً والآن تريد ذبحى. ولكنه الكريم ابن الكريم ولكنه البار ابن الخليل.. ماذا قال ؟﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] أى رد هذا؟.. أى حلم هذا؟.. أى خلق هذا؟..

أى صبر هذا؟. . أى طاعه هذه؟ صبى تركه أباه رضيعاً مع أمه بعيداً عنه ولم يراه الصبى إلا مرات محدودة ولم يهنأ برعايته كباقى الأطفال ولم يتعلق إلا بأمه وعندما يأتى إليه يقول له أنى أذبحك ويطيعه ويعينه على ما أمره الله ويقول له افعل ستجدنى إنشاء الله من الصابرين نعم الإبن أنت ياإسماعيل. . وجد الخليل من ينافسه فى حب وطاعة الله سعد الأب بإيمان ابنه فقد زاد المؤمنين واحداً. لم يؤمن بالله من قومه إلا ابن أخيه لوط وامرأتاه سارة وهاجر وها هو إسماعيل طائعاً مسلماً روحه لله معينا لأبيه على بلواه.

الشيطان يحاول

أول من بدأ به الشيطان كانت هاجر الأم التى لم يكن لها بعد الله سوى إسماعيل وحيدها الذى حملته رضيعاً إلى هذا الوادى تنفيذاً لمشيئة الله وطاعة له ولنبيه وزوجها خليل الله إبراهيم ولأنها أم وقلب الأم يعمر حباً ولهفة وسوس لها الشيطان بأن إبراهيم أخذ ولدها ليذبحه رفضت قوله وقالت أن إبراهيم أرحم به منى وأشد حباً.

قال الشيطان: إنه يزعم أن الله أمره بذلك. قالت هاجر: إن كان الله أمره بذلك فليفعل طاعة لله وتنفيذاً لمشيئته. نعم الزوجة. . . .

ونعم الأم أنت ياهاجر. . فلقد أكرمك الله على كل الأمهات بأن أهبط وحيه الأمين جبريل ومن بعده محمد عليهما الصلاة والسلام يعلمهما مناسك الحج والعمرة بأن جعل السعى بين الصفا والمروة سبع أشواط من المناسك تكريما لهذه الأم المؤمنة الصابرة الراضية بقضاء الله لسعيها بينهما بحثا عن الماء لوليدها قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة:١٥٨].

فَرَّ الشيطان الذى تمثل لها بشراً من أمامها فليست مثل هذه الأم ينفع معها شيطان فر من أمامها يأساً منها وأملا فى غيرها.

اتجه إلى ابنها إسماعيل وجده سائراً خلف أبيه مطيعاً فسأله أتعلم أين أنت ذاهب. .

قال أعلم. . قال الشيطان أتعلم ماذا فاعل بك أبيك قال إسماعيل أعلم. . قال الشيطان أنه سيذبحك. . قال أعلم وأنها مشيئة الله وسأعينه عليها وأنا إن شاء الله من الصابرين فر الشيطان منه يأساً منه وأملاً فى غيره فليس مثل هذا الابن ينفع معه شيطان.

اتجه إلى أبيه إبراهيم. . سأله هل ستذبح ابنك الوحيد يا إبراهيم قال نعم فهى إرادة الله. . قال الشيطان إنه مجرد حلم. قال إبراهيم وحلم الأنبياء وحياً من الله ورجمه بالحصى فهرب الشيطان وبقيت الحصايات منسكاً من مناسك الحج يرجم بها فى هذا المكان وفى مواضعه الثلاث بمنى. . . والله أعلم

حانت لحظة التنفيذ ولم يقو الخليل على النظر إلى وجه ابنه وحبيبه إسماعيل وهو يذبحه ولم يقو إسماعيل على النظر إلى وجه أبيه وهو يذبحه فانقلب وجعل وجهه إلى الأرض وبدأ الخليل بالسكين فشحذها جيداً حتى لايتعذب بها إسماعيل وبعد أن انتهى وحانت لحظة الذبح واستعد كل منهما الأب والإبن. ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾. . . أى سمى إبراهيم وكبر وتشهد للموت أى تعبير أبلغ من هذا ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ الإسلام الحقيقى منهما وهو أن تعطى كل شئ فلا يتبقى منك شئ.

الفداء بالذبح العظيم

بدأ الخليل فى الذبح فلم تقطع السكين شيئًا من عنق إسماعيل ولم يتأثر بشئ وصار صلداً كالصخر والسكين أصبحت كقطعة من الحديد لا تؤثر فى شئ. حاول إبراهيم ثانية فلم تفعل شيئاً وإذا بالأمين جبريل وفى يده كبش عظيم.

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٣ _ ١٠٧].

ويقال أنه كبش أبيض أعين أقرن وعن ابن عباس قال كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن (صوف) أحمر.

وقيل عنه: أنه الكبش الذى تقرب به هابيل إلى الله فقبله ورفعه إلى السماء.

سنة الأضحية

سنة الأضحية فى صبيحة عيد الأضحى المبارك تقرباً إلى الله بالصدقة من لحمها على الفقراء وبالمودة بين الأقارب والأصدقاء وتذكيراً بالحدث العظيم. وصارت هذه الأحداث عيداً للمسلمين.

تمسح اليهود بالذبيح ويدّعون أنه إسحاق

يرد الله على كذبهم حيث قال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٣]. أى أن البشارة بإسحاق جاءت بعد فداء إسماعيل من الذبح وهم يعلمون ذلك يقينا ولكنها طباعهم.

البشرى بمولد إسحاق

بعد أن عاد خليل الرحمن من زيارة ابنه إسماعيل وزوجته هاجر وهو جالس أمام بيته فى فلسطين الذى بناه ليستقبل فيه الأضياف. فقد كان إبراهيم محباً لإكرام الضيف فوجد أمامه ثلاث رجال لا يعرفهم ولم يرهم من قبل واضح أنهم أغراب وقادمين من سفر ولكنه لاحظ عليهم ملابس نظيفة وهيئتهم لا توحى عن سفر. فاستقبلهم وطلب من زوجته سارة أن تعد الطعام لضيوفه فجاءت بعجل ثمين وذبحته بعد أن سمت عليه باسم الله وشوته على النار وقدم إبراهيم الطعام إلى ضيوفه وطلب منهم أن يأكلوا فلم تمتد إلى الطعام أيديهم. فارتاب إبراهيم فى أمرهم فكان من عادات البدو أن من يأكل طعام المضيف يأمن عليه وعلى أهله وماله. فكرر عليهم القول وسألهم لما لا تأكلون وشعر إبراهيم نحوهم بالريبة والخوف لما وجد أيديهم لا تمتد إلى الطعام. وشعروا بخوفه فقال أحدهم لا تخف: نحن لا نأكل يا إبراهيم: نحن ملائكة الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وقد أرسلنا إلى قوم لوط.

ضحكت سارة زوجة إبراهيم. . فقد كانت قائمة تتابع الحوار بين زوجها وضيوفه إلتفت إليها أحد الملائكة وبشرها بإسحاق.

صكت العجوز وجهها تعجباً وقالت : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ءأَلِدُ وأَنا عَجُوزٌ وهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] عاد أحد الملائكة يقول لها : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب ﴾ [هود:٧١] أى أنك ستشهدين ولادة ابنك وحفيدك. ساد جو من الفرح الممتزج بالرهبة والروحانية فإبراهيم وزوجته قد بلغا من العمر أرزله فإبراهيم وصل عمره إلى المائة عام وزوجه سارة وصلت إلى التسعين من العمر وهى عقيم والبشرى من ملائكة الله وهم فى حضرتهم جالسون.

وسط هذا الجو تساءل إبراهيم :﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] أراد إبراهيم أن يسمع البشرى ويفرح بها مرة أخرى ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

لم يع الملائكة شعوره البشرى فنهوه أن يكون من القانطين وأفهمهم أنه ليس قانطا إنما هو الفرح.

انتقل رد الفعل إلى زوجته وتدخلت وهى فى ذهول ودهشة قائلة :﴿ءأَلِدُ وأَنَا عَجُوزٌ: إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

رد الملائكة: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

هزت الفرحة مشاعر الزوجة الصابرة سارة التى تمنت الولد فى شبابها ولما أصابها اليأس زوجت الخليل بهاجر التى أنجبت له إسماعيل وأصابتها غيرة النساء وطلبت منه أن يغيبها عن وجهها. وصبرت على ابتلائها ونسيت واعتادت على نسيانها وحياتها وحب زوجها لها فاضت مشاعرها وانسابت دموعها فى صمت.

وأحس إبراهيم عليه الصلاة والسلام بفضل الله ونعمه الكثيرة عليه وخر ساجداً على وجهه قام إبراهيم من سجوده وغادره الروع وسكنت قلبه البشرى التى حملوها إليه.

وتذكر أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.. ولوط ابن أخيه أول من آمن بدعوته وهاجر معه وإبراهيم يعرف عاقبة إرسال الملائكة إليه فهو الهلاك والعذاب المروع. وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لا تجعله يطيق هلاك قوم.

وبدأ إبرهيم يجادل الملائكة فى قوم لوط. . حدثهم عن احتمال إيمانهم ورجوعهم عن طريق الفجور. وأفهمه الملائكة أن هؤلاء قوم مجرمون وأن مهمتهم هى إرسال حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين. . وعاد إبراهيم بعد أن سد الملائكة هذا الحوار.

عاد يحدثهم عن المؤمنين من قوم لوط. سألهم أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا: لا فراح ينقص من العدد ويسألهم أتهلكون القرية وفيها هذا العدد من المؤمنين ردت الملائكة بقولهم نحن أعلم بمن فيها. وأفهموه أن الأمر قد قضى وأن عذاب واقع بهم وأن حواره معهم لا جدوى منه لأن أمر الله نافذ لا محالة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٦].

المعجزة حدثت

سارة تحمل وهى فى التسعين من عمرها وآن لها أن تفرح كما تفرح النساء الصغيرات وتحرك الجنين فى بطنها فعلمت أن الله أوفى ببشراه التى حملها إليها الملائكة هى وزوجها خليل الرحمن إبراهيم.

لم تكن البشرى بالإنجاب فقط بل كانت بأن ابنها سيعيش وينجب وأنها ستعيش حتى ترى حفيدها يعقوب.

ومرت أشهر الحمل وجاء موعد الوضع. . ووضعت سارة طفلاً جميلاً أسماه الله إسحاق. . ويقال أن ترجمة هذه التسمية معناها (يضحك) ويعنى ذلك أن هذا المولود

كان ضاحك الوجه مبتسم الثغر.. جاء مباركاً من عند الله ليُسَّر به خليله وزوجته البارة الصابرة سارة.. مكافأة لها على رعايتها وحبها لزوجها وإيمانها بالله وهجرتها من بلادها معه إلى بلاد لم تكن تعرفها.

جاء ميلاد إسحاق بعد مولد إسماعيل بثلاثة عشر عاما وكان عمر إبراهيم تسع وتسعون سنة وعمر سارة حوالى تسع وثمانون سنة.

وعاشت سارة حتى رأت حفيدها يعقوب عليه السلام وماتت.وعمرها مائة وسبعة وعشرون سنة وحزن عليها إبراهيم حزناً شديداً واشترى لها مغارة فى قرية حبرون ودفنها فيها.

بناء البيت الحرام

وقد شب إسماعيل بين قبيلة جرهم وتعلم منهم اللغة العربية وعن حاله بينهم يشمل الحديث الآتى لرسول الله ﷺ حياة إسماعيل وأمه فى وادى مكة. حيث قال: «فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل بيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر فى ضيق وشدة وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً: فقال هل جاءكم من أحد؟ فقالت نعم: جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشئ؟ قالت نعم. أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبى وأمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثم أتاهم بعد لم يجده فدخل على امرأته. فسألها عنه. فقالت: خرج يبتغى لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير، وسعة، وأثنت على الله فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء».

قال الرسول ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب. ولوكان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بعين مكة إلا لم يوافقاه قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل. قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير قال: فأوصاك بشيئ؟ قالت نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبه بابك. قال: ذاك أبى، وأمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر. قال فأصنع ماأمرك به ربك. قال وتعيننى. قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال: وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١).

أمر الله إبراهيم بالختان

قيل فى هذا الأمر عن أهل التوراة: أن إبراهيم أمره الله بأن يختتن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد، وغيرهم فختنهم وختن نفسه وكان له مائة وعشرون سنه من عمره. فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة وهذا امتثال لأمر الله عز وجل فى أهله فيدل على أن فعله على وجه الوجوب لهذا كان الصحيح من أقوال العلماء: إنه واجب على الرجال كما هو مقرر فى موضعه. وفى إنجيل برنابا أن سبب الختان أن آدم لما عصى ربه نذر أن يقطع من نفسه عضواً إذا تاب الله عليه فلما قبلت توبته وأراد الوفاء بنذره احتار ماذا يصنع؟ فدله جبريل على هذا الموضع فقطعه. ولعل أبناءه تركوا هذه السنة حتى أمر الله إبراهيم بإحيائها.

---

(١) صحيح. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، باب «٩»).

صفات إبراهيم عليه السلام

لقد ذكر العلماء أن الله خص نبيه إبراهيم عليه السلام بصفات كان هو الأول فيها: فهو أول من بنى الكعبة من البشر وكان الملائكة بنوها قبل آدم فهو أول من اختتن وكان عمره مائة وعشرون عاماً.

وهو أول من ضاف الضيف. وهو أول من استحد وأزال الشعر الزائد من الجسم وهو أول من قلم الأظافر. وهو أول من قص شاربه وقصره..

وهو أول من شاب، ولما رأى الشيب قال ما هذا فأجيب أنه الوقار فقال: اللهم زدنى وقاراً. وهو أول من خطب على منبر. وهو أول من فت الخبز فى مرق اللحم وهو أول من استعمل السواك فى نظافة الأسنان وهو أول من استعمل الماء فى الاستنجاء وأول من لبس السراويل لستر عورته وهو أول من اتخذ العصا ليتوكأ عليها.

قصر الخليل فى الجنة

قال رسول الله ﷺ : **«إن فى الجنة قصراً أحسبه قال: من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهن أعده الله لخليله عليه السلام نزلا»** (١).

أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام

أول من ولد له إسماعيل من (هاجر) القبطية المصرية. ثم ولد له إسحاق من (سارة) بنت عم الخليل. ثم تزوج بعدها من (قنطور) بنت يقطن الكنعانية ولدت له ستة: مدين وزمران وسرج ويقشان ونشق ولم يعرف اسم السادس.

ثم تزوج بعدها (حجون) بنت أمين فولدت له خمسة: كيسان وسورج. وأميم. ولوطان، ونافس، هكذا ذكره أبو القاسم السهيلى فى كتابه التعريف والإعلام.

وفاة ابراهيم الخليل

قيل فى صفة مجئ ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم

---

(١) إسناده ضعيف أخرجه ابن عساكر فى «التاريخ» (٢/ ١٥٩) وذكره ابن كثير فى «البداية والنهاية» (١/ ١٧٢)..

بصحتها. وقد قيل أنه مات فجأة وكذا داود وسليمان والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك.

قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام ومات عن مائة وخمس وسبعين. وقيل: وتسعين سنة ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى الذى اشتراها منه ودفن فيها سارة وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة كما قاله ابن الكلبى. وقال أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**» [١].

*****

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (٤/ ١٧٠، ٨/ ٨١ فتح البارى) ومسلم في

قصة لوط عليه السلام

من الأحداث العظيمة التى حدثت فى حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقد بينا ذلك فى قصة إبراهيم.

ولوط هو ابن هاران بن تارخ وهو (آزر) كما تقدم ولوط ابن أخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة.

ولوط هو الوحيد الذى آمن بعمه إبراهيم وهاجر معه أرض بابل (العراق) إلى الشام ثم إلى مصر وعودة إلى أرض فلسطين.

وكان لوط قد نزح عن محله عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زعر وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة يقطعون السبيل ويأتون فى، ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه.

لبئس ماكانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة، ولم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم.

وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم.

وجاء عنهم فى بعض كتب الأدب العبرى وصفاً لهم. وهو أنهم كانوا يتربصون لكل داخل مدينتهم من التجار ويجتمعون عليه من كل أوب، ويمدون أيديهم إلى بضاعته يأخذ كل واحد منها شيئا قليلاً حتى لايبقى فى يده شئ فإذا جلس حزيناً وجأر بالشكوى يأتى الواحد منهم ويقول كل هذا لأنى أخذت هذا الشيء اليسير؟ دونكه، فيقول: ما عسى أن ينفعنى ما جئت به بعد أن ذهبت بضاعتى. اذهب عنى بهذا الذى جئت به. فإذا انصرف جاء آخر بشئ تافه يريد ردَّه عليه، فيتركه الرجل لزهاده ما أتى به وينصرف. وهكذا يخسر الرجل بضاعته بتفرقها فى الأيدى الكثيرة. فهم كما قال

تعالى ﴿وتقطعون السبيل﴾ وفى دلالة أخرى على ظلم أهل سدوم:

أن سارة زوج إبراهيم أرسلت العازر كبير عبيد إبراهيم ليأتيها بسلام لوط: فلما دخل مدينة سدوم لقيه رجل من أهلها فعمد إلى العازر بحجر ضربه به فى رأسه فأسال منه دماً كثيراً ثم تعلق به قائلاً: إن هذا الدم لوبقى لأضرّ بك، فأعطنى أجرى. ثم آل الأمر بينهما إلى الترافع إلى قاضى سدوم. فلما سمع للخصمين حكم على العازر بأن يعطى للسدومى أجر ما ضربه بالحجر وأسال دمه، فلما رأى العازر الجور من القاضى والخصم من أمره، عمد إلى حجر ضرب به رأس القاضى فأسال دمه وقال له: الأجر الذى وجب لى عليك بإسالة دمك عليك أن تعطيه لضاربى السدومى جزاء ضربه إياى وإسالة دمى.

ولهذا صدق فيهم قول الشاعر أبى العلاء المعرى حين قال:

وأى امرئ فى الناس ألفى قاضياً ولم يحض أحكاماً لحكم سدوم

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

الملائكة فى ضيافة لوط

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان إختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطاً عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس ﴿سئ بهم وضاق بهم زرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه وذلك كما يعلم من مرافقته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم. وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وذكر قتادة: أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها، فقال لهم فيما قال: يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثُمَّ مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم فلقوا ابنه لوط تستقى من الماء لأهلها. وكانت له ابنتان الكبرى ريثا والصغرى فقالوا لها: ياجارية هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت أباها، فقالت: ياأبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم. وقد كان قومه ينهوه أن يضيف رجلاً. فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال. فجاءتهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها فقالت: إن فى بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه. وقوله ﴿ **وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ٧٨] أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ [هود: ٧٨] والمقصود بهذا أن نبى الله لوط

يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث وكما قال تعالى: ﴿ (٥) **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ [الأحزاب: ٦].

فليس من المعقول أن يعرض نبى من أنبياء الله بناته على فجار لم يتبعوا دعوته إلى عبادة الله الواحد وظلوا على كفرهم وفسقهم وعنادهم وارتكاب الفواحش حاول نبى الله لوط عليه السلام معهم الكثير حاول نهيهم عن ارتكاب تلك الفواحش ولم يهن عزمه ولم ييأس من دعواهم لإتيان ما شرع الله لهم من نسائهم وترك المعاصى وعبادة الله الواحد. فلم يؤمن منهم أحداً.

كما حاول عمه إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام أن يبعد عنهم العذاب لما جادل الملائكة فى أمرهم وذلك أنه كان يرجوا أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا

وسألهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال فمئتا مؤمن؟ قالوا لا قال فأربعون مؤمنا؟ قالوا: لا، قال: فأربعة عشر مؤمنا؟ قالوا: لا إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا :لا، قال: إن فيها لوطاً: ﴿ **قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا** ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ** ﴾ [هود: ٧٥، ٧٦]

اجتمع كبار القوم الفجار وخلفهم مؤيدوهم على باب لوط يطلبون ضيوفه قالوا :

﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ** ﴾ [هود: ٧٩].

ولهذا قال عليه السلام : ﴿ **لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ** ﴾ [هود: ٨٠].

ود لوط عليه السلام أن لوكان له منفعه أو عشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

وقال رسول الله ﷺ :«**رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله عز وجل فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروه من قومه**».

حاول نصحهم وإبعادهم عن ضيوفه وألا يخذلوه فيهم قال تعالى : ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ [هود: ٧٨] ولكن مع من أمع قوم قد صموا آذانهم عن سماع الحقّ، وأغلقوا عقولهم عن الفكر وأعموا أعينهم عن رؤية النور.

والملائكة يقفون يسمعون ويراقبون ما يحدث بين النبى لوط والقوم الكافرين يدافع عنهم وهو لا يعلم حقيقة أمرهم.

﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ [النمل: ٥٦] الفجار لا يريدون غير الأنجاس أمثالهم ويقررون إخراج لوط وقومه من قريتهم لأنهم قوم أشراف يتطهرون.

وأخيراً وبعد أن ضاق بهم لوط ولم يعد يجدى النصح معهم، قال الملائكة: يالوط ﴿ **إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ** ﴾ [هود: ٨١]

وخرج جبريل إليهم فضربهم بجناحه فطمس عيونهم فعموا جميعاً. فانصرفوا وهم يتوعدون. لم يردعهم العمى عن غيهم ولم يكفهم عن ضلالهم وانصرفوا يتحسسون إلى دورهم وهم يقولون إنا لعائدون وفي الصبح إنا لقادمون.

عذاب الله واقع

سأل لوط الملائكة: أينزل العذاب بهم الآن؟

قالوا: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

خرج لوط مع بناته وزوجته... ساروا في الليل وغذوا السير.. واقترب الصبح.. كان لوط قد ابتعد عن أهله ثم جاء أمر الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

قال العلماء: اقتلع جبريل عليه السلام، بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد رفعها جميعا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، قلب المدن السبع وهوى بها إلى الأرض.. وأثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم.. حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضاً، ومعلمه بأسمائهم، ومقدره عليهم.. استمر الجحيم يمطرهم وانتهى قوم لوط تماماً. لم يعد هناك أحد.

نكست المدن على رؤسها، وغارت في الأرض، حتى انفجر الماء من الأرض.

هلك قوم سدوم ومحيت مدنهم تحولوا إلى بحيرة من الموت.. (ولهذا سمى مكانهم الذى هبطوا فيه بالبحر الميت وذلك لشدة ملوحة ماءه وعدم وجود أحياء مائية به).

كان لوط يسمع أصواتاً مروعة..وكان الهواء خلفه يتمزق وكان يحاذر أن يلتفت خلفه ويحذر أهله ولكن نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتهت.. تهرأ جسدها وتفتت مثل عمود ساقط من الملح.

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠] أى خانتاهما فى الدين ولم يتبعاهما فيه وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كانت حياة لوط بين هؤلاء القوم عذابا خارج بيته وداخله. عذاباً متصلاً، وعنتاً شديداً وكان صابراً على قومه، واستطالت السنوات ولم يؤمن به أحد، بل راحوا يهزأون برسالته.

ويقولون فيما يقولون ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] يتحدون بفجورهم وفسوقهم نبى الله لوط الذى جاء لهم ناصحاً لينتهوا عن ما هم فيه من ضلال وفجور وما يرتكبون من المعاصى. قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ . وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٧].

وقال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٧] وجعل الله مكان تلك بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين إنجائه إياهم من المهلكات وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور.

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨، ٩] وحقاً هى آية لم تندثر: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٦]. أى أنها بطريق مسلوك إلى الآن.

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] يعنى أنها آية ظاهرة. . قال العلماء. إن مكان المدن السبع. . بحيرة غريبة ماؤها أجاج. . وكثافة الماء من كثافة مياه البحر الملحة. . وفى هذه البحيرة صخور

معدنية ذائبة.. توحى بأن هذه الحجارة التى ضرب بها قوم لوط كانت شهباً مشتعلة يقال أن البحيرة الحالية التى نعرفها باسم (البحر الميت) فى فلسطين هى مدن قوم لوط السابقة ويستفيد من هذه المياه المستعمرين الصهاينة فى استخراج الأملاح المعدنية والمواد الكيميائية التى تفيد فى الصناعات الحربية والأردنيون أمامهم على الشاطئ الآخر يتفرجون انطوت صفحة قوم لوط.. انمحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض.. سقطوا من ذاكرة الحياه والأحياء.. وطويت صفحة من صفحات الفساد.

وتوجه لوط أول ما توجه إلى إبراهيم.

زار إبراهيم وقص عليه نبأ قومه.. وأدهشه أن إبراهيم كان يعلم.

ومضى لوط فى دعوته إلى الله .. مثلما مضى الحليم الأواه المنيب خليل الرحمن إبراهيم فى دعوته إلى الله

مضى الاثنان يحملان راية التوحيد لعباده الله وينشران الإسلام فى الأرض إلى أن قضى الله أجل كل منهما فى ميعاده المعلوم.

*****

إسماعيل عليه السلام

هو الكريم ابن الكريم من هاجر المصرية.. هو بكر إبراهيم الخليل وهو الذبيح ولوادعى غير ذلك بنى اليهود الذين حوروا وزوروا فى كتبهم وكتب غيرهم يودون نسبه الذبيح إلى إسحاق عليه السلام زوراً وحقداً وهم يعلمون الحقيقة ولكن كبرهم وعنادهم أصم آذانهم وأعمى أبصارهم.

هو الصابر ابن الصابر ابن الصابرة عليهم السلام والرحمة من الله وبركاته.

لم تهنأ هاجر بسعادة الخليل إبراهيم بولادة ابنه البكر إسماعيل الذى رزقه الله به وهو فى السادسة والثمانون من العمر ولم تسعد هى برعاية زوجها وإسعاده لها إذ بها تنصاع لأمر زوجها الخليل إبراهيم وتحمل وليدها إسماعيل وتتبعه الخطى إلى أين؟ لاتدرى هاجر ولكنها الزوجة الصالحة المؤمنة التى لا تجادل زوجها فى أمراً عزم عليه.

اتجه إبراهيم جنوباً لمسافة حوالى ألفى كيلو متر وترك زوجته وابنه الوحيد الرضيع إسماعيل فى وادى صحراوى تحيطه الجبال من أغلب الجهات ولا كان لنبع ماء قريب ولا زرع حوله ليشربا ويأكلا ولا من بشر يأنسون بهم ويعينهم على الحياة. تركهما إبرهيم بعد أن أقام لهما خيمة فى ذلك الوادى قريبا من قواعد بيت الله الحرام، تنفيذاً لوحى السماء.. لأمر الله سبحانه وتعالى.. وليس كما يظن البعض لغيرة زوجته سارة.. فإن كان الأمر غيرة نساء.. لاستقل لها إبراهيم بيت آخر هى ووليدها فى نفس القرية أو قريه أخرى قريبة ولكن أن يتركهم على هذا البعد وفى هذا المكان المحدد لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى

تركهما إبراهيم والتفت عائداً فتعلقت به هاجر قائلة.. إلى أين يا إبراهيم؟ لم يجبها عاد إبراهيم وفى ثنية من الأرض نظر فى اتجاه قواعد البيت ودعا إلى الله

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

تركهما الخليل إبراهيم ولم يكن مع هاجر سوى القليل من الزاد والماء. عادت

هاجر الصابرة الطائعة المؤمنة بوليدها ترضعه فى ظل الخيمة . . واشتد حر الصحراء فارتوت وأرضعت وليدها إسماعيل ومع الوقت واشتداد حر الصحراء ووهج الشمس نفذ الماء وجف صدرها ولم يعد فى مقدورها إرضاع حبيبها ابنها إسماعيل ماذا تفعل والوليد يصرخ يريد الرضاع لم يعد لديها حتى الماء تبلل بها شفاه. تركته فى ظل الخيمة وقامت تنظر لعلها تجد على البعد من البشر من يحمل الماء والزاد وجدت الصفا أمامها فصعدت إليه تنظر ونزلت مهرولة إلى جبل آخر مقابل له اسمه المروة فصعدت إليه لتنظر من فوقه فلم تجد شيئاً وهبطت إلى الوادى عائدة إلى الصفا. وظلت على هذه الحال سبع أشواط إلى أن سمعت صوتا كأنه صوت خرير ماء فحبست أنفاسها وأرهفت سمعها فإذا بها تسمع بوضوح صوت خرير ماء فهرولت من جبل المروة لما رأت الماء وقد تدفق تحت قدم وليدها إسماعل فجعلت تحوط الماء فى فرحة وتبلل شفتا الرضيع به وشربت وأرضعت إسماعيل حتى شبع ونام فجعلت بلغتها المصرية القديمة تقول للماء وهى تحوط زم زم.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ : **«يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أوقال :«لولم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا»** (١)

وقيل أنها وهى مشرفة على المروة سمعت صوتا، فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتاً، فقالت صه تريد نفسها. ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه، وتقول زم زم وجعلت تغرف بيدها وتضع فى سقائها وهى تفور بعد ما تعرف.

ورث إسماعيل حلم أبيه. . دعا إبراهيم ربه من قبل ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠].

قال تعالى ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]

نفس حلم أبيه. . نفس صلاحه، وتقواه، وأدب النبوة.

(١) صحيح. أخرجه البخارى (٣/ ١٤٧ فتح البارى) والبيهقى (٥/ ٩٩) وعبد الرزاق (ح/ ٩١٠٧).

التقى إسماعيل بأول محنة له وهو طفل وليد، وانتهت المحنة بأن فجر الله تحت قدميه ماء زمزم لتشرب الأم ويرضع الوليد.

الله يستجيب لدعوة خليله إبراهيم

يمر أهل بيت من جرهم فى قافلة قادمة من اليمن قاصدة التجارة فى الشام. فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً (باحثا عن الماء) فقالوا إن هذا الطائر ليدور على الماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا منهم فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بوجود الماء فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم بشرط ألا يكون لهم الحق فى امتلاك الماء. أى يتركونه مشاعاً لمن يريده اتخذ الجراهمة من هذا المكان مركزا لهم فى غدوهم ورواحهم وأكرموا إسماعيل وأمه وكانوا ينظرون إليهما نظرة إجلال واحترام بعد علمهم بقصة تفجر الماء فأدركوا أن فيه سراً عظيما ملأ نفوسهم هيبة وتكريماً. واطمأن إبراهيم على وليده وأمه هاجر لذلك.

الذبيح إسماعيل

ما يكاد الخليل يبرأ من ابتلاء أصابه إلا وكان له آخر. ماكاد إبراهيم يطمئن قلبه على بكره إسماعيل وأمه هاجر ورعاية الله وحفظه لهما. ويصبر على فراق ابنه الذى تمناه من الله وأمره بتركه وأمه فى هذا المكان الموحش الفقير فى كل شئ إلا من رحمة الله وسعته.

أطاع إبراهيم أمر الله رغم شدة البلاء وصعوبته. هنا تبدو شدة البلاء وصعوبته. وهنا يكشف الحب عن أعمق أعماقه، وأعظم أصالته.

يمتحن الله خليله إبراهيم. يمتحنه فى أحب ما يعتبره الآباء أحب شئ لديهم.

وليس معنى حب الله لإبراهيم، وحب إبراهيم لله. أن إبراهيم كان خلوا من المشاعر الإنسانية أن طاقته على الحب الإلهى تعنى أنه كان بحراً من المشاعر الإنسانية. بحراً لا نهاية لفيضه ولا حدود لشطآنه.

كان إحساسه بإسماعيل أعظم وأرق وأحنى من إحساس أى والد بإبنه ورغم ذلك تركه وأمه فى ذلك المكان المهلك. لا لشئ إلا أن الله أمره بذلك.

رغم حبه لولده وتعلقه به ولم يهنأ به بما يكفى شوقه له ولم يكن له ولد غيره ولكنه اختار حبه لله على حبه لولده.

وحين اطمأن إبراهيم على ولده بعد أن أفاض الله عليه وعلى أمه بالخير والرعاية والصحبة والأمان وصار إسماعيل صبياً. زاد حب إبراهيم له وحين أحبه أكثر مما ينبغى، أمره الله بأن يذهب إليه. لماذا؟.. هل ليبقى بجانبه ويشبع عاطفة الأبوه به؟

هل ليأنس به وبأمه؟.. هل ليرعاهما؟.. هل ليحضرهما ليعيشا معه؟ كلا.. لا هذه ولا تلك.. بل ليذبحه.

ياألله.. ما أقسى على النفس البشرية أن تقدم على هذا الفعل ابتلاء يتبعه ابتلاء وما أكثر ما أصابك يا رسول الله ونبيه وخليله إبراهيم لم يقل أنها أضغاث أحلام.. لم يدعوا إلى الله أن يعفيه من هذا الفعل القاسى على نفسه.. لم يسأل الله.. أن منحه إسماعيل وهو فى هذا العمر الكبير.. ثم لماذا يأمره بذبحه؟

بل اتجه إلى الجنوب إلى مكة إلى جبال فاران إلى مكان إسماعيل وأمه هاجر. لم يبلغ الأم الأمر. ولكن أخذ الابن بعيداً عن الأم ليسعيا طلباً للرزق: ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** ﴾ المحنة الجديده التى يتعرض لها إسماعيل. بعد محنته الأولى بتركه وأمه فى هذا المكان ومحنته فى عيشه مع أمه فى هذا المكان دون أبيه.. والآن يحضر إليه أبيه ليقول له أنى قادم بأمر الله لرؤيا رأيتها فى منامى أنى أذبحك. فانظر ماذا ترى؟

لم يجادل إسماعيل أباه فى صفة الرؤيا التى كانت أو أنها ربما كانت حلماً.. أو قال لماذا ياأبى تفعل بى ذلك وأنا ابنك البكر ولم يكن لك بعد ولد غيرى وقد تركتنى طفلاً رضيعاً مع أمى فى هذا المكان ولما صرت شاباً تأتى إلى لتذبحنى.. لم يجزع إسماعيل من أبيه لم يعدوا إلى أمه يطلب حمايتها له من أبيه لم يهرول إلى بنى جرهم يطلب منهم حمايته من الذبح الذى ينتويه له أبيه.

بل قال: ﴿ **يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات: ٤، ٥] يا أبت لا تقلك من جهتى ولا يدركك الأسى والجزع ولا تحزن ستجدنى إن شاء الله

من الصابرين سكنت نفس إبراهيم. . لقد وجد ابنه ينافسه فى حب الله وطاعته وإيمانه به وبمشيئته ويعينه على تنفيذ أمر الله فى ابنه طاعة ومحبة وإيماناً.

الشيطان لم يترك هاجر ولا إسماعيل ولا إبراهيم بل وسوس لكل منهم على حدة يحاول منع إبراهيم من تنفيذ أمر الله ولكنه فشل. وقد قدمنا ذلك تفصيلاً فى قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

الفداء بالذبح العظيم

شحذ إبراهيم السكين حتى لا يزيد آلام إبنه أثناء الذبح حتى أصبحت السكين جاهزة وحانت لحظة الذبح.

لم يقوى الخليل على النظر إلى وجه إبنه الحبيب إسماعيل وهو يضع السكين على رقبته ولم يقوى الإبن على النظر إلى وجه أبيه وهو يذبحه فانقلب وجعل وجهه إلى الأرض: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى سمى إبراهيم وكبر وتشهد الأب والإبن للموت.

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ الإسلام الحقيقى منهما وهو أن تعطى كل شئ فلا يتبقى منك شئ. بدأ الخليل بالذبح فلم تقطع السكين شيئاً ولم يتأثر عنق إسماعيل وكأنه قد صار قطعة من صخر. حاول إبراهيم ثانية ونفس ما حدث أول مرات ونفس النتيجة. وإذا بالأمين جبريل أمامه وفى يده كبش عظيم يناديه.

﴿ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ .وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ويقال أنه كبش أبيض أعين أقرن وعن ابن عباس قال كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً. كان يرتع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير وكان عليه عهن (صوف) أحمر وقيل عنه أنه الكبش الذى تقرب به هابيل إلى الله فقبله ورفعه إلى السماء.

سُر إبراهيم وإبنه إسماعيل وأمه هاجر بالفداء العظيم ونجاة إسماعيل سروراً عظيماً وأصبح ذلك اليوم بمثابة عيد احتفلوا به وأصبح من بعدهم عيداً نحتفل به وسنة واجبة للضحية على كل قادر من المسلمين تقرباً إلى الله بالصدقة من لحمها على الفقراء وبالمودة بين الاقارب والأصدقاء وتذكيراً بالحدث العظيم.

إدعاء اليهود بأن الذبيح إسحاق

يرد الله على كذبهم وافترائهم وتمسحهم حيث قال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ..وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٣].

أى أن البشارة بإسحاق بعد فداء إسماعيل من الذبح. وهم يعلمون ذلك يقينا ولكنها طباعهم التى جبلوا عليها.

بيت الله الحرام

اختلف البعض فى من كان أول من بنى بيت الله الحرام. فمنهم قائل بأن آدم عليه الصلاة والسلام أول من بناه.

ولكنا لو دققنا فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] وكلمة وُضِعَ (بضم الواو، وكسر الضاض، وفتح العين) أى أن الناس قد وجدوه موضوعاً لهم ولم يضعه أحد منهم. والقول معناه أن الله أرسل الملائكة لتضعه للناس. والله تعالى أعلم.

وقد ذكرنا من قبل فى آيات من خلق الله وفى قصة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام أن آدم نصب على موضع البيت قبة وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن سفينة نوح طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها. فأما إن ردها الحق فهى مردوده. وقد قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦] أى أن الله قد أرشد خليله إلى مكانه ليبنيه. . أو ليعيد بناؤه.

ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] هل كانت قواعد البيت فى موضعها وأمر الله خليله إبراهيم وابنه إسماعيل يرفعها أى بالبناء فوقها. هل كانت مبنية وهدمها الطوفان. كل

ذلك علمه عند الله ولكنا نجتهد.

وقد قدمنا فى آيات من خلق الله أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث إنه لوسقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع. كما قال بعض السلف. إن فى كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض. فأمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يبنى له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت فى الصحيحين «**أن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**» ذلك حديث رسول الله ﷺ(١).

قال تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [البقرة: ١٢٤، ١٢٥].

ومقام إبراهيم هو الحجر الذى كان يقف عليه إبراهيم أثناء عمليه البناء بعد أن ارتفع عليه ولا زالت آثار قدم سيدنا إبراهيم غائرة على هذا الحجر إلى الآن. وقد كان هذا الحجر الذى وضعه له ابنه إسماعيل ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فآخره عن البيت قليلاً لئلا يشغل المصلين عنده والطائفين بالبيت.

ويقال أن هذا الحجر كان يرتفع بإبراهيم عند البناء وينخفض به عندما يتلقى الحجر من ابنه إسماعيل. واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا. فإنه قد وافقه ربه فى أشياء منها فى قوله لرسول الله ﷺ: «**لواتخذنا من مقام إبراهيم مصلى**»(٢) فأنزل الله ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى**﴾ [البقرة: ١٢٨] وكانت رجله الكريمة قد غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ومكانها أمام أحد أضلاع الكعبه جهه

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (العلم، ح/ ١٠٤، ١١٢) ومسلم فى (الحج، ح/ ١٣٥٣).
(٢) قلت: إسناد هذا الأثر صحيح.

ضلع بابها. يراه كل من أراد من زوار بيت الله الحرام وكعادة الخليل عليه الصلاة والسلام عندما كلفه الله سبحانه وتعالى ببناء البيت اتجه إلى وادى فاران حيث توجد هاجر وابنه إسماعيل وبالقرب من بئر زمزم قال إبراهيم لإسماعيل: يا إسماعيل.. إن الله أمرنى بأمر.. حين جاءه أمر ذبحه عرض عليه الأمر صراحة، وها هو الآن يعرض عليه الأمر مبهما ليحصل على موثق منه أن يعينه فيه.. نحن أمام أمر أخطر من الذبح والتضحيه.. أمر لا يمس ذات النبى. وإنما يمس جموع غفيرة من خلق الله.

قال إسماعيل: فاصنع ما أمرك به ربك.

قال إبراهيم: وتعيننى؟

قال إسماعيل: وأعينك.

قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا.

أشار بيده لتل مرتفع هناك.

انتهى الأمر.. وصدر الأمر ببناء بيت الله الحرام.

هو أول بيت وضع للناس فى الأرض.. وهو أول بيت عبد فيه الإنسان ربه. ولما كان آدم هو أول إنسان هبط إلى الأرض.. فإليه يرجع فضل بناءه أول مرة.

قال العلماء: أن آدم بناه وراح يطوف حوله مثلما يطوف الملائكة حول عرش الله تعالى بنى آدم كوخ يعبد فيه الله.. شئ طبيعى أن يبنى آدم بوصفه نبياً بيتا لعبادة ربه.. وحفت الرحمه بهذا المكان.. ثم مات آدم ومرت القرون وطال عليه العهد فضاع أثر البيت وخفى مكانه وها هو إبراهيم يتلقى الأمر ببنائه مرة ثانية. ليظل فى المرة الثانية قائماً إلى يوم القيامة إن شاء الله.

ولقد بنيت حجارتها من طمأنينة قلب آدم، وسكينة إبراهيم وحبه وحلم إسماعيل وصدقه.. لا تكاد تدخل المسجد الحرام حتى يفيض داخلك تيار من الأمن العميق والسلام.. تشف ذاتك.. تدور حول الكعبة.. مثل حركة الذرات حول النواة.

سلام عظيم يملأ المكان والزمان. ويملؤك كجزء من المكان والزمان.. قد ترى نفسك

فى المرة الأولى ولا ترى البيت ولا ربه.. وربما رأيت البيت فى المرة الثانية، ولم تر نفسك ولا ربك.. فإذا ذهبت إلى الحج. فلم تر نفسك ولا البيت ورأيت رب البيت وحده فهذا هو الحج الحقيقى.. وهذه هى الحكمة الأولى من بناء الكعبة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

الكعبة حجرة كبيرة عالية السقف مبنية من الحجارة.. تمتد فى الأرض لعمق الأساس القديم الذى حفره إبراهيم وإسماعيل.. هدمت فى التاريخ أكثر من مرة وكان بناؤها يعاد فى كل مره.. فهى باقية منذ عهد إبراهيم إلى اليوم.. وحين بعث رسول الله ﷺ تحقيقاً لدعوة إبراهيم. وجد الرسول الكعبة حيث بنيت آخر مرة، وقد قصر الجهد بمن بناها فلم يحفر أساسها كما حفره إبراهيم.

نفهم من هذا أن إبراهيم وإسماعيل بذلا فيها وحدهما جهداً استحالت ـ بعد ذلك ـ محاكاته على آلاف الرجال.. ولقد صرح الرسول بأنه يحب هدمها وإعادتها إلى أساس إبراهيم لولا قرب عهد القوم بالجاهلية، وخشيته أن يفتن الناس هدمها وبنائها من جديد

بناؤها بحيث تصل إلى قواعد إبراهيم وإسماعيل..

أى جهد شاق بذله النبيان الكريمان وحدهما؟

كان عليهما حفر الأساس لعمق غائر فى الأرض، وكان عليهما قطع الحجارة من الجبال البعيدة والقريبة، ونقلها بعد ذلك، وتسويتها، وبناؤها وتعليتها. وكان الأمر يستوجب جهد جيل من الرجال، ولكنهما بنياها معاً.

لا نعرف كم هو الوقت الذى استغرقه بناء الكعبة، كما نجهل الوقت الذى استغرقه بناء سفينة نوح المهم أن سفينة نوح والكعبة كانتا معاً ملاذا للناس ومثوبة وأمنا.. والكعبة هى سفينة نوح الثابتة على الأرض أبداً.. وهى تنتظر الراغبين فى النجاة من

هول الطوفان دائماً لم يحدثنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم عن بناء الكعبة.. ولكن حدثنا عن أمر أهم وأجدى.. حدثنا عن تجرد نفسيه من كان يبنيها.. ودعائه وهو يبنيها ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقره: ١٢٧].

الغرض الأصلى من بنائها هو الرجوع إلى الله والعبادة الخالصة له وحده لا شريك له وأن يتقبل السميع العليم.. وتلك غاية إخلاص المخلصين.. وطاعة الطائعين.. وخوف الخائفين.. وعشق العاشقين.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقره: ١٢٨].

أن دعوة إبراهيم وإسماعيل تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن.. إنه يبنى لله بيته، ومع هذا يشغله أمر العقيدة.. ذلك إيمان بأن البيت رمز العقيدة ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقره: ١٢٨] ربنا علمنا كيف نؤدى مناسك العبادة التى ترضاها وتريدها منا وكيف تحب أن نعبدك فى الأرض. وتب علينا أنت التواب الرحيم.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقره: ١٢٩].

إستجاب الله لهذه الدعوة المباركة وتحققت ببعث محمد بن عبد الله ﷺ. إنتهى بناء البيت بعد جهد شاق قام به إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام وطلب إبراهيم من ابنه إسماعيل أن يأتيه بحجر لونه مميز عن باقى الحجارة ليجعله فى ركن يبدأ الناس منه الطواف حول الكعبة عبادة وتقرباً إلى الله.

ورغم الجهد الكبير الذى بذله إسماعيل وجسده المنهك فى العمل ذهب يبحث عن حجر وسار قدر طاقته وعاد، فوجد أبيه قد وضع الحجر الأسود مكانه. فسأل من أحضره إليك ياأبى؟

قال أحضره الأمين جبريل عليه السلام.

انتهى بناء الكعبة وبدأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى الطواف حولها واقتدى بهما الكثير من الناس.

ووقف إبراهيم يدعو ربه نفس دعائه الذى دعاه من قبل وهو يترك هاجر وابنه إسماعيل فى المكان.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٢٧] والهوى هو الانحدار الشديد نحو الشئ لا يقاومه فى انحداره عائق. وقمة ذلك هو هوى الكعبة. ومن هذه الدعوة ولد الهوى العميق فى نفوس المسلمين. رغبة فى زيارة البيت الحرام. وصار كل من يزور البيت الحرام ويعود إلى بلده.. يحس أنه يزداد عطشاً كلما ازداد رياً منه، ويعمق حنينه إليه كلما بعد عنه. ويجئ موعد الحج كل عام فيتأجج الهوى الغامض فى نفوس المسلمين حباً ولهفة إلى رؤية البيت الحرام وعطشاً إلى ماء زمزم وتقرباً إلى الله تعالى وطمعاً وأملاً فى رضاه ومغفرته.

قال تعالى حين جادل المجادلون فى إبراهيم وإسماعيل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] عليه الصلاة والسلام.. استجاب الله دعاءه.. وكان إبراهيم أول من سمانا المسلمين.

قال تعالى فى سورة الحج آية ٧٨ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ واستحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان بانى الكعبه لأهل الأرض أن يكون منصبه ومحله وموضعه فى منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه. ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور.

ذكر إسماعيل فى القرآن

أثنى الله تبارك وتعالى على عبده ورسوله إسماعيل فى عدة مواضع فى كتابه الكريم يصف فيها حلمه وخلقه وصبره وجهاده وطاعته على الابتلاء.

حيث قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١، ١٠٢] فطاوع أباه على ما إليه دعاه ووعده بأن يصبر فوفى بذلك وصبر.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبراهيم وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي والأَبْصَارِ . إنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وإِنَّهُمْ عندنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ . وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨]

وقال تعالى : ﴿ وإسْمَاعِيلَ وإدْرِيس وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِين. وأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ .﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى : ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقره: ١٤٠].

فذكر الله عنه صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون. وأمر أن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون. وذكر علماء النسب وأيام الناس أنه أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها.

قال رسول الله ﷺ «اتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم إسماعيل» (١) وكانت هذه الخيول وحوشاً فدعا لها بدعوته التى كان قد أعطى فأجابته وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة. وكان قد تعلمها من العرب العاربة من قبائل جرهم والعماليق الذين نزلوا عندهم بمكه.

قال رسول الله ﷺ «أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة

(١) قلت: والذى وقفت عليه فى مصادر التحقيق بلفظ: «ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها». أخرجه أبو داود فى (الجهاد، باب«٤٥») والنسائى فى (الخيل، باب «٣») وأحمد (٤/ ٣٤٥).

سنة» [١] وقد قدمنا فى قصة أبيه الخليل إبراهيم أنه تزوج لما شب من العماليق إمرأة وأن أباه أمره بفراقها ففارقها. قال الأموى: هى عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقى. ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها فاستمر بها وهى السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى وقيل هذه ثالثة فولدت له اثنى عشر ولداً ذكراً وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم: نابت وقيذر وإزبل وميشى ومسمع وماش ودوصار وأرر ويطور ونبش وطيما وقيذما. وهكذا ذكرهم أهل الكتاب فى كتابهم وعندهم أنهم الإثنا عشر عظيما المبشر بهم المتقدم ذكرهم وكذبوا فى تأويلهم ذلك.

رسالة إسماعيل

كان إسماعيل عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى أهل مكة وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه.

وفاة إسماعيل

لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق فولدت له الروم. ويقال لهم: بنو الأصفر لصفرة كانت فى العيص. وولدت له اليونان فى أحد الأقوال. ومن ولد العيص الأشبان.

ودفن نبى الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر. وكان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: شكى إسماعيل عليه السلام إلى ربه عز وجل حر مكة فأوحى الله إليه إنى سأفتح لك باب إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه تجرى عليك روحها إلى يوم القيام.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه نابت وقيذار .

*****

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ١٦٢) وكنز العمال (٣٢٣٠٩).

إسحاق ويعقوب عليهما السلام

لم يرد فى القرآن الكريم غير ومضات سريعة عن قصة إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام.

وقد جاء ميلاده بعد ميلاد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة وكان عمر الخليل مائة سنة وسارة حين بشرت به تسعين سنة هو وابنه يعقوب والبشارة كانت تعنى أنها ستعيش لترى حفيدها يعقوب من إبنها إسحاق. قال تعالى ﴿ **فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ . وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾ [هود: ٧٠ ـ ٧٢].

وقال تعالى : ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ** ﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣]. وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه فى غير ما آية من كتابه العزيز. وفى حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ «**أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**» [(١)].

وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج رفقا بنت بتوابيل فى حياة أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين أولهما سموه عيصو وهو الذى تسميه العرب العيص وهو والد الروم. والثانى: خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل. قالوا: وكان إسحاق يحب العيصو أكثر من يعقوب لأنه بكره وكانت أمهما رفقا تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

---

(١) صحيح. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، باب «١٩») والترمذى فى (التفسير، سورة «١٢» وأحمد (١/ ٩١، ٩٢، ٩٤).

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على إبنه العيص طعاما وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له. وكان العيص صاحب صيد فذهب يبتغى ذلك فأمرت رفقا ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه ويصنع منهما طعاماً كما اشتهاه أبوه ويأتى إليه قبل أخيه ليدعو له فقامت فألبسته ثياب أخيه وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك فلما جاء به وقربه إليه قال: من أنت؟ قال: ولدك فضمه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب وأما الجس والثياب فالعيص فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده وأن يكثر رزقه وولده.

فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقربه إليه. فقال له: ما هذا يابنى؟ قال هذا الطعام الذى اشتهيته يا أبى.

فقال أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا والله. وعرف أنه أخاه قد سبقه إلى ذلك فوجد فى نفسه عليه وجداً كثيراً. وذكروا أنه تواعده بالقتل إذا مات أبوهما وسأل أباه فدعا له بدعوة أخرى وأن يجعل لذريته غليظ الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم فلما سمعت أمهما ما يتواعد به العيص أخاه يعقوب أمرت ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها لابان الذى بأرض حران. وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه، وأن يتزوج من بناته. وقالت لزوجها إسحاق بأن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ففعل. فخرج يعقوب عليه السلام من عندهم من آخر ذلك اليوم فأدركه المساء فى موضع فنام فيه وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام فرأى فى نومه ذلك معراجاً منصوبا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك. فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين فى هذا الموضع معبداً لله عز وجل وأن جميع ما يرزقه من شئ يكون لله عشرة ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به وسمى ذلك الموضع بيت إيل أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب بعد ذلك.

فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران إذا له ابنتان إسم الكبرى: ليا وإسم

الصغرى: راحيل، وكانت راحيل حسناء جميلة. فطلب يعقوب أن يتزوج راحيل فأجابه خاله إلى طلبه بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين. فلما أتم المدة.. دعى خاله لابان الناس على طعام زف إليه ليلاً إبنته الكبرى ليا وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر ودخل بها يعقوب فلما أصبح فنظر إليها فإذا هى ليا، فتوجه إلى خاله وقال: غدرت بى وأنا خطبت راحيل، فقال خاله أنه ليس سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى فإن أردت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجك بها. فعمل سبع سنين. وأدخلها عليه مع أختها. وكان ذلك سائغاً فى ملتهم. ثم نسخ فى شريعة التوراة. وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته لأنه معصوم. ووهب خاله لابان لكل واحدة من إبنتيه جارية فوهب لليا جارية اسمها :زلفى، ووهب لراحيل جارية إسمها: بلهى. وجبر الله تعالى ضعف ليا بأن وهب لها أولاداً فكان أول من ولدت ليعقوب روبيل. ثم شمعون. ثم لاوى. ثم يهوذا فغارت راحيل وكانت لا تحبل فوهبت ليعقوب جاريتها بلهى فوطئها فحملت وولدت له غلام سمته دان ثم غلام آخر سمته نيفتالى.

فغارت ليا فوهبت جاريتها زلفى إلى يعقوب فوطئها فولدت له غلامين جاد وأشير ثم حملت ليا أيضاً فولدت غلاماً خامساً سمته: إيساخر. ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته زابلون. ثم حملت فولدت بنتاً سمتها دينا فصار لها سبعة من يعقوب.

ثم تضرعت راحيل الجميلة إلى الله وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب فاستجاب الله لدعائها فحملت من نبى الله يعقوب فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسنا جميلا، سمته يوسف.

ذلك فى أرض حران وهو يرعى على غنم خاله بعد دخوله على ابنته ست سنين أخرى فصار مدة مقامه عشرين سنة فطلب يعقوب من خاله لابان أن يسرحه ليمر إلى أهله فقال له خاله إنى قد بورك لى بسببك فسلنى من مالى ما شئت فقال يعقوب: تعطينى كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع وكل حمل ملمع أبيض بسواد وكل أملح ببياض وكل أجلح أبيض من المعز فقال نعم: فعمد بنو خاله فعزلوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس لكى لا يولد شئ من الحملان على هذه الصفات

وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم إمعاناً فى العزل. فعمد يعقوب عليه السلام إلى فروع من الأشجار رطبة بيض من لوز ولب الأشجار فكان يقشرها وينصبها فى مساقى الغنم من المياه لينظر الغنم إليها فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها فتصير ألوان حملانها كذلك وهذا يكون من باب خوارق العادات وينتظم فى سلك المعجزات فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد وتغير له وجه خاله وبنيه وكأنهم انحصروا على ما أخذه منهم.

وأوحى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه. فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته فتجهز بأهله وماله للرحيل. وعمدت زوجته راحيل إلى أصنام وتماثيل صغيرة لأبيها فسرقتها. فلما تحركوا وجاوزوا بلادهم. لحقهم خاله لابان وقومه. وعاتبه خاله فى خروجه بغير علمه حتى يودع بناته وأولادهن ويخرجون فى فرح ومزاهر. وعاتبه خاله فى أخذهم أصنامه ولم يكن عند يعقوب علم بها فأنكر أخذها. فدخل لابان خيام بناته وإمائهن يفتش فلم يجد شيئاً. كانت راحيل قد جعلتهن فى بردعة الحمل وهى تحتها فلم تقم واعتذرت بأنها طامث. فعند ذلك توثقوا على رابية هناك يقال لها: جلعاد على أنه لا يهين بناته ولا يتزوج عليهن ولا يجاوز هذه الرابية إلى بلاد الآخر لا لابان ولا يعقوب وصنعا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر وتفارقوا راجعين إلى بلادهم فلما اقترب يعقوب من أرض ساعير تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم، وبعث يعقوب رسله إلى أخيه العيصو يترقق له ويتواضع له فرجعت الرسل وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك فى أربعمائة راجل فخشى يعقوب من ذلك. ودعا الله عز وجل وصلى له وتضرع إليه وتمسكن لديه وناشده عهده ووعده الذى وعده به وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص، وأعد لأخيه هدية عظيمة وهى مائتا شاه وعشرون تيسا ومئتا نعجة وعشرون كبشاً وثلاثون ناقة حلوب وأربعون بقرة وعشرة من التيران وعشرون أتانا وعشرة من الحمر وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة فإذا لقيهم العيص فقال للأول: لمن أنت؟ ولمن هذه معك؟ فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدى العيص وليقل الذى بعده كذلك وكذا الذى بعده ويقول كل منهم وهو قادم بعدنا

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر بعد الكل بليلتين وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً. فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدى له ملك من الملائكة فى صورة رجل فظنه يعقوب رجلاً من الناس فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه فظهر عليه يعقوب فيما يرى إلا أن الملك أصاب وركه، فعرج يعقوب فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال يعقوب قال: لا ينبغى أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل. فقال له يعقوب: ومن أنت؟ وما إسمك؟ فذهب عنه. فعلم أنه ملك من الملائكة وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء ورفع يعقوب عينيه. فإذا أخوه عيصو قد أقبل فى أربعمائة راجل. فتقدم أمام أهله فلما رأى أخيه العيص سجد له سبع مرات. وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان، وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد أخوه يوسف وأبوه له كما سيأتى فلما رآه العيص تقدم إليه واحتضنه وقبله وبكى ورفع العيص عينيه، ونظر إلى النساء والصبيان فقال: من أين لكَ هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين وهب الله لعبدك فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له، ودنت ليا وبنوها فسجدوا له، ودنت راحيل وابنها يوسف فخرا سجداً له وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها ورجع العيص فتقدم أمامه ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشى والعبيد قاصدين جبال ساعير فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً ولدوا به ظلالا. ثم مر على أورشليم قرية شخيم فنزل قبل القرية واشترى مزرعة شخيم بن جمور بمائة نعجة فضرب هنالك فسطاطه وابتنى. ثم مذبحا فسماه إيل إله إسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه. وهو بيت المقدس اليوم الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى أعلمها بوضع الذهن عليها قبل ذلك.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة دينا بنت يعقوب بنت ليا، وما كان من أمرها مع شخيم ابن جمور الذى قهرها على نفسها. وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وإخوتها.

فقال إخوتها إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا شخيما وأباه جمور لقبيح ما صنعوا

إليهم مضافاً إلى كفرهم وما كانوا يعبدونه من أصنامهم فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل للمرة الثانية فولدت غلاماً وهو بنيامين إلا أنها جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت بعد ولادته. فدفنها يعقوب فى أفران وهى بيت لحم، وصنع يعقوب قبرها حجراً وهى الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم. وكان أولاد يعقوب الذكور إثنى عشر رجلاً فمن ليا: روبيل. وشمعون. ولاوى، . ويهوذا. وايساخر. وزايلون ومن راحيل: يوسف وبنيامين ومن أمته راحيل: دان. ونفتالى ومن أمته ليا جاد وأشير عليهم السلام.

وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التى فى أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم. ثم مرض إسحاق. ومات عن مائة وثمانين سنة. ودفنه إبناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل فى المغارة التى اشتراها ودفن فيها سارة من قبل.

ونستكمل قصة يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام مع قصة ابنه يوسف ابن راحيل عليه السلام.

*****

يوسف بن يعقوب عليهما السلام

ذكرنا فى قصة يعقوب أنه قد تزوج من ابنتا خاله ليا وأنجب منها روبيل ثم شمعون. ثم لاوى. ثم يهوذا ثم إيساخر ثم زابلون ثم بنتاً سمتها دينا أى أنه أنجب من ليا الغير جميلة ستة ذكور وأنثى.

ثم أنجب من إبنة خاله الجميلة راحيل ولدان ذكران هما يوسف وبنيامين الذى جهدت فى طلقها به جهداً شديداً وماتت بعد ولادته.

أى أنه أنجب من راحيل الجميلة اثنين ذكور.

ومن جارية راحيل (بلهى) فأنجب منها دان ثم نيفتالى.

ومن جارية ليا (زلفى) فأنجب منها جاد ثم أشير.

فيكون مجموع ما وهب الله لنبيه يعقوب إثنى عشر من الذكور وبنت واحدة ويكون يوسف وبنيامين شقيقان من أمهما راحيل التى ماتت بعد ولادتها لبنيامين. وحزن يعقوب لموتها حزناً شديداً لحبه العظيم لها وانتقل هذا الحب إلى ولداها يوسف وبنيامين وخاصة يوسف الذى ورث جمالاً أخاذاً فاق جمال أمه راحيل.

وهؤلاء الأولاد ولدوا ليعقوب وهو فى أرض حران وهو يرعى غنم خاله إلا بنيامين فقد ولد فى أرض كنعان.

كان يوسف أثيراً عند أبيه يخصه بقسط عظيم من محبته وكان ذلك سبباً فى حقد إخوته عليه وسبباً فى محنته التى تعرض لها من إخوته وكانت خيراً وبركة عليه وعلى أهل مصر وما حولها من البلاد فيما بعد.

جاء ذكر يوسف فى سورة كاملة من سور القرآن الكريم هى سورة يوسف ولم يذكر إسمه فى غيرها إلا مرتان فى سورة الأنعام آية ٨٤ وسورة غافر آية ٣٤ وقد ذكرت قصته كاملة فى سورة يوسف وسبب ذلك أن كفار مكة لقى بعضهم اليهود وتباحثوا فى ذكر نبوة محمد ﷺ وما يدعيه. فقال لهم اليهود: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام

إلى مصر؟ فأنزل الله سورة محمد ﷺ ورسالته إلى البشرية ولقد ورد ذكر يوسف فى سورة الأنعام كفضل من الله على إبراهيم حيث قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وجاء ذكر يوسف في سورة غافر حيث قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وقد جاء ذكر يوسف فى ٢٤ آية من سورة يوسف غير الآيتان السابقتان من سورة الأنعام وسورة غافر.

وقد جاء فى سورة يوسف قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

واختلف العلماء فى تفسير كونها أحسن القصص. فمنهم قائل لأنها حوت قصة يوسف كامله. ومنهم قائل بأنها حوت الكثير من العبر والحكم ومنهم قائل بأن يوسف صبر على ما أصابه من غدر إخوته وغواية النساء ودخوله السجن ظلماً. ثم إنصاف الله له وعفوه عن إخوته. ولأن فيها ذكر التوحيد والفقه وتعبير الرؤيا وتفسيرها فهى سورة غنية بالمشاهد والإنفعالات.

وهى تبدأ برؤيا وتنتهى بتحقيقها: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ولأن يوسف كان مقرباً فى المحبة لأبيه يعقوب للأسباب التى ذكرناها لجمال طلعته ولأنه ابن زوجته الجميلة راحيل التى ماتت بعد ولادة شقيقه بنيامين.

خاف يعقوب على إبنه يوسف من إخوته فنصحه بعدم ذكر هذه الرؤيا أمامهم حتى لا يكيدوا له غيرة منه: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]

أحس يعقوب أن الله يختاره بهذه الرؤيا. فقد عهد فيه النقاء والشفافية والصدق

وقد استجاب يوسف لتحزير أبيه. ولكن إخوته لم يكونوا إلا على مايشعرون به من حب أبيهم ليوسف وإيثاره له عليهم. وبدأوا فى التفكير عن أسباب ذلك والتآمر عليه ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ . إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ٨، ٩، ١٠].

خاف يعقوب على يوسف من إخوته. خاف من أن يوغر الشيطان صدورهم على أخيهم غير الشقيق ولشعور يعقوب بأن هذه الرؤيا التى حكاها له ابنه يوسف لهى إختيار من الله ليوسف من بين إخوته ليحمل رسالة النبوة فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ويعلم يعقوب أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنين فتوقع أن يكون يوسف هو الذى يختاره الله من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة فى بيت إبراهيم فقال له :﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٢، ٣، ٤]ويقصد يعقوب من كلامه أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة ما يدرك به من الأحاديث مآلها الذى تنتهى إليه. منذ أوائلها، وهو إلهام من الله لذوى البصائر المدركة النافذة، وجاء التعقيب :﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، مناسبا لهذا فى جو الحكمة والتعليم وقصة يوسف فضلا عن ما بها من عبر ومواعظ. ففيها أيضا من الصور الخيالية التى تدع لمن يقرأها أن يتصور ما شاء له تكوينه الفكرى والنفسى من تصور. وفى هذه الصور المعجزة من تحدى خيال أبرع الفنانين من البشر. إذ كيف يصور خيال هؤلاء أن الكواكب والشمس والقمر يسجدون لبشر.

يقول أهل الكتاب فى إسرائيلياتهم أن يوسف قد حدث إخوته عن هذه الرؤيا ولهذا زاد حقدهم عليه. والقرآن ينفى ذلك بدليل تحزير يعقوب لولده يوسف من ذلك. ومن اختاره الله نبياً لا يخالف نصح أبيه وهذه كتبهم وطباعهم والعهد بهم فى تحريف كلام الله على هواهم.

بداية المؤامرة على يوسف

بدأ الإخوة العشرة غير الأشقاء ليوسف فى تداول المؤامرة عليه فيما بينهم وكيفية التخلص منه ليخلو لهم وجه أبيهم ويفيض بحبه عليهم. إذ يتصور المتآمرون أن أبيهم لا يحبهم كما يحب يوسف وأخيه الشقيق بنيامين أكثر منهم.

فقال أحدهم: لماذا يحب أبونا يوسف وأخيه أكثر منا؟

قال آخر: ربما لجماله الواضح.

قال آخر: ربما لحبه لأمهما الراحلة الجميلة راحيل.

قال آخر: نقتل يوسف.

رد الآخر: لا داعى للقتل.. نطرحه أرضاً.. أى إننا ننفيه فى أرض بعيدة.

رد آخر: ولماذا لا نقتله ونستريح.. نريد أن ينساه أبينا ويخلوا لنا وجهه.

رد آخر: حرك الله قلبه شفقة على أخيه فقال.. تريدون أن تخلصوا منه؟ قالوا نعم: قال لا داعى للقتل فالنفي والإبعاد دون قتل يخلصنا جميعاً منه دون إراقة للدماء وقرروا بين أنفسهم أن يبدأوا فى تنفيذ مؤامرتهم. وبدأ مشهد جديد فى القصة وذهبوا إلى أبيهم.

تنفيذ المؤامرة

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤] دار الحوار بينهم وبين أبيهم فى موده ونعومه وعتاب خفى وإثارة للمشاعر بسؤاله: مالك لاتأمنا على يوسف ونحن نحبه ونخاف عليه وننصح له ونرعاه. لماذا لا ترسله معنا غدا يرتع ويلعب.

قال الأب: أنى لا أطيق فراقه. ولابد أن هذه العبارة قد أهاجت أحقادهم وضاعفتها أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم، وهو ذاهب كما قالوا له

للنشاط واللعب.

﴿وأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ نقطة جديدة أثارها والدهم لم ترد فى حوار تآمرهم على أخيهم أكان يقصد والدهم ذئاب الصحراء أم الذئاب التى بداخلهم. الله وحده يعلم.

وراودوه عن اصطحاب يوسف وأوضحوا له حمايتهم له وهم بهذه الكثرة من أن يأكله الذئب. وافق الأب تحت ضغط أبنائه على أن يأخذوه معهم صحبوا يوسف فى اليوم التالى وذهبوا به إلى الصحراء.. وابتعدوا أكثر مما يفعلون فى كل مرة اختاروا بئر لا ينقطع عنها مرور القوافل.

وأعادوا التفكير فى كيفية التخلص من يوسف هل يقتلوه؟

هل ينفوه فى أرض بعيدة لا يستطيع منها العوده إليهم؟

فقال قائل منهم لماذا لا نلقيه فى هذه البئر؟

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠].

اجتمعوا على يوسف وقد اختمرت فى عقولهم فكرة أكل الذئب له وخلعوا قميصه وحملوه وألقوه فى البئر وتركوه.تلقى ماء البئر جسد يوسف فلم يصب بسوء وأوحى الله إلى يوسف أنه ناج فلا يخاف. وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه.وجد يوسف صخرة ناتئه فى البئر فتعلق بها.

المتآمرون يكذبون

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ۝﴾ [يوسف: ١٦].

جاء العشرة إخوه المتآمرون فى ظلمة الليل يتصنعون البكاء حتى لا يتحقق أبيهم يعقوب من ملامحهم الكاذبة وقالوا: ﴿ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧].

ذهبنا يا أبانا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا وعندما عدنا إليه وجدنا الذئب قد

أكله وهذا قميصه الملوث بالدماء.

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف: ١٨].

ذبحوا شاة أو غزال ولطخوا قميص يوسف به. نظر نبى الله يعقوب إلى قميص ابنه الحبيب يوسف فوجده سليم وفطن بنفسه إلى ما حدث من أبنائه. . أى ذئب هذا الذى يأكل ضحيته دون أن يمزق قميصه وإن كان قد أكله ولم يبقى منه شيئا فكيف وجدوا قميصه سليماً وإن كان الذئب قد حمله بعيداً عن مكانهم ولم يعثروا على بقاياه فكيف وجدوا قميصه سليماً وكان رده عليهم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

إستعان نبى الله يعقوب بالله على فعله أبنائه بأخيهم شعر بكيدهم وكذبهم وتحلى بالحكمة وسأل اللهأن يمنحه الصبر الجميل وأن يعينه على فعلتهم.

إنقاذ يوسف

نعود إلى يوسف فى البئر لم يتركه الله طويلاً مبتلاً يعانى من بلله فسير إلى البئر قافلة متجهة إلى مصر فأدلى أحدهم بدلوه طلباً للماء فتعلق يوسف به وظن الرجل أنه امتلأ بالماء فسحبه فإذا بيوسف متعلقاً به. فرح الرجل مستبشراً. وكان من عادات العرب أن من يجد شيئاً يصبح له. وصلت القافلة إلى مصر وباعوه بثمن قليل تخلصاً منه. فقد كان أسيراً ولم يكن رقيقاً. فقد وجدوه ولم يشتروه وقد كان صبياً صغيراً لا يفيد فى عمل كالرقيق فباعوه تخلصاً من تهمة استرقاءه وبيعه.

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]. واشتراه رجل من مصر له مكانه فى الحكم يقال أنه العزيز وهو الوزير المسلمه له خزائنها ويقال له أطفير بن رويحب. أخذه إلى داره وقال لزوجته أن تحسن معاملته لعله ينفعهم أو يتخذونه ولد لهما.

صبر يوسف على ما أصابه من إخوته بعد أن ألقوه فى البئر والآن وقد أصبح عبداً بعد أن كان الإبن المقرب لأبيه وهو فى بلد آخر غير بلده ويعيش فى دار لدى من اشتراه ويسمع سيده يوصى زوجته به خيراً: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ

عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] وهذا من لطف الله بيوسف ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة وما يظنه البشر شراً يكون بتدبير الله خيراً وكان اسم امرأة العزيز راعيل بنت رعابيل. وقيل زليخا والظاهر أنه لقبها وقيل أن اسمها فكا بنت ينوس قال ابن إسحاق عن أبى عبيدة عن ابن مسعود [١]: قال: أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته: أكرمى مثواه، والمرأه التى قالت لأبيها عن موسى ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

ألقى الله محبة يوسف فى قلب عزيز مصر فأوصى زوجته بأن تحسن معاملته لتوسمه فيه خيراً لملامح وجه يوسف الجميل الصبوح الطيب ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وإكرام المثوى ليس فى الاهتمام بالشخص من مأكل ومشرب فقط بل مكان المبيت والإقامة أيضاً.

﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ من ملامح يوسف الوضاءة الطيبة الجميلة ولفراسة الرجل ولحكمة أرادها الله حماية وحنوا على نبيه يوسف يوصى الرجل زوجته ويوضح لها عن يوسف أنه يمكنه أن ينفعنا مستقبلاً أو يكون لنا ولداً والغالب أنهما لم يكن لديهما أبناء. وعاش يوسف أثيراً لدى سيده فجعله مع الوقت صاحب أمره والرئيس على خدمه والمتصرف فى بيته ولم يكن لأحداً فى الدرا رأى أعلى من رأى يوسف سوى سيده وسيدته. وقد تولى الله تعالى يوسف بالهداية والتربية والتوفيق وعلمه من لدنه علماً عظيماً.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١]

أراد إخوة يوسف به شراً وأراد الله به خيراً والله غالباً على أمره وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً وآتاه الله حكماً وعلماً من تأويل الأحاديث.

---

(١) إسناده لابأس. ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٨).

محنة يوسف

لم يكد يوسف يبرأ من محنته الاولى فى إخوته وحب أبيه وإيثاره الذى جلب عليه حقد إخوته وتخلصهم منه بإلقائه فى غيابات الجب ونجاة الله له. ومحنته الثانية فى رقه وبيعه فى سوق النخاسة ليصبح عبداً مملوكا لسيده بعد أن كان مدللِ محبوباً من أبيه وينجيه الله منها بأن يزرع الحب فى قلب سيده ويوصى زوجته به خيراً فجعله مع الوقت صاحب أمره والرئيس على خدمه والمتصرف فى بيته واستقر به المقام فى قصر سيده وشب وصار شاباً يافعاً. كانت منة الله عليه بالجمال الرائع مكمنا لمحنته الثالثة. فكانت تراه امرأة العزيز أمامها متحليا بالخلق السوى والجمال المفرط تراه وهو ينمو جسدياً فى حياء وعفة نفس فأشعل ذلك قلبها حباً له وصار ذلك يزداد بتكرار رؤيتها له والفراغ الذى تعيشه نساء القصور إلى أن غلبها الحب على حيائها. فأخذت تداعب يوسف وهو يعرض عنها لعاملين يكفى الواحد منهما لعزوفه عما تريد:

أولهما: إيمانه بالله وامتثاله أوامره بالتزام الطهارة من الأرجاس الخلقية. تلك الطهارة التى وجد عليها أباه موروثه عن جده وجد أبيه.

ثانيهما: أن زوجها وهو سيده قد أكرمه وأوصاها به خيراً وتربى فى داره بضع سنين لم يشعر بسوء معاملته وجعله المتصرف فى أمواله وخدمه ووثق به كثيراً وبلا حدود فلا ينبغى أن يقابل نعمته بالكفران فلو لم يكن له دين يمنعه عن الشر ويلزمه الطهارة لكان ذلك كافيا لحفظ سيده فى أهله. والبعد عن تدنيس فراشه.

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]. أوتى صحة الحكم على الأمور، وأوتى علما بالحياة وأحوالها، وأوتى أسلوبا فى الحوار يخضع قلب من يستمع إليه.. وأوتى نبلاً وعفة جعلاه شخصية إنسانية لا تقاوم.

أصر يوسف على مقاومة امرأة العزيز، إلى أن هاج بها هائج الغرام واعتزمت على شفاء نفسها من الصبابة فصارحته القول، ودعته إلى نفسها دعوه لا هواده معها واحتاطت للأمر وأخذت عدتها له. وغلقت الأبواب وقالت ليوسف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٣ ـ ٢٩] فى هذا الموقف العنيف شاب فى ريعان شبابه وغايه الفتوة تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها وقد غلقت الأبواب فيغلبه دينه ويعصمه المعاملة الطيبة التى لقيها من بعلها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] اتفق المفسرون حول همت بالمعصية، واختلفوا حول همه. فمن قائل أنها همت به تقصد المعصية وهم بها يقصد المعصيه ولم يفعل. ومن قائل أنها همت به لتقبله وهم بها ليضربها، ومن قائل أن هذا الهم كان بينهما قبل هذا الحادث. كان حركة نفسية داخل نفس يوسف فى السن التى اجتاز فيها فتره المراهقة . . ثم صرف الله عنه ويقول الإمام سيد قطب رحمه الله فى ظلال القرآن تفسيره لهذه الحالة:

هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعد ما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة. ولأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والإعتصام فى نهايته. مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً.

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية وما كان يوسف سوى بشر. نعم إنه بشر مختار ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسى فى لحظة من اللحظات فلما رأي برهان ربه الذى نبض فى ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الإعتصام والتأبى.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤، ٢٥] ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ هو يسرع إلى الباب يريد التخلص منها ومما تدعوه إليه وهى خلفه تحاول منعه وتلحق به وتجر به من ثوبه من الخلف وتمزقه ويفلت منها فيستبقان الباب هو يحاول فتحه وهى تغلقه ويفتح الباب فيجد زوجها لدى الباب ماذا تفعل وهى فى هذه الحالة وجدت زوجها لدى الباب فسبقت بالشكوى قائلة ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأفهمته أنه راودها عن نفسها وأنها أبت عليه. استشهد زوجها بواحد من أهلها بابن عمها واستمعا إليه واتجها إلى يوسف وسألاه ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ قال ابن عمها: إن كان قميصه تمزق من الأمام فهى صادقه وهو كاذب وإن كان قميصه تمزق من الخلف فهو صادق وهى كاذبه. فلما وجد قميصه تمزق من الخلف علم أنها تكذب وهو صادق.

فاتجه العزيز إلى امرآته باللوم قائلاً ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وأمر يوسف بكتمان الخبر وأمرها بالاستغفار لذنبها وصرح بأنها مخطئة فيما صنعت هكذا ببساطة شديدة هذا التصرف من زوج قِبَلَّ زوجته المتلبسة بغواية شاب إنما يدل على أمران لا ثالث لهما.

الأمر الأول: هو أن هذه الطبقة الحاكمة التى تعيش فى القصور وفى تلك الحقبة الزمنية كانت منغمسة فى اللهو والمفاسد وليس لديها نخوة الغيرة كما نراه فى أمريكا وأوروبا هذه الأيام.

الأمر الثانى: أن هذا الزوج به علة تعرفها عنه زوجته وهو منكسر بها أمامها واكتفى الزوج بذلك ولم يفعل ما يجب على أى زوج فعله وهو طلاقها أو التخلص من هذا الشاب الذى اشتراه صبياً وأصبح شاباً جذاباً يفتن زوجته. وإنما اكتفى بما جاء فى القرآن الكريم ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٧، ٢٨] تصرف مظهرى. لاحسم فيه وترك الأمر على ما هو عليه.. النار أمام البنزين.. كما يقولون هذه الأيام مما أدى إلى الأحداث التاليه.

انتشار الخبر بين الناس

بعد ما حدث واستشهاد زوجها بابن عمها وتركه للأمور على ما هى عليه كتصرف الطبقة الحاكمة الأرستقراطية المرفهة من سكان القصور.. والقصور لها جدران.. والجدران خلفها خدم وحشم وحراس والفراغ واللغو ينتشر بين النساء فى هذه الطبقة ولا يحلوا لهن الكلام إلا فى الفضائح فى مجالسهن وزياراتهن وسهراتهن الكثيرة وبدأت الحديث عن امرأة العزيز وفتاها ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ ووصل ما يقولونه عنها إليها وسألت عن من رددن هذا القول.. وفكرت وقررت فأعدت القصر لوليمة وأرسلت دعوتها إليهن نساء الوزراء والأمراء والطبقه الحاكمه فى تلك الحقبة اللاتى تحدثن عن سيرتها وحبها وغوايتها ليوسف اختارت ألوان الطعام والشراب وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلى جوار أطباق التفاح وأن توضع الوسائد والحشايا على عادة الشرق فى ذلك الزمان.

وجاء يوم المأدبة وهرعت نساء الطبقة الراقية إلى قصر رئيس الوزراء. كانت المناسبة فرصة لاستعراض أفتن الثياب وأحدثها وأعظم أدوات الزينة والتبرج فالدعوة للنساء فقط فكانت لهن حرية أكبر فى استعراض جمالهن ومفاتنهن أمام بعضهن البعض وجلسن متكئات على الوسائد والحشايا يأكلن ويشربن وفعل الطعام الشهى والشراب المنعش فعل البهجة فى النفوس فزادت الثرثرة وارتفعت الضحكات، ولكنهن كن حريصات على عدم الاقتراب من قصة امرأة العزيز وفتاها العبرانى فهن فى ضيافتها. ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ [يوسف: ٣١] ولكنها تكلمت وقالت: سمعت من يرددن أننى واقعة فى هوى الفتى العبرانى يوسف.. سكتن جميعاً فى صمت مطبق وشمل الحرج الجميع أشارت للخدم بإدخال أطباق التفاح ووضعها فى المكان المتفق عليه بجوار السكاكين الحادة وإستمرت فى الكلام قائله أعترف أمامكن أننى أحبه ومن زمن بعيد.. أزاحت بإعترافها إحساس الحرج من النفوس وعدن إلى طعامهن وهن ينظرن إلى بعضهن بعضاً نظرات لها معناها وبدأن فى تقشير التفاح فباعتراف زوجة العزيز وهو كبير الوزراء ورئيسهم فهذا يعنى لهن أن الحب من حقهن أيضاً ولكن واحدة منهن قالت مجاملة فى خبث لا يخلو من لوم أن امرأة العزيز يجب

أن تحب ويجب أن يتهالك عليها الرجال لجمالها وفتنتها التى لا تقاوم. . أضافت الجملة جوا من النشوة لدى النساء وانتظرت رد امرأة العزيز. . فأشارت بيدها أن يدخل يوسف عليهن كن لا زلن يقشرن التفاح والفاكهة التى أمامهن. لم يكد يدخل يوسف الغرفة حتى وقع ما توقعته امرأة العزيز بهتت كل المدعوات وساد الصمت الجميع بهرهن جمال يوسف وتألق وجهه بجمال ملائكى أخاذ وتعكس عيناه طهارة وعفة وصفاء روح نادراً ما يرينها فى شاب آخر غيره. لم تنظر واحدة منهن إلى ما فى يدها من فاكهة وتوجهن جميعاً إلى يوسف مبهورات وبدلاً من الفاكهة قطعن أيديهن.

﴿ **وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٣١]. كان حضور يوسف قوياً إلى الحد الذى أذهلهن عن الألم والدم الذى يسيل من جروح أيديهن.

قالت إحداهن: سبحان الله.

وقالت امرأة أخرى مبهورة مما تراه أمامها: ماهذا بشراً؟

وقالت أخرى: إن هذا إلا ملك كريم.

وبدأت النسوة فى عرض مفاتنهن دون حياء على يوسف وكل منهن لها أسلوبها فقد ضاع الحياء وانكشف ما بداخلهن من غريزة أمام ما يرونه من جمال وشباب وعفة يوسف التى تدعوا للتبجح وتلقى حياء النسوة تحت أقدامه.

قالت امرأة العزيز بعد أن رأت منهن غوايتهن إلى يوسف من مجرد رؤياه أمام هذا الجمع فما بالها وهو يعيش معها فى قصرها.

هذا هو الذى لمتننى فيه. . أنظرن ما حدث لأيديكن لقد تقطعت وسال منها الدماء لمجرد رؤياه. . ولم تستطعن مقاومة جماله وفتنته ولم يمنعكن حياءكن عن مغازلته ومراودته وقد راودته وأعترف بذلك لقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليكون مآله إلى السجن. ﴿ **قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ [يوسف: ٣٢] وجدت كلماتها قبولاً لدى الحاضرات ويبدوا أنهن أيضاً هددنه معها وأغرينه بالمال والهدايا

والمتعة. فقد سقط قناع الحياء وهن جمع من النساء وأمامهن رجل واحد فى ريعان جماله وفتوته وشبابه ضعيف فى عبوديته قوى فى عفته وقف يوسف أمامهن حائراً ماذا يفعل أمام هذا كله وهو المملوك لسيده عزيز مصر وزوج لهذه السيدة التى أعلنت رغبتها فيه دون حياء وحتى هذه النسوه أيضا. نساء الطبقة الراقية حكام هذا البلد ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٢] صرف الله عن يوسف كيد النساء.. أوقع فى قلوب النسوة يأساً كاملاً منه ومن حبه صار حبهن له نوعاً من أنواع الرغبات المستحيلة.. وأججت هذه الرغبات المستحيلة ذكرى يوسف أكثر من ذى قبل.. راحت النساء يتحدثن عنه وعن تأثيره ومهابته ونبله ويحكين كيف قطعن أيديهن بالسكاكين حين رأينه.. وانتشر الخبر وزاع بين الناس ولم يقتصر على ردهات القصور وغرفه المغلقة بل زاع إلى ما هو أبعد من ذلك. فما كان من رجال الحكم إلا إصدار الحكم باعتقاله وإيداعه السجن إسكاتاً للألسنة واتهامه بأنه هو الذى راودها عن نفسها.

يوسف فى السجن

أفلت يوسف من غواية امرأة العزيز ونساء الطبقة الراقية بأن أودع السجن منعاً لزيادة انتشار أخباره بين الناس.. أودع المجنى عليه السجن وترك الجانى خارجه ولما لم يودع داخله أليس هو العبد المملوك الضعيف إن لم يودع السجن فمن يدخله غيره.. لم يختلف الأمر كثيراً عما يحدث هذه الأيام كم من فقير ضعيف مجنى عليه يودع فى السجن والجانى الحقيقى صاحب المال والجاه والسلطان خارجه.

ولكن الله أنجاه مما تعرض له من قبل جعل أيضا محنة السجن منجاة له ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥].

فإن رؤية الآيات الدالة على صدق يوسف وكذب امرأة العزيز واضحة وكان لفراسة ابن عمها ما يقطع بذلك وكان من حق العزيز أن يوقع بها العقاب على ما اقترفته، ويكرم يوسف ويظهر للناس براءته ولكن شيئاً من ذلك لم يكن بل عمد هو إلى الإساءة

إلى من من أحسن عمله. وحفظه بالغيب فى زوجته. ورعى له حق السيادة والإكرام. فجزاه جزاء سنمار، وعمد إلى المسيئة الكاذبة المستهينه بكرامتها وكرامة زوجها، والتى عرضت عفافها بضاعة مزجاة فى سوق الفسوق فلم يمسها بأذى، بل قدم يوسف البرئ الطاهر فدية عن سمعتها. فكانت كأنها الدنيا تحب على كثرة أذاها ويرغب فيها مع إساءتها. والآية تشير من طرف خفى إلى أن القوم استعانوا بالقوة القضائية على الكيد ليوسف وزجه فى السجن، لأن رؤية الآيات على براءته إنما تكون أمام القضاء، وهو إما رسمى أو عرفى ولعل القضاء الأخير هو الذى استعملوه وهو قضاء شاع بين القبائل وقام على المبادئ الأخلاقية والفطرة بين الناس وهو خير من الاستبداد ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: ٣٦] قيل أحدهما ساقى الملك واسمه فيما قيل: «بنو» والآخر خبازه واسمه فيما قيل: «مجلث» كان الملك قد اتهمهما فى بعض الأمور فسجنهما فلما رأيا يوسف فى السجن أعجبهما سمته وهديه وقوله وفعله وكثرة عبادته ربه وإحسانه إلى خلقه. فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه. قال أهل التفسير: رأيا فى ليلة واحدة أما الساقى فرأى ثلاثة أغصان من العنب قد أورقت وأينعت عناقيدها فأخذها فاعتصرها فى كأس الملك وسقاه.

أما الخباز فقد رأى: أن على رأسه ثلاث سلال من خبز وضوارى الطيور تأكل من السلة الأعلى. فقصاها عليه وطلبا منه أن يفسرهما لهما وقالا: ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] فأخبرهما أنه عليم بتفسيرها خبير بأمرها و ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ [يوسف: ٣٧] قيل معناها أنه مهما يأتيكما من رؤيا فإنى أفسرها لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول. وقيل معناه: إنى أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلوا أو حامضا وانتهزها يوسف ليدخلهما فى دينه وقال: إن هذا من تعليم الله إياى لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٣٨] أى بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو فى فطرهم مركوز وفى جبلتهم مغروز ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ ثم دعاهم إلى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل وصغر أمر الأوثان

وحقرها وضعف أمرها فقال: ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣٩] أى هو المتصرف فى خلقه الفعال لما يريد الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أى وحده لا شريك له و ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أى المستقيم والصراط المستقيم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩] أى فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره وكانت دعوته لهما فى هذه الحال فى غاية الكمال لأن نفوسهما معظمة له منبعثة على تلقى ما يقول بالقبول فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه قال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٤١] ﴿ا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ﴾.. ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أى وقع هذا لا محالة ووجب كونه على حاله ولكنه لم يحدد أيهما يصلب تلطفا منه ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤١، ٤٢] أى أبلغ الملك بأمر وجودى فى السجن ظلماً وففى هذا دليل على جواز السعى فى الأسباب. ولا ينافى ذلك التوكل على رب الأرباب. وقوله ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٤٢] أى فأنسى الناجى منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ أى حوالى من ثلاث إلى تسع سنين وقيل إلى السبع وقيل إلى الخمس .

فرج الله على يوسف

بعد تلك السنين التى قضاها يوسف فى السجن أراد الله أن يعجل بالفرج ليوسف فهيأ لذلك الأسباب. وذلك أن الملك رأى فى منامه سبع بقرات جميلات سمينة خارجة من النهر ترعى فى روضة. ثم رأى سبع بقرات أخرى هذيلة ضعيفة قبيحة المنظر خرجت من النهر وأكلت البقرات الأولى السمينة. ورأى سبع سنبلات خضر حسنة وسبع أخرى يابسة ضعيفة ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] أصبح فرعون مصر منزعجاً لهذه الرؤيا المنامية فدعا السحرة وكل من له

علم بتأويل هذه الرؤيا وسألهم فلم يجد عند أحد منهم جواباً بإرادة الله الذى طمس على عقولهم بل ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]. فى هذا الوقت انتبه رئيس سقاه الملك الذى نجا من السجن إلى أمر يوسف ووصيته له بأن يذكر مشكلته والظلم الواقع عليه عند الملك ومعرفته بتأويل الأحلام وما فعله معه وزميله الذى تم صلبه وتحقق ما فسره لهما.

وذلك أن ملك مصر فى هذا الوقت وهو الريان بن الوليد بن ثروان ابن أراشهة بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، ظل منزعجاً بعد هذه الرؤيا المنامية عند ذلك قال ساقى الملك ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ أى فأرسلونى إلى يوسف فى سجنه أسأله عن تفسير هذا الحلم. فأرسله الملك إليه بأمر منه. دخل الساقى على يوسف فى زنزانته وقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]. فأخبره يوسف بتأويل ذلك وهو أن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات تجود الأرض فيها بالغلات الوافرة، ثم تتبعها سبع سنين مجدبة تأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها. ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد. وأن عليهم أن يقتصدوا فى سنى الخصب السبع ويخزنوا ما فضل عن قوتهم وغذائهم فى سنبله حفظاً للحب من التلف. حتى إذا حل الجدب وجدوا فى أهرائهم ومخازنهم ما يسد الرمق ويقتاتون عليه إلى أن يأتى الخصب وعاد الساقى إلى الملك وحاشيته وقص عليهم تفسير يوسف لرؤيا الملك، فإقتنع الملك بهذا التفسير وسره ما سمع وقال ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠].

أرسل الملك أمراً بخروج يوسف من السجن وإحضاره إليه ليكون من حاشيته المقربين. ولكن يوسف أراد أن يكون خروجه مصحوباً بتبرئته من الذنب الذى لم يقترفه. أراد أن تعلن براءته من سبب دخوله السجن على جريمة لم يرتكبها وهو برئ منها. فأعاد الملك التحقيق فى ما نسب إليه وسألوا النسوة عن ذلك فاعترفن بما وقع من الأمر: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا

رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

أعلنت النسوة براءة يوسف وأيضاً أعلنت زليخة إمرأة العزيز براءته بعد أن تاب الله عليها ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] خرج يوسف من السجن مرفوع الرأس مجبور الخاطر معلنة براءته على الملأ وبراءة النسوة أيضاً وخاصة زليخة بأن ماحدث منها كان مراوده فقط لم يقع معها فعل فاحشة ليعلم زوجها أيضاً بهذا الأمر وبأنها لم يقع منها فعل الخيانة وأنها آمنت بدين يوسف لما ظهر للملك براءة عرض يوسف ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروه عنه مما نسبوه إليه ﴿قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أى أجعله من خاصتى ومن أكابر دولتى، ومن أعيان حاشيتى فلما قابله وسمع مقاله وتبين حاله وصدقه وسماحة نفسه ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى ذو مكانه وأمانه ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ طلب يوسف من الملك أن يجعله مسئولا عن خزائن الحبوب مما تنتجه الأرض لخوفه من الخلل الذى من الممكن أن يصيبهم بعد سنى الخصب السبع، لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه من الإحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك: أنه حفيظ، أى قوى على حفظ مالديه أمين عليه، عليم بضبط الأمور ومصالح الجمهور.

وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم نفسه الأمانة والكفاءة.

وعند أهل الكتاب: أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً، وسلطه على جميع أرض مصر، لما رآه من حكمته وطهارته وصدقه وسماحة نفسه وتفسيره وتوقعه لما هو آت على البلاد فألبسه خاتمه، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثانى، ونودى بين يديه أنت رب ومسلط، وقال له: لست أعظم منك إلا بالكرسى.

قالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه إمرأة عظيمة الشأن إبنة كاهن أور وحكى الثعلبى أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل أنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عزراء. لأن زوجها كان لا يأتى النساء فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما: أفرايم ومنشا. قال: واستوثق ليوسف ملك مصر وعمل فيها بالعدل،

فأحبه الرجال والنساء.

وذكر محمد بن إسحاق: أن صاحب مصر الوليد بن الريان أسلم على يدى يوسف عليه السلام فالله أعلم.

مرت سنين الرخاء المخصبة السبعة فخرج يوسف وارتحل فى كل أرض مصر لتفقد الأحوال وتهيئته الأعمال اللازمة لمقاومة الجدب والجوع المنتظر وأعد يوسف عدته فيها وأعد أماكن لتخزين الغلات فى سنابلها.

سنوات الجـــدب

كما فسر يوسف حلم الملك. حلت سنوات الجدب السبع فى جميع أنحاء الأرض فذهب أهل مصر إلى فرعون يطلبون القوت فأحالهم على يوسف ففتح لهم المخازن وباع لهم من الطعام ما يكفيهم وأحس أهل فلسطين الجوع وعلموا أن الطعام بمصر.

إخوة يوسف يرتحلون إلى مصر

أرسل يعقوب أولاده إلى مصر فجهزوا الجمال والحمير فقدموا إلى مصر لشراء قوت لأهلهم. فلما قدموا إلى مصر رآهم يوسف فعرفهم ولم يعرفوه. فقد مر على إلقائهم له فى غيابات الجب ما يزيد عن العشرين عاماً وقد اكتسى بأبهة الملك مهابة تفض عنه أعين الناظرين إليه. وأما هم فعلى حالهم فى ملبسهم ومظهرهم.

لما جهز يوسف إخوته بالطعام الذى اشتروه. قال لهم إئتونى بأخ لكم من أبيكم وذلك لأنه وجدهم عشرة ويريدون الطعام لهم وأبيهم وأخ لهم فسألهم عنه فقالوا أبانا لا يأمنا عليه. فطلب منهم أن يتركوا أحدهم حتى يعودوا. فتركوا أخيهم شمعون وقال لهم يوسف فإذا لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولاتأتوا إلى. وأعطاهم الطعام بلا ثمن دون أن يعلموا أنه رد عليهم الثمن. (الفضة التى أتوا بها ثمنا للقمح).

فقالوا له: سنراود عنه أبانا، وكان يوسف قد أكرمهم وأظهر لهم السماحة.

وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام فى أوعيتهم فإنهم يعودون بها إلينا لأنهم لا يقبلون ماليس لهم. وقد قصد يوسف ذلك ليعودوا إليه.

إخوة يوسف عند أبيهم يعقوب

عاد إخوة يسف إلى أبيهم وأخبروه أن عزيز مصر (كبير وزرائها) منعهم الشراء من الطعام إلا بعد أن يأتوه بأخيهم لأبيهم. فتذكر يعقوب صنيعهم القديم وعاودته أحزانه على يوسف فقال لهم ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

فتح أخوه يوسف متاعهم لإستخراج الطعام الذى أتو به من مصر فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم، فكان ذلك مما شدد عزائمهم فى الكلام مع أبيهم وقالوا له: ياأبانا ما نبغى! هذه بضاعتنا ردت إلينا، فإذا سمحت لنا بأخذ أخينا معنا نحفظه ونزداد كيل بعير وهو شئ يسير عند الملك الذى طلب أخانا.

ويبدو أن القحط كان شديداً مما جعل نبى الله يعقوب يوافق على سفر ابنه بشروط اشترطها على أولاده. فقال لهم: لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم. أى إلا أن تغلبوا على أمركم. فأعطوه موثقهم على الوفاء بما اشترطه وحينئذ قال: الله على ما نقول وكيل. وأوصى بنيه أنهم إذا أتو مصر لا يدخلون من باب واحد بل يدخلون من أبواب متفرقة.

ويقول المفسرون: أن ذلك لخوفه عليهم من الحسد. أو لعدم لفت الأنظار إليهم وذلك يدعو إلى التحدث بشأنهم والخوف من مقصدهم. فيظن بهم أنهم جواسيس أورواد لمن وراءهم ممن يريد الإغارة على البلاد من الأقوام التى عضها الجوع، ومهما كان من الأمر فقد عاد إخوة يوسف إلى مصر فى طلب الميره (الحبوب) ولم يبق عند أبيهم أحد منهم ومعهم البضاعة التى ردت إليهم.

إخوة يوسف يعودون إليه فى مصر

نزل إخوة يوسف بعد ذلك إلى مصر، فلما رأى يوسف إخوته ومعهم بنيامين أمر غلمانه بإضافتهم وأن يذبحوا لهم ويهيئوا طعاماً لأكله معهم.

ولما فعل رجال يوسف ما أمروا به جاءوا بإخوة يوسف إلى بيته، فلما علموا أنهم داخلون إلى البيت خافوا على أنفسهم وقالوا فيما بينهم أن سبب إدخالنا إلى البيت هو

بسبب الفضة التى وجدناها فى متاعنا وأنه سيهجم علينا ويأخذ حميرنا بما عليها ويجعلنا عبيداً له. وكلموا خادماً من خدم يوسف وقصوا عليه قصتهم ورجوع الفضة معهم وهم لا يعلمون وأنهم عادوا بها وبفضة أخرى لشراء القمح. فهدأ الرجل روعهم، وأدخل إليهم أخاهم شمعون الذى كان رهينة فى يد يوسف، وأدخلهم إلى دار يوسف للغذاء.

ولما جاء يوسف وقت الغذاء قدموا إليه الهدايا، ونظر إلى بنيامين وقال: أهذا أخوكم الصغير الذى قلتم لى عنه؟ ودعاه قائلاً: الله ينعم عليك يابنى. ولم يطق يوسف الجلوس معهم لما حضره من الحنين إلى أخيه. فذهب إلى مكان منفرد وبكى ثم عاد وسألهم عن أبيه وسلامته. ثم قدم إليهم الطعام، وأكل هو وحده وأكل المصريين وحدهم.

لأن المصريين يعتبرون الأكل مع العبرانيين نجاسة. ولعل عدم أكله مع إخوته لئلا ينتقد المصريون عليه ذلك. وقد أجلس إخوته بحسب ترتيب أعمارهم فبهتوا لأن عمله صادف الواقع الذى يعرفونه وأغدق على شقيقه بنيامين الطعام.

حيلة يوسف فى إبقاء شقيقه بنيامين عنده

أمر يوسف بتجهيز إخوته فسلأ لهم متاعهم بالطعام، وأمر أن توضع فضة كل واحد فى متاعه وأن توضع طاسة (التى يشرب فيها يوسف) فى متاع شقيقه بنيامين. فبدأوا فى المسير وبعد قليل تبعهم وكيل يوسف ونادى عليهم وعنفهم على سرقة طاسة السقاية وأنهم قابلوا الإحسان إليهم بهذا الصنيع المعيب. فأكدوا براءتهم من هذا العمل وقالوا من وجدت سقاية الملك فى رحله (متاعه) يؤخذ عبداً للملك. فبدأ فى تفتيش أكبرهم إلى أصغرهم ووجد السقاية فى متاع بنيامين، فرجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف مستعطفين مسترحمين، ولامهم يوسف على ما صنعوا، فراودوه على أن يأخذ أحدهم عبداً مكان أخيهم فرفض وقال: إن الذى وجد الطاس فى رحله يستعبد لى، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم، وأبى يوسف ـ بعد الاستعطاف وبيانهم أن أباه متعلق به، وأنه سلوته عن أخيه المفقود ـ أن يطلقه. وآوى يوسف شقيقه بنيامين إليه وقال له أنا يوسف

فلا تبتئس. ولما يأسوا من التفاوض معه قالوا بحضرة يوسف وقد ملئوا غيظا على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم، وقال لهم: أنتم شر مكانا من هذا السارق، والله أعلم بما تصفون.

وكانوا يعنون يوسف، ذلك أن أمه ماتت وهو صغير فكفلته عمته وتعلقت نفسها به. فلما اشتد قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فضنت به وألبسته منطقة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سرقت منها وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكف أبوه عن مطالبتها به.

يئس إخوه يوسف من أخذ أخيهم بطريق المبادلة فقال كبيرهم «رأوبيل» إن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله برد أخيكم، ومن قبل ذلك كان تفريطكم فى يوسف، وعلى ذلك لن أبرح أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى القدوم، أو يحكم الله فى شأنى وهو خير الحاكمين، وأشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم وإخباره بما كان من أمر أخيهم ومن أمر العزيز « يقصد يوسف» وقد أصبح نائباً للملك وتأتمر البلاد بأمره. وأن ابنه (بنيامين) صار عبداً للعزيز بسبب سرقته. وأن ظهور السرقة كان أمامهم وأمام أهل العير التى كانوا فيها وأنهم صادقون فيما أخبروا به.

عاد إخوه يوسف ـ عدا أكبرهم وأصغرهم ـ إلى أبيهم وأخبروه بالأمر على جليته فلم يقتنع بما قالوه وذكرهم بما دبروه لأخيه يوسف من قبل، وزاد به الحزن حتى ابيضت عيناه وعاوده من الوجد والشوق ليوسف فقال: يا أسفا على يوسف. فلامه أولاده على ذكر يوسف وقد انقضى أمره. ثم إن يعقوب رد أولاده الذين وردوا عليه إلى مصر ليشتروا طعاماً وليتجسسوا له شأن يوسف وأخيه. وأمرهم بعدم اليأس من روح الله فإن ذلك شأن الكفار فذهبوا كما أمرهم أبوهم.

ذلك ما جاء نصه فى الآيه ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخوة يوسف يتعرفون عليه

جاء إخوه يوسف إليه فى مصر للمرة الثالثة ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

يأيها العزيز أصابنا الضر من الجوع وجئنا ببضاعة مزجاة قليلة فأكرمنا بزيادة الكيل رغم قلة ما معنا فى مقابلة. وتصدق علينا بإطلاق أخينا من عبوديتك.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٨٩، ٩٠] كلمهم بلغتهم لأول مرة وذكرهم بفعلتهم بيوسف وشقيقه بنيامين الذى تركوه ورحلوا إلى بلادهم وأبيهم بدونه. فعرفوا أنه يوسف واعترف لهم بذلك وأن الله قد من عليهما وأنه من يتقى الله ويصبر فأن الله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف: ٩١].

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

خُلُقْ أنبياء لا تعرف الانتقام فى لحظه سامحهم يوسف على صنيعهم وغدرهم به.

وقال لهم: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

فلما خرجت قافلتهم من مصر كانت نفس يعقوب مستشرقة لتغير ما به من حال إلى حال قيل: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف. فى بيت يعقوب لاحظ من حوله تغير وتحول مشرق فى وجه الشيخ الجليل. وقف فى فناء الدار ورفع رأسه إلى السماء وتشمم الهواء بقوة ملأ صدره من الرياح القادمة من مصر ثم استدار عائداً لغرفته يتحسس مكانه بعد أن ذهب بصره حزنا على فراق يوسف سألته النسوة زوجات أبنائه وحولهن أحفاده... كيف حالك اليوم أيها الجليل ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤] أى بأنى أتوقع لقاءه الذى طال حزنى

عليه، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

أى فى خطأك القديم واعتقادك أن يوسف لا زال حيا. ولم يطل به الإنتظار ولم تزداد المجادلة بينهم حتى جاء البشير وألقى قميص يوسف على وجهه فارتد إليه بصره ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦].

لم يقل يعقوب هذا القول من ذاته بل بوحى من الله الذى أعلمه بأنه سيلقى يوسف ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

شد يعقوب وآله أجمعون رحالهم إلى مصر. فلما جاؤا إليها دخلوا على يوسف فآوى إليه أبويه (يعقوب وزوجه) خاله يوسف لأن أمه قد ماتت كما قدمنا وهو صغير وسجد له أبويه وإخوته الأحد عشر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

قال أهل الكتاب أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنه وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشره سنه.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

يوصى بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام الذى بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكر أهل الكتاب: أنه أوصى بنيه واحداً واحداً وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى ابن مريم والله أعلم وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً. ثم استأذن يوسف ملك مصر فى الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها، فلما وصلوا حبرون ودفنوه فى المغاره التى كان إشتراها إبراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثى وعملوا له عزاء سبعه أيام.

قالوا: ثم رجعوا إلى بلادهم وعزى إخوة يوسف فى أبيهم وترفقوا له فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر. ثم خضرت يوسف عليه السلام الوفاة فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه.

قالوا: فمات وهو ابن مائه سنه وعشر سنين. هذا نصهم فيما رأيته وفيما حكاه ابن جرير أيضاً. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاث وعشرين سنة ومات وهو ابن مائه سنة وعشرين سنة. وقال غيره: أوصى إلى أخيه يهوذا صلوات الله عليه وسلامة. لا نريد أن نترك قصة يوسف الكريم بن يعقوب الكريم ابن إسحاق الكريم بن إبراهيم الكريم قبل أن نلاحظ هذه الملاحظة.

فى قصة سيدنا إبراهيم، ينزع الحب الغريزى من قلبه لإبنه إسماعيل، حتى يصير القلب خالصاً لله وحده، فإذا تحقق الأمر يرفع أمر الذبح ويأتى الفداء.

وثمة مماثلة فى قلب سيدنا يعقوب... بالنسبة لإبنه يوسف، أحب يوسف فابتلى بضياعه، فلما صار قلبه خالصاً لله دون أغبار من يوسف وأخيه رد الله إليه ولداه.

وثمة مماثلة فى قصة الإفك... إذ ينزع ميل سيدنا محمد، ﷺ، إلى السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها، حتى يصير القلب خالصا لله دون أغبار... بعدها تنزل براءتها وتحتل مكانتها... بكلمة الله.

قصة شعيب عليه السلام

جاءت قصة أهل مدين بعد قصة أهل سدوم ونبيهم لوط عليه السلام. إذ أنى أنبه إلى عدم ربط إسم نبى الله لوط باسم القوم الذين بعث فيهم لهدايتهم. وهذا خطأ شائع للأسف بين البعض فى بلداننا العربية إذ يقع بعضهم فى خطأ وصف الشواذ من الرجال بقولهم عنه (لوطى) والعياز بالله.

فكيف نصف هؤلاء السفلة ونربطهم بنبى الله لوط عليه السلام وهم من المجرمين الذين يفعلون الفاحشة ويأتون المنكر. وحَدّ أفعالهم فى الإسلام هو الرجم حتى الموت.

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التى هى من أرض معان من أطراف الشام مما يلى ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط (البحر الميت). وكانوا بعدهم بمدة قريبة.

ومدين قبيلة من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل وشعيب نبيهم هُو ابن ميكل ابن يشجن ويقال شعيب بن يشخر بن لاوى بن يعقوب: ويقال: شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن إبراهيم ويقال: شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، وقيل غير ذلك فى نسبه.

وقال بن عساكر: ويقال: جدته. ويقال: أمه بنت لوط عليه السلام وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق. وعن وهب بن منبه أنه قال: شعيب وملغم ممن آمن بإبراهيم يوم أحرق بالنار وهاجروا معه إلى الشام فزوجهما بنتى لوط عليه السلام، ذكره ابن قتيبه. وفى هذا كله نظر أيضاً والله أعلم.

وفى حديث أبى ذر الذى فى صحيح ابن حبان فى ذكر الأنبياء والرسل قال: «**أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر**» [1] وكان بعض السلف يسمى شعيباً خطيب الأنبياء يعنى لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته فى دعاية قومه إلى الإيمان

---

(١) ذكره ابن كثير فى « التفسير» (٢/ ٢٤٣، ٤٢٤).

برسالته. وقد روى بن إسحاق بن بشر عن جويير ومقاتل عن الضحاك عن إبن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: « **ذاك خطيب الأنبياء** » (١).

أهل مدين

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون (الأيلة) وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، ،وكانوا من أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما يأخزون بالزائد ويدفعون بالناقص فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم فى سبيلهم وطرقاتهم فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولى الحميد.

قال تعالى: ﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ [الأعراف: ٨٥] أى دلالة وحجة واضحة وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به. وأنه أرسلنى وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التى لم تنقل إلينا تفصيلاً وإن كان هذا اللفظ قد دل عليهما إجمالاً ﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾ [الأعراف: ٨٥].

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿**ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ**﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦] أى طريق ﴿**تُوعِدُونَ**﴾ أى تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل.

قال السدى: فى تفسيره عن الصحابة: ﴿**وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ**﴾ [الأعراف: ٨٦] أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.

كانوا قوماً طغاه يجلسون على الطريق يبخسون الناس يعنى يعشرونهم وكانوا أول من سن ذلك ﴿**وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾ [الأعراف: ٨٦] فنهاهم عن قطع الطريق الحسيه الدنيويه والمعنويه الدينيه ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا**

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٨) وذكره السيوطى فى « المنثور» (٢/ ١٠٢).

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ذكرهم بنعمه الله تعالى عليهم فى تكثيرهم بعد القلة وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه كما قال لهم فى القصة الأخرى: **﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾** [هود: ٨٤]. أى لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما فى أيديكم ويفقركم ويذهب مَا به يفنيكم وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة ومن جمع له هذا فقد باء بالصفقة الخاسرة فنهاهم أولاً عن تعاطى ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم فى دنياهم وعذابه الأليم فى أخراهم وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم أمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً: **﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾** [هود: ٨٥، ٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصرى: **﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** [هود: ٨٦].

أى رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس. وقال ابن جرير: مَا فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

قال تعالى: **﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾** [المائدة: ١٠٠] يعنى أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام ممحوق وإن كثر كما قال تعالى: **﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾** [البقرة: ٢٧٦].

وقال رسول الله ﷺ: « **إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل** »[1].

وقال رسول الله ﷺ: « **البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبنيا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركه بيعهما** »[2] (حديث: متفق عليه). كتاب البيوع.

---

(١) إسناده صحيح.

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (البيوع، ح/ ٢١٠٩) ومسلم فى (البيوع، ح/ ١٥٣٢).

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل والحرام لا يجدى وإن كثر ولهذا قال نبى الله شعيب: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦] وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦] أى افعلوا مَا أمركم به إبتغاء وجه الله ورجاء ثوابه لا لأراكم أنا وغيرى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم أصلواتك هذه التى تصليها هى الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذى ترتضيه أنت ونترك المعاملات التى تأباها وإن كنا نحن نرضَاها.

﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يقولون ذلك قول أعداء الله على سبيل الإستهزاء.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] هذا تلطف من نبى الله شعيب معهم فى العبارة ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة يقول لهم أرأيتم أيها المكذبون ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلنى إليكم ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود:٨٨] يعنى النبوة والرسالة يعنى وعمى عليكم معرفتها فأى حيلة لى فيكم. وهذا كما تقدم عن نوح عليه أنه قال لقومه سواء، وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨] أى لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه وهذه هى الصفة المحمودة العظيمة وضدها هى المردودة الذميمة كما تلبس بها علماء بنى إسرائيل فى آخر زمانهم وخطباؤهم الجاهلون.

قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] وذكر عندها فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « **يؤتى بالرجل فيلقى فى النار فتنزلق أقتاب بطنه أى تخرج أمعاؤه من بطنه فيدور بها كما يدور الحمار برحاء فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى**

عن المنكر؟ فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» (1) .

وهذه صفة مخالفى الأنبياء من الفجار والأشقياء، فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب فحالهم كما قال نبى الله شعيب.

﴿وما أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88] أى ما أريد فى جميع أمرى إلا الإصلاح فى الفعال والمقال بجهدى وطاقتى **﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾** أى فى جميع أحوالى **﴿إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾** [هود:88] أى عليه أتوكل فى سائر الأمور وإليه مرجعى ومصيرى فى كل أمرى وهذا مقام ترغيب. ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال **﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾** [هود: 89].

أى لا تحملنكم مخالفتى وبغضكم مَا جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم فيحل الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين. وقوله **﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾** [هود: 89] قيل معناه فى الزمان: أى ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم مَا أحل بهم على كفرهم وعتوهم وقيل: معناه ومَا هم منكم ببعيد فى المحلة والمكان. وقيل فى الصفات والأفعال المستقبحات من قطع الطريق وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشباهات والجمع بين هذه الأقوال ممكن فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: **﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾** [هود: 90] أى أقلعوا عما أنتم فيه وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود. فإنه من تاب إليه تاب عليه فإنه رحيم بعباده أرحم بهم من الوالدة بولدها ودود وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عباده ولو من الموبقات العظام **﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾** [هود: 91].

وقولهم: **﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾** [هود: 91] وهذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع حيث قالوا **﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾** [هود:91] أى لا نفهمه ولا

(1) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب «1») ومسلم فى (الزهد، ح/ 51).

نتعقله لأنا لا نحبه ولا نريده وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وقولهم﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود: ٩١] أى مضطهداً مهجوراً ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ﴾ [هود: ٩٢] أى قبيلتك وعشيرتك فينا ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ [هود ٩١، ٩٢] أى تخافون قبيلتى وعشيرتى وترعونى بسببهم ولا تخافون جنبه الله ولا ترعونى لأنى رسول الله فصار رهطى أعز عليكم من الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [هود:٩٢] أى جانب الله وراء ظهوركم ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود:٩٢]: هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه محيط بذلك كله وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:٩٣] أى فى هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩] أى فى الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أى منى ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

لم يعاند الكفار نصح نبى الله شعيب فقط بل هددوا من آمن به من الفقراء والمستضعفين بالطرد ونفيهم عن الديار. فأصر هؤلاء المؤمنين على إيمانهم ولم يستجيبوا لهؤلاء المشركين فى دعوتهم إلى الكفر بشعيب: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠] ولكن المؤمنين بدعوة شعيب أصروا وتمسكوا بإيمانهم بدعوته ولم ينصاعوا ولم يرتاعوا من تهديد الكفار لهم.

عذاب الله واقع

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١] ذكر فى سورة الأعراف: أنهم أخذتهم رجفة أى رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزلا شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها وأصبحت جثثهم

جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البليات وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات. ولكنه تعالى أخبر عنهم فى كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها فى سياق قصة الأعراف أرجفوا نبى الله وأصحابه وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودون فى ملتهم راجعين فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١] فقابل الإرجاف بالرجفة والإخافة بالخيفه وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما فى سوره هود فذكر: أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبى الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فناسب أن يذكر الصيحة التى هى كالزجر عن تعاطى هذا الكلام القبيح الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفه أسكنتهم.

وأما فى سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظله. وكان ذلك إجابه لما طلبوا وتقريبا إلى ما إليه رغبوا. فإنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٨] قال الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء ١٨٨ - ١٨٩].

ذكروا أنهم أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام فكان لا ينفعهم من ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم إلى بيوتهم فهربوا من محلتهم إلى البرية فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها فلما تكاملوا فيها أرسلها الله بهم بشرر وشهب ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١ - ٩٢].

نجاة المؤمنين مع شعيب

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤]

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس: أن شعيباً عليه السلام قد رحل ومن معه من المؤمنين إلى مكة وبقوا فيها حتى وفاتهم وقبورهم غربى الكعبة بين دار الندوه ودار بنى سهم.

*****

قصة إدريس عليه السلام

قال تعالى فى سورة مريم:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [٥٦ ، ٥٧]

غير معروف متى عاش إدريس ولا من كان قومه. ولا كيف رفعه الله مكانا عليا.

إن الأساطير تقول أن إدريس هو أوزوريس بطل الأسطورة المصرية القديمة وقد كان إلها وثنيا مزقه (ست).. ولعبت إيزيس زوجته دوراً فى إعادته إلى الحياة بدموعها التى زرفتها على حبيبها وزوجها أوزوريس.

وليس بين أيدينا من المراجع ما نطمئن إليه من مصادر لنحكم برأى قاطع فى بعثه وحياة النبى إدريس عليه السلام.

ربما كان إدريس نبيا كريما بعث فى مصر ورفعه الله إليه مثل عيسى ابن مريم، فلما رفع افتتن قومه به وصار إلها فى أسطورة.

وربما كان ما حدث شيئاً آخر تماما.

ولم يرد فى كتاب الله الكريم عنه ما يكشف الغموض الذى أحاط به.

ونحن لا نعرف إلا أنه كان صديقاً نبياً.. رفعه الله مكاناً علياً.

ولكنه قد صيغت حوله الأساطير بعد موته بوصفه المعلم الأول للبشر الذى علمهم الزراعة والصناعة ولكنا لا نملك على هذا دليلاً.

فلنعلم أنه كان من الصابرين على نحو من أنحاء الصبر الذى يستحق التسجيل فى كتاب الله الباقى.

*****

أنبياء قوم ياسين

عليهم السلام

قال تعالى فى سورة [يس]:

﴿واضْرِبْ لهم مَّثَلاً أصْحابَ الْقرْيَة إذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ . إذْ أَرْسَلْنَا إليْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فعزَّزْنا بثالث فقالُوا إنَّا إليْكُم مُّرْسَلُون . قالُوا ما أنتُمْ إلاَّ بشرٌ مِّثْلُنا وما أنزل الرَّحْمَنُ من شيْءٍ إنْ أَنتُمْ إلاَّ تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إنَّا إلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ . قَالُوا إنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الآيات من ١٣ إلى ١٩].

يحكى الحق تبارك وتعالى قصة أنبياء ثلاث بغير أن يذكر أسماءهم. كل ما يذكره السياق أن القوم كذبوا رسولين فأرسل الله ثالثاً يعززهم. وأنكر الناس أنهم رسل، كذبوهم، فلما أقام الرسل عليهم الحجة. قال قومهم أنهم تشاءموا منهم. وهددوهم بالرجم والقتل والعذاب الأليم. ورفض الأنبياء هذا التهديد، واتهموا قومهم بالإسراف. إسرافهم فى ظلم أنفسهم.

لايقول لنا السياق ماذا كان من أمر هؤلاء الأنبياء، إنما يذكر ما كان من أمر إنسان آمن بهم وحده. ووقف بإيمانه أقلية ضعيفة ضد أغلبية كافرة.

إنسان جاء من أقصى المدينه يسعى..

جاء وقد تفتح قلبه لدعوة الحق. لم يكد يعلن إيمانه حتى قتله الكافرون.

قال تعالى فى سورة [يس]:

﴿ وجاء مِنْ أَقْصا الْمدينة رجلٌ يسعىٰ قال يا قوْمِ اتّبعُوا الْمُرْسلين . اتّبعُوا من لاَ يسْأَلُكُمْ أجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لا أعْبُدُ الَّذي فطرني وإليْه تُرْجعُونَ . ءأَتَّخذُ من دُونه آلهَةً إن يُردْن الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شَفَاعَتُهُمْ شيْئًا ولا يُنقذُون . إنِّي إذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ . إنِّي آمنْتُ

بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ [الآيات من ٢٠ إلى ٢٥].

اختصر السياق القرآني الكريم واقعة القتل، وكشف الستار عن لحظة ما بعد الموت. لم يكد الرجل المؤمن يلفظ آخر أنفاسه حتى صدر إليه أمر الله تعالى.

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [٢٦، ٢٧ من سورة يس].

تجاوز السياق أسماء الأنبياء وقصصهم ليبرز قصة رجل آمن. لم يذكر لنا السياق اسمه لأنه لا يهم الإسم ولكن ما وقع له. فقد آمن بما جاء به أنبياء الله الثلاث ودافع عنهم فوقع عليه ما وقع من عذاب ثم القتل.

وكانت مكافأته المباشرة من الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٥، ٢٦، ٢٧].

*****

قصة ذا الكفل

عليه السلام

قال تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم نبيه ذا الكفل فى هذه الآية وأثنى عليه كعبد صابر وأدخله فى رحمته.

قيل عنه أنه تكفل لبنى قومه أن يقضى بينهم بالعدل ويكفيهم أمرهم. . ففعل فسمى ذا الكفل.

نسجت الأساطير حوله عديداً من الحكايات. وذكره القرآن فى الآية السابقة بغير تفصيل لقصته مع قومه ولا يستدل حتى على زمن دعوته.

لا نعرف من كان قومه ولا كيف بعث إليهم ولا بما كانت إجابتهم لدعوته.

والأرجح أنه من أنبياء بنى إسرائيل وقيل أنه من صالحيهم.

وقيل أنه تكفل لأحد أنبيائهم قبل موت هذا النبى. بأن يخلفه فى بنى إسرائيل على أن يتكفل بثلاث: أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب فى القضاء فوفى بما تكفل به وسمى ذا الكفل لذاك.

ولكن هذه ليست سوى أقوال لا دليل عليها.

والنص القرآنى يكفى فى هذا الموضع لتسجيل صفه الصبر لذى الكفل.

*****

قصة موسى عليه السلام

كان يعقوب أو إسرائيل قد مكث في مصر منذ جاءها ليلتقي بابنه يوسف ، حتى إذا حضرته الوفاة دفنوه حيث ولد في فلسطين. . وفضل أبناء إسرائيل أن يعيشوا في مصر في ظل يوسف شدهم إلى الحياة في مصر خيرها الكثير واستواء أرضها واعتدال مناخها وطباع أهلها الطيبة وعاش أبناء إسرائيل في مصر زمنا. . تزوجوا وتكاثروا وزاد عددهم، ومرت سنوات ومات يوسف.

كان يوسف قد حول مصر إلى دين الإسلام أثناء حكمه. كان يوسف على الإسلام وكل أنبياء الله تعالى على الإسلام، إبتداء من آدم إلى محمد.

وينصرف الإسلام هنا إلى معنى توحيد الله تعالى بالعباده والقصد والسؤال. وإسلام الوجه والعمل والنية كله، وهذا ما تقصده من كلمة الإسلام إذا أطلقت، ولا نقصد النظام الاجتماعي الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد ﷺ. فقد كان هذا النظام متقدماً على الأنظمة الاجتماعية التي جاء بها الأنبياء ، وأن بقي جوهر العقيدة واحداً لا يختلف من آدم إلى محمد.

وحين صار يوسف عزيزا لمصر وكبيراً للوزراء فيها تحولت ديانة مصر إلى التوحيد والإسلام فقد كان يدعو للإسلام في سجنه بقوله.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف: من الآية ٣٩].

ودعا يوم تحقيق رؤياه بقوله:

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: من الآية: ١٠١].

وحين مات يوسف هجرت مصر نظام التوحيد إلى تعدد الآلهة مرة أخرى وأغلب الظن أن هذا تم بكيد الطبقة الحاكمة وتدبيرها، فقد كانت هذه الطبقة في ظل نظام التوحيد لا تكاد تتميز بشيء عن الجماهير العريضة وكان من مصلحتها إذن أن يعود نظام الأرباب المتفرقين. . ويعود نظام الفرعون الإله. . وهكذا توالت على مصر أسرٍ من

الفراعنة الذين زعموا أنهم آلهة أو يمثلون الآلهة أو ينطقون باسمها.

والأصل فى الشعب المصرى أنه شعب متحضر، يعنيه بناء الحضارة ويملك وجدانا دينياً عميقاً، وربما آمنت طبقات عديدة من الشعب المصرى أن الفرعون ليس إلها ودارت عجلات الزمن وجاءت الأسرة الثامنة عشر المصرية. وطردوا ملوك الرعاة الذين كانوا فى مصر وشغلوا من تاريخها نحو أربعة قرون ـ من الأسرة الرابعة عشر إلى الأسرة الثامنة عشرة. (المعروف بالهكسوس):

وجاء الفرعون أحمس رأس تلك الأسرة وطردوا الرعاة ومزقهم كل ممزق وشردهم كل مشرد، وبنوا إسرائيل فى إمكنتهم فى مصر.

وكان بين ورودهم إلى مصر وخروجهم منها على يد موسى مئتا سنة وخمسة عشر سنة على ما حققه المؤرخون.

جاء ملك لمصر لا يعرف يوسف ولا فضله على مصر وغيرها من البلاد، ورأى بنو إسرائيل يكثرون فخاف أن يكونوا قوة وسندا لأعداء أهل مصر، فأراد أن يقتل كل ذكر يولد من أولادهم حتى لا يكثر عددهم ويكون منهم ما يخافه المصريين على أنفسهم.

ويقول المفسرون: أن الكهنة أخبروا فرعون بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبنى إسرائيل فوجه همه إلى قتل أبنائهم واستحياء نسائهم.

فأمر فرعون قابلتى المصريين وكان إسم إحداهما «شفرة» والثانية «فوعه» بقتل كل ذكر تلده عبرانية، وأما البنت فتبقى، فلم تفعلا ما أمرتابه، ولما سألهما قالتا له أن العبرانيات قويات، فهن يلدن قبل أن تأتى القابلة.

وكان ذلك الفرعون قد أمر بإذلال العبرانين وتسخيرهم فى عمل الطوب اللبن وأعمال البناء وغيرها من الأعمال الشاقة ووكل بهم من يتبعهم حتى لا يجدوا من الراحة، أملا فى أن يقلل ذلك من نسلهم، فلم يفد ذلك فرعون، لأن العبرانيات كن يحملن كثيراً، ثم أمر فرعون جنوده والمتدخلين فى الأعمال أن يلقوا كل ذكر من أولاد العبرانيين فى النهر ليموت.

هذا ما ذكرته التوراة وهو ما جاء فى القرآن الكريم إلا فى بعض التفاصيل الجزئية.

قال تعالى: فى سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٤٩].

وتعددت الآيات فى السور المختلفة بما يؤكد ذلك المعنى، وعلى سبيل المثال ما جاء فى سورة الأعراف: الآية ١٤١ وفى سورة إبراهيم الآية ٦ وفى سورة القصص الآيات ٣، ٤، ٥، ٦ وكان أمر فرعون قد آثار حفيظة أحد رجال الاقتصاد فقال لفرعون أنك لو أمرت بقتل كل مولود ذكر وتركت الكبار لنهايتهم المحتومة بالموت فيعنى ذلك أن ينتهى نسلهم وينقرض تماماً وفى هذا خسارة اقتصادية لكوننا نستعملهم فى المهن الشاقة وبأقل الأجور، فأمر فرعون بأن يبقوا على مواليدهم عام ويقتلوا مواليدهم فى عام فكان ميلاد هارون شقيق موسى فى عام النجاة من الموت ومولد موسى فى عام القتل..

الكل كان تحت الاضطهاد سواء بنى إسرائيل أو المصريين خوفاً من بطش الفرعون بهم وكان المصريين رغم ما يفرض عليهم من أمور دينية وثنية إن آمنوا بها فهى من غير قناعة منهم.

غير أن إيمان المصريين الكامن فى أعماقهم لم يكن يعنى الحاكم، طالما أنه لا يتحول إلى الظهور أو الثورة ويسفر عن وجهه، كان الفرعون لا يريد من شعبه غير الطاعة.

ليؤمنوا فى قراره أنفسهم بما يحبون من آلهة.

الآلهة الوثنية فى مصر كثيرة والأهم هو أن الفرعون هو المهيمن على كل هذه الآلهة ويرمز لها ويتكلم باسمها، وعلى حين تعددت آلهة الشعب المصرى التى فرضها الكهان هذا إله الخصب وهذا إله النماء وهذا إله المطر وهذا إله الحصاد وهذا إله التناسل وهذا إله الحب وهذا إله الحرب وهذا إله القوة وغيرها وغيرها حتى يتفرق الشعب ويستجيب لرغبات الكهان وأطماعهم ولكن كل هذه الآلهة على تفرقها يمثلها ويتحدث باسمها الفرعون الإله.

ليمضى هذا الشعب خاضعاً لأوامر وزراء فرعون وقادة جنده وتسمع إلى إدعائه الألوهية دون أن تحرك ساكنا.

وقال الله تعالى فى كتابه الكريم عن فرعون موسى.

قال: ﴿فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٣ـ ٢٤].

وخضع الناس وحنوا رؤسهم للكلمه الكافرة وأطاعوا ـ ربما على كرة منهم مقالة فرعون ودفع الشعب ثمن خنوعه لفرعون وقد كان ثمنا باهظاً لو قيس بالثورة عليه.

ولادة موسى

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبالعبرية يقال له موشى بن عمرام.

وأمه هى يوكابد بنت لاوى، وهى عمة أبوه (لم يكن زواج العمات قد نزل من الله أمر بتحريمه).

فى تلك الظروف والعواصف والمحن التى مر بها بنى إسرائيل من فراعنة مصر ولد موسى. وكان بنى إسرائيل إذ ذاك خيار أهل الأرض.

وقيل أنهم كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك على يديه، وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها.

وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ووصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه وحاشيته وهم يسمرون عنده فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام ولن يغنى حذر من قدر.

وتوارد عن الصحابة رضوان الله عليهم أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع أهلها القبط ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك فجمع الحزقة والسحرة وسألهم عن ذلك فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

هذا ما جاء فى أسباب الأمر بقتل كل مولود ذكر من بنى إسرائيل وكلها إن اختلفت الروايات ولكن الأمر بقتل مواليد بنى إسرائيل من الذكور لا يختلف عليه مؤرخ.

لما ولدت يوكابد ابنها موسى خبأته عن عيون من يطلبون أطفال بنى إسرائيل لقتل ذكرانهم فمكث عندها ثلاثة أشهر، فلما خافت افتضاح أمرها.

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى أن ترضعه وتصنع له صندوق صغير وتطليه بالقطران والزفت وتلقيه فى اليم ولا تخاف عليه فسيرده الله إليها وسيجعله من المرسلين. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

فعملت أم موسى ما أمرها الله به، وضعت وليدها موسى فى الصندوق الذى صنعت وطلته بالقطران والزفت ليطفوا على الماء ولا يتسرب الماء إليه ووضعته على الماء وطلبت من أخته أن تراقب أخاها خفية دون أن يلحظها أحْد، وراقبته أخته حتى رأت أن تيار الماء قد أخذ صندوق أخيها ورسى به على شاطىء قصور الفرعون والتقطه الخدم بأمر من امرأه فرعون وحملته إليها فتبسم وجهها وقبلته وهى تحمله بين يديها وزرع الله فى قلبها محبة لهذا الطفل العبرانى وطلبت من خدمها أن يحضرن لها من ترضعه.. فلم يستجب الطفل لأى منهن.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]

علم فرعون بأمر الرضيع وقبل أن يصدر الأمر بقتله رجته زوجته بأن يترك الطفل ليكون قرة عين لها ولفرعون راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[القصص: ٩].

رفض الرضيع كل من حاولن إرضاعه بتدبير من الله وعزف عن الرضاعة منهن، وكانت أخته (مريم) وهذا اسمها ما زالت ترقب ما يحدث لأخيها فعرضت على آل فرعون أن تدعو لهم إمرأة عبرانية ترضعه وتكفله وأنها تقوم له مقام الأم وتكون له ناصحة ومشفقه عليه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

نَاصِحُونَ ﴾[القصص: ١٢].

صادف قول مريم قبول من آل فرعون وبعثوها فى طلب المرضعة فجاءت بأمها وأمه فأقبل على ثديها فسلموها موسى لترضعه تحت إشرافهم وعنايتهم لقاء أجر يمنحوه لها ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]

موسى فى بيت فرعون عدو الله وعدوه

بعد أن أتمت أم موسى رضاعته أعادته لقصر فرعون وتولى البلاط الفرعونى تربيته كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد على العلوم الدينية من الطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها من العلوم التى كان الكهنة يملكون نواصيها وحدهم دون العامة من الناس وقد تعلم موسى تعليماً راقياً كأبناء الطبقة الحاكمة ولكن الله حفظه من وثنيتهم التى يفرضونها على العامة من الناس رغم قناعتهم بأن الله هو الواحد المعبود فى هذا الكون ولكنهم يفرضون على الناس آلهه متعددة يبلغونهم بما تطلب لمصلحة خاصة بهم وتمكناً من إخضاع الناس لرغباتهم وخنوعهم لهم خوفاً من بطشهم رغم قناعة الشعب المصرى بأن للكون إله واحد رغم ما يفرضه الكهنة عليهم من آلهة متعددة..
صار موسى شاباً يافعاً وحفظ الله نبيه ورسوله موسى فمنحه العلم والحكمة حتى أنه صار مميزاً فى بلاط الفرعون بين الطبقة الحاكمة وأبناء النبلاء وصار مرجعاً يرجعون إليه فى الكثير من الأمور .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] والله سبحانه وتعالى يقول فى حكمته هذه لفرعون وأشباهه من الطغاة.. أن مشيئة الله هى الغالبة ويقول لهؤلاء الطغاة أشباه فرعون: يا أيها الملك المغرور بقوة وكثر من يأتمرون به من جنود وجيش وسلطته وبأسه وإتساع سلطانه وقد حكم العظيم الذى لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف أقداره إن هذا المولود الذى تحترز منه،

وقد قتلت بسببه النفوس العديدة التى لا تحصى لا يكون مقامه ومعاشه وتربيته إلا فى دارك وعلى فراشك ولا يغذى إلا من طعامك وشرابك فى منزلك، وأنت الذى

تتبناه وتربيه وتتعداه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيب ما أوحى إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التى لا مرد لها.

ذكر المفسرون أن الجوارى التقطت موسى من نهر النيل فى تابوت مغلق عليه فلم يتجاسرون على فتحه حتى وضعته بين يدى إمرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد وأخرهم (إبن الوليد) الذى كان فرعون فى مصر فى زمن يوسف عليه السلام.

وقيل أنها كانت من بنى إسرائيل من سبط موسى وقيل بل كانت عمته والله أعلم.

فلما رفعت إحدى الجوارى غطاء التابوت رأت آسية وجه طفل يتلألا بتلك الأنوار النبوية والجلالة، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حباً شديداً فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه فاستعفته ورجته ألا يقتله ودافعت عنه: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ فقال لها فرعون: أم لك فنعم وأما لى فلا. أى لا حاجه لى به والبلاء موكل بالمنطق وقولها ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد أنالها الله ما رجت من النفع أما فى الدنيا فهداها الله به، وأما فى الآخره فأسكنها جنته بسببه: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك أنهما تبنياه لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده.

شب موسى وصار شاباً قوى الجسم والمهابة وقد كان يعلم أنه ليس إبناً لهذا الفرعون وأنه من بنى إسرائيل وأن هذا الفرعون الذى يدعى الألوهية إنما هو حاكم ظالم مستبد بشعبه ويضطهد بنى إسرائيل هو ورجال حكمه وجنوده وأتباعه.

وكان موسى نصيراً لبنى إسرائيل فى قصر فرعون يدفع عنهم الأذى وعرف فيه بنى إسرائيل ذلك فكانوا يلجأون إليه لدفع الأذى عنهم ولنصرتهم.

• • •

الخروج الأول لموسى من مصر

خرج موسى يوماً على حين غفلة من أهل المدينة فوجد رجلاً مصرياً يأخذ عبرانياً يسخره في عمل لا يرضى العبراني فبدأ الإثنان يتشاجران فلما رأى العبراني موسى إستغاث به فتدخل موسى فأزاح بيده الرجل المصرى فقتله، كان موسى قويا إلى الحد الذي يكفي فيه أن يضرب بيده ضربة واحدة ليزيح خصمه فإذا هو يقتله دون أن يقصد موسى ذلك وفوجىء به وقد مات، فوارياه التراب هو والرجل العبراني.

ولم يعلم بهذه الحادثة أحد غير موسى والرجل العبراني ـ الذى نصره موسى.

وندم موسى على ما فعل وضرع إلى الله أن يتوب عليه.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٥ـ ١٧].

فى اليوم الثانى خرج موسى إلى المدينة وهو يخاف إفتضاح أمره خاصة ، وقد وجد المصريين جثة قتيلهم وتوقعوا أن يكون قاتله عبرانى وبدأوا فى البحث عن القاتل.

وإذا يمر موسى بطرقات المدينة فوجد ذلك الإسرائيلى الذى إستنصره أمس يقاتل مصرياً فاستغاثه الإسرائيلى، وهو الذى من شيعته على الفرعونى ـ الذى هو من عدوه ـ فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه بالأمس وكره الذى رأى. ومد يده نحو الفرعونى وفى نفس الوقت قال للإسرائيلى ﴿ **إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ فخاف الإسرائيلى على نفسه أن يكون موسى قاصده بالبطش به وقال يا موسى: ﴿ **أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ**﴾ .

فانطلق الفرعونى فأخبر قومه بأن موسى هو قاتل الفرعونى الذى عثروا على جثته.

وتجمعوا قاصدين موسى للقصاص منه، فأسرع رجل من أشراف المصريين من طريق مختصر وأبلغ موسى بما حدث ونصحه بأن يترك البلاد ناجياً بحياته.

﴿فأصبح في الْمدينة خائفًا يترقَّبُ فإذا الَّذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسىٰ إنَّك لغويٌّ مُّبينٌ (١٨) فلمَّا أنْ أراد أن يبطش بالَّذي هو عدوٌّ لَّهما قال يا موسىٰ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس إن تريد إلاَّ أن تكون جبَّارًا في الأرض وما تريد أن تكون من الْمصلحين (١٩) وجاء رجلٌ مّنْ أقْصا الْمدينة يسْعىٰ قال يا موسىٰ إنَّ الْملأ يأتمرون بك ليقْتلوك فاخْرجْ إنّي لك من النَّاصحين﴾ [القصص: ١٨ ـ ٢٠].

موسى فى أرض مدين

عمل موسى بنصيحة الفرعونى الأمين وشكره على صنيعه... خرج من المدينة خائفاً يترقب لا يعرف إلى أين يتجه فهو لم يترك أرض مصر منذ ولادته فهداه الله إلى أرض مدين وهى بلاد واقعة حول خليج العقبة من شماله وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين وتقول التوراة (مديان) بن إبراهيم عليه السلام سميت القبيلة باسمه وكانوا شاويه وهذه البلاد كانت تبعد عن مصر ثمان ليال سيراً على الأقدام لأن موسى لم يتزود بذاد للطريق ولا بما يحمله ويعفيه من مشقة السير على قدميه.

وقيل فى الطبرى عن سعيد بن جبير أن موسى لم يكن له طعام سوى ورق الشجر وأنه خرج حافيا فما وصل مدين حتى وقع خف قدمه (الجلد الملاصق من القدمين للأرض).

ولعل موسى قد اختار مدين لصلة القرابة بين مديان بن إبراهيم وإسحاق بن إبراهيم الذى من ذريته موسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وصل موسى إلى أرض مدين منهك القوى من فرط التعب والجوع الذى تعرض له حتى أن بطنه قد التصق بظهره.

وجد ورد من الماء وعليه جماعات كثيرة من الرعاة يسقون ماشيتهم ووجد من خلفهم إمرأتين تبعدان غنمها عن الورد وتمنعها عن الإختلاط بغنم الآخرين.. لاحظ موسى ذلك فلم يعجبه ما رأى وهو بطبعه المندفع لا يقبل الظلم.. فتقدم إليهما يسألهما عن عدم سقايتهما للأغنام وسببه.. فقالتا لا نسقى حتى يسقى هؤلاء القوم ماشيتهم وإذا حاولنا التقدم لمشاركتهم منعونا بفضل قوتهم علينا وليس لدينا ما يلزمهم إنتظارنا أو

مشاركتهم فى السقى لأن أبانا شيخ كبير.

وكانت هذه عادة العرب القوة والمنعة يعطيان النفوذ، فإن ورد الماء يكون أولا لذوى القوةوالنفوذ وما يتبقى من الماء حتى ولو مخلوطاً بالطين فهو للضعيف وكانوا يتباهون بذلك حتى فى أشعارهم.

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

لم يعجب ذلك موسى وتقدم إلى الماء وطرد أولئك الرعاة وأقدم على البئر ينزع منها بالدلو وسقى لهما غنمهما ولم يقدر أحد من الرعاة على منعه لوضوح قوته وشجاعته وقيل أنهما بئران إحداهما على فوهته صخرة كبيرة لا يقدر على رفعها إلا عشرة رجال فتقدم إليها موسى واحتضنها بين زراعيه ورفعها وسقى لهما ثم أعادها ثانياً وهذا يتنافى مع ما جاء فى الآيات الآتية من سورة القصص: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

عادت المرأتان إلى أبيهما الشيخ فأنكر منهما تبكيرهما بالعودة على خلاف شأنهما كل يوم وسألهما عن سبب ذلك فأخبرتاه بما كان من الرجل المصرى الذى سقى لهما، فأرسل إحداهما إليه فوافته بمكانه قرب الماء وقالت له والخجل يأخذ منها : ﴿ **إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾.

شعر موسى أن الله إستجاب لدعاءه إذا قال: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ وشعر بأنه فرج الله عليه قريب.

تبع موسى المرأة إلى منزل أبيها. وجعلها خلفه قائلاً إنا لا ننظر إلى أدبار النساء وطلب منها أن تدله على الطريق.

جاء موسى إلى الشيخ ورحب به وسأله بعد أن أطعمه وسقاه... قص عليه موسى ما كان من أفعال فرعون وجنوده من ظلم لبنى إسرائيل ومن قتل للذكران واستحياء

النساء وما كان من قتل للقبطى دون أن يقصد ذلك وأنهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم إلى أن ورد مدين. فطمأنه الشيخ قائلاً له نجوت من القوم الظالمين.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٢٥].

مصاهرة موسى للشيخ

بعد أن اطمأن الشيخ لموسى وسمع قصة هروبه من مصر وطمأنه بنجاته من قوم فرعون الظالمين، قالت إحدى البنتين لأبيها: يا أبت استأجره أى لرعى الغنم، ثم مدحت بأنه قوى أمين قال لها أبوها وما علمك بهذا؟ قالت: انه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة وأنه لما جئت معه طلب منى أن أكون ورائه فإذا أخطأت الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق، هذا ما رواه عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق..

قال بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾.

وصاحبه موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]

وأبو بكر استخلف عمر بن الخطاب [١].

سر أبيها لما سمعه منها ونشط لرأى ابنته وعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه مقابل أن يعمل عنده لرعى غنمه ثمانى سنوات وإن أتمها موسى إلى عشر فمن عنده وتمت الصفقة بينهما على ذلك.

ومن ذلك اليوم صار موسى صهراً لذلك الشيخ وراعياً لغنمه.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي

(١) تقدم: ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد».

وَبَيْنَك أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾.

إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليّ والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة، فهكذا تكون خلق أنبياء الله ورسله.

من هو صهر موسى

اختلف العلماء والمفسرين فيمن هو صهر موسى فمنهم قائل بأنه نبى الله شعيب ومنهم من نفى هذا القول بأن شعيب بينه وبين موسى مدة طويلة لأنه قال لقومه ﴿وما قوم لوط ببعيد﴾ ومعلوم أن قوم لوط كانوا فى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومنهم قائل بأنه أخى شعيب ومنهم قائل بأنه شيخ مؤمن من قوم شعيب وهذه الأقوال كلها جائزة فإن كانت المدة بين إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام تزيد على أربعمائه سنة وبين شعيب وموسى أقل من ذلك والفتاتان قالتا لموسى ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وكثير من الأنبياء والرسل عمروا طويلا فمن الجائز أن يكون هو ولو أن ذلك يشوبه عدم ذكره صراحة في القرآن الكريم.

والقول بأنه ابن أخى نبى الله شعيب جائز أيضا وإن كان الرجل من قوم شعيب فهو أيضا جائز، وعدم ذكر إسمه فى القرآن والإشارة التى وردت عنه ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ تكفى فنحن بصدد قصة موسى كليم الله وتسليط الضوء عليه هو الأساس فى القصة.

قضاء موسى مدة إستئجاره

كَخُلُقَ الأنبياء قضى موسى أوفى الأجلين واتمهما وأبرهما وأطولهما أى أتم العشر سنوات فى رعى غنم صهره.

هذه العشر سنوات كانت كافية للإعداد الروحى والتهيئة النفسية لتلقى الرسالة الإلاهية،فقد تربى موسى جسمانيا فى قصر أعظم ملوك الأرض وأقواهم وعلى أرض فاض خيرها على من حولها من البلاد فصار شاباً فتيا قوياً.. ما أن مد زراعه ليطيح برجل بوكذة واحدة أطاحت به ولقى حتفه.. وهذه القوة وحدها لا تصلح للنبوة وتلقى الرسالة فكان لابد أن تتبعها تربية روحيةلتهيئة هذا الجسد القوى لتلقى رسالة من الخالق

جل وعلا.

وكانت حياة البداوة والرعى هى المناسبة لهذا الجسد القوى الذى تربى فى القصور على الترف والنِعَمَ العديدة من الغذاء والشراب الجيد والفراش الوثير والكساء الذى يليق بأبناء النبلاء وما حوله من خدم وحشم وعبيد.

هذه الحياة السهلة الرغدة لا تصلح أن تكون حياة نبى مكلف برسالة سماويه من الله لهداية فئه ضالة من الناس لعبادة الله الواحد الأحد.

فكانت سنوات البداوة بخشونتها وفطرتها ورعيها فى البرية مدعاة للتدبر فى حكمة الله فى خلقه بكل ما هو حوله من شروق الشمس حتى مغربها وسطوع القمر وأفوله ونجوم السماء والإهتداء بها فى مسير الليل.

والأغنام التى يرعاها والمرعى الذى أنبته الله من العدم والماء الذى يمطر من السحاب والماء الذى ينبع من باطن الأرض.

وتكاثر الأغنام وإستدلالها على صغارها من بين كل هذا القطيع بل وفى جوف الليل واستدلال المولود على أمه من بينها حتى لو كان لمولده ساعة واحدة من زمن.

والنبات والإنبات والمرعى الذى يتجدد عشبه كل عام وتحوله من حالته إلى حالة اللحم واللبن نعمه من الله وهبها لعباده من البشر.

كل هذه الآيات الكونية المبدعة كانت لازمة لموسى لتهيئته وإعداده لما هو قادم.

بعثته عليه السلام

اختلف المفسرون فى سبب وموعد تواجد موسى بالوادى المقدس طوى.

فمنهم قائل أنه بعد انقضاء العشر سنوات اشتاق لأهله فى مصر.. لأمه وأخيه هارون وأخته مريم وإشتاق لأمه التى ربته إمرأة فرعون التى عطفت عليه وجعلته فى منزلة ولدها.

ومنهم قائل بأنه بعد عشر سنوات أخرى قضاها مع صهره أى أنه عمل لديه عشر سنوات واستقل بنفسه عشر سنوات بعد أن وعده فى نهاية العشر سنوات المتفق عليه بأن

يعطيه كل ما يولد من الأغنام عن هذا العام بعد أن طلب موسى من امرأته أن تطلب من أبيها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأنجبت كلها إلا واحدة أو اثنتين. وتقول التوراة أن موسى رزق ولدا إسمه «جرشوم» وهو إسم يدل على معنى الغربة أى أنه غريب المولد، وذلك دلالة على شوق موسى لبلده مصر التى ولد وتربى على أرضها.

وهناك قول آخر:

أنه بينما كان موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضل الطريق فى ليلة باردة، وأراد أن يشعل ناراً فلم يستطع، وبينما هو على هذه الحال رأى نارا من بعيد فقال لأهله إمكثوا إنى آنست ناراً لعلى أتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فأسأل من عندها عن الطريق يهدوننا والظاهر أنه كان أبعد من مدين حتى جاء إلى سيناء.

وهذا ليس بغريب فإن الراعى يتبع موضع الكلأ ومواقع المطر حيث كانت ليرعى ماشيته لما قرب موسى من النار فى شجرة عليق، وأن النار لا تطفأ والعليقة لا تشتعل ولم يجد حول النار أحد من الناس يسأله عن الطريق وحينئذ سمع صوتا من وسط النار يناديه يا موسى إنى أنا الله رب العالمين، وأمره بخلع نعله لأنه بالوادى المقدس طوى فخلعها وفى الحديث: **«كانتا من جلد حمار ميت»**.

وفى الطبرى: فلما كانت الليلة التى أراد الله بموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه أخطأ الطريق حتى لا يدرى أين يتجه، فأخرج ما يشعل به ناراً زندة (من حجران يضربهما ببعض فينتج عنها شرارة يقربها من عشب جاف فيشتعل) ليبيت عليها هو وأهله فامتنع عليها زندة فلم يشتعل ناراً، فرأى ناراً.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]. فلما دنا موسى من النار استأخرت عنه، فلما رأى استئخارها رجع عنها وأوجس فى نفسه خيفه، فلما أراد الرجعة دنت منه ثم رأى عجباً النار متأججه فى الشجرة وخضرتها فى ازدياد وسمع صوتاً **﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ**

الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١١ـ ١٦] عند أهل الكتاب أن موسى وضع يده على عينيه من شدة الضوء واستمع موسى إلى أمر الله فخلع نعليه واستمع إلى اختيار الله له وأمره له بعبادته وإقامة الصلاة لذكر الله وتحذير الله بساعة القيامة وحساب الناس.

وسأله الله وهو يعلم: عن ما فى يمينه؟ قال موسى هى عصاى أتوكأ عليها ولى فيها منافع أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه يقول للشىء كن فيكون وأنه الفعال بالاختيار.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ . قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٠].

رأى موسى العصا وقد أصبحت حية كبيرة تتحرك، لم يستطيع موسى أن يقاوم خوفه أحس أن بدنه يتزلزل من الخوف، فاستدار موسى فزعاً وبدأ فى الجرى وما كاد يفعل حتى ناداه الله: ﴿ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[النمل: ١٠].

﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ [القصص: من الآية٣١].

عاد موسى وإستدار . . العصا لا تزال تتحرك بعد أن تحولت إلى حية كبيرة .

قال الله: ﴿خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ [طه: من الآية: ٢١].

مد موسى يده للحية وهو يرتجف فيقال: إنه وضع يده فى كم رداءه ثم وضع يده فى وسط فمها وعند أهل الكتاب أمسك بذنبها فلما استمكن منها إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ثم أمره الله بإدخال يده فى جيبه ثم أمره بنزعها فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء أى من برص ولا بهق.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، قيل معناه آيه أخرى من آيات الله المعجزة وهى خروج اليد البيضاء ناصعة مضيئة، وإذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك ويذهب خوفك وفعل موسى فذهب خوفه وهدأت نفسه.

إطمأن موسى وسكن. . وأصدر الله تعالى إليه أمراً بعد هاتين المعجزتين معجزة العصا ومعجزة اليد. أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى الله برفق ولين، وأمره أن يخرج بنى إسرائيل من مصر وأبدى موسى خوفه من فرعون.

قال أنه قتل منهم نفساً ويخاف أن يقتلوه (هذا ينفى أنه موسى اشتاق إلى أهله فى مصر وكان فى الوادى المقدس وهو فى الطريق إليها - بل يدعم القول الأرجح الذى يقول أنه تاه عن الطريق أثناء رعيه لغنمه) وطلب من الله أن يرسل معه أخوه هارون فهو أفصح منه لساناً **﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾**[القصص: ٣٢].

ومع ذلك سبع آيات أخر فذلك تسع آيات بينات وهى المذكورة فى آخر سورة سبحان .

نعود إلى خوف موسى من فرعون لقتله المصرى وخوفه من أن يقتلوه وطلب من الله أن يؤيده بأخيه، فهو أفصح منه لساناً.

وسبب ذلك أن هناك روايتان:

أولاهما تقول: أن موسى لما التقطه آل فرعون من التابوت ورفض المرضعات تأخرت رضاعته حتى أُحَضِرتْ إليه أمه فسبب هذا تلعثم فى لسانه.

والرواية الثانية أنه فى قصر فرعون وهو يحمله طفلاً جزب فرعون من لحيته فلما هم بقتله دافعت عنه آسية زوجة فرعون وطلبت إليه أن يختبر عقله بتمرة وجمرة ولما هم بأخذ التمرة حول فرعون يده إلى الجمرة ووضعها فى فمه فلسعت لسانه وسبب له هذا التلعثم: **﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾** [القصص: ٣٣ - ٣٥].

وقال فى سورة طه: **﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾** [طه: ٢٤ - ٢٨].

يقول أهل الكتاب أنه مذكور فى التوراة أن موسى قبل أن يكمل مسيرته إلى مصر عاد إلى مدين وقال لحمية «يثرون» أنا أذهب وأرجع إلى أخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء فقال «يثرون» لموسى إذهب بسلام.

لم تختلف الروايات والحوار الذي تم بين الله سبحانه وتعالى وبين عبده ورسوله موسى عليه السلام مما جاء فى القرآن الكريم وما جاء فى التوراة إلا قليلاً من التفاصيل.

وقد جاء فى الإصحاح الثالث ـ سفر الخروج:

وأما موسى فكان يرعى غنم «يثرون» حمية كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب من نار من وسط العليقة، فنظر فإذا العليقه تتوقد بالنار والعليقه لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم لماذا لا تحترق العليقة.

فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة وقال : موسى موسى، فقال هانذا لا تقرب إلى ها هنا إخلع حذاءك من رجليك لأن المواضع التى أنت واقف عليها أرض مقدسة .

ثم قال :أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله.

فقال الرب إنى رأيت مذلة شعبى الذي فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم، إنى علمت أوجاعهم.

فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة واسعة إلى أرض تفيض لبنا وعسلا ، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوبيين واليبوسيين.

والآن هو ذا صراخ بنى إسرائيل قد أتى إلى، ورأيت أيضا الضيقه التى يضايقهم بها المصريين.

فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر.

فقال موسى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون، وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر؟

فقال أنى أكون معك وهذه تكون تلك العلامة أنى أرسلتك حينما تخرجون الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل.

فقال موسى لله ها أنا آتى بنى إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلنى إليكم، فإذا قالوا ما إسمه ماذا أقول لهم؟

فقال الله لموسى أهيه الذى أهيه وقال هكذا تقول لبنى إسرائيل أهيه أرسلنى إليكم.

وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبنى إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب أرسلنى إليكم، هذا إسمى إلى الأبد، وهذا ذكرى إلى دور فدور.

إذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لى قائلاً: إنى قد افتقدتكم وما صنع بكم فى مصر.

فقلت أصعدكم من مذله مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين والبوسيين إلى أرض تفيض لبنا وعسلا.

فإذا سمعوا لقولك، تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين إلتقانا فالآن نمضى سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا.

ولكن أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولابيد قوية.

فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها وبعد ذلك يطلققم.

وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين.

بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيله بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعو نها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين (هل يطلب الرب من شعبه المختار أن يسرق المصريين؟).

الإصحاح الرابع ـ سفر الخروج

فأجاب موسى وقال: ولكن ها هم لا يصدقوننى ولا يسمعون لقولى، بل يقولون لم يظهر لك الرب.

فقال له الرب: ما هذه فى يدك؟ قال: عصا.

اطرحها إلى الأرض فطرحها إلى الأرض فصارت حية. فهرب موسى منها.

ثم قال الرب مد يدك وأمسك بذنبها فمد يده وأمسك بها فصارت عصا فى يده.

لكى يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب.

ثم قال له الرب أيضاً: أدخل يدك فى عبك ثم أخرجها من عبه واذاهى قد عادت مثلْ جسده.

فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى إنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة.

ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابس فيصير الماء الذى تأخذه من النهر دما على اليابس.

فقال موسى للرب: استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول أمس ولا من حين كلمت عبدك بل أنا ثقيل الفم واللسان.

فقال له الرب: من صنع للإنسان فما أومن صنع أخرس أو أصم أو بصيرا أو أعمى أما هو أنا الرب.

فالآن أذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به.

فقال: استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل.

فحمى غضب الرب على موسى. وقال أليس هارون اللاوى أخاك؟ أنا أعلم أنه يتكلم وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك وحينما يراك يفرح بقلبه.

فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأنا أعلمكما ماذا

تصنعان.

وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلهاً.

وتأخز في يدك هذه العصا التى تصنع بها الآيات.

فمضى موسى ورجع إلى «يثرون» حمية وقال له: أنا أذهب وأرجع إلى أخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال «يثرون» لموسى اذهب بسلام.

وقال الرب لموسى فى مديان: اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك.

فأخذ موسى امرأته وإبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر، وأخذ موسى عصا الله فى يده.

وقال الرب لموسى: عندما تذهب لترجه إلى مصر إنظر جميع العجائب التى جعلتها فى يدك واصنعها قدام فرعون ولكنى أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب.

فتقول لفرعون هكذا يقول الرب « إسرائيل» إبنى البكر.

فقلت لك أطلق إبنى ليعبدنى فأبيت أن تطلقه ها أنا أقتل إبنك البكر.

وحدث فى الطريق فى المكنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله.

فأخذت صفورة صوانه وقطعت غرلة إبنها ومست رجليه فقالت إنك عريس دم لى.

فانفك عنه حينئذ فقالت عريس دم لى من أجل الختان.

وقال الرب لهارون: إذهب إلى البريه لاستقبال موسى فذهب والتقاه فى جبل الله وقبله.

فأخبر موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل.

فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب.

فآمن الشعب ولما سمعوا أن الرب افتقد بنى إسرائيل وأنه نظر مذلتهم خروا وسجدوا.

هذا ماجاء فى الإصحاح الثالث والإصحاح الرابع سفر الخروج:

ولعلك عزيزى القارئ تلاحظ أن الأحداث تكاد تكون واحدة مع الاختلاف الطفيف فى بعض النقاط والتعارض فى بعضها الآخر. وعلى سبيل المثال.

ما جاء فى الإصحاح الثالث: بند ٢٢ ـ من أن يطلب الله من شعبه المختار أن يسلب المصريين فضتهم وذهبهم وملابسهم قبل الخروج... فهل يعقل هذا أن يطلب الله من شعبه أن يسرق وأيضا ما جاء فى الإصحاح الرابع بند ٢٢ أيضاً من أن الله جل وعلا يقول على يعقوب عليه السلام أنه ابنه البكر... تعالى الله عما يصفون.

ولعلك أيضا عزيزى القارئ قد لاحظت الإعجاز القرآنى فى أسلوبه من ذكر هذه الأحداث إذ فى آيات قليلة بمعانيها المعجزة قد عبرت عما جاء فى هذه النقاط العديدة فى كتبهم.

ونعود إلى سرد ما جاء فى كتابنا الكريم عن بقية أحداث قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

عودة موسى إلى مصر

نقل عن السدى: أن موسى أقبل على أهله فسار بهم إلى مصر حتى أتاها ليلاً فتضيف على أمه وهو لا يعرفهم فأتاهم فى ليلة كانوا يأكلون فيها الطفيشل (المرق) فنزل فى جانب الدار فجاء هارون فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه فأخبرته أنه ضيف فدعاه، فلما أن قعدا تحدثا فسأله هارون من أنت؟ فقال: أنا موسى! فقام كل منهما إلى صاحبه فاعتنقه. وأبلغ موسى أخوه هارون ما كان من تكليف الله لهما.

ويقول بعض المفسرين: أن أمهما خافت عليهما وعارضت فى ذهابهما إلى فرعون خشية أن يبطش بهما فلم يصغيا لقولها ولم يكن لهما هم إلا تنفيذ أمر الله تعالى.

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا

نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٢ ـ ٤٧].

موسى وهارون على باب فرعون

بعض المفسرين يذكر أنهما دخلا على فرعون بمجرد استئذانهما عليه، وبعض آخر يقول إنهما ترددا على بابه سنتين لا يظفران بالمثول بين يديه حتى دخل عليه مضحكه قائلا أن بالباب رجلاً مجنونا يدعى أن له إلها غير فرعون. فكان ذلك حاثا لفرعون على طلب موسى وهارون.

أما القرآن الكريم فلم يتعرض لشيء من هذا. وإنما ذكر أنهما أتيا فرعون وبلغاه رسالة الله تعالى له، أن يرسل معهما بنى إسرائيل لعبادة ربها. وفى التوراة« **أطلق شعبى ليعبدوا فى البرية**» وبلغه موسى فيما بلغه أنه لم يقل على الله إلا الحق وأنه قد أرسل بآية منه ليرسل معه بنى إسرائيل وجعل ترخيصه لبنى إسرائيل بالذهاب مع موسى إلى البرية لعباده ربهم نعمه يمن بها فرعون على بنى إسرائيل.

وهذا من تلطف موسى ورفقه فى خطاب فرعون طبقاً لقوله تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ وهذه الآيات على هذا الموقف من مواقف موسى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥].

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

أى كرمتهم. وتكريمهم يكون بمنع العذاب عنهم وإطلاق الحرية لهم فى عبادة ربهم وإرسالهم مع موسى. وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد تقابل استعبادك لشعب بنى إسرائيل.

قال فرعون لموسى مذكراً إياه بتربيته فى بيت فرعون وليداً ولبث فيهم سنين من عمره. وهذا يقتضى منه أن يكون حافظاً لهذا الجميل وأن يبتعد عن كل ما يغيظ فرعون

وذكره بفعلته التى فعلها بقتل الرجل المصرى وهروبه على إثرها.

فرد عليه موسى قائلاً فعلتها وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم. فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين. أى أنى قتلته قبل أن يوحى إلى وهربت منكم وهدانى ربى وأوحى إلى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ٢١].

وإستمر الحوار بين موسى وأخيه هارون وبين فرعون وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨].

ولكنه عناد الحاكم الذى يدعى على شعبه الألوهية لإرهابهم وتخويفهم من فكرة التمرد عليه: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

يقول هذا وهو يعلم أنه عبد وأنه سيموت كما مات من قبله من الملوك ويعلم أن موسى ينطق بالحق ولكنه الكبر والعناد والجحود بنعم الله.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

ظل فرعون على عناده وطغيانه وهدد موسى وهارون بالسجن إن اتخذا إلها غيره.

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ٢٩ ـ ٣٠] فشلت محاولات موسى فى مخاطبة عقل فرعون المعاند المكابر فإن فشلت الحجة العقلانية فليحاول بالحجة الحسية.. بالمعجزتان التى أيده الله بهما. رد فرعون ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ

يدهُ فإذا هي بيضاءُ للنَّاظرين ﴾ [الشعراء: ٣١ ـ ٣٣].

أي أن الثعبان كان ضخماً فظيع الشكل حتى قيل أن فرعون قد أخذه خوف عظيم ومد موسى يده إليها فعادت إلى ما كانت عليه.

ولما أدخل موسى يده فى جيبه أخرجها وهى بيضاء تشع نوراً كفلقة القمر تتلألأ نوراً بهر الأبصار. فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كله يستمر فرعون فى غيه وعناده هو ومن حوله من حاشيته: ﴿**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ [طه: ٥٦ ـ ٥٩]. كذب فرعون ما رأى واعتبره هو ومن حوله سحراً وتحدى موسى أن يأتى بسحر مثله على أيدى السحرة فى مصر ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت ومكان معلوم وكان هذا من أكثر مقاصد موسى عليه السلام. أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهره بحضرة الناس ولهذا قال ﴿ **مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ**﴾ [طه: ٥٩].

وكان يوم عيد من أعياد المصريين يجتمع فيه الناس للإحتفال به ﴿**وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ [طه: ٥٩] أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام. لأنه على يقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه.

المواجهة يوم الزينة

أرسل فرعون المنادين فى طول البلاد وعرضها يطلب السحرة لمقابلته فحضروا إليه من كل حدب وصوب وطلب منهم فرعون أن يكونوا مستعدين لمنازله ذلك الذى يدعى أن له إله غيره وأنه يأتى بمعجزة العصا التى تتحول إلى ثعبان واليد التى تخرج بيضاء.

فطمأنه السحرة وقالوا لفرعون أتكافئنا لو كنا نحن الغالبين. طمأنهم فرعون على مكافأتهم بل وأنهم أيضاً سيكونوا من حاشية فرعون المقربين ﴿ **وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ [الأعراف: ١١٣ ـ ١١٤].

وجاء اليوم الموعود يوم الزينة والاحتفال الكبير وحضر السحرة وهم فى ثقة أنهم الغالبون وحضر حشد كبير من الناس وفرعون وحاشيته فى صدر الاحتفال وتواجه السحرة أمام موسى لمنازلته أمام هذا الحشد الكبير من الناس. وسألوه هل يلقون سحرهم أم يلقى هو سحره؟

فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. وكان عتادهم العصى والحبال. فألقوها فامتلأ المكان حيات وثعابين وخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى.

فى تلك اللحظة ابتهج فرعون وجنوده وعليه قومه. وأيقنوا أن السحرة قد نجحوا. وأن موسى لا يمكنه أن يأتى بشىء أعظم من سحرهم، إذ كل ما فى يده عصاه فإذا انقلبت حية فهى حية واحدة من مئات وآلاف قد غص بها رحب الساعة التى هم فيها.

وفى تلك اللحظة أيضاً هال موسى أمر تلك الحيات وأوجس فى نفسه خيفة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٥ ـ ١١٦].

أوحى الله إلى نبيه موسى ألا يخاف وأنه هو المنتصر عليهم وأمره أن يلقى عصاه فإذا هى حية عظيمة تبتلع ما صنعوه بحبالهم وعصيهم وسحرهم لأعين الناس.

﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

صمت شَمَلَ جميع الناظرين لقد هالهم ما رأوا. . . عصا موسى تتحول إلى حية ضخمة تبتلع كل أعمال السحرة. . . أول ما علم وفطن إلى ما صنع موسى هم السحرة أنفسهم إن هذا ليس سحراً. . . فالسحرهم أدرى به . . . أما هذا فليس سحراً. . . إنه عمل خارق لا يقدر عليه بشر. . إنه عمل مؤيد من خالق عظيم. . وكانوا قد سمعوا كغيرهم من الناس عن دعوة موسى لعبادة الله الواحد الأحد خالق كل شىء فآمنوا لتوهم بدعوه موسى وخروا سجداً **﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾** [طه: ٧٠].

نظر فرعون فى عجب لما يحدث

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]. الموقف أصبح عصيباً لفرعون . . أينهزم أمام حاشيته وشعبه ويفقد ألوهيته التى فرضها عليهم؟

ترك العبرة والعظة التى يمكن أن تهديه إلى عبادة الله وبدلاً من الخضوع لما رأى من البينة والدلالة على نصرة الله لنبيه ورسوله موسى. إذا به يتخذ موقف الهجوم ويهدد السحرة بالعذاب الشديد وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف (أى اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس) ويصلبهم على جزوع النخل فهى الأعلى فى الارتفاع حتى يراهم كل الناس عبرة وليثبت أن عذابه شديد ويرهب شعبه ماذا قال السحرة أمام هذه المأساة التى تنتظرهم وهذا الوعيد الذى قاله فرعون فهو لن يقتلهم فحسب بل سيعذبهم قبل الموت. . . سيمثل بأجسادهم وهم أحياء ثم يصلبهم على جزوع النخل بعد ذلك.

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

أى شجاعة هذه التى تحلى بها سحرة فرعون. . لم يرهبهم تهديد فرعون وما سيصنع بهم. . إنها قوة الإيمان عن يقين بما شاهدوا من معجزة الله المؤيدة لنبيه موسى لم يخافوا ولم يرتدوا عما صنعوا بل أنهم هاجموا فرعون ونصحوه بأن الحياة الدنيا قصيرة وأن الآخرة هى الأبقى وأنهم آمنوا بربهم ليغفر لهم ما أكرههم عليه فرعون من السحر وأن العودة إلى الله خير من الدنيا وما فيها بل أنزروه بأن من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحى. . أى أنه فى عذاب دائم الموت أمنية لكل من يذق عذابها. أما من يأت الله مؤمنا ويعمل صالحاً فله الدرجات العلى من جنات عدن التى تجرى من تحتها الأنهار وعداً من الله لعباده المؤمنين.

قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة.

قال عكرمة: لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة فلذلك قالوا ما قالوا وفى الحديث: «**الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**» رواه أحمد [(١)].

انتهى مشهد اللقاء الفصل بين موسى وهارون من ناحية وسحرة فرعون وفرعون نفسه وحاشيته وحرسه من الجند وشعبه الذى حضر هذا اليوم من احتفال يوم الزينة.

المشهد كان نتيجته انتصار لموسى المؤيد من الله سبحانه وتعالى على سحرة فرعون وإيمان السحرة بنبوة موسى ورسالته وتضحيتهم بأنفسهم وتحملهم عذاب وتنكيل فرعون لهم أمام إيمانهم العميق. ولم يأمن برسالة موسى السحرة فقط بل من المؤكد أن بين المصريين من آمن فى نفسه دون أن يعلن ذلك خوفاً من بطش فرعون.

وبقى لموسى وهارون أن يجاهد لتنفيذ التكليف الذى كلفه به رب العالمين ويقول صاحب الظلال ورسالة موسى قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر ـ عدا رسالة محمد ـ ﷺ.

فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعنى ملوك الأرض فى زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدهم إستعباداً للخلق واستعلاء فى الأرض.

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الزل حتى استمرءوا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً. والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن، ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس. فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة، انحرفوا عنها، وفسدت صورتها فى قلوبهم. فلا هى قلوب خامه تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هى باقية على عقيدتها القديمة. ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة والالتواءات فيها والرواسب

(١) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٢، ٥/ ٣١٦، ٣٢١) وذكره الأصفهانى فى «تاريخه» (٢/ ٣٠٥).

والإنحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً.

وهو باختصار مرسل لإعادة بناء أمه، بل لإنشائها من الأساس، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير.

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهى نموذج كامل لبناء أمة.

تمادى فرعون فى الضلال والكفر

لم يكتف فرعون بما فعل مع السحرة بل أنه أيقن أن وراء ما جاء به موسى من معجزات إله قوى يسانده. فطلب من وزيرة هامان أن يشعل على الطين (أن يحرقه ليحوله إلى طوب بناء كما نفعل الآن فهى صناعة موروثة من زمن الفراعنة) وابنى لى بناء عاليا لعلى أطلع إلى إله موسى وأنه يظن أن موسى كاذباً.

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن الله آرسله وزعم فرعون لقومه آنه لم يعلم آن لهم إله غيره. ومع ذلك سيصعد على البناء لعله يجد طرق ومسالك السموات فيطلع إلى إله موسى. هذا ليبين لشعبه قوته وإثبات أن موسى يضلهم عن عباداتهم واستمر فرعون فى سخرة بنى إسرائيل فى الأعمال الشاقة وإن بدى منهم تهاون ضربوا وأهينوا وأذوا غاية الأذيه. ولهذا قالوا لموسى.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط. وهذا ما وقع وهذا من دلائل النبوة.

الله يوحى لموسى وأخيه

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٧ ـ ٨٩].

بدأ القلة التى آمنت من قوم موسى فى الامتناع والاحتجاج على أعمال السخرة التى تفرض عليهم ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

لم تترك حاشية فرعون الفرصة للكيد فى موسى وهارون ومن آمن معهم من بنى إسرائيل ونقلوا له عما يجرى من احتجاج البعض منهم على أعمال السخرة ولا يعبدون آلهتهم ولا يعبدون فرعون فسكن فرعون روع القوم واعدا إياهم بأن يقتل قوم موسى ويستحى نساءهم. معتزاً بماله عليهم من القهر والغلبة والسلطان. ثم أتبع القول بالعمل.

وزادت شكوى بنو إسرائيل لموسى من أفعال المصريين وظلمهم. فوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل. وأن يستعينوا بالله على إحتماله. ووعدهم حسن العاقبة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧].

• • •

التآمر على قتل موسى

أصدر الفرعون أوامر لجنوده بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى والإعتداء على عفة النساء وسجن من يعترض منهم على ذلك وضج بنى إسرائيل بالشكوى إلى موسى ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وكأنهم يقولون لموسى أن وجودك لم يؤثر فى شىء وكأننا وحدنا ورد موسى جهلهم وأفهمهم أن الله سيهلك عدوهم ثم يستخلفهم فى الأرض فيرى كيف يعملون.

وبدأ موقف موسى صعباً أنه يواجه غضب الفرعون ومؤامرته وتذمر قومه فى نفس الوقت.

قارون يظهر على ساحه التآمر

وسط هذه الظروف التى يعانيها موسى تحرك قارون. وكان قارون من أبناء بنى إسرائيل. كان من قوم موسى فبغى عليهم. أن ثراءه وظروفه جعلاه أقرب طبقيا وعاطفيا إلى نظام الفرعون.

يحدثنا الله فى كتابه الكريم أن كنوز قارون كان يصعب حمل مفاتيح أبواب الحجرات التى تضم الكنوز على مجموعة من الرجال الأشداء « مفاتيح الأبواب فقط» فما بال الكنوز نفسها.

كان لقارون عدد عظيم من الرجال والحرس والخيل والمركبات. وكانت مركباته مطعمة بالفضة والذهب وكذا سروج خيله. وكان قارون إذا خرج فى زينته، ومشى موكبه تحت الشمس تلألأ الذهب والفضة تحت الشمس وخطف وهجها أبصار أهل الدنيا. وكان طبيعيا أن يملك قارون مع أمواله كبرياء لا يفلح معها نصح وصار موكبه أشهر المواكب بعد موكب الفرعون وموكب هامان. كان الاثنان يملكان مصر كلها ولم يكن قارون يملك غير جزء منها.

وكان قارون يتصور أنه أفضل عند الله من موسى الفقير الذى لا يملك شيئا وإتفق رأيه مع عدو الله الفرعون فى حكمه على موسى ﴿ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ويبدو أن الغالبية من المصريين ومن بنى إسرائيل قد فتنها ذلك أيضاً فكانوا يتساءلون لو أن موسى أفضل عند الله فلماذا لم يعطه مالاً مثل ما أعطى قارون وكانوا يتمنون على أنفسهم أن يكونوا مثل قارون ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وكان العقلاء ـ رغم قلتهم ـ يرون أن ثراء قارون العظيم لا يعنى شيئاً فى ميزان الله.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠] وقد نصحه البعض من بنى إسرائيل بألا يفرح أن الله لا يحب الفرحين وأن يتذكر ما ينتظره فى الدار الآخرة وألا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يحسن للناس كما أحسن الله إليه وألا يفسد فى الأرض لأن الله لا يحب المفسدين.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

لم يستمع قارون لصوت العقل بل قال إن هذه الأموال والكنوز قد حصل عليها عن علم عنده ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

يدعى أن كنوزه هذه قد حصل عليها بذكائه وعلمه وهناك أقاويل عن أنه كان بارعاً فى الكيمياء فيحول النحاس إلى ذهب وقيل أنه علم اسم الله الأعظم فكان يدعو به المعادن فتتحول بقدرة الله إلى ذهب وهذا الكلام لا يتماشى مع المنطق والعقل فهو أصلا غير أهل لذلك فقد كان كافراً بما جاء به موسى ومن قبله من الأنبياء.

ويقال أيضا أنه فى هذه الظروف الصعبة التى يمر بها موسى وهو يدعو قومه إلى عبادة الله.

دبر قارون مكيدة لموسى بأن أغرى امرأة ساقطة بالمال لتدعى على موسى بهتاناً بأنه عاشرها وهكذا فوجىء موسى يوماً وهو يقف وسط قومه يعظهم ويدعوهم إلى عبادة الله، فوجىء بهذه المرأة تقذفه بتهمة مؤداها بأنه كان فى فراشها أمس.

ونحسب أن موسى فوجىء بهذه التهمة ولم يعرف ماذا يقول فيها أو كيف يدفع عن نفسه اتهام البغى وأغلب الظن أنه صلى لله ثم أقبل عليها فسألها لماذا تتهمه بما لم يحدث، وانهارت المرأة باكية مستغفرة تحدثه أن قارون أعطاها مالاً مقابل إلصاق هذا الإفك بموسى.

ودعا موسى على قارون...

وشاء الله أن تقع معجزة تضع الأمور فى أماكنها الصحيحة وتبين للناس أن الله هو القادر القاهر وأن المال فتنه وليس فضلاً تقاس به أقدار الناس.

وكانت هذه المعجزة هى خسف الله لقارون وداره وكنوزه.

خرج قارون على قومه فى زينته... فانشقت الأرض تحت قدميه وهوى فى الأرض. انشقت وابتلعت قارون ومعه قصوره وكنوزه وبساتينه ورجاله وخيله وكل ما يملك. وتقول بعض الروايات أن هذه الأرض فى الفيوم وأن بحيرة قارون التى يعرفها المصريون بهذا الإسم هى موضع أرض قارون وقصوره وكنوزه. يقول تعالى: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ [القصص: ٨١، ٨٢].

لم تكد تحدث تلك المعجزة حتى ارتفعت هامات المؤمنين بموسى فقد كانت معجزة حدثت أمام أعينهم. وعاد الصراع بين فرعون وموسى إلى زروته وأيقن فرعون أن موسى يهدده فى ملكه فى هذه الآونة اقتنع فرعون بأن قتل موسى يحل مشاكله.

﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦].

طرحت فكرة قتل موسى فى بلاط فرعون... طرحها الفرعون نفسه ووافقه فيها هامان وبعض الحاضرين ولكن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه قال أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالأدلة الواضحة على أنه رسول كلفه الله برسالته. فإذا كان كاذباً فسيرتد إليه كذبه وإذا كان صادقاً وقتلناه فما هو الضمان من نجاتنا من العذاب

الذى يعدنا به. أم نرى ما حدث لقارون بالأمس القريب أين ذهبت بكنوزه وقصوره ورجاله.. كله فى لحظات صارت تحت الأرض. من ينصرنا من بأس الله إذا جاءنا.

رغم ذلك قال فرعون كلمته التاريخية التى أصبحت من بعده مثلا لكل الطغاه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

قال الله تعالى يصف ذلك الحوار ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٨، ٢٩].

لم ينتهى الحوار عند هذا الحد. قال فرعون كلمته ولكنها لم تقنع الرجل المؤمن الذى لولا مكانته لدى فرعون وقرابته وقوة إيمانه الذى يخفيه ما استمر فى النقاش بعد مقولة فرعون لكنه قال: يا قوم إنى أخاف عليكم أن يحدث لكم ما حدث يوم الأحزاب وما حدث لقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ولو حدث لكم ستولون مدبرين ومالكم من منقذ من قدر الله وقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به ولما توفاه الله قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً. والله يضل من هو مسرف مرتاب.

قال الله تعالى فى محكم آياته ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٥].

أن الرجل المؤمن فى حديثه الأخير يغوص فى أعماق التاريخ وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة على صدق نبوة موسى وهو يحذرهم من المساس به لقد سبقتكم أمم كذبت رسلهم فحاق بهم العذاب ويبدوا أنه أقنع الحاضرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأمونة العواقب. وبالتالى فلا داعي لها. بعدها حاول أن يبصرهم بالحق الذى جاء به موسى... الرجل يتنقل بين التلميح والتصريح... إلى الجهر بالحق.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨ ـ ٤٠].

انتهى الأمر وانكشف إيمان الرجل المؤمن لم يعد يكتم إيمانه أعلن إيمانه فى نهاية الحديث صراحه... قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤١ ـ ٤٤].

أنهى الرجل المؤمن الذى كان يكتم إيمانه حديثه بهذه الشجاعة وانصرف فتحول الحديث عن موسى إليه... الرجل اتهم فرعون ووزرائه بأنهم سيهلكون فى النار. أن الرجل من آل فرعون ولو أمر بقتله سيكون إنتصاراً لموسى وسيعنى أن قصر الحكم إنقسم على نفسه وواضح أن الرجل مطلع على تاريخ السابقين وأنه من الطبقة المثقفة الحاكمة وقتله سيؤلب طبقته على فرعون. الواضح أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل هذا الرجل لينشغل به فرعون عن موسى ويصرفه عن فكرة قتله.

لم تذكر التوراة ائتمار القوم بموسى لقتله ولا ذكرت موقف الرجل المؤمن من آل فرعون ودفاعه عن موسى وتذكيره قومه بيوسف، لأن القوم نسوا حظاً مما ذكروا به، ولعل حقدهم على فرعون وقومه صرفهم عن ذكر أحد من المصريين قد آمن بموسى.

آيات الله على فرعون وقومه

استمر عناد فرعون وكفره وتمادى فى استباحة حرمات بنى إسرائيل من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعباد عامة الناس فى الأعمال الشاقة وسجن وتعذيب من يبدى معارضة وموسى وهارون يواسيان بنى إسرائيل ويطلبا لهم من الله النصرة على فرعون وقومه وبدأ الله سبحانه وتعالى فى إصابة فرعون وقومه بالسنين وهى أعوام الجدب التى لا يستفاد فيها بزرع ولا ينتفع بضرع وقلة الثمار من الأشجار فلم يعتبروا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم فإذا جاءتهم الحسنة والخصب قالوا لنا هذه أى أن هذا الذى نستحقه وهذا الذى يليق بنا وإن تصبهم سيئة يتشاءموا بموسى ومن معه بأنهم سبب ذلك وهذه المصائب التى أصابهم بها الله إنما يصيب بها الكافرين بعد أن كذبوا رُسُلُ الله وأساءوا إليهم.. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢] أى لا فائدة لك معنا يا موسى ومهما تصنع ومهما تأتى بمعجزات فلن نؤمن بما جئت به فأصابهم الله بالطوفان وهو الماء الغزير الذى يغطى الزرع حتى يهلكه ولا يستفاد منه وهو إما بزيادة مياه النيل حتى تفيض عن مجراه وتغطى الأرض المزروعة مدة طويلة ولا يستفاد من زرعها أو بهطول الأمطار الغزيرة وتؤدى نفس النتيجة.

وأصابهم الجراد بأعداد كثيفة تأكل ما تجده أمامها من زروع وأوراق الشجر حتى يصبهم الجوع وأصابهم بالقمل وهى حشرة تصيب الإنسان القزر والغير نظيف ولكنها أصابتهم جميعاً فهى تلدغهم وتمتص دماءهم وتؤرقهم فى نومهم وصحوهم. وعند اليهود أنها البعوض وأصابهم الله بالضفادع التى كثرت أعدادها جداً فكانت فى فراشهم وداخل ملابسهم ومنازلهم وداخل أوعية طعامهم فأحالت حياتهم إلى عذاب ونفور شديد.

وقد أصابهم الله بالدم... إذا أحال ماء النيل الذى يغترفه القبطى من مجرى النهر إلى دم مجرد أن يضعه فى فمه يتحول إلى دم فيلفظه لدرجة أن المصرى كان يذهب إلى الإسرائيلى الذى يشرب الماء ويطلب منه أن يسكب له الماء من فمه ليضعه فى فم المصرى

فيتحول من ماء فى فم الإسرائيلى إلى دم فى فم المصرى. فعانوا كثيراً وتدهورت حياتهم بدرجة كبيرة وسريعة قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٣].

تلك الكوارث كلها كانت تصيب فرعون وشعبه ولا تصيب بنى إسرائيل. فزاد ذلك من حنق المصريين على موسى وبنى إسرائيل وتوهمهم بأن ذلك من دعاء موسى وهارون عليهم فاتجهوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعوا لهم ربه ليكشف عنهم تلك المصائب والمحن الواحدة تلو الأخرى وفى كل مرة كانوا يقولون له إن كشفت عنا الضر لسوف نؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل وكان موسى فى كل مرة يدعو الله فيجيب الله دعائه ويكشف عنهم الرجز. وبعدها يعودون لكفرهم هكذا فى كل مره.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

آيات الله التسع

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦].

الآيات هى:

الجدب: بأن قل عنهم ماء النيل وقصر عن إرواء أرضهم.

النقص من الثمرات: بسبب ما يأتى عليها من اجتياح الجراد ونقص ريها بالماء.

الطوفان: سواء كان بزيادة ماء النيل وتغطية الزرع أو بفعل المطر الغزير.

القمل: الذى أقض مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب وفى التوراة البعوض بدل القمل.

الضفادع: قيل أنها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم معيشتهم بسقوطها فى طعامهم وملابسهم.

الدم: بأن استحال الماء لأهل مصر دماً.

الطمس على أموالهم: أى محقها وإهلاكها.

اليد: إذ كان يضع يده فى جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء.

وبعض المفسرين يعد الآيات على هذا الوجه فيجعل (فلق البحر) شقه بعصا موسى وبعضهم يجعلون (إنبجاس الحجر بالماء لبنى إسرائيل من الآيات التسع ولكن ذلك كان بعد تمام الآيات وهلاك فرعون على الترتيب فلا يكونا من الآيات التسع.

وعلى ذلك فالأوقع أنها:

السنون (الجدب) وكان يؤرخ به قديماً.

نقص الأموال. نقص الأنفس. نقص الثمرات. الطوفان . الجراد.

القمل الضفادع الدم

وكما جاء فى سورة الإسراء بالآيات ١٠١، ١٠٢ فقد فسرها البيضاوى بأنها آيات أرسل بها موسى إلى بنى إسرائيل وهى أحكام أمروا بالأخذ بها آيات عقاب عوقب بها فرعون وجنوده وهو أحد وجوه أوردها فى هذه الآية.

وعبارته بنصها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هى: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفجار الماء من الحجر، وفلق البحر، ونتق الطور على بنى إسرائيل وقيل: الطوفان، السنون، نقص الثمرات مكان الثلاث الأخيرة.

كل هذه الآيات المعجزة لم تفلح مع فرعون وقومه وظل على كفره وعناده واستخفافه بموسى وهارون وآياته التى أصابتهم.

الخـــــروج

نادى فرعون فى شعب مصر يدعوهم إليه. . . . قال تعالى: ﴿ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه إسوره من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾

يتهكم فرعون على موسى مستعلياً عليه أمام قومه بأنه له ملك مصر وهذه الأنهار التى تجرى بالماء (يقصد فروع النيل) فتنشر الخير والرزق فى مسارها وعلى ضفتيها وهو خير من موسى ذلك الفقير ولا يكاد يبين نطقه. ويتصور أن لو ألقيت عليه إسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة. أو لو ألقيت عليه الأسورة كان سيؤمن فرعون ألم يكن يضعها فى موضع سحره كما زعم عليه بآياته التى أتى بها ووصفه بالسحر.

فاستخف فرعون بعقول قومه وحريتهم وآدميتهم ومستقبلهم ومن خوفهم أطاعوه وطاعتهم ليست خوفاً فقط فقد وصفهم الله بأنهم كانوا قوماً فاسقين والفسق يصرف الإنسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأموره ويورد الهلاك. وذلك ما وقع لقوم فرعون بدى واضحاً أن لا أمل فى هداية فرعون ولن يكف عن تعذيبه لبنى إسرائيل.

هنا لك دعا موسى وهارون على فرعون.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

وجاء الإذن لموسى بالخروج وحياً من الله ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وأصدر موسى أوامره لبنى إسرائيل بالخروج والاتجاه شرقاً. لكل بنى إسرائيل من آمن منهم ومن لم يؤمن ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

في الموعد المحدد خرج بنو إسرائيل بحليهم بعد أن استعاروا من المصريين حلى كثيرة بزعم حضورهم احتفالات ومناسبات خاصة بهم وإعادتها للمصريين. خرجوا ليلاً وقادهم موسى وأخيه هارون حتى وصلوا خليج البحر الأحمر.

في تلك الأثناء شاع خبر خروجهم وهروبهم ووصل الأمر إلى فرعون فحشد جيشاً كبيراً لمقاتلتهم وإعادتهم وقال ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٥].

توجه جيش فرعون شرقاً متبعاً آثار أقدام بني إسرائيل.

لاحظ بنى إسرائيل غباراً يتصاعد من بعيد بما يدل على حركة كبيرة بعدها ظهرت من بعيد أعلام جيش الفرعون فارتعدت فرائصهم رعباً وهلعاً فهم ليسوا مقاتلين وغير مسلحين وجيش الفرعون معروف بقوته وتمرسه على القتال وقالوا إنا لمدركون... سيصلون إلينا ويمزقوننا ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] البحر أمامهم والعدو خلفهم بكل أسلحته وعرباته الحربية وفرسانه وجنده. والخوف يتملك بنى شعبه ويقولون أن جيش الفرعون سيلحق بنا ويقول نبى الله ورسوله موسى بكل ثقة فى مشيئة الله وقدرته ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

ولم يخيب الله رجاءه ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

أمر الله رسوله موسى بأن يضرب البحر بعصاه فانفلق البحر أمام أعين بنى إسرائيل من آمن منهم برسالة موسى ومن لم يؤمن وذلك حتى يرون بأعينهم أن الله يؤيد رسوله بهذه المعجزة الجديدة الخارقة حتى يزيد إيمانهم ويؤمن من لم يؤمن منهم.

وجد موسى وهارون ومعهم بنى إسرائيل هذه المعجزة الجديدة البحر ينفلق وينقسم ماؤه ويقف كالجبال على الجانبين لا ينطبقان ليس هذا فحسب بل أن أرضه يابسة جافة تصلح للسير دون غوص فى وحل.

وتقدم موسى قومه وسار بهم حتى عبر البحر... كانت المعجزة هائلة أن الأمواج كانت تصطرع وتعلو وتهبط حتى إذا جاءت إلى الطريق بدت كأن يداً خفية تمنعها من أن

تفرقه أو حتى تبلله بل أن أسماك البحر فى حركتها الدائمة كانت تصل إلى هذا الفلق وكأنها تصطدم بجدار زجاجى فتعود. . . (ويقال أن سمك موسى المعروف للمصريين بشكله العجيب قد انفلقت مع فلق ماء البحر إلى نصفان طوليان لها جانب واحد والآخر مشطوف وكل نصف منهما له عين واحدة ونصف فم وهكذا بحيث أنك لو جمعت سمكتان منهما متماثلتان فى الحجم ولاصقتهما ببعضهما فكأنك تنظر إلى سمكة واحدة. . . وهو من الأسماك المحببة للمصريين وسعره غالى وليس فى متناول الجميع. . . ويتكاثر فى هذه المنطقة من خليج السويس على البحر الأحمر وعبر قناة السويس وخرج إلى الشواطىء القريبة من البحر المتوسط). . . فسبحان الله الخالق العظيم.

عبر موسى ومن معه من بنى إسرائيل البحر سالمين. يقول الله تعالى: ﴿**وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ**﴾ [الشعراء: ٦٥].

آية كبرى من آيات الله تحدث حقيقة أمامهم وهم الآن على الشاطىء الشرقى وعدوهم على مشارف الشاطىء الغربى ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ٦٧].

نظر موسى خلفه بعد أن عبر هو وهارون وبنى إسرائيل وجد فالق البحر كما هو خاف أن يعبر وراءهم فرعون وجنوده وفكر فى أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى حتى يعود كما كان ويفصل البحر بينهم ليكونوا فى أمان منه وجيشه.

ولكن الله أوحى إلى رسوله موسى ﴿ **وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ** ﴾ [الدخان: ٢٤].

وصل فرعون وجنوده إلى الشاطىء الغربى من الخليج نظر أمامه هو وجيشه وجد معجزة كبرى وجد البحر قد انقسم ماؤه فى فالق عظيم ووجد موسى وقومه قد عبروا أو يكادوا يعبرون إلى الشاطىء الشرقى. . . لم يتأمل فرعون فى هذه المعجزة الجديدة بل أعماه عنها كفره وعناده فأمر جيشه بالعبور خلفهم وتقدمهم وقاده جيشه وبعد أن عبر آخر بنى إسرائيل.

وكان فرعون قد وصل إلى ما قبل الشاطىء الشرقى وجيشه كله خلفه أمر الله سبحانه وتعالى ملكه جبريل فأطبق عليهم ماء البحر فأصبحوا مغرقين.

قال تعالى عن فرعون وقيادات جيشه وجنوده ﴿ كَمْ تَرَكُوا من جَنَّات وَعُيُون (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَة كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٣١] جيش فرعون بأسلحته وعتاده وجنوده يغرق وفرعون يصارع الأمواج وخارت قواه وأشرف على نهايته نهايه كل جبار متكبر ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

مات فرعون مات من كان يدعى لنفسه الألوهية هو وقوته من الجيش والجنود التى كان يرهب بها الناس ماتوا جميعاً غرقى. وأنجى الله بدن فرعون (جثته) لا حياة فيها ولا حراك لها. إنخرس صوته الذى كان يملأ الناس رعبا صار جثة هامدة لا حراك لها.

وقبل أن تفيض روحه إلى مالكها. قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين وكان رد الخالق. بأن انجاه ببدنه ليكون لمن خلفه آيه.

فرح بنى إسرائيل بالنجاة

من الطبيعى أن يفرح بنى إسرائيل بالنجاة بهذه المعجزة الكبرى وهذا فرعون وجيشه بجبروته وقوته قد أغرقهم الله جميعاً أمام أعينهم بعد نجاتهم.

وفى الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج:

فرح بنو إسرائيل وأعلنوا فرحهم مترنمين بتسبيح الله تعالى وأخذت مريم أخت هارون الدف وخرج جميع النساء وراءها يدفقن ويرقصن لنجاتهم وهلاك عدوهم.

• • •

مكان عبور بنى إسرائيل

اختلف الرواة أن العبور كان فى أحد موضعين:

الأول: كان عند منطقة يقال لها حمام فرعون عند الشاطىء الشرقى لخليج السويس وجنوب مدينة السويس بحوالى خمسين كيلو مترا. فأنا أستبعد ذلك. وقد زرت هذه المنطقة من شاطئيها الشرقى والغربى وأبنى استبعادى على أساس أنه من ناحية الغرب ما الذى يدفع موسى إلى الإتجاه هذه المسافة الكبيرة جنوباً وبنى إسرائيل كان معظمهم يعيش فى المنطقة الزراعية التى يقال لها محافظة الشرقية غرب محافظة الإسماعيلية والمنطق يقول أنهم اتجهوا شرقاً. منطقة حمام فرعون [1] من الشرق تبعد كثيراً عن منطقة عيون موسى التى يقال أن موسى لما استسقاه شعبه ضرب الحجر فانبثقت منه اثنتى عشر عيناً من الماء فشربوا.فمن غير المعقول أن يعبر موسى بقومه من الجنوب ثم يتجه بهم شمالاً عند عيون موسى الأقرب لمدينة السويس من ناحية الشرق فى سيناء مسافة لا تزيد عن عشر كيلو مترات. ثم يعود جنوباً ثانياً إلى منطقة طور سيناء.

الموضع الثانى: هو عبر البحيرات المرة شرق مدينة الإسماعيلية حالياً وهو الأقرب إلى الصح فى اعتقادى لعدة أسباب:

قربة من مناطق تجمعهم فى محافظة الشرقية.

إتجاهه ناحية الشرق وليس الجنوب.

الإتجاه بعد العبور منه جنوبا نحو عيون موسى اتجاه منطقى ومن ثم إلى منطقة طور سيناء هذا والله أعلم... ليس من المهم تحديد المكان تحديداً دقيقاً لأنه لا يضيف شيئاً إلى المعجزة التى تمت بنجاة موسى وبنى إسرائيل وغرق فرعون وجيشه.

---

(١) من الناحية الشرقية: منطقة حمام فرعون هذه بها عين حارة تنبع على شاطىء مياه الخليج والذاهب إلى هناك يجد بخار الماء يتصاعد على صفحة مياه البحر وخلفه بخطوات قليلة كهف قريب من سطح الأرض على أحد الجبال لونه من الداخل يميل إلى السواد يتسع لحوالى عشرون فرداً جلوس ومن يجلس داخله لفترة دقائق يتصبب عرقاً حتى فى فصل الشتاء ثم يهبط منه ليلقى بجسده فى منطقة النبع الحار المختلط بماء البحر اعتقاداً فى الاستشفاء وتجديد نشاط الجسم وقد قابلت بعض البدو هناك يقولون أنهم يقطعون مسافات كبيرة على الجمال اعتقاداً فى هذا الاستشفاء وتجديد النشاط: أعتقد أنه يمكن استغلال هذه المنطقة فى السياحة العلاجية.

من هو فرعون موسى

من المؤكد أن يوسف الصديق قد دخل مصر فى عهد الأسرة السادسة عشرة فى عهد أحد ملوكها المدعو « أبابى الأول» وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة باسم «فوتى فارع» وهو المذكور فى التوراة «فوطيفار ـ عزيز مصر» كما استدل من بعض آثار عن الأسرة السابعة عشرة تفيد حدوث جدب فى مصر قبل هذه الأسرة. أى فى زمن الأسرة السادسة عشر وهو ما ذكر فى القرآن والتوراة عن سنى القحط.

إذن فدخول يوسف يمكن تحديده بنحو سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد فى عهد الملك أبابى الذى ذكرناه ويكون دخول بنى إسرائيل بعد ذلك بنحو ما يقرب من سبعة عشر عاما، وهى المدة التى أقامها يوسف فى بيت سيده مضافاً إليها المدة التى أقامها فى السجن يضم إلى ذلك مدة الرخاء والخصب ثم بعض مدة الجدب إلى أن قال لإخوته **﴿وائتونى بأهلكم أجمعين﴾**.

وإذا اطلعنا على حياة ملوك الفراعنة فيما بين هذه الأسرة والأسرة التاسعة عشرة لم نجد أيضاً ذكر يثبت أى اضطهاد حدث لقوم إسرائيل ولا أى ذكر لهم أثناء ذلك.

ولكن التوراة تذكر أن فرعون مصر الذى اضطهد بنى إسرائيل كان يستخدمهم فى بناء مدينتين رعمسيس وفيثوم. وقد ثبت من الحفائر الأثرية وجود مدينة باسم « فيثوم» أو «دبر ـ توم» ومعناه بيت الإله توم ومدينة أخرى باسم «بر رعمسيس» أى بيت أو قصر رعمسيس وهى التى بناها رعمسيس الثانى لتكون عاصمة لملكة فى مصر وفى وسط الوجه البحرى ـ ليكون بها قريباً من الحدود المصرية لتساعده على صد الأعداء كما أنه أيضاً بنى مدينة «فيثوم» واتضح من وجود بعض آثار الجدران فى المدينة أنها أيضاً كانت حصنا مصرياً. وتكون التوراة قد أخطأت فى حسبانها مخازن غلال.

إذن فرعمسيس الثانى قد يعتبر الفرعون الذى إضطهد بنى إسرائيل وولد موسى فى زمنه وتربى فى بيته. وحيث أنه قد أشرك ابنه الملك «منفتاح» معه فى الحكم قبل وفاته وكان «منفتاح» الولد الثالث عشر لرعمسيس الثانى. وقد بلغ أولاده ١٥١ وكان مسناً حين ولايته للعهد. فيكون قد عاصر موسى فى بيت أبيه، وحيث قال لموسى: «ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين» ويكون منفتاح هو فرعون الخروج الذى

أرسل إليه موسى وهارون عليهما السلام لإخراج بنى إسرائيل من مصر، وتكون التوراة على صواب عندما قال:

وفى هذه الأثناء كان ملك مصر قد مات.

وقد عثر أحد العلماء المتخصيصين فى الآثار اسمه فلندرس بترى على حجر من الجرانيت مسجل برقم «٥٩٩» بدار الآثار المصرية منقوش على أحد وجهيه عبارات بأسلوب شعرى تمتدح وتفتخر فيها بانتصارات (منفتاح) ابن (رعميس الثانى) على اللوبيين ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعين فى فلسطين وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بنى إسرائيل ونصها الحرفى (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) وهذا أول نص رسمى فى الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل وقد عثر على هذا الحجر فى كوم الحيتان بطيبة الأقصر.

وهذا الحجر يبدو منه للمدقق أن (منفتاح) لم يكتبه فى عهده وإلا لكانت لهذه الحوادث الهامة التى يذكرها فيه شأن عظيم وكان يجب أن يدون فى أثر خاص، لا أن يستعمل له حجر لغيره من قبل أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة الملك (أمنحوتب) مذكور فيه كل ما عمله لمعبد آمون على الوجه الآخر من الحجر.

ويبدو أن كهنة منفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودونوا ما به ليشيدوا بذكره، فيقوموا بذلك بواجب التخليد لم يكن منظراً أن يكوت الملك (منفتاح) بهذه الصورة المعجلة التى مات بها وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن الفرعون (منفتاح) قد سحق بنى إسرائيل تمويها وقلباً للحقائق، حتى يستروا أمام الشعب المصرى الذى كان يحترم دياناتهم خذلانهم وخذلان الفرعون الههم أمام موسى حين كان فرعون يتعقب بنى إسرائيل.

ويكون العثور على جثة (منفتاح) ووجودها الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة مصداقاً لقوله تعالى: **﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**.

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث فى «قبر «أمنحوتب الثانى» بالأقصر.

وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهياً كما يجب لدفن ملك مثله، لأن موته

كان مفاجئا فلم يهيأ له قبر خاص، ولم يأمر هو فى حياته بتشييد مقبرة تليق به ظنا منه أن الموت لم يحن وقته أو ربما صدق كذبه بأنه إله والعياذ بالله.

نخلص من هذا بأن فرعون الإضطهادكان «رعميس الثانى».

وفرعون الخروج الذى غرق مع جيشه هو ابنه (منفتاح). والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

أمر مصر بعد هلاك فرعون

هلك فرعون ومن معه من الوزراء والأمراء وقادة الجند وجنوده أجمعين.

ولم يبق بمصر إلا نساء هذه الطبقة الحاكمة وعامة الشعب والرعايا.

فذكر ابن الحكم فى تاريخ مصر أنه من ذلك الزمان تسلط نساء على رجالها بسبب أن نساء الأمراء والوزراء تزوجن بمن دونهن من العامة فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا... مع التحفظ.

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

عند أهل الكتاب أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم وأمروا أن يذبح كل أهل بيت حملاً من الغنم فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار مع جاره فيه فإذا ذبحوه فلينضخوا [١] من دمه على عتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم ولا يأكلونه مطبوخاً ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ولا يبقوا منه شيئا، ولا يكثروا له عظما ولا يخرجون منه شيئا خارج بيوتهم، وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام إبتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك فى فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة وخفافهم فى رجلهم وعصيهم فى أيديهم وليأكلوا بسرعة قياماً ومهما فضل من عشائهم فما بقى إلى الغد فيحرقوه بالنار وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم [٢] ما دامت التوراة معملاً بها. فإذا نسخت بطل شرعها وقد وقع. قالوا: وقتل الله عز وجل فى تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ليشغلوا عنهم وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار وأهل مصر فى مناحة عظيمة على أبكار

(١) ينضخ: يَرُشُّ.
(٢) أعقابهم: ذريتهم.

أولادهم وأبكار أموالهم، ليس من بيت إلا وفيه عويل، وحين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين فحملوا العجين قبل اختماره وحملوا الأزواد فى الأردية وألقوها على عواتقهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً وخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى الزرارى بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة.

هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ. وهذا العيد عيد الفسخ. ولهم عيد الفطى وعيد الحمل وهو أول السنة، وهذه الأعياد الثلاث أكد أعيادهم منصوص عليهم فى كتابهم ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام وخرجوا على طريق بحر يوسف، وكانوا فى النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فى عامود نور وفى الليل أمامهم عامود نار فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هناك وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين وقد ذكرنا ذلك تفصيلاً.

حال فرعون وقومه يوم القيامة

أغرق فرعون وكبراء وزرائه وأمرائه وقادة جنوده وكل عتادهم وانجاه الله بجسده المعروض فى متحف دار الآثار المصرية بالقاهرة ليراه الناس عبرة وعظة لكل كافر جبار مدعى الألوهيه.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ما ينتظر فرعون وقومه يوم القيامة فى آيات كثيرة من سورة القرآن الكريم.

فى سورة هود: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٩٦) إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد (٩٧) يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود (٩٨) وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾ [الآيات: ٩٦-٩٩].

وفى سورة القصص: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (٤١) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ [الآيات: ٤١- ٤٢].

وفى سورة غافر: ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [الآيات: ٤٥- ٤٦].

حال بنى إسرائيل فى سيناء

كان بنو إسرائيل قد ألفوا وثنية المصريين وقلدوهم فى وثنيتهم شأن المغلوب فى تقليد الغالب ولم يؤمن بموسى وعبادة الله إلا ذرية من قومه على حال رهبه من فرعون وشيوخ بنى إسرائيل أن يفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الوثنية كما قال تعالى: **﴿فما آمن لموسى إلا ذريه من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾** ولم تكن الآيات المعجزة وتلك العجائب التى ضرب الله بها فرعون وقومه لتزجرهم عن تلك الوثنية التى طال الفهم لها.

رغم العذاب والذل والإهانة التى تعرضوا لها من المصريين ومجئ رجل منهم مؤيد من الله بمعجزات واضحة لهم وتحمل فى تخليصهم مما هم فيه المهانة والإذدراء والتقريع والتهم التى رمى بها بأنه ساحر وآخرها معجزة شق البحر لهم ورؤيتهم بأعينهم هلاك فرعون وجيشه ولا ذالت رمال قاع البحر الرطبة عالقة فى نعولهم.. وموسى على نصحهم وهدايتهم بأن كل تلك المعجزات ليست من صنعه بل من الله سبحانه وتعالى وقد خرجوا من مصر بأموالهم وذهبهم وفضتهم وأنعامهم بل معهم من ذهب المصريين الكثير ولكن فرعون أفسد فطرتهم فعذبوا موسى عذاباً شديداً بالعناد والجهل.

فقدموا على قوم يعبدون الأصنام، فطلبوا من موسى أن يتخذلهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

ولما كانت سهول شبه جزيرة سناء خالية من الأشجار والظلال والشمس فيها شديدة شكوا إلى موسى فدعا موسى ربه فساق الغمام إلى ذلك المكان ليظلهم ويقيهم وهج الشمس ودام ذلك لهم.

ولما ساروا لم يجدوا ماء وزاد بهم العطش واحتاجوا الماء لسقياهم وسقيا دوابهم إشتكوا إلى موسى، فدعا موسى ربه فأمره أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه إنبجست منه اثنتا عشر عينا بعدد أسباطهم ليشربوا ويسقوا أنعامهم، وهذه العيون

موجودة إلى الآن بالبر الشرقي ليست بعيدة عن مدينة السويس ومعروفة للعامة باسم عيون موسى ولكن أصبح ماءها شحيحاً وطمست بعضها.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٩, ١٦٠].

ولما كان زادهم من الطعام عرضة للنفاذ وتاقت أنفسهم إلى اللحم - مع خشيتهم الجوع والهلاك اشتكوا إلى موسى. فدعا موسى ربه فأرسل إليه الرياح تحمل لهم من الطعام أطيبه المن والسلوى، والمن مادة غذائية مفيدة يميل طعمها إلى الحلاوة وتفرزها بعض أشجار الفاكهة. حملتها الرياح مغلفة بأوراق الشجر إليهم.

وساق إليهم السلوى وهو نوع من أنواع الطيور يقال أنه «السمان».

ورغم تلك الآيات المعجزة واللطف منه الله بهم غلبت على الكثير منهم النفس الملتوية المريضة واحتجوا عليه بأنهم سئموا هذا الطعام وإشتاقت نفوسهم إلى ما كانوا يأكلون فى مصر من البقول والثوم والبصل والقثاء (القتة والخيار ومشتقاتها).

وسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم من الأرض هذه الأطعمة.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة: ٦١].

قال لهم موسى منكراً عليهم: ويحكم أتستبدلون الذى هو أدنى أى الرخيص الخسيس بالذى هو أفضل أى النفيس وتفضلون البصل والبقل والثوم على المن والسلوى؟ ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ أى ادخلوا مصراً من الأمصار أى بلداً من البلاد وليس مصر التى خرجوا منها الهدف منه كان مقصوداً من اللهلأن يكون ذلك تحفيزاً لهم على منازله أعدائهم ومكاثرتهم حتى يملكوا عليهم مدينتهم للإنتفاع بأرضها وحاصلاتها.

موسى وميقات ربه

وصل موسى وقومه وهم فى طريقهم إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله أن تكون لهم إلى موضع التكليف الأول الذى كلمه الله وأمره فيه بأن يذهب إلى فرعون. . .

وصل إلى الوادى المقدس طوى. وهنا أوصى الله موسى أن يصعد إلى الجبل (١) ويمكث فيه ثلاثين ليلة حتى إذا أتمها أعطاه الله ألواحا وكتب له فيها الوصيا التى يأخذ بها بنو إسرائيل وقد أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً وهى شهر ذى القعدة. فلما أتى الثلاثين أنكر موسى خلوف فمه فاستاك أو أكل بعض النبات فقالت الملائكة كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله أن يصوم عشر أيام من ذى الحجة. ذكره البيضاوى والنسفى والخطيب والألوسى.

وأخرج الديلمى عن ابن عباس يرفعه: لما أتى موسى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام نهارهن ولياليهن كره أن يكلم ربه وريح فم الصائم بفمه فتناول من نبات الأرض فمضغ.

فقال له ربه لما أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال أى رب كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح، قال أو ما علمت أن ريح فم الصائم عندى أطيب من ريح المسك؟ إرجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل موسى عليه السلام الذى أمره ربه به (٢).

وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ

---

(١) ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» (٣/ ١١٥).

(٢) إسم هذا الجبل الآن جبل موسى وصعوده يحتاج لياقة بدنية عالية وكان لى حظ صعوده مساء وصلاة الفجر فوقه. وله مد قات صاعدة فى ميول سهلة تنتهى بدرجات من حجارة الجبل يصل عددها إلى حوالى أربعمائة درجة وعلى قمته مبنى صغير لكنيسة بناها رهبان ديرسانت كاترين الموجود أسفل الوادى وهى قديسة إعتنقت المسيحية فى بداية إنتشارها بمصر أيام الحكم الرومانى ولم يعجب ذلك أبيها الوثنى حاكم الإسكندرية فى ذلك الوقت ولاخطيبها الرومانى فتم تعذيبها لترك هذا الدين ورفضت فتم قتلها وتمزيق جسدها فى الإسكندرية رأى أحد الرهبان رؤية منامية بأن جسدها موجود فوق الجبل. فى الصباح صعد الراهب أعلى الجبل فعلاً فوجد جسدها مسجى فوق الجبل فحمله هو وبعض الرهبان ووضعوه فى تابوت حجرى بالدير ومن يومها سمى الجبل جبل كاترين والدير أيضاً. . . ومن الكرامات التى حكاها لنا رهبان الدير أن زوجة أحد قياصرة روسيا أهدت الدير تابوت من المرمر لوضع عظام القديسة به وفعلوا وفى اليوم التالى وجدوا العظام وقد عادت إلى التابوت الحجرى مرة أخرى. . . هكذا قالوا لنا. . والله

رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون خليفه على بنى إسرائيل وأكد عليه الأمر بالنظر فى مصالحهم وشؤونهم. واليقظة فى أمرهم.

وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال رب مكنى أن أنظر إليك قال الله: لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل الذى سأتجلى له فإن إستقر مكانه فسوف تراني. أى أن حتى الجماد لن يتحمل تجلى الله له. فلما تجلى الله للجبل جعله دكا... أى غاص فى الأرض.

(وقد رأيت هذا الجبل ولونه قد تحول إلى السواد ويقول العلماء أن هذا الجبل قد غاص فى الأرض إلى خمسمائة متر) فقبلها كان أعلى الجبال وكلمه أنظر إلى الجبل تعنى أنه مميزًا عن غيره من جبال المنطقة بالإرتفاع. وخر موسى صعقاً... مغشياً عليه من هول ما رأى وقد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « **لا تخيرونى من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمه من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور** »[1] صدق رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٢، ١٤٣].

بعد أن أفاق موسى من غشيته خاطبه الله تعالى بأنه إصطفاه على الناس برسالته وهى «أسفار التوراة» وبكلامه تعالى بأن يوحى إليه بلا وسيط من الملائكة ويسمعه ما

أعلم.

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، ح/ ٣٣٩٨) ومسلم فى (فضائل الصحابة، ح/

يريد أن يبلغه إليه أمره أن يأخذ ما أعطاه من شرف الإصطفاء والكلام شاكراً الله تعالى على ما أعطى.

وكتب الله تعالى ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من بيان الحلال والحرام والمحاسن والقبائح فى ألواح إختلف المفسرون فى عددها بين إثنين وحتى عشرة، كما اختلفوا فى مادتها بين حجر وخشب وياقوت وزبرجد. وكل هذا لايعنينا - وكان المكتوب فيها مواعظ وأحكام وتفصيل كل شىء يهم بنى إسرائيل. وأمره الله تعالى أن يأمر بنى إسرائيل أن يأخذوا بأحسنها وأن يسيروا على أفضل وأحسن ما رسم فيها. بأن يفعلوا ما يقربهم إلى الله بأعمالهم. فإذا نص فيها على خصلتين تقربان إلى الله تعالى واحدهما تستدعى ثوابا أعظم. فعليهم أن يأخذوا بالأفضل ثم وعده الله بأن يريهم دار الفاسقين. واختلف المفسرون عن هذه الأرض.

هل هى أرض مصر بعد هلاك فرعون وجنده أم أرض عاد وثمود. وغالب الظن أنها أرض الجبابره والعمالقة بالشام. وهذه إن كانت فهى رؤيه فقط ولم يدخلوها كما سيأتى بيانه. بعد أن أفاق موسى من غشيته قال تعالى: ﴿**قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [الأعراف: ١٤٤، ١٤٥].

وعن صفوان أن رسول الله ﷺ سأله يهودياً عن التسع آيات التى أيد الله بها نبيه موسى فقال خير الأنام: « **لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرئ لدى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنه، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود ألا تعدوا فى السبت** » [1] فقبل اليهوى يده ورجله ﷺ.

إستلم موسى عليه السلام الألواح على جبل الطور وربه يناجيه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيره وهو تعالى يجيبه عنها وقال تعالى لموسى: ﴿ **وما أعْجَلَكَ عن**

١٦٠ - ١٦٢).

(١) ضعيف. أخرجه الترمذى (ح/ ٢٧٣٣، ٣١٤٤) والنسائى (٧/ ١١١) وأحمد (٤/ ٢٤٠) وضعفه الشيخ

قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٣: ٨٦].

بنى إسرائيل وعبادة العجل

إنحدر موسى من قمه جبل الطور وهو يحمل ألواح التوراه، قلبه يغلى بالغضب والأسف. نستطيع أن نتخيل مدى إنفعاله بعد أن وجد كل هذه الكرامات والمعجزات وفضل الله عليه وعلى قومه.

فلم يكد موسى يغادر قومه إلى ميقات ربه.. حتى وقعت فتنه السامرى وتفصيل هذه الفتنه أن بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر، صحبوا معهم كثيراً من حلى المصريين وذهبهم. فاستغل السامرى غياب موسى وأقنع قومه بأن يصنع لهم من حلى المصريين عجلاً ذهباً يكون إلها لهم.

ففعل وصنعه مجوفاً من داخله ووضعه فى اتجاه الريح، بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من فتحة أنفه فيحدث صوتاً يشبه خوار العجول الحقيقية.

ويقال فى سر هذا الخوار. أن السامرى كان قد أخذ قبضه من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل إلى الأرض فى معجزة شق البحر. أى أن السامرى أبصر بما لم يبصروا به، فقبض قبضه من أثر الرسول (جبريل عليه السلام) فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل، وكان السامرى قد لاحظ أن فرس جبريل عليه السلام لا يخطو على شىء إلا دبت فيه الحياه، فلما أضاف السامرى التراب إلى الذهب وصنع منه العجل خار بصوت يشبه خوار العجول الحقيقية ويقال أنه استمال عجلاً جسداً له لحم ودم حياً يخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ أى فنسى موسى ربه عندنا وذهب يتطلبه وهو هنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وهباته.

تلك كانت قصه السامرى التى ألقاها لموسى ونعتقد أنه كاذب فَكُفْرِه يرجح عندنا كذبه وكيف يكون كافراً ويرى معجزة المَلَكْ جبريل عليه السلام.

ولكن ما صنعه شيء وما آمن به أغلبية بنى إسرائيل شيء آخر.. إذ كيف لهم بكل تلك المعجزات التى حدثت على أرض مصر ونجاتهم من فرعون وجيشه بمعجزة كبرى وغرق وسقياهم من الحجر حين اشتد بهم العطش وغذائهم من المن والسلوى حين اشتد بهم الجوع ومع ذلك يعبدون عجلاً... إذا هى النفس الخربه التى عاشت فى مذله وخنوع سادتهم المصريين وعباداتهم الوثنية واعتناقهم لتلك العبادات الكافرة وجنوحهم عن هدى أنبياء الله يوسف ومَنّ قبله من الأنبياء والرسل.

وهكذا انتشرت فتنة السامرى، وفوجيء هارون عليه الصلاة والسلام يوماً بأن بنى إسرائيل يعبدون عجلاً من الذهب.

انقسموا فيما بينهم إلى قسمين.. أقلية مؤمنة أدركت هذه الفتنة المضلة وأغلبية كافره غلبها حنينها لعبادة الأوثان.

وقف هارون بينهم يعظهم ويحاول منعهم عن تلك العبادة الكافرة ونصحهم بأن السامرى قد أضلهم وفتنهم عن دينهم. وقال ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

فلم يستجيبوا لوعظه لهم فأصموا آذانهم ورفضوا كلماته وتكاثروا حوله واستضعفوه وكادوا يقتلونه. أنهى هارون النقاش معهم إلى عودة موسى عليه السلام دون محاوله تدمير ذلك التمثال. فقد كان هارون أكثر ليناً من موسى. لم يكن يهابه القوم للينه وشفقته وفى نفس الوقت لم يجدوا منه معجزة حدثت على يديه فلم يهابوه. لأن كل المعجزات حدثت عن طريق موسى وإستمر القوم يرقصون حول العجل.

عادة الرقص والتفقير

امتدت للأسف الشديد إلى زماننا هذا مع بدع إقامة الموالد لمشايخ وأولياء لا يعلم إلا الله مدى نواياهم وصدق عباداتهم وكراماتهم وهى من البدع المضلة للمسلمين يفعلها العامة بحسن نية وهى من الضلال وبعضها يقام داخل المساجد أو خارجها فى الساحات التى يقام فيها الموالد. دون أن يدرى فاعلوها أنها ديانة الكفار وعباد العجول.

أورد القرطبى فى الجزء الحادى عشر فى تفسيره لفتنه السامرى... هذه المسألة:

قال: « سئل الإمام أبو بكر الطرطوشي: ما يقول سيدنا الفقيه في جماعة من رجال، يكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ ثم أنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ويقوم بعضهم يرقص ويتمايل (يِفَقِّر) حتى يقع مغشيا عليه. ويحضرون شيئاً يأكلونه.

هل الحضور معهم جائز أم لا؟

أجاب القرطبي نقلا عن أستاذه فقال: مذهب الصوفية (يقصد الراقصين) بطالة وجهالة وضلالة وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله.. وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثها أصحاب السامري لما إتخذ لهم عجلا جسداً له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون. فهو دين الكفار وعباد العجل وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤسهم الطير من الوقار. فينبغي للحاكم ونوابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها. ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا أن يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمه المسلمين وبالله التوفيق.

عودة موسى من مواعدة ربه

انحدر موسى من الجبل عائداً لقومه بعد علمه بفتنتهم وضلالهم من الله.

فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرقصون حول العجل... توقف القوم حين ظهر موسى وساد صمت... صرخ موسى فيهم قائلاً ﴿ **بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي** ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

اتجه موسى نحو هارون وألقى ألواح التوراة من يده على الأرض... كان الغضب يتملكه في هذه اللحظة مد موسى يديه وجذب هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وهو يشتعل غضباً وقال: ﴿ **يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

كيف تتركهم يضلوا وكيف سكت عليهم وبقيت معهم أفعصيت أمرى يا هارون.

وتحدث هارون رجاء أن يترك رأسه ولحيته بحق الأخوة التي تجمعهما من أم واحدة

وذكره للأم ليستثير فيه الحنو (فهما من أب واحد أيضا) وأنه خشى أن يتركهم ويمضى. فيسأله موسى كيف لم يبق معهم وقد تركه موسى مسئولا عنهم. وخشى لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالاً فيسأله موسى كيف فرق بينهم ولم ينتظر عودته. ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

استمر هارون في الكلام مع أخوه موسى برفق ولين. أن القوم استضعفونه وكادو يقتلونه حين نصحهم ورجاه ألا يشمت به الأعداء وألا يضعه فى صف الظالمين لأنه ليس منهم حين سكت على ظلمهم. ﴿ يا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. إستعاد موسى الألواح من الأرض وأدراك موسى أنه أساء الظن بأخيه هارون وأدرك حسن تصرفه... ترك رأسه واستغفر الله له ولأخيه.. وإلتفت موسى إلى قومه يعنفهم ويوبخهم على ما حدث منهم ويذكرهم بنعم الله عليهم ووعده لهم بالأحسن لهم وأنه لم يغب عنهم طويلا أم أنهم أرادوا أن يحل عليهم غضب الله ﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

لم يكد موسى يهدأ حتى أيقن القوم خطأهم ونكسوا رؤسهم أسفاً عاد موسى يقول غاضباً ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ثم إلتفت موسى إلى السامرى وغضبه لم يهدأ بعد ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٥ - ٩٧].

ما شأنك يا سامرى فى ما صنعت؟ وما الذى حملك عليه؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ رأيت ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره قبضة فما ألقيته على شيء إلا دبت فيه الحياه ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أى قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له

خوار ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى وكذلك حسَّنَتْ وزينت لى نفسى ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاس﴾ أى قال موسى للسامرى: عقوبتك فى الدنيا ألا تمس أحداً ولا يمسك أحد.

قال الحسن: جعل الله عقوبة السامرى ألا يماس الناس ولا يمسوه عقوبة له فى الدنيا وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أى وأن لك موعداً للعذاب فى الآخرة لن يتخلف ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أى أنظر إلى هذا العجل الذى أقمت ملازماً على عبادته ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ أى لنحرقنه بالنار ثم لنطيرنه رماداً فى البحر لا يبقى منه عين ولا أثر.

والسامرى ليس منسوباً إلى بلدة السامرة من فلسطين لأنها لم تكن قد وجدت بعد فى زمن موسى إنما كانت فى زمن الملك الرابع من ملوك بنى إسرائيل واسمه « عمرى» وقد انشقت مملكة اليهود إلى قسمين قسم وهو سبط يهوذا ومقره أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان. وكان أول ملوك إسرائيل « بريعام بن نابط» ورابعهم « عمرى» اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر مملكة إسرائيل وذلك بعد موسى بنحو خمسمائة سنة وثلاثة وعشرون سنة وهو بالتالى منسوب إلى (شامر) بالشين فى اللغة العبرية.

ويقول أهل الكتاب فى إسرائيلياتهم أن الذى صنع العجل لبنى إسرائيل هو هارون أخو موسى حاشاه أن يكفر بعد الإيمان وهو نبى معصوم عن ذلك. ولكن هذا دأبهم مع أنبياء الله ينسبون إليهم النقائص وما ينذه عن نفسه عنه أحط الناس قدراً ويلصقون ذلك بهم.

السبعين رجلاً المختارين من بنى إسرائيل

لم تمر جريمه عباده العجل دون آثار...

أمر موسى علماء بنى إسرائيل وخيارهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه. إختار منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، وقال إنطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم. صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم.

خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده الله تعالى له... دنى موسى من الجبل، فإذا عمود من الغمام يتغشى الجبل كله... دخل موسى فى الغمام وقال للقوم (السبعين) ادنوا فدنوا... وكلم الله تعالى موسى، وكان موسى إذا كلم الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه أو يطيق احتماله، وضرب الحجاب على موسى وهو يكلم ربه... وسمع السبعون الذين اختارهم موسى... سمعوا موسى وهو يكلم ربه.. . ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأخيرة، وتكون كافية لحمل الإيمان إلى القلوب مدى الحياة. غير أن السبعين المختارين لم يكتفوا بما سمعوا إليه من المعجزة... إنما طلبوا رؤيه الله تعالى.. قالوا سمعنا ونريد أن نرى..

قالوا لموسى ببساطه: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

مأساة جديدة تثير أشد الدهشة على هؤلاء القوم ماذا يريدون أكثر مما حدث من معجزات كافأهم الله على كفرهم وتعنتهم بعقوبة صاعقة... أخذتهم رجفة مدمرة صعقت أرواحهم وأجسادهم على الفور.... ماتوا.

أدرك موسى ما أحدثه السبعون المختارون فملأه الأسى وقام يدعوا ربه ويناشده أن يعفوا عنهم ويرحمهم، وألا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم. وليس طلبهم رؤية الله تبارك وتعالى وهم على ما هم عليه من البشرية الناقصة وقسوة القلب غير سفاهة كبرى لا يكفر عنها إلا الموت قد يطلب النبى رؤيه ربه كما فعل موسى، ورغم إنطلاق الطلب من واقع الحب العظيم والهوى المسيطر الذى يبرز بماله من منطق خاص هذا الطلب، رغم هذا كله يعتبر طلب الرؤية تجاوزا للحدود، يجازى عليه النبى بالصعق فما بالنا بصدور هذا الطلب من بشر خاطئين يحددون للرؤية مكانا وزمانا ويشترطون أن تكون جهرة.. بشر يعقلون إيمانهم على هذه الرؤية، بعد كل ما لقوه من آيات ومعجزات ومع ذلك وقف موسى بأدب الأنبياء وسماحتهم يدعو ربه ويستعطفه ويترضاه.

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ

الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦].

ورضى الله تعالى عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم، واستمع المختارون فى هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة إلى النبوءة بمجئ محمد بن عبد الله ﷺ..

قال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] أن الله تعالى يتجاوز من مخاطبة الرسول فى الآيات إلى زمنين سابقين، هما نزول التوراة ونزول الإنجيل ليقرر أنه تعالى بشر بمحمد فى هذين الكتابين الكريمين.

نعتقد أن إيراد هذه البشرى جاء يوم صحب موسى من قومه سبعين رجلا هم علماء بنى إسرائيل وأفضل من فيهم لميقات ربه ومع ذلك كانوا بهذا الضلال والتبجح فما بال الباقين. فى هذا اليوم الخطير بمعجزاته الكبرى، ثم إيراد البشرى بآخر أنبياء الله عز وجل.

موسى يطلب من الله أن تكون أمته

يقول ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء، نقلاً عن قتاده... أن موسى قال لربه: يارب أنى أجد فى الألواح أمه هى خير أمه أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتى.

قال: تلك أمه أحمد..

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها.. وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم... رب اجعلهم أمتى...

قال: تلك أمه أحمد...

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فلول الضلالة فاجعلهم أمتى..

قال: تلك أمه أحمد

قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم، ويؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق أحدهم بصدقه فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير... وأن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم رب فاجعلهم أمتى..

قال تلك أمه أحمد

قال: رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم عملها كتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائه ضعف.. رب إجعلهم أمتى..

قال تلك أمه أحمد.

نتق الجبل

ذكر الله تعالى فى سورتى البقرة والأعراف أنه رفع جبل الطور فوق بنى إسرائيل حتى صار كأنه ظله وظنوا أنه واقع عليهم أو أيقنو ذلك. وأمرهم أن يأخذوا ما أتاهم من الأحكام بقوة بأن يفعلوها دون تذمر أو توقف، وأن يحافظوا عليها أشد محافظة بجد وعزم قوى على تحمل مشاق ما أوتوه.

وأن يذكروا ما فيه بالعمل به، وألا يتركوه للنسيان. فإنهم إذا فعلوا ذلك كان مرجوا لهم أن يكونوا ممن اتقى قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق. ثم لم يكن منهم إلا الإعراض عن الميثاق بعد أخذه ولولا فضل الله عليهم ورحمته بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الخاسرين المغبونين بالمعاصى والتخبط فى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ويقول صاحب الظلال الشهيد الإمام سيد قطب فى تفسيره لهذه الآية:

إنه ميثاق لا ينسى.. فقد أخذ فى ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الجبل فوقهم كأنه ظله، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديدة بأن تعصمهم بعد ذلك من الإنتكاس. ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق. وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقى، وتظل موصولة بالله ولا تنساه.

ولكن إسرائيل هى إسرائيل! نقضت الميثاق، ونسيت الله، ولجت فى المعصية، حتى إستحقت غضب الله ولعنته. وحق عليها القول، بعدما اختارها الله على العالمين فى زمانها. وأفاء عليها من عطاياه. فلم تشكر النعمة، ولم ترع العهد، ولم تذكر الميثاق. وما ربك بظلام للعبيد.

حكاية بنو إسرائيل والبقرة

يقول المفسرون: أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر له ابن واحد قتله ابن عمه طمعاً فى ميراثه. ثم جاء يطلب بدمه قوماً آخرين. فأنكر الآخرون قتله وترافع القوم إلى موسى فأمرهم أن يأتوه ببقرة ليذبحوها ليبين لهم المجرم من البرئ. فقالوا له إنك تهذأ بنا، فإستعاذ بالله من أن يكون من الجاهلين الذين يهزؤن بغيرهم. فقالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى؟ فقال لهم إن الله يقول إنها بقرة بين الفتية والمسنة وأنها عوان. ثم طلب منهم أن يفعلوا ما أمرهم الله له. ولكن بنى إسرائيل قوم جبلوا على عدم إمتثال أمر الله وعدم المسارعة إلى تنفيذ أوامره. بل إعتادوا المماطلة والمطاولة فبحكم عادتهم لم يمتثلوا. فسألوه عن لونها فبين لهم أن الله يقول أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين إليها لحسنها فلم يشاؤا الإمتثال. وقالوا له إن البقر تشابه علينا. فبين لهم أنها غير مسخرة فى العمل وأنها سليمة الأعضاء. وأن لونها واحد لاشية فيه تخالف لون جسمها. فطلبوا تلك البقرة فذبحوها، وبعد الذبح جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل فحيى ثم أخبر بقاتله ثم مات بقدرة الله تعالى. ومع ظهور ذلك كله لبنى إسرائيل فإن

قلوبهم بقيت على حالها من القساوة كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها ولم تؤثر تلك العجيبة فى قلوبهم ليناً. وجدوا تلك البقرة لدى يتيم محتاج فزادوا فى ثمنها حتى يقال أنهم وزنوا جلدها ذهباً حتى رضى اليتيم وباعها لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ : ٧٣] (١).

وهنا أود أن ألفت انتباهك عزيزى القارئ إلى جهل وغباء وعناد وكفر هؤلاء القوم إذا الملاحظ أنهم خاطبوا نبيهم ورسول الله موسى بلفظ (ربك) ثلاث مرات ادع لنا ربك ولم يقولوا مرة واحدة ادعوا لنا ربنا وكأنهم حتى هذه اللحظة غير مؤمنون بأن الله ربهم. وكأنهم يقصرون ربوبية الله تعالى على موسى ويخرجون أنفسهم من شرف العبودية لله. أى معجزة من كل تلك المعجزات كانت كافية لأن يتوب إلى الله ويؤمن به ويتوكل عليه ويشكره على نعمه العديدة على الإنسان. . . . ولكنهم بنى إسرائيل.

رحل موسى ببنى إسرائيل من منطقة طور سيناء وما حولها إلى إتجاه الأرض المقدسة التى وعدهم بها الله من قبل وحياً لنبيه ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام. . . بعد كل هذه المعاناة معهم وبعد أن تحلى معهم بصفات وأخلاق وحلم أنبياء الله ورسله المرسلين.

---

(١) أرقام آيات سورة البقرة أرقامها ٦٧ وهى سنه إنتصار إسرائيل علينا أرقام ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢ هى سنوات حرب الإستنزاف بيننا وبينهم رقم ٧٣ هى سنه إنتصارنا عليهم. . . . هل هى مصادفة. . . . الله أعلم.

بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشار وجلود الأنعام وشعر الأغنام وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب ولها عشر سرادقات طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره وبعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين ونصفا وعرضه ذراعين وارتفاعه ذراعاً ونصفاً ويكون مضبب بذهب خالص من داخله وخارجه وله أربع حلق فى أربع زواياه ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب يعنون صفة ملكين بأجنحة وهما متقابلان صفة رجل اسمه بصليال وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشار طولها ذراعا وعرضها ذراع ونصف لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب وأربع حلق من نواحيها من ذهب معزره فى مثل الرُمَّان من خشب ملبس ذهبا واعمل صحافاً ومصافى وقصاعاً على المائدة واصنع مناره من الذهب ولى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة على كل قصبة ثلاث سرج وليكن فى المنارة أربع قناديل ولتكن هى وجميع هذه الآنية من قنطار من ذهب صنع ذلك بصليال أيضاً وهو الذى عمل المذبح أيضاً ونصب هذه القبة أول يوم من سنتهم وهو أول يوم من الربيع ونصب تابوت الشهادة وهو والله أعلم المذكور فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل فى كتابهم مطولا جدا وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذى هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها وينزل عمود الغمام على بابها فيخرون عند ذلك سجداً لله عزّ وجلّ ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذى هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين فإذا فصل الخطاب يخبر بنى إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من

الأوامر والنواهى وإذا تحاكموا إليه فى شىء ليس عنده من الله فيه شىء يجىء إلى قبة الزمان ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبين فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة وقد كان هذا مشروعاً لهم فى زمانهم أعنى إستعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ فيى معابدهم وعند صلاتهم فأما ما فى شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها لئلا تشغل المصلين كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وسع فى مسجد رسول الله ﷺ الذى وكله على عمارته... إبن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس.

وقال ابن عباس لا نزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم. وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه فهذه الزمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم إذ جمع الله هممهم فى صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكير فى غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بنى إسرائيل فى التيه يصلون إليها وهى قبلتهم وكعبتهم وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ومقدم القربان أخوه هارون عليه السلام. فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام إستمر بنى هارون فى الذى كان يليه أبوهم من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن وقاموا بأعباء النبوة بعد موسى وتدبر الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذى دخل بيت المقدس كما سيأتى بيانه والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على بيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها فلما بادت صلوا إلى محلتها وهى الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه فلما هاجر إلى المدينة أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر. وقيل: سبعة عشر شهراً ثم حولت القبلة إلى الكعبة وهى قبلة إبراهيم فى شعبان من السنه الثانيه من الهجره فى وقت صلاة العصر.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ إلى قوله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٠ ـ ١٤٤].

أمر الله لبنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة

قرب بنى إسرائيل من أرض الموعد وهى فلسطين: التى وعد الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تكون ملكاً لأولادهم، وأن يطردوا من أمامهم الأمم التى يسكنونها، فى ذلك الوقت ـ وأمر الله تعالى موسى أن يذهب ببنى إسرائيل إلى تلك الأرض لامتلاكها، ولكن بنى إسرائيل قوم قد ثقفوا بالذله وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم وألفوا الذل فى أرض الفراعنة فلم تكن لهم قوة على الدخول إلى تلك الأرض، وتمثل لهم شبح الموت فى كل خطوة فى ذلك السبيل فلم يشاؤا أن يذهبوا لأمر ربهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١].

وكان ردهم الجبان المخذ الخالى من الإيمان بعد أن رأوا معجزات الله المؤيدة لنبيه موسى والحافظة لهم لحريتهم وحياتهم وتخفيف حده وجدب الصحراء معهم بعد تلك المعجزات على أرض مصر وشق البحر وإغراق فرعون وجنده وسقياهم من الحجر وظللهم الغمام من حر الصحراء وغذائهم بالمن والسلوى كل هذا وخافوا أن يدخلوا الأرض المقدسة التى وعدها الله لهم وكان موسى قد أرسل بعض الرجال يتجسسون الأرض وحال أهلها. (جماعة إستطلاع).

ويقول المفسرون: أنهم كانوا إثنى عشر رجلاً، فرأوا من جسامة أجسام أولئك القوم ما ها نهم! فلما عادوا أخبروا بنى إسرائيل بما رأوا فضعفت قلوبهم وتراءى لهم شبح الهلاك فى القدوم على هذه البلاد! فلما أمرهم موسى بالعبور أبوا. وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبنى إسرائيل: إدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه غلبتم على المدينة (أريحاء) فأبوا.

وقالوا لموسى: **﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن**

نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٢ ـ ٢٤].

لك الله يا موسى كم عانيت مع هذا الشعب كل ما رأوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم من معجزات مؤيده من الله سبحانه وتعالى ومن المستحيل على بشر أن يقدر على جزء يسير منها وكان الله معهم فى حلهم وترحالهم وفى النهاية هذا الضعف والجبن والكفر بنعم الله عليهم. أي ضغوط كانت عليك يا موسى أى معاناة عانيتها مع هؤلاء الجبناء كم كنت حليماً طيباً متسامحاً يا موسى. كم من نبى قبلك دعى على قومه فاستجاب الله بدعائه وأبادهم. ولكن موسى لم يدعو عليهم بالإباده والعذاب بل قال ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥] وكانت إجابه الله سبحانه وتعالى لرسوله موسى ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

شكواه إلى الله لم يطلب منه أن يبيدهم بل كل ما طلبه أن يفرق بينهما (موسى وهارون) وبين بنى إسرائيل... لقد فشلت كل محاولاته معهم لم يعد فى بقائهما معهم أى فائدة.

عقول خربة نفوس ضائعة قلوب وهنة ضعيفة جبانة كافرة بكل المعجزات وكل نعم الله عليهم لم يعد لهم فائدة ترجى.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى الأرض المقدسة لمدة أربعين سنة حتى يموتوا جميعاً فى هذه الأرض القاحلة ولا يدخلوها أبداً حتى ينشأ من أصلابهم جيل آخر لم تفسده عبودية الفراعنة وهوانهم وعباداتهم. ويظلوا تائهين فى هذه الأرض. أرض سيناء حضانة العلم وحضانة الأخلاق: والعلماء يقولون ويقررون: أن حضانة العلم خمس عشرة سنة، فإذا ابتدأت أمة تتعلم فإنها تجنى ثمرة العلم بعد خمس عشرة سنة.

وأما حضانة الأخلاق أربعون سنة فإذا أخذت الأمة تستمسك بالأخلاق فإنها لا تجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة. لذلك أراد الله تعالى أن يبقى بنى إسرائيل فى البرية أربعين سنة، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الذل والاستعباد وينشأ جيل ألف الحرية ولم تذله العبودية. وهكذا كان حال بنى إسرائيل. فإن الجيل الذى ولد فى الذل وكبر حتى مرت عليه هلك فى البرية. وجاء الجيل الذى كان صغيراً أيام عبوديتهم فى مصر.

والذى نشأ أو ولد فى البرية فى الحرية والعزة، فلم يبال بأولئك الناس ودخل عليهم بلادهم مع يوشع بن نون فتى موسى فملكها.

بعض المفسرين يذكر الغالب أنها منقولة عن إسرائيلياتهم يذكرون فيها أن الرجال الذين أرسلهم موسى عليه السلام ليتجسسوا ويعودوا إليه بأخبار الأرض المقدسة وأهلها قد وجدوا فيها إناساً لها أشكالاً هائلة ضخاماً جداً حتى أنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من الجبارين فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم فى أكمامه وحجزه سراويله وهم إثنى عشر رجلاً فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين. فقال ما هؤلاء؟ ولم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه. وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفى الرجل وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم وهذا ليس بصحيح. وذكروا ههنا أن أحدهم ويدعى عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل ليهلكهم وكان طوله ثلاثة آلاف زراع وثلاثمائة زراع وثلاثة وثلاثون زراع وثلث زراع. هكذا ذكره البغوى وغيره وليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: « **إن الله خلق آدم طوله ستون زراع ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن** » [١].

(لاحظ أخى القارئ أن إناس فى موقف الخوف ويقدرون عملاقا بالطول بأنه ثلث ٣٣٣٣ زراع أى حسابياً: ٩٩٩,٩٩ متر يعنى طوله حوالى ١٠٠٠متر... كيف قاسو طوله وهم فى هذه الحالة كمقياس زبابة بالنسبة لهذا الطول ويصل تقديرهم إلى حتى ثلث زراع؟).

ثم قالوا: فعمد عوج هذا إلى قمة جبل فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً فى عنق عوج بن عنق. ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشره أزرع وطوله عشرة أزرع وبيده عصاة وطولها عشرة أزرع فوصل إلى كعب قدمه فقتله... هذا من وضع جهال بنى إسرائيل فهم أساتذة هذا الكذب والخداع وذلك كله ليبينوا لما جاء بعدهم أنهم ما رفضوا دخول الأرض المقدسة إلا لهذه الأسباب القاهرة وإذا كانوا كذلك فلما عاقبهم الله بالتيه أربعين

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، ح/ ٣٣٢٦) ومسلم فى (الجنة، ح/ ٢٨٤١).

سنة فى المنطقة المسماة الآن جبال التيه فى أرض سيناء.

عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء. ويقال أنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبقى من زراريهم سوى يوشع بن نوى وكالب بن يوقنا. هذا والله أعلم.

قصة موسى والخضر عليهما السلام

اختلف العلماء فى الخضر، فيهم من يعتبره ولياً من أولياء الله، وفيهم من يعتبره نبياً... وقد نسجت الأساطير نفسها حول حياته ووجوده فقيل أنه لا يزال حيا إلى يوم القيامة، وهى قضية لم ترد بها نصوص أو آثار يوثق فيها.... وتبقى قضية ولايته، أو نبوته... وهى قضية محيرة حقا... نرجئها حتى ننظر فى قصته كما أوردها القرآن الكريم.

وقد وردت فى سورة الكهف من الآية رقم ٦٠ حتى الآية رقم ٨٢ وكان من الممكن أن أكتبها ولكنى أعلم أن معظمنا يعرف تفاصيلها نصاً. ولكن يوجد حديث شامل يروى هذه القصة عن رسول الله ﷺ يشمل ما جاء فى القرآن الكريم أيضاً فرأيت أن أذكره.

قال البخارى: حدثنا الحميدى. حدثنا سفيان. حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير.

قال: قلت لابن عباس: كذب عدو الله. حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ: « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم. فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.

قال موسى: يارب وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله بمكتل. ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه، فسقط فى البحر، واتخذ سبيله فى البحر سربا. وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقيه يومهما

وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به قال له فتاه ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً ولموسى ولفتاه عجباً فقال له موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة. فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر: وإنى بأرضك السلام قال: أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل قال: نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه. فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ قال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول. فلما ركبا فى السفينة لم يفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم. فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: « **وكانت الأولى من موسى نسيانا**». قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذا أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فقتله فقال له موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ قال مائل فقام الخضر بيده (فأقامه) فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال رسول الله ﷺ: « **وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من**

خبرهما»[١].

صدق رسول الله ﷺ. الحديث شمل القصة كلها ومؤيدة بما جاء نصه فى سورة الكهف.

وتروى بعض الأحاديث عن تفاصيل ما لم يوضح فى القرآن الكريم لعدم إخلالها بسياق القصة والهدف منها.

قال البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى. حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحرث بن عبد الله اليحصبى بن عياش بن عباس الفسانى عن ابن حجيرة عن أبى ذر رفعه، قال: إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من الذهب مصمت. عجبت لمن أيقن بالقدر كيف نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك؟! وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل لا إله إلا الله؟ وهكذا روى عن الحسن البصرى وعمر مولى عفره وجعفر الصادق نحو هذا، وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، وقد قيل: إنه كان الأب السابع وقيل: العاشر. وعلى كل تقدير فيه دلاله على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته فالله المستعان، وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ دليل على أنه كان نبيًا وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى، وقيل رسول، وقيل : ولى وأغرب من هذا من قال كان ملكا، قلت: وقد أغرب جداً من قال : هو ابن فرعون وقيل: إنه ابن ضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة، وقيل الكثير والكثير وما يهمنا فى نهاية الأمر ما ذكره الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

والقصة كما وضحت لنا أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعلم نبيه موسى أن فوق ذو كل علم عليم ولومه له وأمره له أن يتبع العبد الصالح ويقابله ليتعلم منه، وبعد أن كان موسى معلماً لبنى إسرائيل أصبح طالباً للعلم من العبد الصالح، ولما قابله قال له موسى ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ إنظر عزيزى القارىء مدى الأدب الذى تحلى به موسى فى مخاطبته للعبد المؤمن

---

(١) صحيح. أخرجه البخارى فى (العلم ، باب «٤٤») والترمذى فى (تفسير سورة «١٨») وأحمد (١١٧/٥).

حتى يتعلم منه فى قوله ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾يقول هذا وهو النبى المرسل إلى بنى إسرائيل منزل عليه التوراة من الله مخاطباً به دون وسيط بينهما.

فضائل موسى عليه السلام وشمائله

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم ٥١ ـ ٥٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور**» (١) وهذا من باب التواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامة عليه، خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة قطعاً جرما لا يحتمل النقيض، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ [النساء: ١٦٣].

إلى أن قال: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال الإمام أبو عبد الله البخارى: حدثنا إسحق بن إبراهيم عن روح بن عباده عن عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « **إن موسى كان رجلا حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء إستحياء منه فآذاة بعض من بنى إسرائيل، فقالوا: ما يستر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أدره وإما آفة وأن الله عزَّ**

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، ح/ ٣٤١٤) ومسلم فى (الفضائل، ح/ ١٥٩).

وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر. ثم إغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبى حجر ثوبى حجر حتى إنتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه الله مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فو الله إن بالحجر ندباً من أثر ضربة ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال فذلك قوله عز وجل» [(١)].

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. ثم قال البخارى: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبه حدثنا الأعمش سألت أبا وائل قال: سمعت عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ قسما فقال رجل: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه. ثم قال: « **يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر**»[(٢)].

وفى الصحيحين من رواية قتاده عن أنس عن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ: «**أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة. فقال له جبريل: هذا موسى فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فقالَ: مرحبًا بالنبى الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى. قيل له ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى**»[(٣)].

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى. قال: «**ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة وأن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة**

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، ح/ ٣٤٠٤) ومسلم فى (الفضائل، ح/ ٣٩٩).

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (١/ ٤٢، ٤/ ١٩٨، ٨/ ٩١ فتح البارى) ومسلم فى (الزكاة، ح/ ١٤٠).

(٣) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، باب «٢٢، ٢٤، ٤١، ٤٨») ومسلم فى (الإيمان، ح/ ٢٦٧، ٢٧٢).

فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مره حتى صارت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة. وقال الله تعالى هى خمس وهى خمسون»(١) أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً.

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصرة وأثنى عليه ثناء بليغاً.

فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألباء وملوك وأمراء وسادات وكبراء. لكنهم كادوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير. ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور عديدة مما جعلهم معذولون عمن حولهم من الملل الأخرى ومحاربون بأفعالهم ومؤامراتهم فتشتت جمعهم فى أنحاء كثيرة من الأرض ولم يهنوا ولم يضعفوا بل استغلوا تشتتهم قوة بدلاً من الضعف وخططوا للسيطرة على اقتصاد العالم وساسته بكل ما أوتوا من مال ودهاء ونشر المفاسد. ولن نخوض فى تفاصيل أكثر ليس مجالها هنا ولكنا بصدد قصة النبى المرسل موسى عليه الصلاة والسلام.

صفة موسى عليه السلام

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس. حدثنا شيبان. قال: حدث قتادة عن أبى العالية. حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس. قال: قال نبى الله ﷺ : « **رأيت ليلة أسرى بى موسى ابن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»**(٢) وقال الجوهرى: الشنؤة: العزز وهو التباعد عن الأدناس).

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الصلاة، باب «١») (ومناقب الأنصار، باب «٢٧») ومسلم فى (الزكاة، ح/ ٦٥) وفى (الخمس، (ح/ ١. ١٥. ١٧) (وفضائل الصحابة، ح/ ١٢).

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (اللباس، باب «٦٨») و(بدء الخلق، باب «٧») و (الأنبياء، باب «٨») ومسلم فى (الإيمان، ح/ ٢٦٧).

وفاة هارون وموسى عليهما السلام

قال السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى موسى أنى متوف هارون فائت به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها وإذا هم ببيت مبنى وإذا هم بسرير عليه فرش وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه. قال: يا موسى إنى أحب أن أنام على هذا السرير. قال له موسى: فنم عليه قال: إنى أخاف أن يأتى رب هذا البيت فيغضب علىّ. قال له: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم. قال: يا موسى نم معى فإن جاء رب هذا البيت غضب على وعليك جميعاً. فلما نام أخذ هارون الموت فلما وجد حسه. قال: ياً موسى خدعتنى فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير به إلى السماء.

فلما رجع موسى إلى قومه وليس معه هارون قالوا فإن موسى قتل هارون وحسده على حب بنى إسرائيل له وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال لهم ويحكم كان أخى أفترونى أقتله. فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين. ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض. . . هذا والله أعلم فقد رأيت قبراً على ربوة لا تبعد كثيراً عن الوادى المقدس طوى قيل لى أنه قبر هارون عليه السلام.

ثم أن موسى عليه السلام بينما هو يمشى ويوشع فإذا بفتاة قد أقبلت ريح سوداء فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة فالتزم موسى وقال تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبى الله فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص فى يدى يوشع. فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائل وقالوا: قتلت نبى الله. فقال: لا والله ما قتلته ولكنه إستل منى.

فلم يصدقوه وأرادوا قتله. قال فإذا لم تصدقونى فأخرونى ثلاثة أيام فدعا الله فأتى كل رجل ممن كان يحرسه فى المنام فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى وإنا قد رفعناه إلينا فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد

الفتح. وفى بعض هذا السياق نكاره وغرابه ولكنا ذكرناه والله أعلم[١].

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم اللذان أشارا على ملأ بنى إسرائيل بالدخول عليهم وذكر وهب بن منبه أن موسى عليه السلام مر بملأ من الملائكة يحفرون قبراً فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج. فقال يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر. فقالوا لعبد من عباد الله كريم: فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر وتمدد فيه وتوجه إلى الله وتنفس أسهل تنفس. ففعل ذلك فمات صلوات الله سولامه عليه فصلت عليه الملائكة ودفنوه.

وذكر أهل الكتاب وغيرهم: أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد ويونس قائلاً: حدثنا حماد بن سلمه عن عمار بن أبى عمار عن أبى هريره عن النبى ﷺ قال: يونس رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ قال: « **كان ملك الموت يأتى الناس عياناً. قال: فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه. فقال: يارب عبدك موسى فقأ عينى ولولا كرامته عليه لعتبت عليه»** وقال يونس «لشققت عليه». « قال له إذهب إلى عبدى. فقل له فليضع يده على جلد أو مَسْك ثور فله بكل شعرة وارت يده سنه فأتاه فقال له فقال: ما بعد هذا. قال: الموت. قال: الآن. قال: فشمه شمه فقبض روحه» [٢].

قال يونس فرد الله عينه وكان يأتى الناس خفيه.

قال البخارى فى صحيحه: وفاه موسى عليه السلام. حدثنا يحيى بن موسى. حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبى هريره. قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل. فقال: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه. فقل له: يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعره سنه. قال: أى رب. ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن.

---

(١) قلت: ذكره المؤلف للفصل بين ما صحَّ وما أنكر من الروايات، لإحاطة القارىء.

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٣) وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٤) ورجال إسناده ثقات.

قال: فسأل الله عزّ وجلّ أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريره: فقال رسول الله ﷺ: «**فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر**» [(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان. حدثنا حماد. حدثنا ثابت وسليمان التيمى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « **لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر**» (رواه مسلم [(٢)] وأحمد والنسائى فى قيام الليل. باب ذكر صلاة نبى الله ﷺ).

العظات التى تستفاد من قصة موسى

أن الإبتلاء الذى يصاب به الإنسان فى الدنيا ينبغى أن يقابل بالرضا، فقد يكون الخير العظيم فى هذا الإبتلاء. فهذا موسى قد خرج خائفاً من آل فرعون متبعاً نصيحة ذلك الرجل الذى جاءه من أقصى المدينة ناصحاً له بالابتعاد عن مصر لأن الملأ يأتمرون به. فهاجر من مصر وكان الخير كله فى هجرته، فقد وجد أهلاً بأهل وجيرانا بجيران، واصطفاه ربه على الناس برسالاته وبكلامه وجعله واسطة لإنقاذ قومه من فرعون وآله.

أن المتوكل على الله المعتمد عليه تعالى فى أموره يقيض الله تعالى من ينقذه ويهىء له من أمره يسرا، كما قيض ذلك الرجل لموسى فكان سبباً لنجاته أولا وكان فى هذه النجاة أن يخصه الله بوحيه.

أن الشخص المستمسك بالحق لا يبالى بمن خالفه ولو كان عظيماً.

فهذا موسى قال له فرعون ﴿**إنى لأظنك يا موسى مسحوراً**﴾ فقال له موسى فى غير مبالاة به ولا اكتراث لما هو فيه من سطوة ومنعة وأبهة الملك وعز السلطان ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا موسى مثبورا**﴾ أى هالكا بعد أن حاسنه موسى كل المحاسنة وتلطف به كل التلطف، فلما لم يغد أخشن له القول.

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الجنائز، ح/ ٦٩) ومسلم فى (الفضائل، ح/ ١٥٧، ١٥٨).
(٢) صحيح. أخرجه مسلم فى (الفضائل، ح/ ١٦٤) والنسائى فى (قيام الليل، باب «١٥») وأحمد (٣/ ١٤٨، ٢٤٨).

أن الحق لا يعدم نصيراً. ذلك موسى جاء إلى فرعون لينزله عن عرض الربوبيه ويدعوه إلى عبادة الله فاعتزم قتله وأمر قومه، فقام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه يدافع عن موسى ويحذر فرعون وآله بطش الله ضارباً الأمثال بالأمم الخالية غير مبال بمخالفة فرعون.

أن لذة الإيمان إذا تذوقها الإنسان ملكت عليه مشاعره وإستهان فى سبيلها بكل عقاب لذلك آمن السحرة بموسى وإلهه، غير مبالين بفرعون وما أعد لهم من عذاب.

أن الصبر على البلوى حميد العاقبة. فهؤلاء بنو إسرائيل ابتلوا فصبروا على الإهانة والذل والتسخير وتقتيل الأبناء واستحياء النساء إلى أن أعقبهم الله الحسنى كما قال﴿**وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا**﴾.

أن موسى كان حليماً على بنى إسرائيل رؤفاً بهم فإن الله قد غضب عليهم بسبب عبادتهم العجل وهددهم بالإبادة. وكذلك الشيوخ السبعين الذين ذهبوا لتقديم توبة الشعب طلبوا رؤية الله تعالى جهلاً وعنتاً فأخذتهم الصيحة، فأخذ موسى يتضرع إلى الله ويقول ﴿**رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

بنى إسرائيل بعد موسى

بعد وفاة موسى عليه الصلاة والسلام قام بأمر بنى إسرائيل « يوشع بن نون» من سبط يوسف ومعه بنو إسرائيل وعبروا إلى الأرض التى وعدوا بها، وكان أول بلد ملكوه مدينه « أريحا» وقد أمرهم الله أن يدخلوا باب المدينة حين يدخلونها سجداً أى

خاشعين متذللين لله تعالى وأن يقولوا (حطة) ولكن القوم عاودتهم سجية مخالفة أمر الله تعالى، فقالوا قولاً غير الذى أمرهم بأن يقولوه، ودخلوا وهم على هيئة غير التى أمروا بها، فغضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب.

ومعنى (حطة) حط عنا خطيئتنا أو أمرنا حطه.

ويقول البيضاوى: إن المدينة هى بيت المقدس أى «أورشليم» أو «أريحا» ولعل القول بأنها «أورشليم» الذى دعا أهلها لأن يسموا أحد أبوابها «باب حطه» والقرآن لم يبين المدينة والتوراة لم تذكر المسألة أصلاً قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

كعادتهم لم ينفزوا ما أمرهم الله به. دخلوا الباب متعالين متكبرين، وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم وأصابهم عذاب من الله بما ظلموا. كانت جريمة الآباء هى الذل، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء. ولم تكن هذه هى الجريمة الأولى ولا آخر جريمة لبنى إسرائيل.

فقد عذبوا رسلهم كثيراً بعد موسى، وتحولت التوراه بين أيديهم إلى قراطيس يبدون بعضها ويخفون كثيراً. . وامتد هذا اللعب إلى العقيده. وسجل القرآن عليهم هذا فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ظل نبى الله يوشع بن نون بينهم يحكم بالتوراة إلى أن مات عن ١٢٧ سنة عاد بنو إسرائيل إلى ظلمهم لأنفسهم وعبثوا بالتوراة بإخفاء بعضها وإظهار البعض حسبما تقضى الأحوال وتدفع المصلحة المباشره، وكان هذا الجحود هو المسئول عما أصابهم من عقوبات اعتقدوا أنهم شعب الله المختار وتصوروا أن من حقهم إرتكاب أى شىء وكل شىء وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد كتابهم إلى أنبيائهم، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [النساء: ١٥٥].

وسلط الله عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين، يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله أعداءهم عليهم ومكن لهم من رقابهم وأموالهم.. وكان معهم تابوت الميثاق.. وهو تابوت يضم بقية مما ترك موسى وهارون ويقال ما بقى من ألواح التوراة التى أنزلت على موسى ونجت من الزمان وكان لهذا التابوت بركه تمتد إلى حياتهم وحروبهم، فكان وجود التابوت بينهم فى الحرب يمدهم بالسكينة والثبات، ويدفعهم إلى النصر، فلما ظلموا أنفسهم ورفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم. وهكذا ضاع منهم تابوت العهد، ضاع فى حرب من حروبهم التى هزموا فيها.

وساءت أحوال بنى إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم لأنفسهم.

ومرت بهم السنين وإشتد كربهم وعذابهم وإشتدت الحاجة إلى ظهور نبى ينتشلهم مما هم فيه من الكرب والهم والهوة السحيقة التى أوصلتهم إليها فواجع الآثام وكبائر الخطايا وكأن الزمن يعود بهم لما واجهة أبائهم من قتل وسبى أيام أن كانوا تحت ذل وسخره الفرعون وجنوده واحتاجوا موسى آخر ينتشلهم مما هم فيه من بلاء.

*****

قصة حزقيل

تولى يوشع بن نون أمر بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام وهو فتى موسى فى سورة الكهف وقد حكم بينهم بالتوراة وهو كما ذكرنا من صبط يوسف وقد مات عن مائة وسبعة وعشرون عاماً.

ثم تولى أمرهم كالب بن يوفنا أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم وهو أحد اثنين عاشا بعد التيه هو ويوشع بن نون.

وهو أحد الرجلين ممن يخافون الله وهما يوشع وكالب وهما القائلان لبنى إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن جرير ثم من بعده كان القائم بأمور بنى إسرائيل حزقيل بن بوزى وهو الذى دعا الله فأحيا ﴿ الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزقيل بن بوزى وهو ابن العجوز وهو الذى دعا للقوم الذين ذكرهم الله فى كتابه فيما بلغنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

قال ابن إسحاق: أنهم فروا من وباء ألم يقومهم فنزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة.

فمر بهم النبى حزقيل عليه السلام فوقف عليهم متفكراً فقيل له أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر، فقال: نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض. فناداهم عن أمر الله له بذلك فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد وقال أسباط عن السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة

عن ابن مسعود وعن إناس من الصحابة فى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣] قالوا: كانت قرية يقال لها: داوردان قبل واسط وقع بها طاعون فهرب عامة أهلها فنزلوا ناحية منها فهلك من بقى فى القرية وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا بقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم. فوقع فى قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً حتى نزلوا ذلك المكان وهو واد أفيح فناداهم ملك من أسفل وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا، حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مر بهم نبى يقال له حزقيل فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ويلوى شدقيه وأصابعه فأوحى الله إليه تريد أن أريك كيف أحييهم؟ قال: نعم، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم فقيل له: ناد فنادى يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعى فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام. ثم أوحى الله إليه أن ناد يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً فاكتست لحماً ودماً وثيابها التى ماتت فيها. ثم قيل له: ناد فنادى أيها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومى فقاموا.

قال أسباط: فزعم منصور عن مجاهد: أنهم قالوا حين أحيوا: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، هيئة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلى عاد رثاً حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا أربعة آلاف. وعنه ثمانية آلاف وعن أبى صالح تسعة آلاف. وعن ابن عباس أيضاً: كانوا أربعين ألفاً.

وخلاصة القول فى هذه القصة: أنه لا يمنع حذر من قدر لم يعرف على وجه التحديد كم لبث نبى الله حزقيل فى بنى إسرائيل. فلما قبض نسى بنو إسرائيل عهد الله إليهم وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان وكان فى جملة ما يعبدونه صنم من الأصنام يقال له: بعل.

فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص إبن العيزار بن هارون بن عمران.

*****

قصة إلياس (عليه السلام)

هو نبى الله إلياس، عليه الصلاة والسلام.. جرى الصراع بينه وبين قومه حول عبادتهم لصنم يقال له «بعل»...

دعاهم إلى تركه لعبادة الله الواحد الأحد. فأبوا إلا أن يعبدوا هذا الصنم «بعل» وانتهت واختصرت فترة الحياة الدنيا. فإذا هم محضرون أمام الله يوم القيامة.

قال تعالى فى سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الصافات: ١٢٣ : ١٣٢].

هذه الآيات المباركة هى كل ما جاء فى كتاب الله عن ذكر لنبى الله إلياس عليه الصلاة والسلام.... وهو على الأرجح النبى المسمى فى التوراة إيليا.

ويورد القديس برنابا نص نصائح إيليا، وهو نص غير معروف فى التوراة وهو نص نورده لما يضمه من حكمة عميقة وصفاء خالص، وهو نص يبدأ من الآية ٢٣ إلى الآية ٤٩ من إنجيل برنابا. حيث جاء فيه: « إيليا عبد الله يكتب هذا لجميع الذين يبتغون أن يسيروا مع الله خالقهم. أن من يحب أن يتعلم كثيراً يخاف الله قليلاً، لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط.. أن من يطلب كلاما مزوقا لا يطلب الله الذى لا يفعل إلا توبيخ خطايانا.. على من يشتهون أن يطلبوا الله أن يحكموا إغلاق أبواب بيتهم ونوافذه، لأن السيد لا يرضى بأن يوجد خارج بيته، حيث لا يحب، فاحرسوا مشاعركم واحرسوا قلبكم، لأن لا يوجد خارجا عنا فى هذا العالم الذى يكرهه..

على من يريدون أن يعملوا أعمالا صالحة أن يلاحظوا أنفسهم، لأنه لا يجدى المرء نفعاً أن يربح كل العالم ويخسر نفسه..

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا أفضل من الآخرين، لأنه لا يستفاد بشيء ممن يعرف أقل منا نحن، فكيف إذن يصلح الخاطيء حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلمه.

على من يطلبون الله أن يهربوا من محادثة البشر، لأن موسى لما كان وحده على جبل سيناء، وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله.

على من يطلبون الله أن يخرجوا مره كل ثلاثين يوماً إلى حيث يكون أهل العالم، لأنه يمكن أن يعمل فى يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذى يطلبه الله..

عليه متى تكلم أن لا ينظر إلا إلى قدميه..

عليه متى تكلم، أن لا يقول إلا ما كان ضرورياً..

وعليهم متى أكلوا، أن يقوموا عن المائده وهم دون الشبع.. مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالى... وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء...

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافيا ...

على كتلة التراب أن تنام على الأديم ...

ليكف كل ليله ساعتان من النوم ...

عليه ألا يبغضن أحدا إلا نفسه ...

وعليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف، كأنهم أمام الدينومة الآتية..

فافعلوا إذن هذا فى خدمة الله مع الشريعة التى أعطاكم إياها الله على يد موسى.. لأنه بهذه الطريقة تجدون الله، وأنكم ستشعرون فى كل زمان ومكان أنكم فى الله، وأن الله فيكم».

انتهى ما أورده إنجيل برنابا عن إيليا النبى.

*****

قصة نبي الله أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] والضمير عائد على إبراهيم عليه السلام. وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم فى سورة النساء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ [النساء: ١٦٣] والصحيح عن أيوب أن نسبه يمتد إلى سيدنا إبراهيم عليه الصلاه والسلام فهو كما قال ابن إسحاق هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وحكى ابن عساكر: أن أمه بنت لوط عليه السلام وقيل أن إسمها ليا بنت يعقوب. وقيل رحمه بنت أفرائيم. قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣: ٨٤].

وقال تعالى فى سوره ص ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۝٤١ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

كان موطنه أرض عوص، ويظن أنها جزء من جبل سعير أو بلاد أدوم. وتفاصيل قصة أيوب عليه السلام لم ترد بها غير ما ذكرناه فى القرآن الكريم وتوجد تفاصيل أخرى فى أحد أسفار العهد القديم القانونيه. وهو يحتوى على ٤٢ إصحاحاً جمعها خمسة فصول كبيره.

الأول: يذكر تقوى أيوب وأملاكه وأقاربه وصفاته.

الثاني: يتضمن ما جرى بينه وبين أصحابه الثلاثة من الجدال.

الثالث: أقوال الحكمة التى نطق بها « الياهو» أصغر أصحاب أيوب [١].

الرابع: يذكر مخاطبة الله إياه من العاصفه.

الخامس: يتضمن خضوعه وشفاءه وتعويض ما فقده من المال والأهل.

وقد صارت قصة أيوب عليه السلام فى الصبر على الابتلاء مثلا فى كل لغة ودين وثقافة ويقول الناس عن أعظم الصابرين حين يبلغ زروته أنه كصبر أيوب.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على عبده أيوب فى محكم آياته ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ [ص: ٤٤] والأوبة هى العودة إلى الله تعالى. وقد كان أيوب دائم العودة إلى الله بالذكر والشكر والصبر. وكان صبره سبب نجاته وسر ثناء الله عليه. والقرآن الكريم لم يظهر لنا طبيعه مرضه ولا نوعه.. والأمراض الشديدة عديدة وقد أصيب بأحدها.

ولكن أشهر الروايات عن فتنة أيوب وصبره هى الرواية التالية.

تحدث ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم... قال قائل منهم:

ما على الأرض اليوم خير من أيوب... هو أعظم المؤمنين إيماناً وأكثرهم عبادة لله، وشكراً على نعمه، ودعوة له.

وسمع الشيطان ما يقال... فساءه ذلك... وطار إلى أيوب محاولاً أغواءه... ولكن أيوب من أنبياء الله المخلصين فى الطاعة والعبادة والحب لله وليس للشيطان عليه سبيل.

حين يئس الشيطان من إغواء أيوب، قال لله تعالى: يارب... إن عبدك أيوب الذى يخلص فى عبادتك ويقدسك... لا يعبدك حباً وإنما يعبدك ثمناً لما منحته من مال وبنين، وما أعطيته إياه من ثروه وعقار.. وهو يطمع أن تحفظ عليه ماله وثراءه وأولاده... وكأن النعم العديده التى منحتها له هى سر هذه العباده... إنه يخاف أن تزول... فعبادته مشوبه بالرغبة والرهبة يشيع فيها الخوف والطمع.. وليست عباده

---

(١) أصحاب أيوب اللذين ذكروا فى سفره هم: اليغاز، التيمانى، وصوفر النعمانى، وبلدد الشرحى، وإلياهو.

خالصة ولاَ حبا خالصا.

وتقول الرواية أن الله تعالى قال لإبليس: إن أيوب عبد مخلص فى الإيمان شاكرا لله أواب وليكون أيوب قبسا فى الإيمان ومثلا عاليا فى الصبر... قد أبحتك ماله وعقاره... افعل بها ما تريد ثم إنظر إلى ما تنتهى.

وهكذا إنطلقت الشياطين فأتت على أرض أيوب وزروعه ونعمه وأملاكه فأتت عليها جميعا ودمرتها وتحول أيوب من قمة الثراء إلى حضيض الفقر فجأه وانتظر الشيطان يراقب أيوب فى ما يفعل وجده يقول وديعة لله كانت عندنا فأخذها نعمنا بها دهراً، فالحمد لله على ماأنعم، وسلبنا إياها اليوم. فله الحمد معطياً وسالباً، راضياً وساخطاً، نافعاً وضاراً، وهو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ويعز من يشاء ويزل من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. ثم خر أيوب ساجداً لله عابداً شاكراً وترك إبليس وسط دهشته المخزيه.

وعاد الشيطان يقول لله تعالى: يارب... إذا كان أيوب لم يقابل النعمة إلا بالحمد، والمصيبة إلا بالصبر فليس ذلك إلا اعتداداً بما لديه من أولاد... إنه يطمع أن يشتد بهم ظهره ويسترد بهم ثروته..

تقول الرواية أن الله أباح للشيطان أولاد أيوب... فزلزل عليهم البيت الذى يسكنون فيه فقتلهم جميعاً... وفى دهشة شديدة وجد الشيطان أيوب صابراً ساجداً شاكراً لله على ما أعطى وعلى ما أخذ على ما متَّع وما منَع.

وعاد إبليس يدعو الله، أن أيوب لم يزل صابراً لأنه معافى فى بدنه. ولو أنك سلطتنى يارب على بدنه فسوف يكف عن صبره...

تقول الرواية أن الله تعالى أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء. فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه. فمرض أيوب مرضاً شديداً راح لحمه يتقيح ويتساقط حتى هجره الأهل والصحاب ولم يبقى معه إلا صبره وزوجته المخلصة التى عاشت معه الحياة بحلوها ومرها عاشت معه النعمة والجفاف عاشت السعادة والشقاء... ظهر معدنها النفيس الأصيل وقت شدة زوجها... لم تهرب

منه... لم تتمرد على ما أصابه... لم تبحث عن زوج آخر تعيش معه النعمة المادية والجسدية... بل كانت صابره مخلصة شامخة فى عفتها.

وظل أيوب على إخلاصه فى الطاعة لله وشكره على ما إبتلاه وعلى ما بقى له من جسده... على عينيه التى يرى بهما وعلى أذنيه التى يسمع بهما وعلى لسانه الذى يسبح به ويشكر الله به وعلى قلبه الممتلىء بالإيمان والحب والطاعة لله وعلى عقله الذى لم ينصاع لوسوسة الشياطين.

اشتد غيظ الشيطان من صبر أيوب وشدة إيمانه فلم يجد أمامه إلا امرأته وهى الوحيدة التى ما تزال بجواره فراح يوسوس لها بأن تترك أيوب فى مرضه ووحدته وتبحث لها عن زوج آخر يعيدها إلى أيام النعمة والثراء .... وماذا بقى لأيوب حتى يعطيه لك... استمعت إلى ما يقول لها وقد تعب جسدها من العمل لقاء أجر زهيد لتوفر لزوجها طعامه ولها ولكنها كانت قوية الإيمان ذاكره لزوجها أيام الرخاء والنعمة التى عاشت معه فيها بين أبنائها وبينه لم تضعف ولكنها لم تجد العمل فى ذلك اليوم وبحثت عن عمل دون جدوى وتأخرت على زوجها ولكنها عادت إليه بالطعام متأخرة.... وأيوب فى وحدته.... عادت إليه بعد أن قصت شعرها الذى كان يسبب غيرة النساء منها لجماله وطوله ولكنها طلبت من زوجها أن يدعو الله أن يزيح عنه المرض ويكشف عنه الحزن.

قال أيوب لإمرأته: كم مكثنا فى الرخاء؟ قالت الكثير من السنين.

قال أيوب: كم لبثنا فى البلاء؟ قالت سبع سنين.

قال: أستحى أن أطلب من الله رفع بلائى، وما قضيت فيه مدة رخائى.

وقال لزوجته لقد بدأ إيمانك يضعف ووسوس لك الشيطان وضاق بقضاء الله قلبك... لئن برئت وعادت إلى القوه لأضربتك مائه عصاً.

ذهبت زوجته عنه حتى لا يشتد غضبه عليها وشعر أيوب بوحدة الفراق بعد أن ابتعدت عنه باكية ما أصابها هى وزوجها.... لم تتركه هاربةً ولكن تركته مشفقة محبة له حتى لا تزيد كربه وتهدأ نفسه.

وتوجه أيوب إلى الله بكل الحب والإخلاص والورع يدعو الله ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

كان أيوب عبداً صالحاً صابراً امتحنه الله فى ماله وعياله وجسده فصبر وشكر وسجد طاعة لله وطلب من الله الرحمه بعد أن أصبح صبره متجاوزاً لبلائه ومتفوقاً عليه. وتوجه إلى الله داعياً فى خشوع وضعف العابد للمعبود... قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ ٤٤].

استجاب الله لدعاء نبيه الصابر أيوب وأمره أن يستحم فى نبع ماء قريب منه وأن يشرب منه وما أن فعل ذلك عاد جسده إلى كامل صحته... ذهب عنه المرض وعاد كما كان معافى فى بدنه.

عادت زوجته فوجدت شخصاً آخر غير الذى تركته فلم تعرفه سألته عن زوجها أيوب الذى تركته لبعض الوقت... ولم تصدق عينيها وأذنيها هل هذا زوجها الذى أمامها فى كامل صحته... بكت من الفرحة وهى تضم زوجها المحب إليها وضمها أيوب شاكراً إخلاصها. ونفذ أمر ربه الرحيم بقسنمه بأن جمع مائة عود من عشب الجبل وضربها مرة واحدة وأعاد الله له أهله ضعف ما كان وأعاد له ماله.

*****

قصة إليسع عليه السلام

من أنبياء الله تعالى، الذين يذكر الحق تعالى أسماءهم ويثنى عليهم، ولا يحكى قصصهم. . . نبى الله « اليسع».

قال تعالى فى سوره صّ:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾ [٤٥ ٤٨].

وأرجح الأقوال أن اليسع هو اليشع الذى تتحدث عنه التوراة. .

ويذكر القديس برنابا أنه أقام من الموت إنسانا كمعجزة بأمر الله.

قال إسحاق بن بشر، أبو حذيفة: أنبأنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال: كان بعد إلياس إليسع عليهما السلام فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه.

ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء، وكان فيهم ملك عنيد طاغ.

ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذو الكفل.

قال محمد بن إسحاق: هو اليسع بن أخطوب، وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى حرف الياء من تاريخه: اليسع هو الأسباط بن عبدى بن تسوتلم بن أفرائيم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ويقال : هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام.

ويقال: كان مستخفياً معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك، ثم ذهب معه إليها، فلما رفع الياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده، ذكره ذلك عبد المنعم بن إدريس عن

أبيه عن وهب بن منبه قال وقال غيره: وكان بيانياس، ثم ذكره ابن عساكر قراءة من قرأ إليسع بالتخفيف وبالتشديد ومن قرأ واليسع، وهو إسم واحد لنبى من الأنبياء.

وقيل أنه ابن أيوب عليه السلام، والله أعلم.

قال تعالى: فى سورة الأنعام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا على الْعَالَمِين﴾ [٨٩].

*****

قصة شمويل عليه السلام

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بنى إسرائيل وعظمت منهم الأمور المارقة والخطايا وقتلوا من قتلوا من الأنبياء وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دمائهم وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذى كان فى قبة الزمان فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله من السكينة والبقية من ترك آل موسى وآل هارون فلما كان فى بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم فلما علم بذلك ملك بنى إسرائيل فى ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمداً حزناً على فقده.

وبقى بنى إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له: شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ـ ملكا ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله فى كتابه قال ابن جرير: فكان من وفاة يوشع بن نون أن بعث الله عزّ وجلّ شمويل بن بالى أربعمائة سنة وستون سنة، ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهما وسماهم واحداً واحداً.

هو شمويل ويقال له أشمويل بن بال‌ا بن علقمة بن يرخام ين اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا، قال مقاتل: وهو من ورثة هارون. وقال مجاهد: أشمويل بن هلفاقا، ولم يرفع فى نسبه أكثر من هذا... والله أعلم.

حكى السدى باسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبى وغيرهم: أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بنى إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً وانقطعت النبوة من سبط لاوى ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً فسمته أشمويل، ومعناه بالعبرانية (اسماعيل) أى سمع الله دعائى فلما ترعرع بعثته إلى المعبد وأسلمته لرجل صالح ليتعلم من خيره وعبادته، فكان عنده حتى بلغ أشده بينما هو

ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المعبد فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ معلمه يدعوه، فسأله أدعوتنى؟ فكره أن يفزعه فقال نعم ثم نام، ثم ناداه الثانية فكذلك. ثم الثالثة، فإذا جبريل يدعوه فجاءه فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك، فكان من أمره معهم ما قص الله فى كتابه. قال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٦].

قال أكثر المفسرين: كان نبى هؤلاء القوم المذكورين فى هذه القصة هو شمويل. وقيل شمعون وقيل هما واحد.

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب، وقهرهم الأعداء سألوا نبى الله فى ذلك الزمان وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء.

فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فقالوا وأى شىء يمنعنا من القتال: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[البقرة: ٢٤٦].

يقولون أنهم معتدى عليهم فوجب علينا أن نقاتل عن أبنائنا المقهورين المستضعفين فيهم المأسورين فى قبضتهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فلما أبلغهم نبيهم بأن الله قد كتب عليهم القتال تركوه ولم يبقى معه إلا عدداً قليلاً منهم.

وقال لهم نبيهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] كعادة بنى إسرائيل فى مجادلة أنبيائهم.. يقول لهم نبيهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ يجادلون فيما أمر الله به نبيه ويقولون ولما هو ولم يكن نحن. فنحن أحق بالملك منه

لأنه فقير. يرد عليهم فيهم شمويل عليه السلام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ﴾ فضله عليكم وأفاض عليه من العلم وقوة الجسم ﴿وَاللَّهُ﴾ يمنح الملك لمن يَشَاءُ من عباده .

وقال الثعلبى: أنه طالوت بن قيش بن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيح بن أنيس بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

قيل: كان الله قد أوحى إلى شمويل، أن أى بنى إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا. وإذا حضر عندك يفور هذا القرن[1] الذى فيه من دهن القدس فهو ملكهم فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم طولها سوى طالوت، ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنه منه وعينه الملك عليهم: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذى كان سُلب منهم وقهرهم الأعداء عليه وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه.

قيل: طشت من ذهب كان يغسل الملائكة فيه صدور الأنبياء، وقيل السكينة مثل الريح الخجوج[2] قيل: صورتها مثل الهرة إذا صرخت فى حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر وبه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون قيل كان من رضاض[3] الألواح وشىء من المن الذى كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آية الله عليكم، وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم، وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقيل أنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة، والبقية المباركة، وقيل: كان فى التوراة أيضاً فلما إستقر فى أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا إذا التابوت

---

(١) عظم ينبت فى رؤوس بعض الحيوانات.

(٢) الخجوج: دائمة الهبوب.

(٣) **الرضاض**: الرضُ: الدقّ، المرضوض: ما دق من الحصى كما فى مختار الصحاح.

على رأس الصنم، فوضعوه تحته فلما كان اليوم الثانى إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى، فأخرجوه من بلدهم وجعلوه فى قرية من قراهم، فأخذهم داء فى رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه فى عجلة وربطوها فى بقرتين فأرسلوها، فيقال: إن الملائكة ساقتها حتى جاءها ملأ بنى إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك فالله أعلم على أى صفة جاءت به الملائكه، والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم بالجنود من الآيه والله أعلم. وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال ابن عباس وكثير من المفسرين: وهذا النهر هو نهر بالشريعه[١] فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبى الله له عن أمر الله له إختباراً وامتحاناً أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبنى فى هذه الغزوة ولا يصحبنى إلا من لم يطعمه إلا غرفه فى يده. قال الله تعالى: ﴿ **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال السدى: كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفا فبقى معه أربعة آلاف هكذا قال: وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث إسرائيل وزهير والثورى عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب: قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث عن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز منه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن. وهو نفس عدد المسلمين فى غزوه بدر.

وقول السدى: إن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً مبالغاً فيه، لأن أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتله يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم.

﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أى استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عددهم:

---

(١) نهر بالشريعه: نهر الأردن.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] يعنى بها الفرسان منهم، والفرسان أهل الإيمان والإيقان والصابرون على الجهاد والجدال والطعان : ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر. أى يغمرهم به من قوتهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم فى مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى (١) والدعاء إلى النزال فسألوا التثبت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه فأجابهم الله السميع القدير البصير الحكيم الخبير العظيم إلى ما سألوا وأنا لهم ما رغبوا.. قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

بحول الله لا بحولهم وبقوة الله لا بقوتهم نصرهم على عدوهم الأكثر عدداً وعدة.

وقتل داود ملكهم جالوت قتلا أذل به جنده وكسره أيما كسره وليس هناك أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال والشجعان والأقران وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

وقال محمد بن إسحاق: النبى الذى بعث فأخبر طالوت بتوبته هو إليسع بن أخطوب. حكاه ابن جرير أيضا.

وذكر الثعلبى: أن إمرأة من العابدات أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور. وهذا أنسب ولعله إنما رآه فى النوم لا أنه قام من القبر حياً. فإذا هذا إنما يكون معجزة لنبى وتلك المرأة لم تكن نبيه والله أعلم.

وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قتل مع أولاده أربعون سنه فالله أعلم.

*****

(١) حومة الوغى: ساحه الحرب. (٢) الثرى: التراب.

قصة داود عليه السلام

هو داود بن إيشار بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عويناذب بن أرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل نبى الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى من أتى من صلبه من الأنبياء والرسل هداية للناس ورحمة من الله العزيز الحكيم.

بينا فى قصة نبى الله شمويل عليه السلام أو كما جاء ببعض الكتب صمويل. بداية بزوغ نجم نبى الله داود عليه السلام. فقد كان راعيا للأغنام مؤمناً ممن عبروا النهر مع طالوت.

ولما تظاهر الجيشان. جيش المؤمنين من بنى إسرائيل على قلة عدده وجيش الكثرة الكافرة بقيادة جالوت الطاغية. تواجه الجيشان استعداداً للقتال وبرز جالوت أمام جيشه بسيفه وفأسه وخنجره ودروعه يطلب من ينازله. فطلب داود من طالوت أن يسمح له بقتاله فرفض ثم طلب ثانية فوافق وألبسه درعه فلم يتحمله لثقله وتقييده لحريته وتقدم داود بقامته القصيرة وليس معه أقوى من إيمانه بالله وثقته فى نصر الله وفى يديه عصا ومقلاع يضع فيه بعض الأحجار فتقدم نحو جالوت لمنازلته فقال له جالوت ارجع فإنى أكره قتلك احتقاراً منه لهذا الراعى الضئيل الحجم واسخفافاً به. فقال له داود: لكنى أحب قتلك. وأخذ تلك الأحجار الثلاث وجعل يدور القذافه بسرعة فصارت الأحجار الثلاثة حجراً واحداً، ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفرّ جيشه منهزما.

فوفى طالوت بوعده لمن يقتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشركه فى الحكم. وعظم داود عليه السلام عند بنى إسرائيل وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت، فذكروا أن طالوت حسده وأراد قتله واحتال على ذلك فلم يصل إليه .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه: كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه.

وأنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خيرى الدنيا والآخرة وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى سبط آخر ولكن جمع الله فى داود هذا وهذا. كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] أى لولا إقامه الملوك حكاماً على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم.

لم يفرح داود بالمشاركة فى الحكم قدر فرحه بالنصر على عدوهم... لم يفرح بزواجه من إبنه الملك طالوت قدر فرحه برضى الله عنه وتوفيقه له ... وهو يعلم أنه إن كان رمى جالوت بحجر شج رأسه وقتله إنما كانت رمية الله. كان داود يعرف أن الله هو مصدر القوة الحقيقية فى هذه الدنيا.

قفز إلى قمة الشهرة فجأة فى قومه. صار أشهر رجل فى بنى إسرائيل، ولكنا أمام شخص لا يفرح بمباهج الدنيا. نحن أمام معدن بشرى من لون خاص. إنسان بلغ من شفافية النفس والتجرد أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات. فقد متعه الله بصوت ساحر عذب ندى خارقاً فى جماله وشجنه وعزوبته وكان دائماً يسبح الله بهذا الصوت المعجز فى رقته وجماله. فتأثر بصوته الجميل وترانيمه الساحرة نغماً ما لم نتصور أن تتأثر به فتناغمت زرات الجبال مع نغمات صوته والطير والوحوش وصخور الجبال، فاتسقت كلها فى نغم واحد يتجه إلى الله بالتسبيح والتمجيد والذكر كان داود يملك نفساً تستطيع أن تمتزج امتزاجاً صوفياً بغيرها من نفوس الكائنات حتى ما نتصور أنه لا يملك نفسا كالجبال والصخور.

كان داود إذا جلس يسبح الله ويمجده... تعرت الكائنات من إطار الوجود الجامد. وانكشفت باطنها المترنم بمجد الله، واستجاب هذا الباطن للنغم الصادر بعزوبة صوت داود.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

مع هذا الجمال الروحى الصافى الخالص لوجه الله جمع داود بين هذه الشفافية

المفرطة والعبادة الخالصة لله عز وجل وبين قيادة الجيش إلى انتصارات متتالية بعد أن زج به طالوت على رأس الجيش للتخلص منه بالقتل فى المعارك بعد أن أعيته الحيل على التخلص منه بعد أن عظم شأنه بين بنى إسرائيل.

ولكن داود كان مظفراً فى حروبه ولما لم يهلك أحب أن يهلكه بجنده وأعوانه ففاتهم وكان يوناثان بن طالوت يعمل على تحسين مركز داود عند أبيه ويشيد بإخلاصه فى خدمة الملك ولما اعتزم طالوت الفتك بداود أنذرته زوجته ميكال إبنة طالوت، فهرب وأوهمتهم أنه على سريره ولم يكن فوق السرير سوى متاع مغطى وكان داود قد أعطى طالوت صداقها مائة غلفه من الفلسطينين أعداءه.

ولما أيقن داود أن نية الملك قد صحت على قتله هرب منه. حتى لقد هم طالوت أن يطعن إبنه يوناثان بالرمح لأنه كان يحاجه فى داود فراغ منه ونجا. فتمت عزيمه داود على الهرب منه وأن يغيب وجهه عنه.

انتهى داود فى هروبه إلى «أخيش» ملك «جت» وهم أعداء طالوت الألداء ولداود أسوأ النكايات بالقوم فى الحرب. فلما ظفروا به جاؤوا به إلى الملك وحرضوه على قتله. فتظاهر داود بالجنون. وأوقع الله فى قلب الملك طرد هذا المجنون من حضرته. فأمر غلمانه بإطلاقه وإبعاده عنه ففعلوا. وقد لا مهم الملك على إدخالهم مجنون عليه ذهب داود إلى مغرة «عدلام» وجاء إليه جميع إخوته وجميع بيت أبيه، واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل مدين فانتقل إلى مصفاة موآب وأرسل أباه وأمه إلى ملك موآب ليكونا فى كفالته إلى أن يعلم مصير أمره.

ثم انتقل بمن معه إلى أرض يهوذا.

سمع طالوت بداود ومن اجتمع له من الرجال، فلام رجاله على عدم إخباره بأمر داود مع ابنه يوناثان أنهما تعاهدا على الصداقة والوفاء. فأغراه أحد رجاله بأخى مالك بن خيطوب الكاهن وأخبره أنه أعطى داود طعاماً وسلحه بسيف جالوت. وأن الكاهن دعى له بالنجاح. فأتى طالوت بالكاهن ولامه فى أمر داود فأثنى الكاهن على داود وقال أنه مخلص فى خدمة الملك وقد شاع أمره واشتهر وأن الملك لا ينبغى أن يكافىء داود عن الإحسان شراً. فأمر الملك بقتله وقتل الكهنة فقتل منهم خمسه وثمانين ولم ينج

منهم سوى طفل يقال له أبيا ثار بن خيطوب وهرب إلى داود وأخبره بكل ما فعل طالوت. فرحب داود بأبيارثار وأقامه عنده لأن أهل بيته قتلوا بسببه.

أقام داود فى البرية وطالوت يطلب الفرصه لإهلاكه، وعلم داود بكل ما يدبر عليه وقد جمع طالوت ثلاثة آلاف للتفتيش عليه والإيقاع به واختبأ ومعه بعض رجاله فى كهف فجاء طالوت ونام فى ذلك الكهف وداود ورجاله فى داخله ولاحت الفرصة لداود فى قتله وأغراه رجاله بذلك فوبخهم ولم يفعل، واقتصر على قطع طرف جبة طالوت.

ولما استيقظ طالوت وخرج من الكهف تبعه داود وأخبره بأنه قد كانت له الفرصة فى قتله فلم يمد إليه يداً. وأن آية ذلك أنه قطع طرف جبته وعف عن إلحاق الأذى به. فندم طالوت وقال: أنت أبر منى.

لم يلبث طالوت أن عاوده الخوف على ملكه من داود فألح فى طلب إهلاكه وخرج مع رؤساء جنده فى جيش لإهلاك داود. فصبر داود حتى نزلوا منزلاً ناموا فيه وقد ركز الملك رمحه عند رأسه ونام، فجاء داود وتخطى الجند ورؤساءهم وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس الملك، ووقف على ربوه ونادى رؤساء الجند موبخاً لهم على تقصيرهم فى -راسة الملك فاستيقظوا ودعا داود أحداً منهم يجئ إليه ليأخذ رمح الملك وكوز الماء. وأعلم الملك بأن الفرصة قد سنحت له فى قتله ولكنه لم يفعل. فأظهر الملك الندم وعاد الملك إلى بيته وأقام داود فى حصن إتخذه لنفسه.

لما يئس داود من صلاح الحال بينه وبين الملك طالوت ذهب إلى الفلسطينيين أعداؤه فطلب من ملكهم أن ينزله فى إحدى القرى يقيم فيها هو ورجاله.

ولعل ملك الفلسطينيين قد رأى الفرصة سانحة لعمل هدنة داود ليكتفى شره. ورأى ذلك خيراً من بقائه على العداء ودوام النكايه بالملك وجنده فأجاب طلب داود.

ولم يطل المقام بداود حتى قام طالوت لمحاربه الفلسطينيين، وخرج داود برجاله معهم، ولكن قاده الجند تخوفوا جانبه وأغروا الملك برده فرده بعد مسير ثلاثة أيام، وكان الملك به ضنيناً. فلما عاد داود إلى المكان الذى خرج منه وجد الفلسطينيين هاجموا نساء داود والرجال الذين معه وأولادهم، فسبوهم ونهبوا كل شىء وأحرقوا القرية التى

كان داود نازلاً بها وتدعى « صقلغ» فجد وراء المغيرين وخلص السبى وأفحش فى قتال أولئك القوم وغنم منهم غنائم عظيمة.

أما طالوت فلقيه الفلسطينييون فانهزم جيشه، وقتل هو وثلاثة من بنيه، وهزم رجاله وجلا العبرانيين عن المدن القريبة الواقعة وسكنها الفلسطينيين.

(لاحظ عزيزى القارئ أن نهاية طالوت والمسمى فى كتب الإسرائيليين «شاول» قد اختلفت مع ما ذكر فى قصة النبى شمويل عليه السلام. . . المسمى فى كتبهم «صمويل» وهو اختلاف لا يخل كثيراً فى الوقائع الأساسية للأحداث ولكن فى بعض التفاصيل والأسلوب بين الرواة والمؤورخين وبين ما ذكر فى كتب وكتابات بنى إسرائيل).

وفى أثناء هذه الأحداث مات نبى الله شمويل (صمويل) صلوات الله عليه. قام فى بنى إسرائيل نبى آخر اسمه جاد. وكان شمويل (صمويل) قد تغير على طالوت (شاول) وابتعد عنه ولم يشأ أن يذهب إليه مع إلحاح الملك فى الطلب. وقد أخبر داود أن المُلْكْ صائر إليه بعد موت طالوت (شاول).

لم يكن داود يعلم بما تم على طالوت وجنده من قتل والهزيمة والتشريد، حتى جاء إليه غلام عما ليقى. وأخبره بما تم على طالوت وجنده. وأن طالوت كان فيه بقيه من رمق بعد سقوطه فى الحرب. وعلم أنه مأخوذ لا محالة فطلب من الغلام العماليقى أن يريحه من ألمه بقتله ففعل وأنه أخذ إكليله وسواره وجاء بهما إلى داود. فغضب عليه داود وقتله (هكذا قالوا) وأقام مأتماً على طالوت وابنه يوناثان صديقه ورثاهما رثاء عظيماً. والظاهر أن طالوت كان حسن السياسة وأن مده حكمه كانت رفاهة وهناء لبنى إسرائيل كما تدل عليه مرثيه داود.

صعد بعد ذلك داود إلى (حبرون) وهى مدينه الخليل اليوم. فجاء رجال يهوذا وأقاموا داود ملكاً على بيت يهوذا فأما بقية إسرائيل فدانوا بالطاعة «لإيشبوشت» بن طالوت وقام بأمره رجال أبيه ورؤساء جنده.

وقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال إيشبوشت بن طالوت إلى أن هلك ابن طالوت بعد سنتين من ملكه وأقام داود ملكا فى حبرون. وجاء إليه بقية رؤساء إسرائيل

وملكوه عليهم وأقام فى حبرون سبع سنوات ثم انتقل إلى صهيون وهو حصن سماه مدينة داود وكان المقيمون فى جبل الموريا من اليوسيين. فأقام داود بجانبهم فى صهيون إلى أن صارت جميعها لبنى إسرائيل.

قام داود فى أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفقاً فيها منصوراً على أعدائه واتسع ملكه حتى صار من أيلة خليج العقبة ـ وهى المدينه التى على الخليج إلى الفرات، فدانت له تلك البلاد كلها.

فافتتح بلاد الفلسطينيين وأخذ دمشق عاصمة ملك الأراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم قبل أن يملك دمشق وما معها.

وقد أحسن داود إلى غلام بقى من بيت طالوت ورد عليه أملاك أسرته، وملك داود شرقى الأردن بعد أن حاربه بنو عمون.

فضائله وشمائله ودلالة نبوته

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٧٩، ٨٠].

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد، ليحصن من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]. أى لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم (ينكسر) قاله مجاهد وقتاده والحكم وعكرمه.

قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش. كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة.

قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض. وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. فكان لذلك فائده عظيمه للجند فى خفه وزنها وسهولة الحركة بها وحمايتها للجسم.

قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بسته آلاف درهم، وقد ثبت بالحديث: « **إنَّ أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده**» (١).

قال تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾** [ص: ١٧ ـ ٢٠].

قال إبن عباس ومجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة، يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح.

قال قتادة: أعطى قوه فى العباده وفقها فى الإسلام، قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « **أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود**» كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى(٢).

وقوله تعالى: **﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾** [ص: ١٨، ١٩].

وقوله تعالى: **﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾** [سبأ: ١٠] أى سبحى معه. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد فى تفسير هذه الآية **﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾** [ص:١٨] أى عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه، يقف الطير فى الهواء يُرجّع (يردد) ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرةً

---

(١) صحيح. أخرجه مسلم فى (الوصية، ح/ ١٦٣١) والنسائى (٧/ ٢٤١) وابن ماجة (ح/ ٢١٣٧) وأحمد (٦/ ٣١، ٤٢، ١٢٧، ١٩٣).

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (التهجد، ح/ ١١٣١) ومسلم فى (الصيام، ح/ ١٨٩).

وعشياً صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعى: حدثنى عبد الله بن عامر قال: أُعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط، حتى أن الطير والوحوش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى إن الأنهار لتقف. وقال وهب بن منبه: كان لا يسمعه أحد إلا حجَّل كهيئة الرقص وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله.

فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها جوعاً، وقال أبو عوانة الإسفرابينى: حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا محمد بن منصور الطوسى سمعت صبيحا أنبأنا برادح.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ قال: «**لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود**» (حديث صحيح)[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً**﴾ [الإسراء: ٥٥] والزبور وقد ذكر أنه أنزل فى شهر رمضان وهو كتاب يحوى المواعظ والحكم.

وقوله تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ [ص: ٢٠].

أى أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً. روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام فى بقرة ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه. فأنكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعى، فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحى إلى أن أقتلك فأنا قاتلك لا محاله، فما خبرك فيما ادعيته على هذا؟ قال: والله يا نبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه، ولكنى إغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل، فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً.

قوله تعالى: ﴿**وشددنا ملكه**﴾ وقوله تعالى ﴿**وآتيناه الحكمة**﴾ أى النبوة ﴿**وفصل الخطاب**﴾ أى الشهود والإيمان أى البينه على المدعى واليمين على من أنكر وقيل إصابه

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (فضائل القرآن، ح/٥٠٤٨) ومسلم فى (المسافرين، ح/٢٣٦).

القضاء وفهمه وقالوا الفصل فى الكلام وفى الحكم وقال وهب بن منبه: لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء.

فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس، وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق، فأيهما كان محقاً نالها والآخر لا يصل إليها، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلاً لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازاً وأودعها فيه، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى، فلما قيل للآخر. خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى (صاحب الحق) وفيه تلك اللؤلؤة، وقال اللهم: إنك تعلم أنى دفعتها إليه. ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بنى إسرائيل. ثم رفعت سريعاً من بينهم. ذكره بعض المفسرين وقد رواة إسحاق.

قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝٢٢ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢١ ٢٥] ويقول الإمام الشهيد سيد قطب برحمه الله فى تفسيره لهذه الآيات المباركة والقضية ـ كما يقول أحد الخصمين ـ تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ ـ (أى الأقوياء المخالطين بعضهم لبعض) ـ ﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ويبدوا أنه عند هذه المرحله اختفى عنه الرجلان: فقد كانا ملكين جاءا للإمتحان! إمتحان النبى الملك الذى ولاه الله أمر الناس، ليقضى بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم. وقد اختار أن يعرضا عليه القضية فى صورة صارخة مثيرة. ولكن القاضى عليه

ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل وعليه ألا يأخذ بظاهر القول لواحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، ويكتشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً !

عند هذا تنبه داود أنه الإبتلاء: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾.

وهنا أدركته طبيعته إنه أواب ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

والتعقيب القرآنى الذى جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة، ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فهى الخلافة فى الأرض، والحكم بين الناس بالحق، وعدم اتباع الهوى. واتباع الهوى فيما يختص بنبى هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التريث والتثبيت والتبين.. مما ينتهى مع الاستطراد فيه إلى الضلال. أما عقب الآيه المصورة لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله. وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب.

ومن رعاية الله لعبده داود، أنه نبهه عند أول لفتة. ورده عند أول اندفاعه. وحذره النهاية البعيدة. وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله على المختارين من عباده. فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة فيقيلها الله، ويأخذ بيدهم، ويعلمهم، ويوفقهم إلى الإنابة، ويغفر لهم، ويغدق عليهم، بعد الإبتلاء.

نعم الله على داود

قد ذكر الله تعالى لداود مواقف صالحات وأنه أنعم عليه نعماً عظيمة فمن ذلك:

أن الله ذكر فى الكتاب الكريم أنه سخر الجبال مع داود يسبحن بكرة وعشيا، وقد دل على ذلك بقوله فى سوره سبأ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾.

وفى سورة ص: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾.

قال البيضاوى فى قوله﴿ أَوِّبِي ﴾ رجعى فى التسبيح كلما رجع فيه. وهذا أمر يدل على عظم شأن وكبرياء سلطانه حيث جعل الجبال لعقلاء المتقادين لأمره فى نفاذ مشيئته.

تسبيح الطير معه كما تفعل الجبال أيضاً كما تقدم فى سورة سبأ.

وفى سورة ص: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

علم منطق الطير: فقد جاء فى سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

قال البيضاوى: والضمير فى ﴿وَأُوتِينَا ـ وعُلِّمْنَا ﴾ له ولأبيه أوله وحده ـ على عادة الملوك لمراعاة قواعد الأصول والآداب والتكريم ويقول الدكتور عبد الوهاب النجار. يرحمه الله أن يتكلم عنه وعن أبيه.

أولا: قوله تعالى ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

ثالثا: قوله تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ إذ الظاهر أنه ورثه فى العلم والحكمة.

إلانة الحديد له كما فى قوله تعالى فى سورة سبأ ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ النسج أو الثقب. قال البيضاوى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بآلاته أو بقوته فكان يعمل الدروع المسردة أى ذات الحلق من الحديد بيده معجزة له وأمرا خارقاً للعادة. ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن فى ذلك إمتناناً من الله عليه إذ كل الناس يعملون كذلك. اللهم إلا أن يدعى مدع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود وأن الله هداه إلى هذا الأمر الذى لم يكن معروفاً قبله. وهذا ما لا سبيل إلى تحقيقه.

عمله الدروع المركبه من حلق الحديد وذلك ربما بسبب عدم قدرته على المشى فى لامة الحرب التى ألبسه إياها (شاول) طالوت يوم برز داود لجالوت.

وقد كانت الدروع تصنع من صفائح. فكان داود أول من نسجها من حلق الحديد تناط الحلقة بأمثالها إلى أن يكمل الدرع، وهى أخف من الدروع الأخرى وأبعد من مضايقه لابسها، وهى تقى لابسها من أن تعمل فيه الأسلحة فهى على لابسها حصن يتنقل بتنقله بخفه وسهولة حركة عن ما كان يصنع قبلها ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

تشديد ملكه: ذلك أن الله تعالى قواه فى الملك وجعله منصوراً على أعدائه. فقد انتصر على جميع مبغضيه ومناوئيه ـ قبل الملك وبعده ـ ومكث دهراً لا يقوم له معارض إلا غلبة ولا يعتدى على ملكه معتد من خارج مملكته فى أواخر ملكه. وقال البيضاوى ﴿شَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود.

قيل إن رجلاً ادعى بقره على آخر وعجز عن البيان، فأوحى الله إليه أن أقتل المدعى عليه. فأعلمه فقال: صدقت إنى قتلت أباه وأخذت البقره. فعظمت بذلك هيبته.

آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. والمراد بالحكمة: النبوة. وأصل معناها اللغوى وضع كل شيء فى محله أى يقول الإنسان القول لا خلل فيه، وليس فيه موضع للبت أو اللو. ويفعل الصواب الذى لا اعتراض لأحد عليه. بل يأتى به الإنسان على وجه الكمال.

ومعلوم أن النبوة هى من هذا القبيل. ولكن الحكمة بمعنى النبوة تكون هبة من الله تعالى دون أن تكون نتيجه بحث أو درس. ولكن حكمه غير الأنبياء تكون بعد البحث والدرس ومجاهدة النفس ورياضتها على السير بمقتضى الحكمة فالنبوة طريق إلى الحكة مختصر يختص الله به من اصطفاهم من عبادة. وهو الفاعل المختار.

الزبـــــــور

قال تعالى ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣] وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحده والثناء عليه والتضرع له، وبعض أخبار مستقلة. ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى أنه تضمن الأخبار بشأن النبى الآتى وهو (محمد) ﷺ وأصحابه كما فى الزبور الخامس والأربعين وكان داود عليه الصلاة والسلام حسن الصوت حسن الإنشاد، حتى أنه إلى اليوم مضرب للمثل بحسن الصوت، فيقال للحسن الصوت أنه أعطى مزماراً من مزامير داود « عليه السلام».

والزبور يسمى عند أهل الكتاب « المزامير» وعددها مائه وخمسون مزموراً. وليست كلها لداود بل بعض المزامير منسوبة لقورح أمام المغثين، وبعضها منسوب إلى داود وبعضها منسوب للمغنين على السوسن وبعضها غير منسوب لأحد. والكثير منها منسوب لداود.

وليس فى الزبور أحكام ولا أوامر ولا نواه، بل كلها كما وصفنا. وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين كالمذمور أوله « على أنهار بابل» فإنه ألف بعد سبى الإسرائيليين إلى بابل فى حادثه « بختنصر»

إفك وافتراء بنى إسرائيل على داود عليه السلام

يقول أهل الكتاب من بنى إسرائيل: أن داود نظر وهو يمشى على سطح داره إلى امرأة تستحم فأعجبته وأغرم بها، وأتى بها واضطجع معها فحملت منه وأعلمته، وكان زوجها « أوريا الحشى» فى الحرب فأتى به ليسأله عن أمر الحرب فى الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته عهداً حتى لا يرتاب بأمرها إذا علم فيما بعد أنها حامل، ولكن الرجل كان تقياً جداً، فبات بباب داود ولم يزر امرأته. لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه وإخوانه فى الحرب بعيدون عن أزواجهم. فلما علم داود بأمره لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره إلا تعريض أوريا لجبهة القتال حاملاً الراية، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم، وبهذه الوسيلة قتل الرجل، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية. ثم مات الولد. ومن هذه المرأة كان سليمان.

هذا إفكهم وافتراءهم على نبيهم داود عليه السلام. يتهمونه بالزنا والقتل ليس هذا فحسب بل ينسبون ولده نبى الله سليمان إلى أم زانية والعياذ بالله.

وهم الذين اتخذوا نجمه داود على شعار دولتهم.

وهم الذين يحاولون بالتحايل هدم المسجد الأقصى المبارك زعماً منهم أن تحته هيكل سليمان ويرد الدكتور عبد الوهاب النجار على افتراءاتهم من الشهادات الطيبة التى وردت فى كتبهم.

فى سفر صمويل الثانى فى الإصحاح الثانى والعشرين يقول داود « يكافينى الرب حسب يرى حسب طهارة يدى يرد على لأنى حفظت طرق الرب ولم أعص إلهى، لأن جميع أحكامه أمامى فرائضه لا أحيد عنها».

وهذا السفر يقرون أنه كتب بإلهام، وهو واجب التسليم وكل ما فيه صدق عندهم، ومحال أن يكون الزنا من البر واتباع وصايا الله والمحافظة على شريعته.

وفى الإصحاح الثالث من سفر الملوك الأول: « فقال سليمان: إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر وإستقامه قلب معك، فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته إبنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم» فهل من البر والإستقامه أن يكون زانياً قاتلاً؟

وفى الإصحاح السادس من أخبار الأيام الثانى قول الله لداود « أن يكن بنوك طرقهم يحفظون حتى يسيروا فى شريعتى كما سرت أنت أمامى» فهل يريد الله لأبناء داود الذين يقويهم ويملكهم أن يكونوا كداود زناة قتله؟ وهل هذا الوصف مما يكافىء الله عليه بحفظهم وتشديد ملكهم؟ ويكون ذلك حفظاً للشريعة؟

وفى سفر الملوك الأول قول الله ليربعام بن نابط عن سليمان إصحاح ١١ (٣٤) ولا آخذ المملكة من يده لأجل داود عبدى الذى إخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى (٣٨) فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرقى وفعلت ما هو مستقيم فى عينى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى أكون معك وأبنى لك بيتاً آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل.

فهل يكافىء الله نبياً زنى وقتل؟ وكيف يكون نبياً إذا؟ وهل لو تدنى فى غرائزه كما صوروه بهتانا وكذباً يختاره الله نبياً ومن زريته أنبياء؟

حاشا لله عما يصفون وتصور لهم شياطينهم أكاذيبهم وضلالهم فقد كذبوا وإتهموا وقتلوا من رسل الله وأنبيائه الكثير من قبل داود ومن بعده عليهم جميعاً الصلاه والسلام.

هكذا يفترون على أنبيائهم ولكن الإسلام كرم كل من كان قبل محمد ﷺ بل أن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه قال: من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص (عن بنى إسرائيل) جلدته مائة وستين جلدة. وهى حد القذف.

وغالب الظن أن نبى الله داود خطب مخطوبه أوريا أو إستنزله عن زوجته وكان ذلك معتاداً فيما بينهم. وقد واسى الأنصار المهاجرين بمثل هذا.

من أقوال داود عليه السلام

روى الحافظ إبن عساكر فى ترجمه داود عليه السلام أشياء كثيرة منها قوله:

- كن لليتيم كالأب الرحيم. وأعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.
- مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت.
- ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلاله بعد الهدى.
- انظر ما تكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت.
- لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوه ما بينك وبينه.

نساء داود وسليمان عليهما السلام

قال محمد بن سعد: أنبأنا محمد بن عمر الواقدى حدثنى هشام بن سعد عن عمر مولى عفره.

قال: قالت يهود لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء: انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ما له همه إلا إلى النساء، حسدوه لكثرة نسائه، وعابوه بذلك فقالوا: لو كان نبياً ما رغب فى النساء وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله عليه وسلامه. فقال ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النساء: ٥٤] يعنى ما أتى الله سليمان بن داود كانت

له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلاثمائة سرية، وكانت لداود عليه السلام مائه امرأه منهن امرأه أوريا أم سليمان بن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ. وقد ذكر الكلبى: نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة منهن ثلاثمائة سرية.

صوم داود

روى الحافظ فى تاريخه فى ترجمة صدقة الدمشقى الذى يروى عن ابن عباس من طريق الفرج بن فضالة الحمصى.

عن أبى هريرة الحمصى عن صدقة الدمشقى: أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام. فقال: لأحدثنك بحديث كان عندى فى البحث مخزونا إن شئت أنبأتك بصوم داود. فإنه كان صواماً قواماً، وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وقال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيام صيام داود وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكون فيها وكانت له ركعة من الليل يبكى فيها نفسه ويبكى ببكائه كل شىء ويصرف بصوته الهموم والحموم**» (١).

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان، فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام.

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم، فإنه كان يصوم الدهر ويأكل الشعير ويلبس الشعر، يأكل ما وجد ولا يسأل عما فقد، ليس له ولد يموت ولا بيت يخرب وكان أينما أدركه الليل صفن (صف) بين قدميه وقام يصلى حتى يصبح وكان راميا لا يفوته صيد يريده وكان يمر بمجالس بنى إسرائيل فيقضى لهم حوائجهم.

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم ابنة عمران: فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين.

وإن شئت أنبأتك بصوم النبى العربى الأمى محمد ﷺ: فإنه كان يصوم من كل

(١) إسناده حسن. أخرجه النسائى (٤/ ٢٠٩) وابن عساكر (٦/ ٤١٩).

شهر ثلاثة أيام ويقول: « **إن ذلك صوم الدهر** » [(١)] وقد روى الإمام أحمد عن أبى النصر عن فرج بن فضالة عن أبى هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً فى صوم داود.

علامات نبوة سليمان فى حياة داود عليهما السلام

قال المفسرون: أن حرثاً ـ أى زرعاً أو كرماً ـ تدلت عناقيده نفشت فيه غنم لغير أهله ـ أى أكلته ليلاً ـ فجاء المتحاكمون إلى داود وعنده سليمان فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن زرعه الذى أتلفته الغنم برعيها إياه ليلاً.

فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنه ـ غير هذا أرفق ـ فأمر بدفع الغنم إلى أهل الزرع فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها وبالزرع إلى أهل الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان ـ يتبادلان ـ

وفاة داود عليه السلام

تقدم فى ذكر خلق آدم عليه الصلاة والسلام، أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ورأى فيهم رجلاً يزهر (يتلألأ ـ مشرق الوجه) فقال: أى رب من هذا قال: هذا ابنك داود.

قال: أى رب كم عمره؟ قال: ستون عاماً. قال: أى رب زد فى عمره؟ قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: بقى من عمرى أربعين سنة ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنه ولداود مائة سنة.

وكانت مدة ملك داود أربعين سنة. منها سبعة أعوام وهو ملك «حبرون» لسبط يهوذا وحده. ولإسرائيل كلهم: ثلاث وثلاثون سنه ملكا لجميع اليهود فى صهيون وجعل ابنه سليمان ولى عهده قبل أن يموت.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع.

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الصوم ،باب «٥٩») ومسلم فى (الصيام، ح/ ١٩٠).

قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت: لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقه؟ والله لنفتضحن بداود. فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار. فقال له داود: من أنت؟ فقال: أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله. ثم مكث حتى قبض روحه، فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس. فقال سليمان للطير: أظلى على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: أقبضى جناحاً».

قال: قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ برينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية[1].

ومعنى قوله: وغلبت عليه يومئذ المضرحيه، أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة وإحدها مِضْرحى.

قال الجوهرى: وهو الصقر الطويل الجناح.

جنازة داود عليه السلام

اختلف أهل الكتاب والرواة والمؤرخون فى يوم وفاة داود عليه السلام وفيما يلى بعض ما ورد من أقوالهم: قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس قال: مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله. وقال السدى أيضا عن أبى مالك وعن سعيد بن جبير قال: مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة. وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن: قال: مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يوم الأربعاء، فجأه. وقال أبو السكن الهجرى: مات إبراهيم الخليل فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. رواه ابن عساكر، وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه. فقال له: دعنى أنزل أو أصعد فقال: يا نبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والأرزاق. قال: فخرسا جداً على

---

(١) اسناده حسن. ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٦) وعزاه إلى أحمد ورجال إسناده ثقات. ينفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد وقوى رجاله ثقات.

مراقاة (جلد) من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد.

قال اسحاق بن بشر: أنبأنا وافر بن سليمان عن أبى سليمان الفلسطينى عن وهب بن منبه. قال: إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا فى الشمس فى يوم صائف. قال: وكان قد شيع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ولم يمت فى بنى إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود. قال: فآذاهم الحر، فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها أن تظل الناس فتراص بعضها إلى بعض من كل وجه، حتى استمسكت الريح، فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا، فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلى الناس من ناحية الشمس وتنحى عن ناحية الريح، ففعلت فكان الناس فى ظل وتهب عليهم الريح، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان ونبوته.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع حدثنى الوليد بن مسلم عن الهيثم بن حميد عن الوضين بن عطاء عن نصر بن علقمه عن جبير بن نفير عن أبى الدرداء. قال. قال رسول الله ﷺ: **«لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فتنوا ولا بدلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتى سنة»** (١). هذا حديث غريب وفى رفعه نظر والوضين بن عطاء كان ضعيفاً فى الحديث والله أعلم.

العبرة والدروس المستفادة من قصة داود عليه السلام

- أن الله تعالى اختار داود عليه السلام ليفعل العجائب بيده، ولم يكن من أهل تلك الأفعال لأنه كان غلاماً راعياً للغنم، فقتل الله بيده جالوت الجبار الذى خافته الأبطال وتحاشت نزاله، ولم يقاتله بسيف ولا رمح، ولم ينزل إليه بدرع ولا ترس، وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد.

---

(١) اسناده ضعيف. ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١/ ١٩٢) وابن عدى فى «الكامل» (٦/ ٢٢٧٣، ٧/ ٢٥٥١).

ـ أن الشخص الضعيف لا ينبغى له أن ييأس من النجاح واحراز أسباب الفلاح ما دام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى.

ـ أن انتصار داود على جالوت لم يغير من طباع داود ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء، بل لم يزده هذا الأمر إلا تواضعاً، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر.

ـ أن طاعة الله تعالى وشكر نعمه مما يوجب المزيد منها. فإن الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نعمه، فألان له الحديد وعلمه صنعة الدروع المسرده لتحصن الناس من اليأس، وأنعم عليه بولده سليمان الذى ورثه ملكه وعِلمِه وحِكْمته.

ـ أن بنى إسرائيل لم يتركوا حتى أحب أنبياء الله إليهم والمؤيدين من الله سبحانه بالمعجزات دون أن يتهموهم بأحقر وأدنى التهم رغم ما بدى لهم من معجزات مادية مؤيدة من الخالق سبحانه وتعالى.

ـ أن الله سبحانه وتعالى قد وهب لداود من أبنائه إبنا ظهرت علامات النبوة فى حياته «سليمان» ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سوره ص].

*****

قصة سليمان عليه السلام

ورث سليمان النبوه والملك من أبيه داود. لم يرث عنه مالاً. فالأنبياء لا يورثون مالاً وإن تركوا مالاً فهو صدقه. قال رسول الله ﷺ: « **لا نورث ما تركناه فهو صدقة**»(١) ورث سليمان عن أبيه العلم والحكمة ومنطق الطير.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

ولقد ظهرت علامات النبوة على سليمان فى حياة أبيه داود فلقد منحه الله الذكاء والحكم منذ صباه وذكرنا ذلك فى قصة الزرع الذى أكلته أغنام غريبة عن صاحب الأرض. وحكم فيها داود وسمح لابنه سليمان أن يحكم فيها وكان حكم سليمان هو الأصوب وأخذ به. ذلك من فضل الله عليه.

ولا يفوتنا أن الله سبحانه وتعالى قد علمه وأبيه داود منطق الطير وظهر ذلك فى جنازة أبيه داود عندما أمر سليمان الطيور أن تظل المشيعين لجنازة أبيه من وهج الشمس ففعلت أى أن سليمان عليه السلام لم يجد مشقة أو حجة لإقناع الناس بخلافته لأبيه داود وتولية النبوة والملك من بعده. فقد كانت حكمته جليلة وذكاؤه واضح منذ طفولته وتأييد الله بمعجزاته له مرئية للجميع.

ولقد ورد ذكر سليمان فى القرآن ست عشرة مرة فى سور [البقرة، النساء، الأنعام، الأنبياء، النمل، سبأ، ص].

لم يكتف سليمان بما ورثه من أبيه داود، بل حركة الطموح الإيمانى نحو ما هو أفضل لملكه وتضرع فى صفاء قلب وطاعة عبد إلى الله داعيا فى خشوع **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾** [ص: ٣٥] وقد استجاب الله تعالى لعبده سليمان

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الفرائض، ح/ ٦٧٣٠) ومسلم فى (الجهاد، ح/١٩).

ومنحه هذا الملك ولم يمنحه لأحد من بعده.

وسوف نعايش على الصفحات قصة نبى الله سليمان فأننا نواجه العصر الذهبى لبنى إسرائيل عصر نبيهم وملكهم سليمان عليه السلام. لم يكن سليمان فى طلبه إلى الله طامعاً فى سلطة أو جاه من مغريات الدنيا فقد كان طموح نبى يرغب أن يحقق لدعوته الأنتشار فى الأرض بكل ما هو متاح له من معجزات فلذلك كانت دعوته إلى الله.

وقد ذكر المفسرون أن سليمان كانت سنه حين وفاة والده ثلاث عشرة سنة وقد أوصى داود به ملكا من بعده رغم أن له أخوة أكبر منه سناً ولكن داود شعر بذكائه وفطنته التى أودعها الله فيه وأن أراده الله فى ولاية سليمان من بعده.

ويقول المفسرون أنه كان لداود ابن يقال له أبشالوم وكان أكبر سناً من سليمان اعترض على وصاية أبيه داود ليكون سليمان ملكا من بعده. فثار على أبيه وجمع جيشاً لمحاربته فقام داود وجمع الشعب والجيش وعبر نهر الأردن فتبعهم أبشالوم ومن معه فتقابل الجيشان واقتتلا وهزم جيش أبشالوم فى المعركة وقتل هو فيها أيضاً.

وتعددت القصص والروايات عن معجزات وأساطير عهد سليمان عليه السلام.. وسأوردها فيما يلى:

(خاتم سليمان)[1]

تعددت القصص عن خاتم سليمان ولارتباط المعجزات التى أيد الله بها نبيه سليمان من تسخيره للجان فكانت قصة الخاتم مرتبطة بفعل الجان.

ومن هذه الحكايات المصطنعة أن سليمان خرج فاتحاً لمدينة إسمها صيدون (فى لبنان) فخرج إليها بجنوده ودخلها وقتل ملكها وأخذ بنت له اسمها جرادة وكانت من أجمل النساء فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها.

ولكنها كانت تبكى على أبيها كثيراً فأراد سليمان أن يخفف عنها حزنها على أبيها، فأمر أن تمثل صورة لها صورة أبيها فكستها بمثل كسوة أبيها، وكانت تذهب إلى هذه الصورة صباحاً ومساء مع جواريها يسجدون لها، فعلم سليمان بذلك وكسر التمثال

(١) قلت: أشار المؤلف إلى صناعة هذه القصص ليبين للقارىء الصحيح منها مما قد اختلط فيه القول.

وعاقب المرأة.

ثم خرج وحده إلى خلاء وفرش الرماد وجلس عليه تائباً إلى الله تعالى.

وكانت لسليمان أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة إمرأة وضع خاتم الملك عندها، وكانت ملك سليمان فى خاتمه فوضعه عندها يوماً، فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان، وقال: يا أمينة خاتمى، فجلس على كرسى الملك واستعمل خاتم الملك. فأتى عليه الطير والإنس والجن وتغيرت هيئة سليمان، فأتى أمينة يطلب الخاتم فأنكرته وطردته.

فعرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكلف وإذا قال «أنا سليمان» حثو عليه التراب وسبوه. ثم أخذ يخدم صيادى السمك فيعطوه كل يوم سمكتين أجر عمله. فمكث على هذه الحال أربعين يوماً- عدد ما عبد الوثن فى بيته - فأنكر عظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان فسأل بعضهم نساء سليمان عنه، فقلن أنه يأتى النساء فى المحيض ولا يغتسل من جنابة، وقيل أنه نفر حكمه من كل شىء إلا فيهن، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكه. ووقعت السمكة فى يد سليمان ، فبقر بطنها ووجد الخاتم داخلها فوضعه فى أصبعه وسجد لله تعالى ورجع إلى ملكه، وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاها فى البحر.

وقصة ثانية:

تقول: أن تلك المرأة الجميلة عندما إعتادت على عبادة ذلك الصنم لأبيها إفتتن سليمان وكان خاتم الملك يسقط من يده ولا يتماسك فيها فقال له رجل من المقربين يدعى آصف بن برخيا إنك لمفتون بذنبك فتب إلى الله.

وقصة ثالثة:

تقول: أن سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس؟ فقال: أرنى خاتمك أخبرك فأعطاه الخاتم فألقاه فى البحر فذهب ملكه، وجلس هذا الشيطان على كرسيه.

وقصة رابعه:

تقول: أن سليمان إحتجب ثلاثة أيام عن الناس فسلب الشيطان منه الملك وجلس على كرسيه عقوبة له.

هذه القصص الأربع لم يرد ذكرها في القرآن الكريم ولا نقل حديث صحيح عن الرسول ﷺ ولا يقرها عقل . . . ولكن أن سمعنا بقصة أو عبارة (خاتم سليمان) وجب علينا التنويه عنها.

ورث سليمان عن أبيه جيشاً قوياً لا يدانيه جيش في زمانه. ولعل أخطر شيء ورثه سليمان عن داود تلك التقاليد العسكرية التي أرساها داود. الذي كان في الأصل راعي غنم فقيراً. لكنه تحول مع الوقت إلى قائد عسكري ليس له مثيل في زمنه، وتم هذا التحول الهام من الله وعون منه وتأييد، كان داود في البداية يدرك أن القوة الحقيقية الحاكمة في الوجود هي قوة الله تعالى.

وحين مد يده وأمسك بقطعة الحجر وقذفها بمقلاعه نحو جالوت، كان هذا إيذانا بتحول موازين القوة وتغير وضع الجيش في بني إسرائيل من شرازم تفر أمام أعدائها إلى جيش حقيقي له وجوده. وقد وقعت في حياة داود معارك عسكرية عديدة لا يحدثنا القرآن عنها بالتفصيل . . فالقرآن كتاب دعوة إلى الله وليس كتاب في التاريخ.

(تسخير الرياح)

سخر المولى عز وجل الرياح لعبده ونبيه سليمان . . يصرفها بأمره. كما يصرف الإنسان عنان دابته يقول المفسرون: إن سليمان كان له نحو البساط من الخشب له ألف ركن، في كل ركن ألف بيت يكون فيه جند سليمان من كل صنف وتحت كل ركن ألف جني يحملون ذلك البساط الخشبي حتى يرتفع في الجو وحينئذ تسير به الرياح. إلى أي بقعة في الأرض يقصدها سليمان بجيشه . . . (هذا ما قرأناه في الإسرائيليات] [(١)].

فتخيل معي عزيزي القارىء مثل هذا الجيش المسلح بأحدث الدروع المصنوعه من حلقات حديديه تجعل المحارب خفيف الحركة مقابل محارب أمامه يرتدي درع ثقيل الوزن يجعل حركته بطيئة وذلك بفضل الله الذي ألان الحديد لداود ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [الآية: ١٠ من سورة سبأ] وهذا الجيش يفاجيء أعداءه بالهبوط عليهم من الجو دون سابق إنذار.

---

(١) قلت: هذا أيضا لتوضيح ما صح مما قد اختلط في القول أو وَضع.

(منطق الطير وملكه سبأ)

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٦] يقال أن سليمان عليه السلام كان يسمع تغريد الطيور ويعى ما تقوله.

وقد مر بذكر منها يتعاجب بنفسه أمام أنثى يطلبها ويعدها بأطايب الطعام الذى لا يقدر على إحضاره فتبسم سليمان وقال عن الذكر أنه كاذب.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠ . ٢١].

وكان فى مجلس سليمان عليه السلام ممثل أو مندوب عن كل فئة من الطيور وفى موعد المجلس لم يجد الهدهد فتوعده . لكن جاء الهدهد بعد حين وهو يرتعد خوفاً بسبب تأخيره وقال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢ـ٢٦].

استمع سليمان إلى قول الهدهد وقال: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٢٨].

طار الهدهد بكتاب سليمان عليه السلام إلى مملكة سبأ باليمن وألقى بالكتاب فى مجلس ملكتهم. . فتعجبت الملكة وإلتقطت الخطاب وقالت لحاشيتها من الأمراءوالوزراء ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٢٩ ـ٣٢].

اغتر حاشيته الملكه بقوتهم العسكرية وبسالتهم القتالية. وقالو لها: ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا

قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣].

كانت ملكتهم أكثر حكمه وفطنة منهم ولم تفكر أن تجيش الجيوش لمحاربة سليمان وتصورت نهاية كل الحروب يكون فيها طرف منتصر وآخر مهزوم وقالت ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤ ـ ٣٥].

بذكاء الملوك والتصرف الحكيم قالت سأرسل إليهم وفداً يحمل الهدايا وأنتظر عودة الوفد ليبلغها ماذا رأى. وبناء على رد الوفد ورأيه تنظر ماذا تفعل بعد عودته.

ذهب الوفد بالهدايا الذهبية واستأذن فى الدخول على سليمان وهاله ما رأى من مظاهر الثراء والبناء والرفاهية التى حولهم واستعرض سليمان جيشه أمامهم وعرفوا أن هذا الجيش لا قبل لهم به وهداياهم لا تساوى ما يتشح به أحد من الخدم. فقال لهم سليمان عندما قدموا له هداياهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

رفض سليمان هديتهم وقال أن ما لديه من النعم والغنى بفضل الله أفضل من هديتهم وأنهم وأمثالهم هم اللذين يفرحون بمثل هذه الهدايا وطلب منهم العودة إلى بلادهم وأنه سيعد جيوشه الكبيرة التى لا قبل لهم بها ولم يروا مثلها وليخرجهم من ديارهم صاغرين.

عاد الوفد إلى بلادهم وقدموا لملكتهم ولحاشية ملكها تفاصيل ما رأوا من قوة وغنى سليمان وجيوشه الكبيرة العتاد والعده وجنوده المدججة بالسلاح والدروع وأعادوا لها الهدية.. لم يكن أمام بلقيس الملكه سوى أن تسرع فى الذهاب إلى سليمان فى ملكه لتقدم له الطاعة والولاء صاغرة قبل أن يحضر هو إليها بجيوشه وتنال بلادها على يديه أسوأ هزيمة.. كانت امرأة ذكية تزن الأمور بدقة وتحسب للمواقف حساباتها بدهاء. واستعدت وأعدت للرحلة من اليمن إلى أرض الشام.

وفى فلسطين حيث ملك سليمان إجتمع سليمان بوزرائه وحاشيته ومجلسه الذى يحضره من يمثل كل فئات ملكه من طيور وجان وهو على يقين بأن ملكة سبأ قادمة لا محالة إليه صاغره. قال: ﴿ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]. إستقر عرش بلقيس أمام سليمان بكرامة الرجل الذى عنده علم الكتاب ومن أعلم به سوى سليمان نفسه أراد سليمان أن يفاجئها بعرشها الذى عنده. وقال: ﴿**قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ**﴾ [النمل: ٤١].

أمر سليمان بأن يغيروا بعض من تفاصيل عرشها ليرى مدى ذكاء وفطنة هذه المرأة. ففعلوا ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ** ﴾ [النمل: ٤٢] مفاجأه كبيرة لم تخطر على بال الملكة... عرشها تاركة إياه فى مملكتها وعليه حراسة وأقفا له كيف سبقها إلى بيت المقدس وكيف تجيب على السؤال ولأنها إمرأة ذكية قالت ﴿**كَأَنَّهُ هُوَ**﴾.. لم تنفى ولم تثبت.... هيئته رغم بعض التغييرات التى أدخلت عليه تؤكد لها أنه هو... ولكن العقل يتعارض مع المنطق إذا كان كما تعرف أنه هو... فكيف جاء؟

لم يكتفى سليمان عليه السلام بهذه المفاجأة. ولكنه أعد لها مفاجأة أخرى ﴿ **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل: ٤٤].

لقد كانت المفاجأة هذه المرة.. قصراً من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء وظهر كأنه لجة أى ماء. فلما قيل لها أدخلى الصرح. رفعت طرف ثيابها حتى لا تبتل وكشفت عن ساقيها فلما حققت المفاجأة هدفها... قال لها إنه صرح ممرد من قوارير.

أدركت الملكة أنها أمام ملك غير الملوك التى رأتهم أو سمعت عنهم وأن له قوى

خفية مسخرة له أكبر من طاقة البشر. فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فى عبادتها لغير الله معلنة إسلامها مع سليمان.. لا لسليمان ولكن لله رب العالمين.

(سليمان وحديث النملة)

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩].

مشهد آخر من مشاهد أفضال الله تعالى على نبيه سليمان ومعرفته حتى بلغه النمل حين كان موكبه من الإنس والجن والطير... حشد كبير منظم من الجنود والقادة. حتى إذا أتوا على واد به نمل كثير. إذ قالت نملة لمن حولها من النمل الكثير السارح فى الوادى إدخلوا مساكنكم كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش لها وإنشرح صدره بإدراك ما قالت وتبسم لمقولتها.

وشكر الله على نعمه الكثيرة التى أيده بها ومنها هذه النعمه التى لا يعرفها غيره من البشر نعمة فهمه وتفسيره للغة الطير ولغة النمل وفى كل الأحوال والمواقف نجد أن نبى الله سليمان شاكراً فضل الله عليه ...

سليمان والصافنات الجياد

قال تعالى: **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾**.

قيل أن سليمان عليه السلام ـ إستعرض خيلاً له بالعشى ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب فقال ردوها على (أى الخيل) فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه. ورواية ثانية أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً فى سبيل الله.. وكلتا الروايتين لا دليل عليها ولكن أخلاق أنبياء الله لا تميل النفس إلى عنفها... بل إلى سماحة نفسها وعطفها وهذا أميل للرواية الثانية.

(فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه)

كعادة بنى إسرائيل مع أنبيائهم... لم يسلم من إفكهم أى من أنبيائهم... حتى رسول الله وكليمه موسى عليه الصلاه والسلام.

ولقد جاء فى القرآن الكريم قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ [ص: ٣٤ ٣٥] معروف أن سليمان عليه السلام كان له نحو ألف إمرأه.

يقول الأفاكون من بنى إسرائيل: أن سليمان عزم على الطواف على سبعمائة إمرأة منهم فى ليلة واحدة فتأتى كل واحدة منهن بولد يجاهد فى سبيل الله ولم يقل (إنشاء الله) فعاقبه الله بأنهن لم يحملن كلهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق إنسان (أى مولود مشوه) فجيء إليه به وهو على كرسى العرش ووضع فى حجره. وتضرع سليمان إلى الله مستغفراً وخر ساجداً.

وتقول رواية أخرى: أن نبى الله داود عليه السلام لما رشح إبنه سليمان للملك من بعده. غار إبن له يدعى أبشالوم كان أكبر سناً من سليمان وثار على أبيه وإنتزع كرسى العرش منه وجلس عليه وقامت بينه وبين أبيه معركه شرق نهر الأردن وإنتصر فيها جيش داود وإنتزع العرش منه. وعاد سليمان إلى كرسيه بعد أن تزعزع بفعل أخيه أبشالوم وتضرع إلى الله وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده.

هذه رواياتهم عن أنبياء الله ورسله وإفتراءاتهم عليهم. فمنهم من إتهموه بقتل شقيقه: موسى عليه السلام. إتهموه بقتل شقيقة هارون عليه السلام. ومنهم من إتهموه بإبعاد زوج إمرأة أحبها إلى مقدمة الجند فى المعركة ليقتل ويفوز بإمرأته والغريب أن تلك المرأة يدعون أنها أم نبى الله سليمان ولكن لم نرى فى الإسلام أى سند لهذه الإفتراءات من بنى إسرائيل ولكنا نستند إلى حديث صحيح لرسولنا محمد ﷺ: رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال: « **قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين إمرأة كل واحدة تأتى**

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (٤/ ٢٧، ١٩٧، ٧/ ٥٠ فتح البارى) ومسلم فى (الإيمان، ح/٢٣، ٢٥، ٢٥ مكرر).

بفارس يجاهد فى سبيل الله. ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن فلم يحمل إلا إمرأة واحدة جاءت بشق رجل. والذى نفسى بيده لو قال إنشاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون» (١).

وكل ما نخرج به من هذه الروايات ومن حديث الصادق المصدوق محمد ﷺ. أنه كان هناك إبتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمانـ عليه السلام ـ فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ويبعد خطاهم عن الزلل وأن سليمان أناب إل الله ورجع وطلب المغفرة وإتجه إلى الله بالدعاء والرجاء **﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** [ص: ٣٥ ـ ٤٠].

إستجاب الله لدعاء سليمان ووهب له ما لم يهبه لنبى من بعده من المعجزات التى لا تنسب لبشر من خلق الله. وأن سليمان مقرب إلى الله فى الدنيا و **﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾** أى منزلة أيضا فى الآخره.

(إساله عين القطر)

قال تعالى: **﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾** [سبأ: ١٢].

وعين القطر هى النحاس المذاب... ولأن سليمان عليه السلام كان رجل عمارة يحب الأبنية العظيمة فقد بنى الهيكل (الذى يبحث عنه بنى صهيون إلى الآن ويحفرون تحت المسجد الأقصى الأنفاق بغرض زعزعه أركانه وهدمه).

وما حوله من مبانى عظيمه. فكما أنعم الله على والده داود بأن ألان له الحديد وعلمه كيف يصهره أسال الله له عيناً من النحاس المنصهر تقذفه فإستفاد به سليمان بأن جعله بين حجارة البناء لتتماسك معاً. وصنع منه التماثيل الكبيرة والصغيرة وإستفاد منه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعاً.

فى الحرب بأن مزجة مع الحديد وصنع منه الأسلحة البرونزيه التى كانت أقوى الأسلحة فى زمانه.

(تسخير الجن)

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧ ٣٨].

كل هذه الأفضال والمنن والمعجزات التى أيد الله بها نبيه سليمان جعلته فى زمنه سيداً على الأرض دون منازع. وكلما زاد سليمان فى ملكه ودلائل عظمته. زاد فى ذكره لله وشكره على ما أعطاه من نعم كثيرة.

قال تعالى: ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] والأوبة (من الإياب) تعنى العودة إلى الله والشكر والإستغفار والصلاة والصيام والتقرب إلى الله بالعمل الصالح.

(وفاة سليمان عليه السلام)

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]

دخل سليمان الحكيم ابن الحكيم داود محرابه للصلاة وهو متكئ على عصاة وقضى الله بموته على هذا الحال وهو متكئ على منسأته... وظل هكذا لزمن لا يعلمه إلا الله. ما دل الإنس والجن على موته إلا دابة الأرض التى أكلت طرف عصاة فاختلت وسقط جسده الشريف ميتا.

وقالت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما ظلوا فى أعمالهم الشاقة المكلفين بها من سليمان عليه السلام كثرت الأقاويل والادعاءات والأباطيل فى موت سليمان عليه السلام.

منهم من ادعى أن سليمان ظل على حاله موته مستندا إلى عصاه لمدة عام كامل وذلك بأنهم أحضروا أرضه ووضعوها على طرف العصا ليقدروا ما أكلته فى زمن قدروه بسنة. وهذا كلام يتنافى مع العقل والمنطق.

ومنهم قائل بأن سليمان لم يكن يصبح بعد تعبده فى بيت المقدس إلا ينبت الله ببيت المقدس شجرة فيأيتها فيسألها فيقول: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: إسمى كذا. فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت تنبت دواء فيجعلها كذلك. حتى نبتت شجرة فسألها: ما إسمك؟ قالت الخروبة قال: ولأى شئ نبت؟ قالت: نبت لخراب هذا المسجد. قال سليمان عليه السلام: ما كان الله ليخربه وأنا حى. أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس. فنزعها وغرسها فى حائط له فدخل المحراب فقام يصلى متكئاً على عصاة فمات. ولم تعلم به الشياطين.

حكمة موته

أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم بنى الإنسان درساً من موت نبى الله سليمان عليه السلام أنه قد نمى إلى بنى الإنسان أن الجان تعلم الغيب. فأراد الله أن يلقنهم هذا الدرس على لسان الجن أنفسهم **﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾** [سبأ: ١٤].

هيكل سليمان

قبل أن أنهى قصة سيدنا ونبى الله سليمان بن داود عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام لابد لى أن أنوه عن هيكل سليمان الذى هو حجة حكام اليهود سكان إسرائيل هذه الأيام إذ أن تعصبهم الأعمى للصهيونية التى ابتدعوها جعلتهم يتحينوا الفرص وتسوقهم الحجة الجاهلة بأن بقايا الهيكل موجودة أسفل المسجد الأقصى بالقدس الشرقية من أرض فلسطين التى احتلوها بعد نكسة العرب العسكرية فى سنه ١٩٦٧ الميلادية بعد نكستهم الأكبر فى سنه ١٩٤٨ باحتلالهم أكثر من نصف فلسطين وإعلان دولتهم العنصرية.

وقد كان الغرض الأساسى من بناء هيكل سليمان هو عبادة الله سبحانه وتعالى فيه. وكان المسجد للموحدين المؤمنين.. ولم يكن رونقه وعظمة بنائه ليصرفا الناس حين إقامه سليمان عن عبادة الله ودعوته فيه. وتعددت الأقاويل والروايات عن عظمة بناء الهيكل ولماذا لا يكون البناء عظيماً وقد سخر الله لنبيه سليمان الجان لتعمل بأمره. ويذكر اليهود أنه قد جاء فى سفر الملوك الأول من التوراة. أن الهيكل كان مركز العباده اليهودية ورمز تاريخ اليهود وموضع فخارهم وزهوهم وقد شيده الملك سليمان وأنفق على بنائه ببزخ عظيم حتى أنه احتاج إلى ١٨٠ ألف عامل وقد أتى له سليمان بالذهب من ترشيش وبالخشب من لبنان وبالأحجار الكريمة من اليمن.

ثم بعد سبع سنوات من العمل المتواصل تكامل بناء الهيكل. فكان آية من آيات الدنيا فى ذلك الزمان وإمتدت يد الدمار والخراب إلى الهيكل مرات عدة. إذ كان هدفاً دائماً بعد وفاة سليمان وزوال ملكه القوى الذى كان قد دعا الله به ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ [ص: ٣٥] وقد إستجاب الله تعالى لعبده سليمان ومنحه هذا الملك ولم يمنحه لأحد من بعده.

وقد نُهب ما بالهيكل من كنوز وشاع الدمار والخراب كل أركانه [سفر الملوك الثانى]

ثم قام أحد الملوك بتجديد بنائه تحبباً فى اليهود فاستغرق بناء الهيكل هذه المرة ٤٦ سنة أصبح بعدها صرحاً ضخماً تحيط به ثلاثة أسوار هائلة. وكان مكونا من ساحتين كبيرتين: إحداهما خارجية والأخرى داخلية، وكانت تحيط بالساحة الداخلية أروقة شامخة تقوم على أعمدة مزدوجة من الرخام، وتغطيها سقوف من خشب الأرز الثمين وكانت الأروقة القائمة فى الجهة الجنوبية من الهيكل ترتكز على ١٦٢ عمودا، كل منها من الضخامة بحيث لا يمكن لأقل من ثلاثة رجال متشابكى الأذرع أن يحيطوا بدائرته. وكان للساحة الخارجية من الهيكل تسع بوابات ضخمة مغطاة بالذهب. وبوابة عاشرة مصبوبة كلها من نحاس كورنثوس على الرغم من حجمها الهائل. وقد تدلت فوق تلك البوابات كلها زخارف على شكل عناقيد العنب الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص. وقد استمرت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه [سفر الملوك الأول].

غير أن تتابع الأيام وتغير الأحوال وضعف الملوك وضعف الإيمان بهجر العبادات

والسعى إلى المعاصى والللذات والإتجاه إلى زخارف الدنيا والجرى وراء المال حول الهيكل من رمز لعبادة التوحيد لله وحده لا شريك له. وتحول الهيكل إلى قشرة لا معة من الذهب تخفى تحتها ما صار إليه أمر الديانة اليهودية. فاعتدى اليهود أنفسهم على قدسية الهيكل وأهانوا رونقه وبهاءه، وأحالوه إلى سوق للبيع والشراء. فتزاحم فى ساحته بائعوا الثيران والكباش والحمام، حتى امتلأ بهم الرواق وأصبح لقزارته أشبه بمربط البهائم، واكتشت مداخل الهيكل مكاتب الصيارفة التى يتعالى منها رنين النقود مختلطاً بصوت المساومات والناس يستبدلون ما بيدهم من دراهم [إنجيل متى].

وكان اليهود منذ ما قبل التاريخ أهل تجارة ومال وساعدت قسوة القلوب وصلابتها وسقوط الإيمان باليوم الآخر من النفوس وتقولهم على الله ما لم يحدث من عبد لرب معبود. ساعد هذا على دفع المجتمع اليهودى بمادية صارخة، وتسللت هذه المادية إلى عبادة اليهود، فصار تقديم القرابين وشراؤها من الهيكل هما طريق الغفران الوحيد وحين فقد الهيكل حقيقة جوهره. وصار سوقاً تجارية. بعث الله عليه من دمر الديار ودمر الهيكل معها.

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨].

*****

قصة يونس عليه السلام

هو يونس بن متى . . . لم يعرف من نسبه سوى أنه إبن متى.

وقد قال عنه رسولنا وإمامنا وشفيعنا محمد بن عبد الله ﷺ: « **لا تفضلونى على يونس بن متى**» خُلُقْ الأنبياء والرسل الكرام. . سلمت يا رسول الله. . ألم يصفك الله بأنك على خلق عظيم.

ذكر يونس عليه السلام بإسمه فى القرآن الكريم أربع مرات فى سورة النساء آية ١٦٣. والأنعام آية ٨٦ ويونس آيه ٩٨ والصافات آيه ١٣٩ وذكر بوصفه فى سورة الأنبياء وسوره القلم.

﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً**﴾ [الأنبياء.

﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ**﴾ [القلم].

وذكر عند أهل الكتاب أنه «يونان بن أمتاى»

والظاهر من أمره أنه من اليهود ومن بلدة إسمها حلحول قرب مدينة الخليل بفلسطين.

كان يونس بن متى نبياً كريماً أرسله الله إلى قومه فراح يعظهم، وينصحهم ويرشدهم إلى الخير ويذكرهم بيوم الحساب ويحزرهم من غضب الله ويدعوهم إلى ترك المعاصى وظل بينهم ينصحهم فلم يؤمن أحد ولم يجد يونس عليه السلام بين قومه من يستمع إليه أو يصدق ما يدعوهم إليه وظلوا على عنادهم وكفرهم ومعاصيهم التى يرتكبونها فى النهار والليل. وأصابته حالة من اليأس وإمتلأ قلبه بالغضب على قومه لأنهم لا يؤمنون وخرج مغاضباً وقرر هجرهم.

قال تعالى: ﴿**وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [الأنبياء: ٨٧].

يقول المفسرون أن يونس عليه السلام كان مغاضباً لقومه الذى أرسل إليهم لإبطائهم عن تلبية دعوته والدخول فيما دعاهم إليه من الإيمان فتركهم واتجه إلى شاطئ البحر

مغادراً.

وفى رواية أخرى: أن يونس عليه السلام أمره الله بالذهاب إلى قوم ليسوا من عشيرته ولا من بلده ويقول بعض المفسرين أنهم أهل نينوى. فخشى أن ينالوه بالأذى لأنه ليس بذى عصبية بينهم تقوم بنصره ومنعه، وتأول الأمر على أنه أمر إرشاد ـ كما تأول الفقهاء ـ وظن أن الله لن يضيق عليه ولن يلزمه بالذهاب إليهم وأنه تعالى ليس بمسبوق على أن يرسل إليهم من هو أشد منه قوة وأنفذ قولا بينهم، فذهب ليبتعد عن ناحيتهم فذهب إلى شاطئ البحر مغادراً وركب سفينة وما أن تحركت السفينة مبتعدة عن الشاطئ وسارت إلى الإتجاه المقصود حتى اضطرب البحر وماجت السفينة بهم وارتفع الموج حولها ودب الفزع بين الركاب وثقلت السفينة بما فيها وكادوا يغرقون... وكعادتهم الوثنية قالو أن بالسفينة رجل لا ترضى عنه الآلهة فيجب أن يلقى فى البحر قرباناً ليهدء ويعود إلى سابق إستقراره. واتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم. فصدر الأمر الإلهى إلى حوت ضخم من البحر الأخضر ليتبع السفينة.

وإقترعوا ووقعت القرعة على نبى الله يونس فألقى فى البحر وأمر الله الحوت أن يبتلعه وألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس ذلك برزق فأخذه فطاف به البحار كلها، وقيل أنه إبتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا ولما إستقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حى فخر لله ساجداً وقال: يارب إتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحد فى مثله.

إختلف العلماء والمفسرون عن مده بقاء يونس فى بطن الحوت فقال مجالد عن الشعبى: إلتقمه ضحى ولفظه عشية وقال قتادة: مكث فيه ثلاثا. وقال جعفر الصادق: سبعة أيام وقال سعيد بن أبى الحسن وأبو مالك: مكث فى جوفه أربعين يوماً والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى (١) فنسمع تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ورب السموات السبع والأرضين وما بينها وما تحت الثرى. فعند ذلك وهنا لك قال كما أخبر

(١) الأجاج: ملحٌ مُرٌّ.

عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر والنجوى ويكشف الضر والبلوى وسامع الأصوات وإن ضعفت وعالم الخفيات وإن دقت ومجيب الدعوات وإن عظمت حيث قال فى كتابه المبين المنزل على رسوله الأمين وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين **﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المقصود بها الظلمات الثلاث ظلمة بطن الحوت وظلمه جوف البحر وظلمة الليل **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** قيل: معناه أنه لولا أنه سبح الله هنا لك وقال ما قال من التهليل والتسبيح والإعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه للبث هنا لك إلى يوم القيامة. ولبعث من جوف ذلك الحوت.

وقيل معناه: **﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾** من قبل أخذ الحوت له **﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾** أى المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً للبث فى بطن الحوت إلى يوم القيامة.

وعن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: **«لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر عظماً»** (١) فلما إنتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكه تسبيحه، فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت، فقالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليله عمل صالح قال: نعم قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله: **﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾** [الصافات: ١٤٥] هذا لفظ ابن جرير إسناداً ومتناً. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

---

(١) إسناده حسن. ذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٨) والحديث أخرجه الطبرى (١٧/ ٦٥) وذكره القرطبى (١٥/ ١٢٣).

دعوه يونس وهو فى بطن الحوت

قال الإمام أحمد عن سعد ابن أبى وقاص عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ قال: « **نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يدع بها مسلمٌ ربه فى شىء قط إلا إستجاب له** » (١).

نجاة يونس عليه السلام

إستجاب الله تعالى لدعاء يونس ورأى صدقه فى توبته وهو فى بطن الحوت. وصدر الأمر الإلهى إلى الحوت أن يخرج إلى سطح البحر وأن يضع الأمانة التى فى جوفه على الشاطىء. . . وأطاع الحوت وتركه على شاطئ البحر فى العراء . . . . وجد يونس بن متى نفسه على الشاطئ وهو ضعيف من مدة بقاءه فى بطن الحوت وفى تلك الظلمات وفى حاله مناخيه لم يعتدها بشر.

أخرج يونس من بطن الحوت إلى الشاطئ الخالى من الأشجار **﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾** أى ضعيف البدن بتأثير ما فى جوف الحوت من إفرازات لحفظه من الهضم. قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش أشرقت الشمس من مشرقها وإعتدلت فى السماء ولسعت أشعتها يونس وهو فى العراء. فصدر الأمر الإلهى للأرض بأن تنبت عليه شجره **﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾** [الصافات:١٤٦] واليقطين أو اليقطنية نبات من فصيلة القرعيات يقول بعض العلماء فيه أن له فوائد جمة منها أن ورقة فى غايه النعومة وكثير وظليل ولا يقربه زباب ويؤكل ثمرة من أول طلوعه إلى آخره نياً ومطبوخاً ويقشره وببذره أيضاً وله فوائد كثيرة وتقويه للدماغ. وقد سخر الله له بعض الحيوانات ترويه بلبنها بكرة وعشية رعاية ربانية برحمة من الخالق لعبده ونبيه يونس بن متى ولهذا قال تعالى **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾** أى الكرب والضيق الذى كان فيه **﴿ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** أى وهذا صنيعنا بكل من دعانا وإستجار بنا.

هل إرتكب يونس ذنباً؟

الجواب أن الأنبياء معصومون. . غير أن هذه القصة لا تعنى أنهم لا يرتكبون أفعال

---

(١) إسناده حسن. أخرجه أحمد (١/ ١٧٠).

يعتبرها الله تعالى أمورا تستوجب العقاب أو العتاب.

المسأله نسبيه إذاً. . . . وأعظم حسنات الأبرار لو فعلها نبى لكانت بالنسبه إليه ذنباً.

يقول الصوفيه: أن حسنات الأبرار سيئات المقربين. . . وهذا صحيح.

فلننظر فى فرار يونس من قريته الجاحدة المعاندة. . . . لو صدر هذا التصرف منْ أى إنسان صالح غير يونس لكان ذلك حسنة يثاب عليها. . . فهو قد فر بدينه من قوم مجرمين.

ولكن يونس نبى أرسله الله إليهم. . . المفروض أن يؤدى ما أمره الله به وأن يبلغهم عن الله ولا يعبأ بنهايه التبليغ أو ينتظر نتائج الدعوة. . . . ليس عليه إلا البلاغ.

خروجه من القرية إذاً. . . فى ميزان الأنبياء. . . . أمر يستوجب تعليم الله له وعقابه.

إن الله يلقن درساً فى الدعوة إليه. ليدعو النبى إلى الله فقط. لم يرسله الله ليؤمن الناس. . . إنما أرسله ليدعو فحسب. . هذه حدود مهمته وليس عليه أن يتجاوزها ببصره أو قلبه ثم يحزن لأن قومه لا يؤمنون. . أن لو مكث فى قومه يدعوهم سنوات عديدة فلم يؤمن فيهم أحد. . . ورغم ذلك لم يخرج لوط فراراً بأهله ونفسه ودينه من قريته. . . ظل يدعوهم حتى جاءه أمر الله وأرسل إليه ملائكته بإذن الخروج ساعتها خرج لوط. . . . . لو خرج قبلها لعوقب مثل يونس.

ولقد خرج يونس بغير إذن فانظر ماذا وقع لقومه. . . . لقد آمنوا به بعد خروجه.

قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يونس: ٩٨].

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧]

إختلف العلماء فى توقيت إرساله إليهم. . هل كان قبل الحوت أو بعده؟ أو هما أمتان التى كان فيها قبل الحوت والتى أرسل إليها بعد الحوت.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [يونس:٩٨].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] أى آمنوا بكما لهم.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف. فلما خرج يونس من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله فى قلوبهم التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات وجأرت الأنعام والدواب والمواشى وذلك لأن نبى الله يونس وعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث. ولما تحققوا نزول العذاب بهم فعلوا ما فعلوا من توسل ومسكنة ودعاء إلى الله فكانت ساعة عظيمة هائلة. فإستجاب الله وكشف عنهم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد إتصل بهم وظهرت علاماته.

وقد إختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان فى الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدنيوى؟ على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم.

فضل يونس عليه السلام

قال البخارى: حدثنا حفص بن عمر. حدثنا شعبة عن قتادة عن أبى العالية عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « **ما ينبغى لعبد أن يقول إنى خير من يونس بن متى** » **(متفق عليه)** (١).

كما ورد فى بعض الأحاديث « **لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى** » (٢) وهذا من خُلُقْ وتواضع رسول الله ﷺ.

*****

قصة شعيا بن أمصيا عليه السلام

قال محمد بن إسحاق: أنه كان قبل زكرياً ويحى عليهما السلام وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وكان فى زمانه ملك على بنى إسرائيل إسمه حزقيا ببلاد بيت المقدس وكان ذلك الملك حزقيا سامعاً مطيعاً لنبى الله شعيا. فيما يأمره به وينهاه عنه. وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل فمرض الملك وأصابته قرحه فى رجله.

وخرج ملك من بابل إسمه (سخاريب) فى ستمائة ألف راية كل راية منها خلفها جنودها ففزع بنى إسرائيل فزعاً عظيماً وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت وشعروا بأنهم لا محاله هالكين فطلب الملك مقابلة نبى الله شعياً فحضر إليه فسأله الملك حزقيا: ماذا أوحى الله إليك فى أمر (سخاريب) وجنوده؟

فقال نبى الله شعيا: لم يوحى إلى فيهم بشىء بعد. ثم بعد ذلك نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى وإستخلف على ملكه من يشاء، فإنه قد إقترب أجله. فذهب إليه نبى الله شعيا وأخبره بذلك فأقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا الله بإخلاص وبكى وقال وهو يتضرع إلى الله عزّ وجلّ بقلب مخلص وتوكل وصبر: «اللهم رب الأرباب وإله الآلهة يا رُحمن يا رحيم، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم، أذكرنى بعلمى وفعلى وحسن قضائى على بنى إسرائيل وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسى، سرى وإعلانى لك». فإستجاب الله له ورحمه وأوحى الله إلى نبيه شعيا: أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر فى أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه (سخاريب) فلما قال له ذلك ذهب منه المرض وإنقطع عنه الشر والحزن وخرَّ ساجداً وقال فى سجوده: « اللهم أنت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتزل من تشاء عالم الغيب والشهادة أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتجيب دعوة المضطرين» فلما رفع رأسه أوحى الله إلى نبيه شعيا، أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيضعه على قرحته فيشفى. ففعل ذلك فشفى وأرسل الله على جيش

(سخاريب) الموت فأصبحوا وقد هلكوا جميعا سوى (سخاريب) وخمسة من أصحابه منهم بختنصر. فأرسل ملك إسرائيل فجاء بهم فجعلهم فى الأغلال وطاف بهم فى البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوماً ويطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير، ثم أودعهم السجن. وأوحى الله تعالى إلى نبيه شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم. فلما رجعوا جمع (سخاريب) قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة: إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا وهى أمه لا يستطيعها أحد من ربهم فكان أمر (سخاريب) مما خوفهم الله به ثم مات سخاريب بعد سبع سنين. قال إبن إسحاق. ثم لما مات (حزقيا) ملك بنى إسرائيل مرج أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم فأوحى الله تعالى إلى نبيه (شعيا) فقام فيهم فوعظهم وذكرهم بعقاب الله وبأسه إن خالفوه وكذبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمر بشجره فإنفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بطرف ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها.... قتلوا نبى الله (شعيا).

*****

قصة أرميا بن حلقيا عليه السلام

من سبط لاوى بن يعقوب.... أوحى الله إليه: حين ظهرت المعاصى وإنتشرت فى بنى إسرائيل وقست قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة أو لم يقتلوا نبى الله (شعيا) بالمنشار ولم يتعظوا من معجزة الشجرة التى أمرها الله ففتحت جزعها ليختبئ فيه.. أى عقول وأى قلوب هذه.

أوحى الله إلى نبيه أرميا: أن قم بين ظهرانى قومك فأخبرهم أن لهم قلوبا ولا يفقهون وأعيناً ولا يبصرون وآذانا ولا يسمعون وإنى تذكرت صلاح آبائهم فعطفنى ذلك على أبنائهم فسلهم كيف وجدوا غب [1] طاعتى؟ وهل سعد أحد ممن عصانى بمعصيتى؟ وهل شقى أحد ممن أطاعنى بطاعتى؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها، وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذى أكرمت عليه آباءهم، والتمسوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم فأنكروا حقى، وأما قراءهم فعبدوا غيرى، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا على وعلى رسلى. خزنوا الكر فى قلوبهم، وعودوا الكذب ألسنتهم، وإنى أقسم بجلالى وعزتى لأهيجن عليهم جيولا [2] لا يفقهون ألسنتهم، ولا يعرفون وجوههم، ولا يرحمون بكاءهم ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب، ومواكب كأمثال الفجاج [3] كأن خفقان رايته طيران النسور، وكان حمل فرسانة كر العقبان، يعيدون العمران خرابا ويتركون القرى وحشة فياويل إيليا وسكانها. كيف أذللهم للقتل وأسلط عليهم السبا وأعيد بعد لجب [4] الأعراس صراخاً وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب، وبعد شرافات القصور مساكن السباع وبعد ضوء السرج وهج العجاج [5] وبالعز ذلاً وبالنعمة العبودية، وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب، وبالمشى على الزرابى [6] الخبب [7] ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض،

---

(١) غب: عاقبه الشئ ونتيجته.
(٢) جيولا: جيوشا.
(٣) الفج: الطريق الواسع البعيد.
(٤) لجب: الجلبة والصياح.
(٥) العجاج: الغبار والدخان.
(٦) الزرابى: النمارق.
(٧) الخبب: ضرب من يسر الإبل.

وعظامهن ضاحية للشمس، ولأدوسنهم بألوان العذاب، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد، والأرض سبيكة من نحاس، فإن أمطرت لم تنبت الأرض وإن أنبتت شيئاً فى خلال ذلك فبرحمتى للبهائم. ثم أحبسه فى زمان الزرع وأرسله فى زمان الحصاد، فإن زرعوا فى خلال ذلك شيئاً سلطت عليه الآفة [1] فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة، فإن دعونى لم أجبهم وإن سألوا لم أعطهم، وإن يبكون لم أرحمهم، وإن تضرعوا صرفت وجهى عنهم. رواه ابن عساكر.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا إدريس عن وهب بن منبه. قال: إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بنى إسرائيل وذلك حين عظمت الأحداث فيهم، فعملوا بالمعاصى وقتلوا الأنبياء طمع (بختنصر) فيهم، وقذف الله فى قلبه، وحدث نفسه بالمسير إليهم، لما أراد الله أن ينتقم به منهم. فأوحى الله إلى نبيه أرميا أنى مهلك بنى إسرائيل ومنتقم منهم، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمرى ووحيى، فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجدا وقال: يارب وددت أمى لم تلدنى حين جعلتنى آخر أنبياء بنى إسرائيل، فيكون خراب بيت المقدس وبوار بنى إسرائيل من أجلى. فقال له: إرفع رأسك فرفع رأسه فبكى. ثم قال: يارب من تسلط عليهم؟ فقال عبده النيران: لا يخافون عقابى ولا يرجون ثوابى، قم يا أرميا فإستمع وحيى أخبرك خبرك وخبر بنى إسرائيل. من قبل أن أخلقك إخترتك ومن قبل أن أصورك فى رحم أمك قدستك ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك، ومن قبل أن تبلغ نبأتك ومن قبل أن تبلغ الأشد أخرتك ولأمر عظيم إجتبيتك، فقم مع الملك تسدده وترشده.

فكان مع الملك يسدده ويأتيه الوحى من الله، حتى عظمت الأحداث ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم (سخاريب) وجنوده. فأوحى الله إلى أرميا قم فاقص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتى عليهم وعرفهم أحداثهم فقال أرميا: يارب إنى ضعيف إن لم تقونى، عاجز إن لم تبلغنى، مخطئ إن لم تسددنى، مخذول إن لم تنصرنى ذليل إن لم تعزنى فقال الله تعالى: «أولم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتى ، وأن الخلق والأمر كله لى وأن القلوب والألسنة كلها بيدى فاقلبها كيف شئت فتطيعنى، فأنا الله

(١) الآفة: الحشرات والأمراض.

الذى ليس شىء مثلى، قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتى ، وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لى، ولا يعلم ما عندى غيرى، وأنا الذى كلمت البحار ففهمت قولى وأمرتها ففعلت أمرى وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدى وتأتى بأمواج كالجبال فإذا بلغت حدى ألبستها مذلة لطاعتى وخوفاً واعترافاً لأمرى وإنى معك ولن يصل إليك شىء معى وإنى بعثتك إلى خلق عظيم من خلقى لتبلغهم رسالاتى فتستوجب لذلك أجر من إتبعك ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً إنطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم: إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم فلذلك إستبقاكم ، يا معشر أبناء الأنبياء: وكيف وجد آباؤكم مغبة لطاعتى؟ وكيف وجدتم مغبة معصيتى؟ وهل وجدوا أحداً عصانى فسعد بمعصيتى؟ وهل علموا أحداً أطاعنى فشقى بطاعتى؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم ارتعوا فى مروج الهلكة، وتركوا الأمر الذى به أكرمت آبناءهم وإبتغوا الكرمة من غير وجهها. أما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادى خولا يتعبدونهم ، ويعملون فيهم بغير كتابى حتى أجهلوهم أمرى، وأنسوهم ذكرى وسنتى وغروهم عنى، فدان لهم عبادى بالطاعه التى لا ينبغى إلا لى فهم يطيعونهم فى معصيتى.

قال أرميا: يارب إتخذت إبراهيم خليلا وحفظتنا به وموسى قربته نجيا، فلنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا، فأوحى إليه «يا أرميا إنى قدستك فى بطن أمك وأخرتك إلى هذا اليوم، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندى بمنزله جنه ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ولكن سأشكو إليك بنى إسرائيل، إنى كنت لهم بمنزله الداعى الشفيق أجنبهم كل قحط وكل عسرة واتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينبطح بعضهم بعضاً، فيا ويلهم ثم يا ويلهم، إنما أكرم من أكرمنى وأهين من هان عليه أمرى إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتى وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتى تبرعاً فيظهرونها فى المساجد والأسواق وعلى رؤس الجبال وظلال الأشجار ، حتى عجت [١] إلى منهم وعجت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض

---

(١) عجت: صاحت وارتفع صوتها.

وأقاصيها وفى كل ذلك لا ينهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب.

قال: فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وأعظمت على الله الفريه(١) فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه وعبادته وتوحيده. فمن يعبده حين لا يبقى فى الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب؟ لقد أعظمت الفريه على الله واعتراك(٢) الجنون فأخذوه وقيدوه وسجنوه.. سجنوا نبيهم الذى يطلب منهم طاعه الله ويحزرهم عقاب الله.

خراب بيت المقدس

نفز أمر الله بعدما كذّب بنى إسرائيل نبى الله أرميا وسجنوه... أرسل عليهم عبداً من عَبَدَة النار لا تعرف الرحمة طريقها إلى قلبه (بختنصر) لازالت أوصال بنى إسرائيل ترتجف عند سماع إسمه إلى يومنا هذا بما فعله.

أقبل بختنصر بجنوده حتى نزل أرضهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء:٥] فلما طال بهم الحصر نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين، فقتل منهم الثلث وسبى(٣) الثلث وترك الزمنى(٤) والشيوخ والعجائز، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء فى الأسواق حاسرات وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة، وسأل عن دانيال الذى كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد مات، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل فأمضى لهم ذلك الكتاب، وكان دانيال بن حزقيل خلفا من دانيال الأكبر.

ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كله وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم، فلما فرغ انصرف راجعاً وحمل الأموال التى كانت بها وساق السبايا فبلغ معه

(١) الفريه: الكذب العظيم.

(٢) إعترى: أصاب.

(٣) سبى: أى وصاروا عبيداً.

(٤) الزمنى: أصحاب العاهات.

عده صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام وقذف الكناسات فى بيت المقدس وذبح فيه الخنازير، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف ابن يعقوب وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زيالون ونفتالى إبنى يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب، وألفين من سبط زيالون بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوى، وإثنا عشر ألفاً من سائر بنى إسرائيل، وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر: قال وهب بن منبه، فلما فعل بختنصر ما فعل قيل له: كان لهم صاحب يحزرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم، ويخبرك أنك تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم فكذبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه، فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له: أكنت تحذرهم مما أصابهم؟ قال نعم. قال: فإنى علمت ذلك؟ قال أرسلنى الله إليهم فكذبونى، قال كذبوك وضربوك وسجنوك؟ قال : نعم . قال: بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم، فهل لك أن تلحق بى فأكرمك وأواسيك؟ وإن أحببت أن تقيم فى بلادك فقد أمنتك، قال أرميا: إنى لم أزل فى أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط، ولو أن بنى إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك، ولم يكن لك عليهم سلطان، فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا.

قال ابن الكلبى: ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل فى البلاد: فنزلت طائفة منهم الحجاز، وطائفة يثرب وطائفة وادى القرى، وذهبت شرزمة منهم إلى مصر فكتب بختنصر إلى ملكها يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه، فركب فى جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبى ذراريهم[1] ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية، قال : ثم إنصرف يسبى كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن ، وفى السبى دانيال، قلت: والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر على ما ذكره وهب بن منبه والله أعلم.

---

(١) الزرارى: النساء.

دانيال عليه السلام

في عهد ولاية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعند فتح تستر من أرض بابل من أرض العراق وجد بعض من المسلمين في بيت مال الهرمذان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، يقول الراوي عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خلد بن دينار: حدثنا أبو العاليه قال: فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعبا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه قال: سيركم وأموركم ولون كلامكم، وما هو كائن بعد، قلت فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه، قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال رجل يقال له: دانيال: قلت: منذكم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا، إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع، وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية.

وكان قد أخذه ملك الفرس بخت نصر ضمن الأسرى وسجنه.

وقد قيل أن بخت نصر قد إصطاد أسداً ولبؤته ووضعهما في بئر وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يتهيجا بل سكنا بجواره في هدوء بأمر من الله سبحانه وتعالى بألا يؤذيانه. فمكث ما شاء الله ثم إشتهى ما يشتهى الآدميون من الطعام والشراب فأوحى الله إلى نبيه أرميا وهو بالشام أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال، فقال: يارب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق، فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددت، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعده، حتى وقف على رأس الجب ، فقال دانيال: من هذا؟ قال أنا أرميا، فقال ما جاء بك؟ فقال أرسلني إليك ربك، قال: وقد ذكرني ربي؟ قال نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحسانا، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي

يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذى يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال رسول الله ﷺ: «إن دانيال دعا ربه عزَّ وجلَّ أن يدفنه أمة محمد».

فلما إفتتح أبو موسى الأشعرى تستر وجده، وقد كان رسول الله ﷺ قال: **«من دل على دانيال فبشروه بالجنة»** فكان الذى دل عليه رجل يقال له: حرقوص. فكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب يخبره فكتب إليه عمر أن أدفنه وابعث إلى حرقوص، فإن النبى ﷺ بشره بالجنة [1].

ثم قال إبن أبى الدنيا: حدثنا أبو بلال حدثنا قاسم بن عبد الله عن عنبسة بن سعيد ، وكان عالماً .

قال: وجد أبو موسى مع دانيال مصحفاً، وجره فيها ودك[2] ودراهم وخاتمه، فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر، أما المصحف فابعث به إلينا، وأما الودك فابعث إلينا منه ومر من قبلك من المسلمين يستشفون به، وأقسم الدراهم بينهم، وأما الخاتم فقد نفلناكه.

وقيل أن أبا موسى لما وجده وذكروا له أنه دانيال إلتزمه وعانقه وقبله، وكتب إلى عمر يذكر له أمره وأنه وجد عنده مالاً موضوعاً قريباً من عشرة آلاف درهم، وكان من جاء إقترض منها فإن ردها وإلا مرض وإن عنده ربعه فأمر عمر بأن يغسل بماء وسدر[3] ويكفن ويدفن ويخفى قبره فلا يعلم به أحد، وأمر بالمال أن يرد إلى بيت المال، وبالربعه بأن يحمل إليه ونقله[4] خاتمه، وروى عن أبى موسى أنه أمر أربعة من الأسراء فسدوا نهراً وحفروا وسطه قبراً فدفنه فيه، ثم قدم الأربعة الأسراء فضرب أعناقهم، فلم يعلم موضع قبره غير أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، وقال أبى الدنيا: حدثنى إبراهيم بن عبد الله. حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح. حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن

---

١) قلت: إسناده ضعيف جداً.

(٢) ودك: دسم اللحم.

(٣) سدر: سجر النبق.

(٤) نفله: أهدى وأعطى.

أبى الزناد عن أبيه، قال: رأيت فى يد إبن بردة بن أبى موسى الأشعرى خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسانه، قال: أبو بردة: هذا خاتم ذلك الرجل الميت الذى زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذ أبو موسى يوم دفنه، قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم، فقالوا: إن الملك الذى كان دانيال فى سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم، فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يعور[٣] ملكك ويفسده فقال الملك: والله لا يبقى تلك الليله غلام إلا قتلته، إلا أنهم أخذوا دانيال، فألقوه فى أجمه الأسد، فبات الأسد ولبوته يلحسانه، ولم يضراه فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه فى فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه.

*****

(٣) يعور: يعيب.

العزير عليه السلام

قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقره: ٢٥٩].

من جمال وروعة القصص القرآنى الكريم أن الله سبحانه وتعالى يعطينا بعض من الآيات فى سور متفرقه عن القصه الواحده ويترك لنا الخيال الإيمانى يحاول بناء وتكمله القصة.

ولهذا نجد أحيانا إختلاف فى القصه الواحدة بين الباحثين والكتاب. ومن هذه القصة أيضاً من يتصور أن تلك الآيات كانت تخص أرميا عليه السلام ولهذا علىَّ أن أنوه عنها.

قال هشام بن الكلبى: ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغنى أنى عامر بيت المقدس فأخرج إليها فأنزلها، فخرج حتى قدمها وهى خراب فقال فى نفسه سبحان الله! أمرنى الله أن أنزل هذه البلده وأخبرنى أنى عامرها فمتى يعمرها؟ ومتى يحْيِها الله بعد موتها؟ ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسله من طعام فمكث فى نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذى فوقه وهو لهراسب وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب بن لهراسب وكان موت بختنصر فى دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت فى أرض فلسطين فلم يبق بها من الإنس أحد، فنادى فى أرض بابل فى بنى إسرائيل أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينه كيف تبنى؟ وكيف تعمر؟ ومكث فى نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من

ساعة وقد عهد المدينة خراباً لما نظر إليها عامرة آهلة قال: أعلم أن الله على كل شئ قدير. قال فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت الروم فى زمن ملوك الطوائف. ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعنى بعد ظهور النصارى عليهم. ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبه: ٣٠] لماذا قالوا ذلك؟ الإجابة هى أنه يقال أن نسبه يمتد حتى هارون بن عمران نبى الله وشقيق كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام.

وقد قيل فيه أن بختنصر قد سباه ضمن من سبى وهو غلام حدث فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة.

ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوارة منه، وقد قيل فى قصته أن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيره وأصابه الحر، ودخل الخربة وهو على حماره، فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل فى ظل صخرة من تلك الخربة وأخرج قصعة، معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه فى تلك القصعة فى العصر ليبتل ليأكله، ثم استلقى على ظهره وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر فى سقف تلك البيوت، ورأى ما فيها وهى قائمه على عروشها وقد هلك أهلها ورأى عظام الموتى بالية فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقره: ٢٥٩] قالها تعجباً وليس شكاً فى قدرة الله على إحيائها. فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائه عام، فلما أتت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث. فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحى الله الموتى؟ ثم ركب خلقه وهو ينظر، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح. كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً، فقال له الملك: كم لبثت؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم. وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب فقال أو بعض يوم ولم يتم لى يوم، فقال له الملك بل لبثت مائه عام فانظر إلى طعامك وشرابك.. يعنى الطعام الخبز اليابس وشرابه العصير الذى إعتصره فى القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير، والخبز يابس فذلك قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعنى لم

يتغير وكذلك التين والعنب كما هو لم يتغير فيه شئ. فكأنه أنكر فى قلبه، فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك إنظر إلى حمارك. فنظر إلى حماره فوجد عظامه قد بليت وصارت نخره فنادى الملك بأمر من الله عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحيه حتى ركبه الملك وعزير ينظر إليه ثم ألبسها ثم ظهر عليها العروق والأعصاب والعضلات وكساها اللحم، ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه من روح الله فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنه إلى السماء ناهقا يظن القيامة قد قامت فذلك قوله تعالى: **﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾** [البقره: ٢٥٩] بمعنى أن إنظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً فى أوصالها حتى إذا صارت عظاماً ثم انظر كيف نكسوها لحماً؟ فلما تبين له قال: أعلم أن الله على كل شئ قدير من إحياء الموتى وغيرها من قدرات الله تبارك وتعالى.

فركب عزير حماره وتوجه إلى قريته فأنكره الناس ولم يعرفه ولم يعرفهم ولم يعرف منزله ووجد البلدة وقد تغيرت كثيراً. فانطلق يبحث حتى وجد منزله فإذا به عجوز عمياء مقعدة، قد بلغت من العمر مائة وعشرون سنة. كانت أمه فخرج عنهم عزير وهى بنت عشرين سنة، كانت عرفته وعقلته فلما أصابها الكبر أُقْعِدَتْ وعميت. فقال لها عزير: أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم، وبكت وقالت: ما سمعت أحداً يذكر عزير من زمن بعيد وقد نسيه الناس.

قال: فإنى أنا عزير، كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى قالت: سبحان الله فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة، فلم نسمع له بذكر قال: فإنى أنا عزير، قالت: فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوه يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافيه والشفاء، فادع الله أن يرد على بصرى حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتك قال: فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فعاد إليها بصرها وأخذ بيدها وقال: قومى بإذن الله فأطلق الله على رجليها فقامت صحيحه كأنما انشطت من عقال، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير.

وانطلقت إلى محله بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانى عشرة سنه، وبنى بنيه شيوخ فى المجلس فنادتهم فقالت: هذا عزير قد جاءكم فكذبوها. فقالت أنا فلانه مولاتكم وقد دعا ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى

وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال إبنه: كان لأبى شامه سوداء بين كتفيه.

فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير، فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شئ إلا ما حفظت الرجال فاكتبها لنا.

وكان أبوه قد دفن التوراة فى موضع لا يعرفه أحد غير عزير، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة. وكان قد عفن الورق وبلى الكتاب. وجلس فى ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه فتذكر التوراة فجددها لبنى إسرائيل. فمن ثم قالت اليهود عزير ابن الله. للذى كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بنى إسرائيل.

قال ابن عباس: فكان كما قال الله تعالى ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعنى لبنى إسرائيل وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب، لأنه مات وهو ابن أربعين سنة فبعثه الله شاباً يوم مات.

لماذا قال اليهود: عزير ابن الله

روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبد الله بن سلام وهو أحد أحبار اليهود الذين شرح الله قلبه بالإسلام. عن قول الله تعالى﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبه: ٣٠] لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ماكان من كتبه لبنى إسرائيل التوراة من حفظه وقول بنى إسرائيل لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا فى كتاب وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب، فرماه طوائف منهم وقالوا عزير ابن الله ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع فى زمن العزير وهذا وارد جداً.

*****

زكريا عليه السلام

ذكر زكريا فى القرآن الكريم ثمانى مرات: ولكن لم يذكر نسبه فى القرآن ولافى كتب الأنبياء عند أهل الكتاب. وزكريا عليه السلام هو المعروف لنا بما جاء عنه فى القرآن الكريم:

ولكن هناك زكريا آخر. لم يرد ذكره فى القرآن الكريم ولكن له كتاب من الكتب القانونية عند النصارى وهو (زكريا بن برخيا) وكان فى زمن دار يوس أى قبل زمن المسيح بنحو ثلاثة قرون وهو الذى تكلم فى كتابه فى الفصل التاسع عن ولاية «عمر بن الخطاب» ودخوله «أورشليم» منتصراً ولكن وادعاً متواضعاً راكباً على حمار.

وزكريا عليه السلام هو موضوعنا هنا فلقد كان من خدام الهيكل وقد ارتبطت قصته بقصة مريم العزراء البتول أم المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام وهو زوج خالتها وإبنه هو يحيى الشهيد عليه السلام ورفيق صبا المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام فهما ابنا خاله.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقد إستجاب الله لدعائها حين أخلصت الدعاء لله بأن يمنحها ولداً تقر بها عينها بعد أن تأخر حملها فاستجاب الله لدعائها ونذرت ما فى بطنها لله بأن يكون من خدام الهيكل ونساكه العابدين وبارك الله لها فى حملها ووضعته وكان أنثى قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] دعوه أم صالحة لله بأن يحفظ ابنتها مريم وذريتها من الشيطان الرجيم وإستجاب الله لدعاء امرأة عمران وأم مريم حيث قال تعالى ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: من ٣٧] آية من الله بل جزء من الآية ٣٧ من سورة آل عمران واختصرت لنا طفولة مريم وأوصلتها إلى سن الشباب بأن نشأت فى رعاية الله.

وتكتمل الآية بكلمتين ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وجاءت كفالة زكريا عليه السلام للعزراء مريم كعادة ذلك الزمان بالإقتراع فيما بين خدام ونساك الهيكل.

قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران من ٤٤] يكتب كل واحد اسمه أو يعلمه بعلامه تخصه ويلقون الأقلام ويأتون بطفل يطلبون منه أن يلتقط أحدها أو يلقونها فى نهر فإذا اختلف أحدهم فى الاتجاه مع أوضدد التيار عن باقى الأقلام يكون هو الفائز.

وفاز زكريا بكفالة مريم ولاهتمام بشأنها وطفولتها ولكنه لاحظ أشياء غريبة كلما أطل عليها وهى تصلى وتبتهل إلى الله فى المحراب أن كان يجد عندها أطعمة فى غير أوانها فاكهة الصيف تجدها فى الشتاء والعكس وما تشتهيه تجده ورزقها وافر. وكان يسألها زكريا من أين لك هذا؟ وكانت ترد عليه بأنه من عند الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧] كان زكريا شيخاً كبيراً وزوجته أيضا ولم يكن لهما ولد. وكان زكريا يتمنى أن يهبه الله ولداً يكون نبياً من بعده يرث علمه ويعظ بنى إسرائيل ليتمسكوا بدينهم وتعاليمه ويبتعدوا عن اللهو والمفاسد. وفى المحراب وفى ما يراه من خير يرسله الله إلى مريم أيقن أنه فى حضرة الملائكة وأن الله يرعاها لم يضيع زكريا الفرصة ودعا ربه بأن يرزقه ولياً يرثه ويرث آل يعقوب وأن يجعله رضيا وقد أيقن أن من يرزق مريم بالفاكهه فى غير أوانها قادر على أن يهبه الولد فى غير أوانه أى بعد ما تخطى وزورجته سن الإنجاب دعى ربه بغير أن يرفع صوته.. قال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا . قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا . وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٢ ـ ٦] دعاء من زكريا إلى الله فى صمت وخشوع وفى مكان طاهر وفى حضرة معجزة إطعام مريم برزق يأتيه الملائكة لها.. لم يكد زكريا يهمس فى قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ

سميًّا﴾ [مريم: ٧] رغم أنها بشرى طاهره صادقه من الله وبصوت الملائكة ﴿نَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٨]

رغم هذه البشرى السماوية الكريمة. ومن شدة فرحه ووقع المفاجأه عليه تساءل من موضع الدهشه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٤] رغم أنه هو الذى طلب من الله فى دعائه الخفى أن يرزقه الولد وهو فى هذه السن التى يهن فيها العظم ويضعف البدن وإمرأته العجوز العاقر ومع ذلك يتساءل. ليس من ضعف إيمانى ولكن وقع المفاجأة والفرحة التى تقابلها.. وهذا يحدث لنا فى حياتنا عند ما يفاجأ أحدنا بخبر سعيد غير مألوف له يتساءل كيف؟ غير معقول!

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥] ردت الملائكة عليه بالرد الإلاهى أن ذلك بسيط على الله وأنت يازكريا من الذى أوجدك لقد خلقك الله ولم تكن قبل مشيئة الله فى خلقك شيئا.

امتلأ قلب زكريا إيماناً وسعاده ولكنه طلب من الله أن يجعل له علامه على ذلك.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا. فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١٠، ١١]

أبلغته الملائكة بوحى من الله أنه ستجئ عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق وسيكون صحيح وغير معتل إذا حدث له هذا أيقن أن إمرأته حامل وأن معجزة الله قد تحققت وعليه أن يتحدث إلى الناس عن طريق الإشارة وأن يسبح الله كثيراً فى الصباح والمساء.

وقد حدث له ذلك وخرج على الناس يوماً وأراد أن يكلمهم فشعر بلسانه لا ينطق وأيقن أن معجزة الله وبشراه قد تحققت وأومأ إلى الناس أن يسبحوا الله فى الفجر والعشاء.

بشره الله بابن ذكر اسمه يحى. أسماه الله... الأب والأم لم يختارا اسم وليدهما ولكن الاختيار من الله سبحانه وتعالى (يحيى)

وفى هذا قال الإمام محمد متولى الشعراوى رحمة الله عليه.. عندما يسمى الله أحداً ب (يحيى) معناها أنه سيكون شهيداً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

*****

يحيى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]

الله تبارك وتعالى يجيب دعاء زكريا ويبشره بغلام وزيادة فى الفضل يحيى ويصلح له زوجته أى أنها رغم عقمها وعمرها الكبير وعدم جاهزيتها للحمل وتوقف الحيض عنها عاد الحيض إليها. لمَ تكن هذه المرة الأولى التى يكرم فيها الله أنبيائه رغم تخطيهم عمر الإنجاب من زوجاتهم.

بل سبق أن بشرت الملائكة خليل الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو وزورجته سارة.. قال إبراهيم ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]

وقالت سارة ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢] ردت الملائكة عليها قائلين ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]

كما ذكرت من قبل عظمة الأسلوب القصصى فى القرآن الكريم بأنه يتخطى بنا حواجز الأزمنة ويعطينا عناصر القصة الرئيسية فى آيات مختصرة تدعوا الباحثين والمجتهدين إلى تصوير باقى القصة قال تعالى ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا . وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥] كان يحيى بن زكريا عليهما السلام نموذجا لا مثيل له فى النسك والزهد والحب الإلهى.. لقد كان هو النبى الناسك. وكانت معجزة ميلاده ببشرى الملائكة لأبيه زكريا بعد أن تخطى عمره السابعه والسبعون عاماً وأمه أيضاً نحو ذلك.

ولقد كان يحيى معاصراً لرسول الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام وكانا يلتقيان كثيرا وكان كل منهما يفضل الآخر على نفسه فقد كانا إبنا خاله.

وفى أحد لقاءتهما قال عيسى ليحيى: استغفر لى يايحيى أنت خير منى.

قال يحيى: استغفر لى ياعيسى أنت خير منى.

قال عيسى: بل أنت خير منى سلمت على نفسى وسلم الله عليك يشير الحوار إلى فضل يحيى حين سلم الله عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا وقد قال تعالى فى محكم آياته عن يحيى ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قيل المراد ب ﴿حَصُورًا﴾ الذى لايأتى النساء.

قال رسول الله ﷺ: « **إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن. فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهم فقال: ياأخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى. قال: فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى إمتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن. وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فإن مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صره من مسك فى عصابه كلما يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وآمركم بالصدقه فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً فى أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل**» [١] قال: وقال

(١) صحيح أخرجه الترمذى (ح/٢٨٦٣) والحاكم (١/١١٧، ١١٨، ٢٣٦، ٤٢١) وأحمد (٤/١٣٠، ٢٠٢) وابن حبان (١٢٢٢، ١٥٥٠)..

رسول الله ﷺ «**وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن، بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله، فإن من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم**».

قال يارسول الله وإن صام وصلى قال: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم أدعو المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل**» (١)

وقال محمد بن يحيى الذهلى عن رواة قالوا أن أبى إدريس الخولانى قال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس فى معايشهم. وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا إبنه يحيى ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه فى البريه فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكى على نفسه فقال: يابنى أطلبك من ثلاثة أيام وأنت فى قبر قد إحتفرته قائم تبكى فيه فقال: ياأبت ألست أنت أخبرتنى أن بين الجنه والنار مفازه (٢) لا تقطع إلا بدموع البكائين فقال له: إبك يابنى فبكيا جميعا.

وروى ابن عساكر عن يحيى أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذه ماهم فيه من النعيم فكذا ينبغى للصديقين أن لا يناموا لما فى قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل. ثم قال: كم بين النعيمين؟ وكم بينهما؟ وذكروا أنه كان كثير البكاء ترى أثر البكاء فى خديه من كثرة دموعه.

لم تكن طفولته أوصباه كأقرانه فى السن بل كان جاداً معطاءاً حناناً يطعم الحيوانات والطيور من طعامه وفى صباه جاءه التكليف من الله وحياً ﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ [مريم: ١٢] بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام.. كتاب الشريعة.. رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهوو صبى.. كان أعلم الناس وأشدهم حكمة فى زمانه درس الشريعة دراسة كاملة ولهذا آتاه الله الحكم وهو صبى كان يحكم بين الناس ويبين لهم أسرار الدين، ويعرفهم طريق الصواب ويحزرهم من

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذى فى (الأدب، باب «٧٨» وأحمد (٤/ ١٣٠).

(٢) مفازه: الأرض الصعبه المكفره.

الخطأ. كبر يحيى وزاد علمه وورعه وتقواه وأحبه الناس وكانوا ينصاعون لفتاواه وحكمه الشرعى فى أمور حياتهم ويصلح بينهم ويحكم بالعدل فيما كان بينهم. فلقد كان بارعاً فى الشريعة الموسوية ومرجعاً مهماً لكل من يستفتى فى أحكامها.

كان يحيى على أكمل أوصاف التقوى والصلاح منذ صباه، وقد قال تعالى فيه: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ وقد أوحى إليه بالنبوة قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر. وكان زاهداً فى ملذات الدنيا فكان يتجه إلى البرية يعبد الله ويأكل العشب وأوراق الشجر والعسل البرى والجراد إن وجده وكان لا يخاف الوحوش وينام فى أى مكان غار أو خلف صخرة أو حتى فى حفره وإشتغاله بالعبادة وتعلق قلبه بالتسبيح لله كان يشغله عن ما حوله من وحوش البرية فكان لا يخافها وكانت تعرفه ولاتؤذيه ويمكنه أن ينام فى عرينها.

قال إسرائيل عن أبى حصين عن خيثمه قال كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنى خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما ديناراً ولا درهم ولاعبد ولا أمه ولا مأوى يأويان إليه أينما جنهما الليل أويا فلما أراد أن يتفرقا قال له يحيى أوصنى قال لا تغضب قال: لا أستطيع إلا أن أغضب. قال: لاتقتنى مالاً قال: أما هذه فعسى.

لماذا سمى بيوحنا المعمدان؟

كان يحيى بعد أن أبلغ بالنبوة يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب وكان يعمدهم أى يغسلهم فى نهر الأردن للتوبة من الخطايا، وقد اعتمد منه المسيح وهم لذلك يسمونه «يوحنا المعمدان» وقد سئل من اليهود هل هو المسيح؟ فأجاب: أن لا. فسئل هل هو نبى؟ فأجاب أن لا فقالوا له: لماذا تعمد إذا لم تكن المسيح ولاالنبى؟ فقال: أنا صوت صارخ فى البرية هيئوا طريق الرب وافعلوا سبله مستقيمه

قال رسول الله ﷺ «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابنى الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام**»[1].

---

(١) صحيح أخرجه الترمذى (ح/ ٣٧٦٨) وابن ماجة (ح/ ١١٨) وأحمد (٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢) وصححه الشيخ الألبانى انظر: (الصحيحة، ح/ ٧٩٦).

قال رسول الله ﷺ «ما أحد لايلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا» ثم تلا : ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ ثم رفع شيئا من الأرض فقال: « ما كان معه إلا مثل هذا ثم ذبح ذبحاً» (١)

قتل يحيى عليه السلام

اختلفت الروايات فى أسباب قتل نبى الله يحيى بن زكريا ولكن فى النهاية النتيجة واحدة قتله بقطع رأسه الطاهر. ولكن لإشباع غريزة المعرفة لدى القارئ سأروى له هذه الروايات المختلفه وله أن يميل إلى إحداها:

الرواية الأولى: أن أحد حكام فلسطين يقال له «هيردوس» كانت له بنت أخ يقال لها «هيروديا» بارعه الجمال. أراد عمها أن يتزوج منها. وكانت البنت وأمها تريدان. ذلك، غير أن يحيى لم يرض عن هذا الزواج لأنه محرم. وعرف عنه أنه معارض فى ذلك. فانتهزت أم الفتاة إخراج فتاتها إلى عمها فى زينتها ورقصت أمامه فسر منها وطلب إليها أن تقول ما تتمناه ليعمله لها. وكانت أمها لقنتها أنها إذا قال لها عمها ذلك ــ تطلب منه رأس يحيى بن زكريا فى هذا الطبق. ففعلت ووفى لها عمها الحاكم بذلك وقتل يحيى عليه السلام.

واليهود يختلفون فى مسألة التزوج ببنت الأخ وبنت الأخت فيجيزها «الربانيون» ويمنعها القراءون وحجة الأولين أن بنت الأخت وبنت الأخ لم تذكر حرمتها فى التوراة.

الرواية الثانيه: كان أحد ملوك ذلك الزمان طاغية ضيق العقل غبى القلب وكان الفساد منتشراً فى بلاطه.. وكان يسمع أنباء متفرقه عن «يحيى» فيدهش لأن الناس يحبون أحداً بهذا القدر، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه أحد.

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة أخيه، وكانت لها ابنة جمعت مع فتنة الأنوثة شهرة زائعه فى الرقص، وتقول الحكايات أنها كانت ترقص وهى ترتدى سبعة أردية.. تخلع رداء مع كل رقصة حتى ترقص رقصتها الأخيره عارية.

وسأل الملك «يحيى» هل يجوز له أن يتزوج زوجة أخيه فقال «يحيى» عليه السلام «لايجوز» وراح الملك يحدث يحيى برغبته فى الزواج منها وعلى «يحيى» أن يجد له

(١) انظر: كنز العمال (ح/٣٢٤٣١)..

فتوى ترضيه ورفض «يحيى» أن يوافق الملك على رغبته. قال له حكم الشريعه وتركه وإنصرف.

واغتصب الملك زوجة أخيه. وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت «يحيى» وهو يحدث الملك وأحست بنبل وجهه وجمال روحه وجلال شخصيته. وأحبته الراقصة، وذهبت إليه فى سجنه وشاهدته يجلس منخرطاً فى الصلاة والبكاء.. راقبته وهو يصلى حتى فرغ من صلاته.. وألقت بنفسها تحت قدميه وسألته أن يحبها كما تحبه.

قال يحيى: ليس فى قلبى مكان لحب غير حب الله. نهضت المرأة يائسة، وانصرفت عنه وقد امتلأ قلبها بكراهيته.

وفى أقرب مناسبة رقصت أمام الملك المخمور وبدأت فى إغراءه بخلع ثيابها إلى أن وصلت إلى سابع ثوب وسألت الملك.. قال إسألينى أجيبك.. قالت وهى تحاول خلع الثوب الأخير أريد رأس يحيى بن زكريا. فقال لها الملك: أطلبى شيئا آخر.. قالت: ليس لى طلب غيره فأمر حراسه بقتل يحيى وإحضار رأسه على صينيه.. ورقصت رقصتها الأخيره العاريه وأثناءها خسفت الأرض بها وبالملك.

الرواية الثالثة: من إنجيل متى الفصل الرابع عشر.

كان هيرودس قد قبض على يوحنا وأوثقه ثم ألقى به فى السجن بسبب هيروديا زوجة أخيه فيلبس، لأن يوحنا كان يقول له لا يحل لك أن تأخذها زوجة لك. وقد كان يريد قتله، لكنه خاف من الشعب لأنهم كانوا يعدونه نبياً. لما كان الإحتفال بميلاد هيرودس رقصت ابنه هيروديا فى الوسط أمام المدعوين فأعجبت هيرودس. ومن ثم أقسم واعدا إياها بأنها مهما طلبت يعطيها. وإذا كانت أمها سبق أن لقنتها قالت: أعطنى هنا رأس يوحنا المعمدان فى طبق، فاكتأب الملك، ولكنه من أجل القسم والجالسين معه على المائده أمر بإعطائها إياه. وأرسل فقطع رأس يوحنا فى السجن. وجيئ برأسه فى طبق وقدم للفتاة فجاءت به إلى أمها.

الرواية الرابعة: كان ملك دمشق فى ذلك الزمان اسمه هداد بن هداد وكان قد زوج ابنه بإبنة أخيه أريل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو

الصاغه العتيقة، قال وكان قد حلف بطلاقها ثلاثاً. ثم إنه أراد مراجعتها فاستفتى يحيى بن زكريا، فقال لا تحل لك حتى تنكح زوجاً غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا وذلك بإشارة أمها فأبى عليها ثم أجابها إلى ذلك وبعث إليه وهو قائم يصلى بمسجد حبرون من أتاه برأسه فى صينيه، فجعل الرأس يقول له لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته على رأسها وأتت به أمها وهو يقول كذلك فلما تمثلت بين يدى أمها خسف بها إلى قدميها ثم إلى خصرها وجعلت أمها تولول والجوارى يصرخن ويلطمن وجوههن ثم خسف بها إلى منكبيها فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها ففعل فلفظت الأرض جثتها ،عند ذلك ووقعوا فى الذل والفناء ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألف. قال سعيد بن عبد العزيز: وهى دم كل نبى، ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال: أيها الدم أفنيت بنى إسرائيل فاسكن بإذن الله فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس، فتبعهم بختنصر إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يحصون كثره وسبا منهم ثم رجع عنهم.

الإختلاف فى مقتل يحيى بن زكريا:

هل كان فى المسجد الأقصى أم بغيره؟ الإختلاف على قولين: قال الثورى عن الأعمش عن شمر بن عطية قال: قتل على الصخرة التى ببيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا عليه السلام، وقال أبو عبيده القاسم بن سلام: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلى فسأل عنه فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألف فسكن وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب.

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق، أخرج من تحت ركن من أركان القبله الذى يلى المحراب مما يلى الشرق فكانت البشره والشعر على حاله لم يتغير وفى روايه كأنما قتل الساعه

• • •

هذه الروايات

هذه الروايات إن اختلفت فى بعض أحداثها وتفاصيلها فكلها قد اتفقت على أن يحيى بن زكريا عليهما السلام قد قتل بقطع رأسه الطاهر الشريف وبعدها قتلوا أبيه زكريا والله أعلم. . هل قتلوا أبيه أم مات بعده.

ولكن الواضح أن بنى إسرائيل لم يذكر التاريخ غيرهم تجرأ على قتل نبى غيرهم وكانوا يذبحونهم ذبحاً. . بل أن بعض أعيادهم يحتفلون فيها بصناعة الكعك والفطائر بخلطها بدم آدمى من غير الديانه اليهوديه (من المسيحين أو المسلمين)

قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقره: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ(١٧١)﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

*****

عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٣ ٣٥]

قلنا عزيزى القارئ: أن قصة زكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام مرتبطة بعضها ببعض وذلك لمعايشتهم معاً فى الزمن الواحد ولصلة القرابة التى تجمعهم والأهم من ذلك أنهم من سلالة طيبة مباركة ومن المؤمنين المخلصين لله فى العبادة. ولأن أحداث الثلاث مكملة بعضها ببعض. ولذلك تجد عزيزى القارئ وعزيزتى القارئه فى رسومات المسيحيين بعضها يصور صورة لطفلين من عمر واحد تقريبا وخلفهما يجلس إمرأتان وخلف الإمرأتان يقف شيخ كبير.

وهذه الصورة المرسومة ترمز للطفلين يحيى وعيسى عليهما السلام والمرأتان هما أشياع أم يحيى ومريم أم عيسى والشيخ خلفهما هو زكريا عليهم جميعا رضوان الله وسلامه.

ولنتكلم عن عيسى بن مريم رسول الله إلى بنى إسرائيل لابد لنا أن نتكلم عن والد مريم وأمها. فى الآيات الثلاث المذكوره من سورة آل عمران أن الله اصطفى آل عمران ذلك البيت الطيب والمراد بعمران هذا، والد مريم عليهما السلام والذى يصل نسبه إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فهو: عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن إحريق بن موثم بن عزازيا بن أميصا بن ياوش ابن أحريهو بن يازم بن بهفا شاط بن إيشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود. هذا عن جده لأمه وأمه مريم العزراء البتول أيضاً بالطبع ينتمى نسبها إلى هذه السلاله الطاهرة الطيبة المباركة من الله عز وجل. وكان عمران أبو مريم رجلاً عظيماً بين العلماء فى بنى إسرائيل.

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يطعم فرخاً له فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرراً أى حبيساً فى

خدمة بيت المقدس. قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها زوجها فحملت بمريم عليها السلام وكانوا فى ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم (هذا يجعل القارئ يسأل.. كيف يكون يحيى وعيسى عليهما السلام ابنا خاله وأم مريم كانت عقيم؟) والرد على ذلك أن أم مريم هى أخت لأم يحيى.. لأن مريم كانت تصلى فى المحراب وهى فى كفالة زكريا الذى تجاوز الخامسه والسبعين من العمر وامرأته أشياع قد تجاوزت السبعين هى أيضا ولا يعقل أن تكون أخت لتلك العزراء مريم بل خالتها وبالتالى أيضا يكون يحيى ابن خاله مريم وبالتالى أيضا يكون عيسى ابن خاله يحيى كعاده أهل المنطقه والعرب جميعاً. والله أعلم.

نعود لأم مريم وقد حملت بعد أن استجاب الله لدعائها وانتهت أشهر الحمل ووضعت ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]

دعاء أم مريم إلى الله أن يحفظها هى وذريتها من الشيطان الرجيم.

إستجاب الله لدعاء أم مريم فحفظها ورزقها وجعل كفالتها لنبى من أنبيائه زكريا عليه السلام زوج خالتها.

*****

مريم العزراء عليها السلام

لم تذكر الكتب عن نشأة مريم غير أن مولدها هى أيضا كان آية ودعوة مستجابة من الله لأمها وإستجابه من الله لدعائها بحفظها وإنباتها نباتاً حسناً.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: من الآية ٣٧] وهبتها أمها لبيت المقدس وإقترع الناس على من يكفل هذه الوليدة الجميلة مريم ابنة عمران الرجل المشهود له بالتقوى ومن سلاله الشجرة الطيبة من الأنبياء والرسل. وشاء الله أن يفوز بهذه القرعه نبى الله زكريا. ويبدوا أن عمران كان قد مات قبل ولادة مريم والله أعلم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. أشرف نبى الله زكريا على رعايه مريم فى بيت المقدس ولاحظ ذلك الشيخ الكبير أن هذه الطفلة المخلصة منذ طفولتها فى العباده وخدمه بيت المقدس إلى أن أصبحت فى سن الصبى وقد خطبت إلى شاب صالح من بيت صالح إسمه يوسف وقد كان يأكل من كسب يده بعمله نجاراً. ولذلك كان دائماً ما يكنى بيوسف النجار. وستكون لنا معه قصه نرويها لاحقا.

لاحظ زكريا وهو يطمئن على مريم أنه دائما ما يجد عندها رزقاً من طعام فى غير أوانه فاكهة الصيف تكون أمامها فى الشتاء مع ماتحب من طعام وفاكهه الشتاء أيضاً تكون عندها فى الصيف مع ما تحب من طعام فتعجب زكريا لذلك وسألها يا مريم من أين لك هذا وتجيبه العزراء البتول الطاهره بأنه من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ال عمران: ٣٧]

بحكمة الأنبياء وفراستهم وجد زكريا أنه أمام رزق الله فى غير أوانه.. فلماذا لا يطلب من الله أن يرزقه الولد أيضا فى غير أوانه وهو فى هذه السن وزوجته عقيم عجوز

فاتها عمر الإنجاب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران:٣٨] وقد أشرنا إلى إستجابه الله سبحانه وتعالى إلى نبيه زكريا وبشاره الملائكة له بغلام إسمه يحيى فى قصه زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام.

بشارة الملائكة لمريم

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].
بشراك يامريم قالتها الملائكة للعزراء إن الله إختصك دون النساء جميعا وإختارك لحدث مبارك وطهرك من كل دنس يامريم إخلصى فى عبادتك لله وصلاتك وإسجدى وإركعى مع المصلين إن الله يُهَيِّئكْ لحدث متفرد عظيم.

لقد دعى الله العزراء مريم وكانت الملائكة من حولها فى بيت المقدس تحضر لها ما أمر الله لها من طعام وبشرتها بإختيار الله لها من دون نساء الأرض جميعا لحدث عظيم فلم يبقى إلا البلاغ.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢١].

فتاه من أصل طيب تنتمى إلى الشجرة الطيبة الطاهرة من الأنبياء سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام وأبوها هارون من سدنة المعبد المتطهرين وأمها عابدة طاهره مستجابة دعوتها إلى الله بالإنجاب وهى عاقر تخلو إلى نفسها فى شىء يخصها بعيداً

عن أهلها تفجأ بمن يقف أمامها فتصيبها رعدة الخوف على شرفها وهى العابدة الزاهدة المشهود لها بالطهر والعفاف أمامها رجل وهى فى خلوة فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى فى نفس الرجل، والخوف من الله والتحرج من رقابته فى هذا المكان الخالى: ﴿ **قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾

فالتقى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن دفعه الشهوة ونزع الشيطان.

قال الروح الأمين جبريل ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ لا يزال الفزع يسيطر على العزراء... الرجل أمامها يقول أنه رسول من الله ليهب لها غلاماً زكياً أى فى تصورها أن الإعتداء الجنسى عليها فى نيته وهى حتى اللحظة غير مصدقة لما تراه أمام عينيها من أنه رسول من الله. وهى فى فزعها ترد عليه قائلة فى صراحة المدافعة عن عفتها وعزريتها.. كيف؟ وهى عذراء لم يمسسها بشر، وما هى منحرفة فتقبل ما يعرضه عليها من فعله الإنجاب. التى لا تتم إلا بالمعاشرة بين الذكر والأنثى.

يرد عليها الملك الأمين يهدئ من روعها ﴿**قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا**﴾ يبلغها الروح الأمين بأن ذلك ما أمر الله به وقول الله أن ذلك أمر يسير وهين على الله ليكون آيه معجزة لبنى إسرائيل ورحمة لهم ولبنى البشر جميعا بإبراز هذا الحادث المعجز الذى يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وإبتغاء رضاه وتختتم الآية بعبارة قاطعة ﴿**وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا**﴾ يعنى أن الله سبحانه وتعالى أقر ذلك ولا مفر من قضاء الله.

وهذا الأمر هين على قدره الله فى خلقه فقد خلق آدم من طين بدون أب وبدون أم وخلق حواء من آدم بدون أم (حالات الإستنساخ التى تجرى على الحيوانات هذه الأيام تتم بأخذ خليه حيه وتنميتها برعاية خاصة وتغذيه خاصه وزرعها فى رحم هذا الحيوان وفى النهاية الميلاد من نفس نوع الخلية أى إن كانت الخلية من ذكر كان المولود ذكراً وإن كانت الخلية من أنثى كان المولود أنثى) ولكن فى حاله حواء القدرة الإلهية تتجاوز مدارك البشر وعلمهم ﴿**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**﴾ صدق الله العظيم.

فإن كانت قدرة الله على الخلق قد جعلت آدم من دون أب أو أم وجعلت حواء من دون أم فليكن عيسى من دون أب.

نفخ جبريل فى جيب درعها [١] فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها قال تعالى: ﴿**ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾.

حملت مريم بعد النفخة الربانية التى حملها جبريل من روح الله ﴿**فحملته فانتبذت به مكانا قصياً**﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما ظهرت عليها علامات الحمل ضاقت بما فى بطنها زرعاً وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام فى حقها وفى شرفها وهى التى تربت على الطهر والعفاف وطاعة الله كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بنى إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً وذلك لما يعلم من ديانتها وعبادتها ونزاهتها وطهرها وعفتها فقد تقدم لها من بين كافه الفتيات لخطبتها.

فخاطبها ذات يوم مخاطبة التقاء الصالحين فى عفة ونزاهه فقال: يامريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال فهل يكون شجر من غير ماء؟ قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبرنى خبرك فقالت: إن الله بشرنى ﴿ **بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا والله أعلم.

تكلمنا من قبل عن صله القرابة بين مريم و(أشياع) أم يحيى أنهما قد يكونا أختان رغم فارق السن الكبير بينهما أو إبنتا خاله. وهنا رواية عن السدى يحكيها عن الصحابة أن مريم دخلت يوماً على أختها (أشياع) فقالت لها أختها أشعرت أنى حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضاً أنى حبلى؟ فضمتها وقالت لها أم يحيى إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك وذلك قوله ﴿**مصدقاً بكلمه من الله**﴾ ومعنى السجود ههنا الخضوع والتعظيم كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان فى شرع من قبلنا وكما أمر الله الملائكة للسجود لآدم.

---

(١) جيب درعها: كم قميصها.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وفى نهاية قصة يوسف ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] والسجود هنا عند المواجهه للتحيه والسلام.

قال مالك: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا إبنا خاله وكان حملهما جميعاً معاً فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله تعالى جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن حاتم وروى عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثنى وكلمنى وإذا كنت بين الناس سبح فى بطنى.

مدة الحمل

البعض قال فى مدة حمل العزراء مريم أنها كانت ثمانية أشهر ولم يولد من كان حمله ثمانية أشهر وعاش سوى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ومن قال أنها ما أن حملت به إلا وضعته والبعض قال أنها حملت به تسع ساعات. والمرجح أن حملها كان طبيعياً تسع أشهر.

إتهام مريم

قال محمد بن إسحاق: شاع وإشتهر فى بنى إسرائيل أن مريم حامل واتهمها بعض الزنادقة بيوسف النجار الذى كان يتعبد معها فى المسجد وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم، وإنتبذت مكاناً قصياً.

أما يوسف النجار فهو شاب صالح من شبان بنى إسرائيل وهو من قوم مريم. ويقول لوقا فى الإصحاح الأول من الفقره ٢٧ من إنجيله « إنه من بيت داود» وكانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن تحمل بالمسيح ولما وجدت حاملاً أسر فى نفسه أن يتركها ولا يشهر بها، لأنه كان باراً. فأُمِرَ فى منامه بإمساكها لأنها بريئة من الدنس « إنجيل متى من ص إلى ٢٠».

ويقول إنجيل «برنابا» أن مريم إتخذت يوسف النجار عشيراً لها من حين أحست

بالحمل وهذه العادة (عاده اتخاذ العشير) موجوده فى اليهود إلى اليوم. يأتى الشاب إلى أهل الفتاة ويخطبها. وحينئذ يتعاشران بدون اتصال زوجى ويقيمان على ذلك مدة كافية، حتى إذا رضيت أخلاقه وطباعه ورضيها أتما الزواج ودخل بها وعاشرها معاشرة الأزواج وإذا لم يرض أحدهما أخلاق الآخر فسخت الخطبة وذهب كل منهما لسبيله. كل ذلك ولا يكون بينهما اتصال معاشرة أصلاً إلى أن يتم الزواج، وذلك يكون فى بيت أسره الفتاه.

وقد اختلف المسيحيون فى نسب المسيح ـ الذى هو نسب يوسف النجار الذى هو من نفس البيت ومن نسل الشجرة المباركة. إذ تناقض كل من متى ولوقا فى ذلك النسب وهما المتفردان بذكره من بين سائر من كتبوا الإنجيل وهم كُثُرْ. ولكن نَسَبَهُ الشريف يصل إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ولا داعى للخوض فى تفاصيل الاختلاف بينهما فقد سلك كل منهما فرعاً غير الآخر ولكنهما وصلا للأصل الطاهر والاختلاف بين كتاب الإنجيل واضح فى مسائل عديدة سنوردها لاحقاً إن شاء الله.

الميلاد المبارك

قال تعالى: ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ [مريم: ٢٣]

كان ميلاد المسيح ببيت لحم وسبب وجود العزراء مريم بهذه البلده أن الحاكم فى ذلك الزمان أمر بِعّدْ الناس وإثباتهم فى الدفاتر، فجاءت مريم ومعها خطيبها (يوسف النجار) من أبناء عمومتها إلى بيت لحم قادمين من الناصره لبثبت نفسه ومريم فى التعداد فكانت الولادة هناك.

قال تعالى: ﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٣] تركها يوسف لبعض الوقت وكان الميلاد المبارك... شعرت العزراء بآلام الوضع فاستندت إلى جزع نخله يابسه وفى ألم الخوف مما سيقوله عنها الناس واتهامهم لها وطعنهم فى شرفها قالت ياليتنى مت قبل هذا الوقت وكنت نسياً منسياً أى لم أخلق من الأصل.

تقول هذا لأنها تعلم أن الناس يتهمونها لما ظهرت عليها علامات الحمل فماذا

سيفعلون بها عندما يجدون طفلها الوليد. . . ولهذا كان اتخاذها يوسف النجار (عشيراً) لها ليخف عنها إتهام الناس.

*** ويقول برنابا فى إنجليله. فى الفصل الثانى:**

أما مريم فإذا كانت عالمه مشيئة الله وموجسه خفيه أن يغضب الشعب عليها لأنها حبلى فيرجمها كأنها إرتكبت الزنا. اتخذت لها عشيراً من عشيرتها قويم السيرة يدعى (يوسف) لأنه كان باراً متقياً الله يتقرب إليه بالصيام والصلاة ويرتزق بعمل يديه لأنه كان نجاراً. هذا هو الرجل الذى كانت تعرفه العزراء واتخذته عشيراً. وكاشفته بالإلهام الإلهى، ولما كان يوسف باراً عزم إذا رأى مريم حبلى على إبعادها لأنه كان يتقى الله. وبينما هو نائم إذا بملاك الله يوبخه قائلاً: لماذا عزمت على إبعاد امرأتك. فاعلم أن ما كون فيها إنما كون بمشيئة الله فسلتد العذراء إبناً وستدعونه «يسوع» تمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس.

لأنه قدوس الله من رحم أمه. فإنه نبى من الله أرسل إلى شعب إسرائيل ليحول يهوذا إلى قلبه ويسلك إسرائيل فى شريعه الرب كما هو مكتوب فى قاموس موسى وسيجىء بقوة عظيمة يمنحها له الله وسيأتى بآيات عظيمة تقضى إلى خلاص كثيرين. فلما استيقظ يوسف من النوم شكر الله وأقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص.

لم تكن آلام المخاض أشد على العزراء البتول الطاهرة مريم من خوفها من أقوال الناس وأفعالهم وهى التى كانت موضع ثناءهم واحترامهم لحسن طباعها وعفتها وطهرها ونشأتها على طاعه الله. وسط هذه المخاوف والآلام حدث الميلاد المبارك.

وسمعت من يقول: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

من الذى كلمها فى هذه اللحظة الحاسمة المؤلمة لها. هناك من قال أنه المولود عيسى

عليه الصلاة والسلام. ومنهم من قال أنه لم يتكلم إلا فى حضره القوم وأول ما نطق به قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وأن الذى كلمها هو الملك الأمين جبريل جاء ليخفف عنها ويرشدها إلى أن الله لن يتخلى عنها وطلب منها ألا تحزن وأن الله قد جعل الماء من تحتها وأن تهز تلك النخلة التى كانت يابسة وغير مثمرة فى هذا الوقت البارد من فصل الشتاء فيتساقط عليها ثمارها الرطبة الطرية وأن تأكل وتشرب الماء (أثبت العلماء أن الرطب هو أفضل طعام النفساء وأنسبه لها) وأن يطمئن قلبها فإن وجدت أحداً من الناس فأشيرى إليه بغير أن تتكلمى أنك نذرت للرحمن صوماً عن كلام الناس وانقطعت إليه للعباده ولا تجيبى أحداً عن سؤال.

أكلت العزراء من الرطب وشربت الماء وإطمأن قلبها لما سمعت. وإستعدت نفسياً لمواجهه الناس يقول إنجيل برنابا فى الفصل السادس:

- كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكاً على اليهوديه بأمر قيصر أغسطس.
- وكان ببلاطس حاكماً فى زمن الرياسة الكهنوتية لحنانيا وقيافا.
- فعملا بأمر قيصر اكتتب جميع العالم.
- فذهب إذ ذاك كل إلى وطنه وقدموا أنفسهم بحسب أسباطهم ليكتتبوا.
- فسافر يوسف من الناصره إلى إحدى مدن الجليل مع امرأته وهى حبلى ذاهباً إلى بيت لحم. (أنها كانت مدينته وهو من عشيرة داود) ليكتب عملا بأمر قيصر.
- ولما بلغ بيت لحم لم يجد فيها مأوى إذ كانت المدينه صغيرة وحشد جماهير الغرباء كثيراً.
- فنزل خارج المدينة فى نزل جعل مأوى للرعاه.
- وبينما كان يوسف هناك تمت أيام مريم لتلد.
- فأحاط بالعزراء نور شديد التألق.
- وولدت إبنها بدون ألم.
- وأخذته على ذراعيها.

- وبعد أن ربطته بأقمطة وضعته فى المذود.

- إذ لم يوجد موضع فى النزل.

- فجاء جوق غفير من الملائكة إلى النزل بطرب يسبحون الله ويذيعون بشرى السلام لخائفى الله.

- وحمدت مريم ويوسف الله على ولادة يسوع وقاما على تربيته بأعظم سرور.

نرى جميعاً أنهم لم يذكروا أمر النخله ولا السرى (الماء) ولا نذرها الصوم عن الكلام ولا تأنيب قومها لها ولا كلامه فى المهد. وإنما ذكر ذلك القرآن الكريم المهيمن على كتب أهل الكتاب. ولا غرابة فى سكوت كتب أهل الكتاب عن ذلك وإثبات القرآن له فقد قال الله تعالى فى أهل الكتاب: **﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾**

وكأن حادث الإنجاب بدون زوج مَّر دون توبيخ ومحاكمه ورميها بالزنى كما هو واضح فى قوله تعالى **﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾**.

عادت العزراء مريم إلى الناصرة تحمل وليدها بين زراعيها **﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾** [مريم: ٢٧ ـ ٢٨] عندموا وجدوها تحمل وليدها قالوا لها يا مريم لقد أتيت بفعل عملاً منكراً كبيراً. ثم قالوا لها: يا أخت هارون.... قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة وكان اسمه هارون وقيل شبهوها برجل فاجر فى زمانهم اسمه هارون وقيل هارون أخا موسى شبهوها به فى العبادة.

وقالوا لها ما كان أبوك إمرأ سوء وما كانت أمك بغياً. أى إنك من بيت طاهر معروف لنا جميعاً فأبوك كان من أعظم الناس تقوى وعبادة لله وكذا أمك.. فكيف تأتين أنت بهذه الفعلة الشائنة لم ترد عليهم مريم العزراء فقد أمرها الله بذلك وهى تعرف عقولهم وإفتراءاتهم وصامت عن الكلام فقد كانت من عادات اليهود الصوم عن الطعام والصوم عن الكلام أيضاً.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]... أشارت

إلى وليدها موحيه بأن إسألوه هو. . . كلموه هو ولا تكلمونى. . . تعجبوا لذلك وقالوا لها كيف نكلم هذا الوليد الذى لا زال فى المهد فأجابهم الوليد الذى لم تمض على ولادته سوى ساعات معدودة أنطقه القادر العظيم وأول ما نطق به ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣].

لم يكد المسيح عيسى ابن مريم ينتهى من كلامه إلاَّ وقد عقدت المفاجأة ألسنة الحاضرين وكالعادة فى مثل هذه الأحداث الخارقة تتناقل الأخبار سريعًا بل تتطاير ويضاف إليها كلمات وأفعال من عند الناس سواء ممن حضر وشاهد واستمع إلى المعجزة أو من لم يحضرها أصلاً ووصل إلى الحاكم هيرودس بعض هذه الأنباء مضافاً إليها أنه ملك اليهود القادم لتخليصهم من حكم قيصر وتابعه هيرودس وبالطبع إضافات أخرى من المضارين الكهنة والأحبار اليهود الذين يجنون الذهب والفضة من وعودهم بالجنة وبيع الغفران للخاطئين من بنى إسرائيل. فهذا الطفل يهدد كيانهم ورهبة واحترام الناس لهم فلابد للكيد له ولأمه وبدأت الشائعات والإتهامات والإفتراءات عليه وعلى أمه واتهامها بالزنى مع يوسف النجار. مع علمهم بطهرها ونشأتها فى عبادة الله. بل يقال أنهم إتهموا زكريا عليه السلام بالزنى معها وقتلوه.

المجوس ومولد عيسى عليه الصلاة والسلام

فى نفس هذا التوقيت من ميلاد المسيح حكاية رواها متى فى إنجيله وبرنابا أيضاً ولم يذكرها فى الأناجيل الأخرى غيرهما. ولكن متى أفاض فى تفاصيلها.

وهى تتلخص فى أن ثلاثة من المجوس ـ من المشرق (إيران حاليا) كانوا يرقبون نجوم السماء فبدا لهم نجم شديد التألق فجاؤوا إلى اليهودية ـ يهديهم النجم ـ ولما وصلوا فى طريقهم إلى أورشليم سألوا أين ولد ملك اليهود؟ وسمع هيرودس ذلك فارتاع! فجمع الكهنة والكتبة وسألهم أين ولد المسيح؟ فقالوا فى «بيت لحم» فأحضر هيرودس المجوس وسألهم عن مجيئهم، فقالوا أنهم رأوا نجماً فى المشرق هداهم إلى هناك فجاؤوا

بهدايا أحبوا أن يقدموها لملك اليهود الذى ولد. فأمرهم أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن الطفل ، فلم يرجعوا إليه بل ذهبوا إلى بلادهم. ولما لم يعودوا علم هيرودس أنهم قد سخروا منه، فأمر بقتل كل طفل فى بيت لحم.

ويظهر أن هذه الحكاية مؤلفة وغير صحيحة. فما شأن عبدة النار والكواكب بالمسيح إن كان نبياً أو حتى ملك لليهود وكيف يسير النجم أمام كفار ليهديهم إلى مكان ولادته ولماذا ذهب النجم بهم إلى أورشليم ولم يذهب بهم إلى بيت لحم مكان الميلاد الفعلى.

ختان المسيح عليه الصلاه والسلام

فى شريعة اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته كما أمر الله إبراهيم بذلك، وقد ختن المسيح لما تم له ثمانية أيام، وختانه لم يذكر فى القرآن الكريم وإنما ذكر فى إنجيل لوقا فى آية ٢١ من الإصحاح الثانى ونصها: ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى «يسوع» كما تسمى من الملاك قبل أن حبل فى البطن.

وفى إنجيل برنابا فى الفصل الخامس: فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب كما هو مكتوب فى كتاب موسى أخذا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختناه (٢٥) فختنا الطفل وسمياه «يسوع» كما تسمى من الملاك قبل أن حبل فى الرحم والغريب أن المسيحيين لا يختنون أبناءهم ومن يتبع سنه الختان من الأديان الثلاث هم اليهود والمسلمين فقط طبقا لشريعه إبراهيم ومحمد عليهما الصلاه والسلام.

والأرجح أن ختان المسيح عليه الصلاة والسلام كان صحيحاً وذلك لأنها سنة اليهود على الفطرة مع أى طفل ذكر بعد ولادته بثمانية أيام وما الذى يمنع أمه العزراء فى أن تتبع سنه الختان. وقد أوردها لوقا وبرنابا فى إنجيل كل منهما ولم يذكرها الباقون.

الرحلة المباركة إلى مصر

وسط هذه التداعيات والمخاوف من بطش هيرودس.. (ذكر إنجيل متى وبرنابا ولم يذكرها الآخرون) وتتلخص فى أن هيرودس لما أمر بقتل كل طفل ولد فى بيت لحم أمر يوسف النجار فى منامه بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر فقام من فوره وأخذ الطفل وأمه وذهب بهما إلى مصر وأقاموا بها إلى أن هلك هيرودس. وهذه الرحلة معروف

خط سيرها بمصر والأماكن التى اختبأ فيها الثلاثة عن أعين الرومان فقد كانت مصر أيضاً تحت الحكم الرومانى فى ذلك الوقت ولكن شعبها الطيب المضياف المشهور له بكرمه وحسن ضيافته وشهامته كانوا ستراً عليهم وكانت مصر فى ذلك الزمان مشهور لها بالخير الوفير. وأماكن الزيارة أقام عليها أقباط مصر بعد ذلك كنائس أثرية موجودة إلى الآن يحكى عن مدة الإقامة فى هذه الأماكن والمرات المحددة التى تكلم فيها المسيح وأماكنها. والشجرة التى استظل بها الثلاثة بحى المطرية بالقاهرة معروفة لدى عامة الناس بشجرة العزراء مريم وخط سير الزيارة المباركة فى أماكنها المختلفة بالقاهرة وصعيد مصر والوجه البحرى أيضاً. ويقول «متى» فى إنجيله.

- ولما مات هيرودس ظهر ملاك الرب فى حلم ليوسف قائلاً.
- عد إلى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبى.
- فأخذ يوسف الطفل ومريم « وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر» وجاء إلى اليهودية حيث سمع أن أرخيلاوس بن هيرودس كان حاكماً فى اليهودية.
- فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى فى اليهودية.
- فذهبوا ليسكنوا فى الناصرة.
- فنما الصبى فى النعمة والحكمة أمام الله والناس.
- ولما بلغ يسوع اثنى عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعه الرب المكتوبة فى كتاب موسى.
- ولما تمت صلواته إنصرفوا بعد أن فقدوا يسوع لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم.
- ولذلك عادت مريم مع يوسف إلى أورشليم ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران.
- وفى اليوم الثالث وجدوا الصبى فى الهيكل وسط العلماء يحاجهم فى أمر الناموس.
- وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلاً: كيف أوتى مثل هذا العلم وهو حدث ولم يتعلم القراءة.

- فعنفته مريم قائلة يا بنى ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك [1] ثلاثة أيام ونحن حزينان.

- فأجاب يسوع ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأب والأم.

- ثم نزل يسوع مع أمه ويوسف إلى الناصرة.

- وكان مطيعاً لهما بتواضع واحترام.

والمفهوم من ذلك أن المسيح نشأ نشأة طيبة وأنه كان غيوراً على الدين منذ صغره حريصاً على تفهم حكمه وأسراره وأنه كان يختلس من وقته ما يقوى به معارفه ويثبت به علمه ويجالس العلماء ويناقشهم ويسائلهم ويجيبهم فالبيئة التى تمرس بها صباه والرفقة الطيبة المباركة مع ابن خالته نبى الله يحيى بيئه علم وحكمه ودين.

بداية نبوة المسيح

لم يذكر القرآن الكريم متى كان ابتداء نبوة المسيح ولا كيف كان ذلك؟ وأصحاب الأناجيل الأربعة قد ذكروا فى ذلك أن «يوحنا المعمدان» وهو المعروف لنا من القرآن الكريم « يحيى بن زكريا» وجد فى البرية زمنا وكان يقتات من الجراد والعسل البرى وثيابه من أوبار الإبل وعلى حقويه منطقة جلد، ثم ظهر فى ناحية « الأردن» ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل أورشليم والقرى القريبة فكان يعمدهم فى النهر وينذرهم بإقتراب ملكوت السموات وقيل أنه قد عمد المسيح عيسى ابن مريم بنفسه.

وقد أرسل إليه الكهنه يسألون: هل هو إيليا؟ فأجاب: لا: هل هو المسيح؟ فأجاب لا. هل هو النبى؟ فأجابا لا.. فقالوا له: فلم تعمد إن لم تكن إيليا ولا المسيح ولا النبى؟ طلبوا أن يقول لهم من هو. قال أنا صوت صارخ فى البرية أعدوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمه لأنه قد إقترب ملكوت السموات. وأن المسيح قد جاء إلى يوحنا واعتمد منه فى الأردن.

وأن الروح القدس نزل عليه مثل حمامة. ثم أن المسيح بعد ذلك صام فى البرية أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ثم جرب من الشيطان على أثر صومه إذ أحس بالجوع،

(١) أبوك: ليست الأبوه التى نفهمها ولكن أبوه التربيه.

فأتاه الشيطان وقال له: إن كنت إبن الله فقل أن تصير هذه الحجاره خبزا؟ فقال له: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله.

فأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت بن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك. فقال له: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك.

فأخذه إبليس على جبل عال وأراه ممالك الأرض ومجدها. وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى فقال له المسيح: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. فذهب عنه الشيطان وجاءته الملائكه. وعلم المسيح عقب ذلك أن يوحنا (يحيى) أسلم أى هلك فجاء إلى (الجليل) وترك (الناصره) وسكن (كفر ناحوم) وكان يكرز ببشارة ملكوت الله. وكانت سن المسيح ٣٠ سنه.

عيسى يتلقى الانجيل على جبل الزيتون

معنى كلمه الإنجيل: هى البشاره... وفى معنى آخر الإخبار بالخير. وكلاهما يعنى الخير لبنى إسرائيل ويقول برنابا فى الفصل العاشر من إنجيله.

- ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر كما أخبرنى بذلك نفسه صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتوناً.
- وبينما كان يصلى فى الظهيره وبلغ هذه الكلمات « يارب برحمه ....» وإذا بنور باهر قد أحاط به وجوق لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون « ليتمجد الله».
- فقدم له الملاك جبريل كتاباً كأنه مرآة براقة.
- فنزل إلى قلب يسوع الذى عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله حتى أن كل شيء كان عرياناً ومكشوفاً له.
- ولقد قال لى «صدق يابرنابا أنى أعرف كل نبى وكل نبوة. وكل ما أقوله إنما قد جاء فى ذلك الكتاب.
- ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبى مرسل إلى بنى إسرائيل. كاشف مريم أمه

بكل ذلك قائلاً لها: أنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله وأنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها.

- فلما سمعت مريم هذا أجابت « يا بنى إنى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد إسم الله القدوس».

- ومن ذلك اليوم إنصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبويه.

جبريل عليه السلام حينما هبط بالوحى الإلهى على عيسى فوق جبل الزيتون إنما مثل له كتاباً يأكله فاستضاءت به بصيرته وأنه كتاب تضمن الهدى والنور، وقد أهاب ببنى إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه، وأنبأهم بأحداث مستقبله وبشرهم باقتراب زمن النبى الذى وعد بنو إسرائيل بأن يبعثه الله، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة، وأنه يكون كموسى صاحب شريعه مستقله وفيه وصفه ووصف أتباعه.

ولكن كيف؟ كيف تواتيهم الشجاعة ليعلنوا ذلك... بل أنهم لم يعترفوا بهذا الإنجيل برنابا خاصة لبشارته بمحمد النبى الأمى. واكتفوا بأناجيلهم الأربعة الأشهر لأن هناك العديد من الإناجيل التى كتبت ولم تعترف بها الكنيسه لسبب أو لآخر.

ولو أن أى عاقل درس كل الأديان من التوراه والإنجيل والقرآن وأتى بقدر الإمكان بالصحيح منها (التوراة والإنجيل) لوجد أن التوراه شريعه نهى وعقاب لمن يخالف ولوجد أن الإنجيل فيه السماحة والعفو ولوجد أن القرآن يجمع بين النهى وعقاب المخالف وسماحة العفو معاً ولوجد أن القرآن دستور أمه كامل لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها... تكلم عن كل السابقين بدءاً من آدم وحواء والأنبياء والرسل بل أنه من الملاحظ عندنا فى مصر أن أقباط مصر يأخذون من الإسلام قوانين الميراث لأنها غير موجودة فى أناجيلهم المختلفه. وذلك ما يؤكد أن كتبهم ناقصة بفعل الإنسان بدليل وجود بعض الأحداث الأساسية فى البعض وعدم وجودها فى البعض الآخر. وصدق الله العظيم حين قال **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** وصدق الله العظيم حين قال: **﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾** [آل عمران: ٣، ٤].

وقال تعالى: **﴿ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من**

فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصده وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ [آل عمران: ٦٦].

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». قال الوليد: فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عمير عن جنادة وزاد « من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء» (حديث متفق عليه رواه البخاري ومسلم).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

الله تعالى منزه عن الولد

يقول أتباع المسيح على اختلاف مذاهبهم أن المسيح عيسى ابن مريم إبن الله وتقول فئة أخرى أنه هو الله .. والعياذ بالله.. لوأنهم حكَّموا عقولهم وقلوبهم ما قالوا ذلك.

أكثير على خالق السموات والأرض وخالق آدم من طين وحواء من آدم أن يقول للشئ كن فيكون قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[البقره: ١١٦، ١١٧].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ

يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبه: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً. لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١ ـ ١٧٣] ينهى المولى تبارك وتعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء فى الدين وهو مجاوزة الحد فى إطراء المسيح فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العزراء البتول، التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام، نفخة مخلوقه من روح الله تشريفاً وتكريماً وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٨ ـ ٧٠].

لم يكتفوا بما قالوا كفراً بأن عيسى ابن الله وقد رد الله عليهم فى الآيات التى ذكرنا

بعضها وأنذرهم بالعذاب الشديد. . بل أن منهم من تمادى فى كفره وقال إن عيسى هو الله. . أى عقول هذه وأى قلوب متحجرة لا تعى ولا تحس. ورد عليهم الخالق الكريم المتعال عما يصفون.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائده: ٧٢].

احتار العقل البشرى فى زعمهم وكفرهم وغبائهم. فمره يقولون أن عيسى ابن الله ومره يقولون أن عيسى هو الله. ومره أخرى يقولون أنه ثالث ثلاثة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائده: ٧٣].

الله سبحانه وتعالى ينذرهم بعذاب أليم ولكنه برحمته يوجههم إلى التوبة إلى الله فى نفس السورة وبعد هذه الآيات قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائده: ٧٤، ٧٥] الله سبحانه وتعالى يدعوهم إلى التوبة إشفاقاً ورحمة من العذاب الأليم الذى ينتظرهم ويبين لهم أن المسيح رسول من الله وأمه صديقه، أى ليست بفاجرة كما يتهما اليهود لعنهم الله وفيه دليل على أنها ليست نبيه كما زعمه البعض ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن خروج فضلاته منهما فكيف يكون إلها بهذه الصفة. . أفلا يعقلون وكيف يكون الله ثالث ثلاثة. . الله وعيسى وجبريل ولهذا بين الله لنا هذا الحديث الذى يدور بينه عز من قال وبين عيسى يوم القيامه على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى، وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أوأنه شريكه تعالى الله عما يقولون. يقول تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك﴾ أى تعاليت أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أى

ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائده: ١١٦ - ١١٨] تأدب عظيم فى الخطاب والجواب إن كنت قلت ذلك فأنت قد علمته حين أرسلتنى إليهم وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم وأبلغتهم بأن يعبدوا الله خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم. وكنت عليهم شاهدا عندما كنت فيهم فلما رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على من خاننى حتى انتقموا منه إن تعذبهم فإنهم عبادك ويستحقون ذلك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم. ولم يقل الغفور الرحيم. وذلك لأن عذابهم واقع بمشيئة الله وإرادته. لأن الله يغفر ما دون الشرك به وقد قال سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم لرسوله ﷺ قاطعاً الطريق على كل من يعمل بفكره .

فى مسألة التثليث

فى مسألة الإبن أوادعاء ألوهية لغير الله أو مسألة التثليث «الأب والإبن والروح القدس» كما يزعمون ثم يتبعونها ب«إلاه واحد آمين». . كيف يكون إله واحد ويوجد أب وابن وروح قدس.

فإن كان ما يقصدون بالإلاه الواحد هو الله فنحن معهم وإن كان الثلاثة مجتمعين إلاه واحد فنحن نختلف معهم. فى زعمهم بأن المقصود بالأب هو الله والإبن هو عيسى والروح القدس جبريل فإن كان كذلك فالله هو الخالق للإبن وهو خالق الروح. . فهو الكل فهو الفرد. . فهو الواحد الأحد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ صدق الله العظيم فلماذا هذا التثليث إذا كان الأصل واحد وإذا كان الخالق واحد. أيعقل أن يكون الله خالق كل شئ يخلق من يشركه فى الملك وهل يحتاج لمن يشركه معه؟ وكيف كان ملكه قبل أن يخلق عيسى والروح القدس (جبريل عليه السلام) هل تأثر الكون أوتعدل فيه شئ؟ هل تأثر شروق الشمس

وغروبها؟ هل تأثر دوران الأرض والقمر حول محورها بهذه الدقة المتناهية؟ هل تأثر دوران القمر حول الأرض؟ هل تأثر دوران الأرض والقمر حول الشمس؟ هل تغيرت أوضاع النجوم ومجراتها التى لا يعرف عددها إلا الله؟ هل تأثرت درجة جاذبية الأرض؟ هل تأثرت درجة حراراة الأرض؟ هل تغيرت أوضاع السموات السبع؟ وهل وهل وهل..

هل معنى أن يؤيد الله نبيه عيسى بالروح الأمين جبريل أن يشركه معه فى الآلهية قال تعالى ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

ألم يؤيد الله رسله بكتبه ومعجزاته بالروح الأمين جبريل.

قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] أم أنها النفس البشرية الأمارة بالسوء التى تملكت الكهنة فحذفوا وأضافوا فى ما نزل على موسى وعيسى لما يحقق أغراضهم وأهواءهم الدنيوية.

أين غابت العقول ولماذا تحجرت القلوب عن الحقائق المرئية الواضحة على قدره الله فى خلقه المبدع وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**لاأحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم**»[١].

معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام فى طفولته

ذهبت مريم العذراء بوليدها عيسى عليه الصلاة والسلام ومعهما يوسف النجار إلى مصر خوفاً على حياته ومكث بها أعواماً من طفولته. وفى مصر بدأت على الطفل معجزات لفتت الأنظار إليه. فذكر من هذه المعجزات أنهم ثلاثتهم نزلوا عند رجل يدعى الدهقان. افتقد مالاً من داره، وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج، فلم يدرى من أخذه وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عَمَدَ إلى رجل أعمى، وآخر مقعد من جملة من هم بالمنزل. فقال للأعمى إحمل هذا المقعد وانهض به فقال: إنى لا

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (التفسير، ح/ ٤٦٣٧) ومسلم فى (التوبة، ح/ ٣٣ ـ ٣٤).
حديث متفق عليه رواه البخارى

أستطيع ذلك. فقال: بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوه من الدار، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم فى أعين الناس وهو صغير جداً.

ـ عندما احتفل نفس الرجل ابن الدهقان بطهور أولاده. فلما اجتمع الناس وأطعمهم، ثم أراد أن يسقيهم شراباً يعنى خمراً. كما كان يفعل أهل ذلك الزمان لم يجدوا فى جرار الخمر شيئاً، فشق ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه، قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها، فلا يفعل بجره منها ذلك إلا إمتلأت شراباً من خيار الشراب. فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وعادوا إلى فلسطين.

ـ قال اسحاق بن بشر فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه فى الكتاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه فعلمه أبا جاد، فقال عيسى: فقم من مجلسك فقام فجلس عيسى مجلسه، فقال: سلنى: فقال المعلم: ما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله. والباء بهاء الله والجيم بهجة الله وجماله فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد.. وهى أول الحروف الأبجديه العبريه.

معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام فى أناجيلهم

قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٩ ـ ٥١]

ـ من إنجيل متى ص٨: وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا ياسيد إن أردت تقدر أن تقدر أن تطهرنى فمد يسوع يده ولمسه قائلاً أريد فاطهر وللوقت طهر برصه.

ـ ومن إنجيل متى ص٨ (٥) ولما دخل يسوع «كفر ناحوم» جاء إليه قائد المائة وقال ياسيد لست مستحقاً أن تدخل تحت سقفى لكن قل كلمه فقط فيبرأ أغلامى .

ـ ثم قال يسوع لقائد المائة إذهب وكما آمنت ليكن لك فبرأ غلامه فى تلك الساعة.

وهذه الحادثه قد ذكرها لوقا مع إختلاف إذ جعل شيوخ بنى إسرائيل هم الذين سألوا يسوع أن يشفى الغلام وذكر هذه الحادثة يوحنا على أن المريض ابن خادم للملك.

ـ من إنجيل متى الإصحاح ٨ (٢٣) ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه (٢٤) وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينه وكان هو نائماً. (٢٥) فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين ياسيد نجنا فإنا نهلك (٢٦) فقال لهم مابالكم خائفين ياقليلى الإيمان ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم.

ـ جاء فى متى ص٨ (٢٨) ولما جاء إلى العبر إلى كوره الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جداً، حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق وإذا هما قد صرخا قائلين: ما لنا ولك يايسوع ابن الله أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذيبنا؟ وكان بعيداً منهم قطيع خنازير كثيره ترعى فالشياطين طلبوا إليه قائلين إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير كله فقال لهم إمضوا فخرجوا إلى قطيع الخنازير وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات فى المياه. أما الرعاة فهربوا ومضوا إلى المدينة وأخبروا عن كل شئ وعن أمر المجنونين. فإذا كل المدينه قد خرجت لملاقاه يسوع ولما أبصروه طلبوا أن ينصرف عن تخومهم.

وقد ذكر هذه الحادثة كل من مرقس ولوقا بجعل لفظ «الجدريين» بدلاً من «الجرجسيين» وجعل مجنون بدل مجنونين.

ـ فى متى ص٩ (١) فدخل السفينه واجتاز وجاء إلى مدينة وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحاً على فراش فلما رأى يسوع إيمانهم قال ثق يابنى مغفوره لك خطاياك. وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا يجدف فعلم يسوع أفكارهم فقال لماذا تفكرون بالشر فى قلوبكم؟ أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش؟ ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا حينئذ قال للمفلوج قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطاناً مثل هذا.

وقد ذكر هذه الحادثه كل من مرقس ولوقا بتغير. فقد نص مرقس على أن المدينة كفر ناحوم وأغفل ذكرها كل من متى ولوقا. ومتى ذكر أنه قدم له مطروحاً على فراش وقال لوقا دلى إليه على سرير وقال مرقس أنهم نقبوا السقف ودلوه إليه

ـ فى إنجيل متى الإصحاح التاسع ـ ١٨ إلى ٢٦ حادثه مضمونها أن أحد الرؤساء جاء إلى المسيح وسجد له. طالباً منه إحياء ابنته التى قد ماتت وفيما هو ذاهب لمست إمرأة ثوبه وكان بها نزيف مزمن فشفيت ولما وصلت إلى بيت الرئيس نحى المجتمعين على البنت قائلاً أن الصبية لم تمت ولكنها نائمة فضحكوا عليه فأخرجهم وأمسك بيدها فقامت. وقد حكى هذه القصة مرقس فى إنجيله ولم يذكر أن الصبية قد ماتت ولكن قال أنها على آخر نسمة من الحياة وخبر موتها جاء والمسيح فى المجمع ولوقا حذا حذو مرقس.

ـ أورد متى فى الإصحاح التاسع ف (٢٨) أن المسيح فيما هو مجتاز من هناك تبعة أعميان يصرخان ويقولان: إرحمنا ياابن داود.. وبعد لأى قال لهما أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا فقالا نعم فلمس أعينهما فأبصرا وأكد عليهما أن يكتما الخبر فأذاعاه فى كل الأرض.

وقص هذه القصه مرقس وقال إن ذلك كان عند خروجه من «أريحا» وأن الأعمى كان واحدا لا إثنين وأن إسمه «باتيماوس» ووافق لوقا مرقس فى هذه القصة بعض الموافقة ص١٠ فقره (٤٦). وأوردها لوقا ص١٨ ف (٣٥) موافقاً مرقس فى أنه أعمى أبصر وذكر أن المسيح تفل على الأرض وصنع من التفلة طيناً وطلى به عين الأعمى وقال له: إغتسل فى بركه «سلوان» فمضى وإغتسل وأتى بصيراً.

ـ فى إنجيل متى الإصحاح ١٤ ف (١٥) ولما صار المساء تقدم إليه التلاميذ قائلين الموضع خلاء، والوقت قد مضى. إصرف الجموع لكى يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاماً. فقال لهم يسوع لاحاجة لهم أن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ، والتلاميذ للجموع فأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر إثنى عشر قفه مملوءه والآكلون نحو خمسة آلاف ماعدا النساء والأولاد.

وقد ذكر باقى أصحاب الأناجيل هذه الحكاية مع بعض التخالف. وهنا يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار نطلب من الله له الرحمة فى كتابة قصص الأنبياء. إن هذه المسألة هى مسألة المائدة السماوية ومعنى كونها سماوية أن الله تعالى بارك فى الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة وقد حكيت فى القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

ـ فى إنجيل متى الإصحاح ١٤ ف (٢٢) وللوقت ألزم يسوع تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرف الجموع، وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلى ولما صار المساء كان هناك وحده وأما السفينة فكانت قد صارت فى وسط البحر معذبة من الأمواج لأن الريح مضادة. وفى الهذيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر، فلما أبصره التلاميذ ماشياً على البحر إضطربوا قائلين أنه خيال ومن الخوف صرخوا فللوقت كلمهم يسوع قائلاً تشجعوا أنا هو لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال ياسيد إن كنت أنت فمرنى أن آتى إليك على الماء وذهب ليأتى إلى يسوع، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذا ابتدأ يغرق صرخ قائلاً يارب نجنى ففى الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له: ياقليل الإيمان لماذا شككت ولما دخلا فى السفينة سكنت الريح والذين فى السفينة جاؤوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله وقد ذكر هذه الحكاية كل من مرقس ويوحنا مع إختلاف مع متى فى بعض تفاصيلها وأهملها لوقا.

ـ فى إنجيل متى ص ١١ ف (٢٣) حينئذ أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر. وقد أهمل مرقس ويوحنا هذه الواقعة وقد ذكرها لوقا بقوله ص ١١ ف (١٤) وكان يخرج شيطاناً وكان ذلك أخرس ولم يذكر أنه أعمى وجعل الأخرس الشيطان لا المجنون.

جاء فى ص ١٢ ف (٩) ـ متى: ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم (١٠) وإذا إنسان يده يابسه فسألوه قائلين هل يحل الإبراء فى السبوت لكى يشتكوا عليه .(١١) فقال لهم أى إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه؟ (١٢) فالإنسان كم هو أفضل من الخروف. إذا يحل فعل الخير فى السبوت (١٣) ثم قال للإنسان مد يدك فمدها فعادت صحيحة كالأخرى.

ـ فى إنجيل متى إصحاح ١٥ ف (٢١) ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيدا (٢٢) وإذا إمرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائله ارحمنى ياسيد يابن داود بنتى مجنونه جداً.

(٢٣) فلم يجبها بكلمه فتقدم تلاميذه قائلين اصرفها فإنها تصيح وراءنا. (٢٤) فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. (٢٥) فأتت وسجدت له قائلة ياسيد أعنى (٢٦) فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب. (٢٧) فقالت نعم ياسيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها. (٢٨) حينئذ أجاب يسوع وقال لها ياإمرأة عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين فشفيت إبنتها من تلك الساعة.

ـ فى إنجيل متى إصحاح ١٧ ف (١٤) ولما جاؤوا إلى الجميع تقدم إليه رجل جاثياً له (١٥) ياسيد إرحم إبنى فإنه يصرع ويتألم شديداً ويقع كثيراً فى النار وكثيراً فى الماء (١٦) وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه (١٧) فأجاب يسوع وقال أيها الجيل الملتوى غير المؤمن إلى متى أكون معكم. إلى متى أحتملكم قدموه إلى ههنا (١٨) فإنتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفى من تلك الساعه.

ـ فى إنجيل متى إصحاح ١٩ ف (١) ولما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل إلى تخوم اليهودية من عبر الأردن (٢) وتبعه جموع كثيرة فشفاهم هناك.

ـ فى إنجيل متى ٣٠ ف (٢٩) وفيماهم خارجون من أريحا تبعه جمع كثير (٣٠) وإذا أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاذ صرخا قائلين ارحمنا ياسيد ياابن داود (٣١) فانتهرهما الجميع ليسكتا فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا ياسيد ياابن

داود (٣٢) فوقف يسوع وناداهما وقال ماذا تريدان أن أفعل بكما (٣٣) فقالا ياسيد أن تفتح أعيينا (٣٤) فتحنن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما وتبعاه وخالف بطرس فى كونهما أعميين وقال كان أعمى واحد.

ـ فى إنجيل متى الإصحاح ٢١ ف (١٨) وفى الصبح إذا كان راجعاً إلى المدينة جاع (١٩) فنظر شجرة على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط. فقال لها لا يكن منك ثمر إلى الأبد فيبست التينه فى الحال ذكر الأربعه أناجيل هذه الواقعه مع إختلافهم فى التفاصيل.. (هل يجوع إلاه؟ أوابن الإلاه؟).

ـ فى إنجيل يوحنا الإصحاح ١١ ف (١) وكان إنسان مريضاً وهو «العازر» ببيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها (٢) وكانت مريم التى كان لعازر أخوها مريضاً هى التى دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها (٣) فأرسلت الأختان إليه قائلين ياسيد هوذا الذى تحبه مريض (٤) فلما سمع يسوع هذا الكلام قال هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله ليتمجد ابن الله به (٥) وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر (٦) فلما سمع أنه مريض مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين ثم بعد ذلك قال لتلاميذه لنذهب إلى اليهودية أيضاً قال له التلاميذ يامعلم كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضاً إلى هناك (٩) أجاب يسوع أليست ساعات النهار إثنا عشر إن (١٠) كان أحد يمشى فى النهار لا يعثر لأنه ينظر نور هذا العالم (١١) ولكن إن كان أحد يمشى فى الليل يعثر لأن النور ليس فيه قال هذا وبعد ذلك قال لهم(١٢) لعازر حبيبنا قد نام لكنى أذهب لأوقظه (١٣) فقال له تلاميذه ياسيد إن كان قد نام فهو يشفى (١٤) وكان يسوع يقول عن موته وهم ظنوا أنه يقول عن رقاد النوم فقال لهم يسوع حينئذ علانية لعازر مات (١٥) وأنا أفرح لأجلكم أنى لم أكن هناك لتؤمنوا ولكن لنذهب إليه (١٦) فقال توما الذى يقال له التوأم للتلاميذ رفقائه لنذهب نحن أيضاً لكى نموت معه فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعه أيام فى القبر وكانت بيت عنيا قريبه من أورشليم نحو (١٥ غلوه) وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا إلى مرثا ومريم ليعزوهما عن أخيهما فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقته وأما مريم فإستمرت جالسه فى البيت (٢١) فقالت مرثا ليسوع لوكنت ههنا لم يمت أخى ولكنى الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله أن يعطيك

فقال لها يسوع سيقوم أخوك فقالت له مرثا أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير فقال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة من آمن بى ولومات فيسحيا وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت إلى الأبد أتؤمنين بهذا قالت نعم ياسيد أنا قد آمنت أنت المسيح ابن الله الآتى إلى العالم ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سراً قائلة المعلم قد حضر وهو يدعوك أما تلك فلما سمعت قامت سريعاً وأتت إليه (٣٠) ولم يكن يسوع قد جاء إلى القرية بل كان فى المكان الذى لاقته فيه مرثا ثم إن اليهود الذين كانوا معها فى البيت يعزونها لما رأوا مريم قامت عاجلاً وخرجت تبعوها قائلين إنها تذهب إلى القبر لتبكى هناك فمريم لما أتت إلى حيث كان يسوع خرت عند رجليه قائلة له ياسيد لوكنت هنا لم يمت أخى فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاؤوا معها يبكون إنزعج بالروح وإضطرب وقال أين وضعتموه؟ قالوا ياسيد تعال وأنظر بكى يسوع فقال اليهود إنظروا كيف كان يحبه. وقال بعض منهم ألم يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت. فانزعج يسوع أيضاً فى نفسه وجاء إلى القبر وكان مغاره وقد وضع عليه حجر (٣٩) قال يسوع إرفعوا الحجر (٤٠). قالت له مرثا أخت الميت ياسيد قد أنتن لأن له أربعه أيام (٤١). قال لها يسوع ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله(٤٢) فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعاً ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى (٤٣) ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر: هلم خارجاً فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطان بأقمطه ووجهه ملفوف بمنديل فقال لهم يسوع حلوه ودعوه يذهب.

هذه الخوارق التى أيد الله بها عيسى عليه الصلاه والسلام المذكوره فى الأناجيل نحن نعترف بها ونقرها بل أنهم نسوا بعض ما جاء فى القرآن الكريم ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: من الآية ٤٩] وقد نسوا ذكرها ولاغرابه فى ذلك فقد قال الله فى أهل الكتاب «أنهم نسوا حظا مما ذكروا به» ولقد كانت هذه الخوارق سبباً فى الإمتنان به حتى وصفه بعضهم بأنه ابن الله والبعض الآخر بأنه هو الله. وأنا أقول كيف يعتقدون فى ذلك والحواريين أو التلاميذ كما

يسمونهم فى الأناجيل كانوا ينادونه بالمعلم وبالسيد وفى كل هذه الحكايات التى ذكرت عن المعجزات كان من يطلب منه يقول له بهذا أو يضيف عليه بلفظ ابن داود أعيدوا قراءة البند رقم (٢) من الإصحاح ١١ من إنجيل يوحنا والذى ذكر فيه:

وكانت مريم التى كان لعازر أخوها مريضاً (هى التى دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها)(أى رب هذا الذى ينتظر من عبد من مخلوقاته أن يدهنه بالطيب ويمسح رجليه بشعرها) ثم إن ما جاء بالأناجيل لايعدوا حكايات مرويه طبقاً لأسلوب كاتبها وقد سبق أن قلنا أن عددها زاد عن المائة واختارت الكنيسه منها أربعة وتركت الخامس برناباً لأنه ذكر اسم محمد عليه الصلاة والسلام فى أكثر من موضع. ولنفرض اختيارها لأربعة فقط. ولماذا أربعه؟ لماذا لم تختار الكنيسة واحداً فقط من المؤكد أنهم لم يجدوا إنجيلاً واحداً جامعاً لكل ماجاء بل أنهم اختاروها لتكمل بعضها بعضاً ذلك إن كانت كاملة من الأصل. أى أن كل إنجيل من الأربعة لا يصلح منفرداً وإن كان الجزء غير صالح فلا يصلح الكل للتناقض فيما بينها. ولأنها بغير سند.

ولو قارنا ما جاء بها مع الفارق فى أسلوبنا نحن المسلمين فى التحقق من صحة الأحاديث النبوية الشريفة والتأكيد والتمحيص فى مصادرها وتصنيفها بين الأحاديث (صحيح، حسن، متفق عليه، مرفوع ضعيف) لوجدنا أن هذه الأناجيل لاترقى فى التصنيف حتى المستوى الضعيف بإسناداته.

لماذا الأناجيل وليس إنجيل واحد

جاء المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام لمهمة سامية: ذلك أن بنى إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرفوا شريعة الله التى جاءهم بها موسى عليه الصلاة والسلام وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوى وخرجوا إلى الإفراط والتفريط. فمن إفراطهم فى مراعاة التوراة وإخراجها من روحها المراد لله تعالى أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير فى السبت بإعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة. والله يريد الكف عن الأعمال الدنيوية وأما فعل الخير فإنه لا حرج فيه وليس من الأفعال المنهى عنها. لذلك جاء المسيح ليرد اليهود عن ذلك التنطع المفضى إلى تعطيل الخير فى ذلك

اليوم. ومن تفريطهم تهالكهم على الماده واستغرق حب المال تفكيرهم. فكانوا يحرضون الفقراء والمحتاجين على النذر للهيكل ليستولوا على ذلك المال لهم. والناذرون فى أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلون يصرفونه على أنفسهم وعيالهم وآبائهم وأمهاتهم. فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانيه فى الكهنه ورجال الدين.

فريق الصدوقيين: كان معتقد هذه الفئة من اليهود أنه لا توجد قيامة ولا نشر ولا حساب ولا عقاب وإن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها فى الدنيا وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه الله فى الدنيا فكان من شاغل المسيح أن يرد هؤلاء إلى عقيدة اليوم الآخر وهو يوم الجزاء. وأن يثبت الإيمان فى قلوبهم ويحزر الناس من اتباعهم والزيغ عن سبيل الله إلى سبيلهم.

فريق الفريسيون: وحقيقة هذا الاسم أنهم قوم تجردوا لطاعة الله تعالى وملك عليهم حبه ومشاعرهم فتفردوا للعبادة وانقطعوا عن العباد، وزهدوا فى حطام الدنيا الفانية وأقبلوا بكليتهم عن الآخرة.

ولكنهم من قبل زمن المسيح عليه الصلاة والسلام قد انحرفوا عن سنن سلفهم وآلهتهم الحياة الدنيا بزخرفها وأقبلوا على الشهوات وهم فى عملهم يراؤون الناس إستدراجاً لهم ليوقعوهم فى مخالبهم ويبتذوا أموالهم فكان ظهورهم المخادع للناس بمظهر الزهد فخاً نصبوه لصيد الدرهم والدينار.

فريق الكتبة: من وظائفهم الوعظ وكتابة الشريعة لمن يطلبها وكانوا فى شئونهم يشبهون الفريسيين فى تصيد أموال الناس.

فريق الكهنة: وخدام الهيكل: كانوا قد صاروا إلى حال سيئة ويحرفون كلام الله ويتهالكون على حطام الدنيا الفانى ويسعون وراء المال بالفتاوى حسب الأهواء وما يستطيعون جمعه من الذهب والفضة هذه هى الفرق التى كانت تعمل بالدين وتأخذه ستاراً لأعمالهم وأطماعهم المادية وملذاتهم الدنيوية فمابال عامة الناس!!! لقد انتشر الفساد بين الناس وخربت الزمم قتلوا أنبيائهم ولم يتركوا إثما إلا ارتكبوه حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله. فكان لأجل ذلك تستدعى أحوالهم إصلاحاً قويماً ومصلحاً مخلصاً. فأرسل الله إليهم عيسى ابن مريم بمعجزة ميلاده وكلامه فى المهد وبالمعجزات

المؤيدة من الله عز وجل . . ومع ذلك إفتروا على أمه بهتاناً وسبوها في عرضها وكانوا ينادونه بإبن الساقطة ولم يعيروا لكلامه في المهد وزنا ولم يغفروا لصلاح أمه وتقواها وصلاح بيتها وانتمائها إلى الشجرة المباركة التي من نسل موسى وداود عليهما الصلاة والسلام. ولم يتعظوا بمعجزات عيسى التي جاءت على يديه بل تآمرو عليه بعد فشلهم بكل فرقهم المختلفة في إقامة أي حجة عليه.

وقبل أن نتكلم عن الإنجيل وتعدد كتابه يجب علينا أن نعرف حقيقة هامة هي أن الإنجيل لم يلم بشئ من الأحكام إلا في القليل النادر، كوجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وعدم تزوج من طلق امرأة بإمرأة سواها، وعدم تزوج المطلقة بآخر، وعدم جواز الطلاق إلا بعلة الزنا وأمر بالعفة وبالغ في ذلك حتى قال إن من نظر إلى امرأة يشتهيها يكون زانياً في قلبه. ونهى عن الأخلاق الرديئة كالمكر والخداع وأكل الأموال بغير حق والرياء والنفاق وشدد على المتصفين بالأخلاق الرديئة من اليهود والكتبة وأفاض في ذلك إفاضة عظيمة.

وإذا نظرنا إلى ماجاء به المسيح لم نجده سوى عظات ونصائح وحكم وأمثال، يريد بذلك توجيه نظر الجماهير من اليهود إلى إخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من ماديتهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم وترك الرياء والنفاق وأن يلتبسوا بروح الدين الذى ورثوه عن موسى كما جاءهم وأن يطلقهم من آثار الكهنة الذين يعوجون الشريعة ويتخذونها مستغلاً لإشباع جشعهم ويحرفونها عن مواضعها إرضاء لشهواتهم. ويبشرهم بإقتراب «ملكوت السماوات» أى الشريعة الإلهية الدائمة وبمجئ محمد ﷺ.

• • •

الأناجيل

لم يكتب شئ من هذه الأناجيل فى زمانه، ولكن بدأت الكتابة بعد نفاد أمر الله فى المسيح. قام بعض التلاميذ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة. وكل واحد يسمى ما كتبه «إنجيلاً» حتى لقد قيل أن الأناجيل بلغت أكثر من مائة إنجيل.

بعد أن أفاق المسيحيين من الإضطهادات التى كانت تتوالى عليهم نظروا فى تلك القصص واختارت الكنيسة من بينها القصص التى لاتتعارض مع نزعتها وسلمت بها وجعلتها قانونية، ولم تكترث لما بين مضامينها من التخالف والتناقض مادام ذلك لايخالف المنزع العام الذى قصدته الكنيسة.

والأناجيل كلها منقطعة السند، ولا توجد نسخة إنجيل بخط تلميذ من تلاميذ ذلك المؤلف ولا ما يضمن شبهة صحة فيها. ولو أن إنجيل المسيح وصل إلى الناس كما كتبه وهو لايكتب إلا مانزل إليه لكان ذلك الكتاب من أهم الكنوز وأغلاها قيمه .

وهنا بعض ماكتبه الأفاضل من الكتاب فى هذا الشأن. يقول المرحوم بإذن الله. . رحمه الله الهندى وغيره عن الأناجيل الأربعة التى إختارتها الكنيسة فى كتابه إظهار الحق صفحة ١٦١ جزء أول وما بعدها.

١ - إنجيل متى:

هو أول الأناجيل وأقدمها عندهم - ليس من تصنيفه يقيناً. بل ضيعوه بعدما حرفوه لأن قدماء المسيحين كافه وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متى كان باللسان العبرانى. وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحيه. والإنجيل الموجود الآن «ترجمته» ولايوجد عندهم إسناد هذه الترجمة، حتى لا يُعْلَمْ إسم المترجم أيضاً باليقين إلى هذا الحين كما اعترف به «جيروم» من أفاضل قدمائهم ،فضلاً عن علم أوال المترجم. وقد أفاض فى البيان والشرح والإستشهاد.

وقد جاء فى كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» المترجم من الفرنسية إلى العربية أن «متى» قد كتب إنجيله فى أورشليم سنة ٣٩ للمسيح على ما ذهب إليه القديس «إيرونيموس» والسبب فى ذلك على ما هب إليه القديس «إبيفانوس» أنه إما إجابة لليهود الذين آمنوا بالمسيح أوإجابه لأمر الرسل ولم يكتب إنجيله باليونانية بل بالعبرية على زعم «أوسيبوس» فى تاريخه. وقد وافق «أوسيبوس» القديس «أورينموس» أن

«باتينوس» إذا كان قد ذهب ليكرز بالإيمان المسيحى فى الهند وجد إنجيلاً لمتى الرسول مكتوباً بالعبرانيه فجاء إلى الإسكندرية وبقى محفوظاً فى مكتبه قيصر إلى أيامه. لكن هذه النسخة العبرانية قد فقدت وبعد فقدها ظهرت ترجمتها فى اليونانية فلم يعرف الذى كان ترجمها.

٢ ـ إنجيل مرقس:

قال بطرس قرماج فى كتابه «مروج الأخبار فى تراجم الأبرار» المطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٠ ماملخصه: إن مرقس هذا كان يهودياً لاويا. وهو تلميذ لبطرس، ولد بإقليم الخمس مدن، وصنف إنجيله بطلب أهل روميه، وكان ينكر إلهيه المسيح، ولم يذكر فى إنجيله مدح المسيح لبطرس ومات مقتولاً فى سجن الإسكندرية سنة ٦٨ ميلاديه، قتله الوثنيون.

وقد إختلف المسيحيين فى تاريخ تأليف إنجيله. قال مؤلف كتاب « مرشد الطالبين» فى صفحة ١٧٠ أن إنجيل مرقس كتب بتدبير بطرس سنه ٦١ لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته.

٣ ـ إنجيل لوقا:

يقل اختلاف النصارى فى إنجيل لوقا عن اختلافهم فى إنجيل متى. وقد كان لوقا طبيباً من أهل أنطاكية ولم يرى المسيح أصلاً، وقد لقن النصرانيه عن « بولس» وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم يرى المسيح فى حياته. وكان يسيئ إلى النصارى إساءات متصلة. ولما رأى أن إضطهاده للنصرانية لا يجدى عمد من طريق الحيله إلى الدخول فيها وأظهر الإعتقاد بالمسيح وادعى أنه صرع، وفى حال صرعه لمسه المسيح وزجره عن الإساءة إلى متبعيه، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله وانطلت حيلته على الكنيسة، وهو الذى جعل النصارى يمرقون من واجبات الناموس الذى ما جاء المسيح لإبطال أحكامه، ولكن جاء لتأييدها فأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر وعلم بأن الإيمان وحده كاف فى النجاة بدون عمل. . . . إلخ.

وليعلم القارئ أن «لوقا» أتى فى إنجيله بزيادات عما ذكره « متى» تبلغ نيفاً وعشرين محلاً بعضها معجزات وبعضها حكايات أخرى. وأما زيادته عن مرقس فكثيرة جداً.

٤ ـ إنجيل يوحنا:

يذهب كثير من المسيحيين إلى أن يوحنا الإنجيلى هو يوحنا أحد تلاميذ المسيح الإثنى عشر وأبوه « زبدى» الصياد. ولد فى بيت صيدا من الجليل وأنه هو الذى كان يحبه عيسى جداً.

قال جرجس زوين الفتوحى اللبنانى: إن «شيرينطوس» و«أبيسون» وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً، وأنه لم يكن قبل أمه مريم، فلذلك فى سنه ٩٦ اجتمعوا ـ أى عموم أساقفه آسيا وغيرهم ـ عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادى بإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون، وأن يكتب بنوع خصوصى لاهوت (إلهية) المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم.

وقد اضطربت كلمة المسيحيين فى السنة التى ألف فيها إنجيل يوحنا، فمن قائل سنة ٦٥، ومن قائل سنه ٩٦ ومن قائل سنة ٩٨. وكثير من علماء النصرانية أنكروا أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ. فمن ذلك ما كتبه « إستادلن» ونقله عنه صاحب كاتوليك هوالد فى صفحة (٢٠٥) من المجلد السابع المطبوع سنه ١٨٤٤ ونصه « إن كافة إنجيل يوحنا تصنيف طالب من طلبه المدرسة الإسكندرية».

وقال « برطشيد» إن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل صنفها أحد تلاميذه باباً فألحقت كنيسة «أفاس» الباب الحادى والعشرين بعد موت يوحنا.

ومن ذلك نعلم أن الكتاب المذكور كتب لغرض خاص هو إثبات إلهية المسيح والقضاء على التعاليم التى كانت تؤكد أنه إنسان.

ولاختلاف مصنفى الأناجيل اختلفت مصنفاتهم، فبعضهم يذكر فى إنجيله حالات أو عجائب لا يذكرها البعض الآخر، أو يروى الخبر الواحد فى إنجيل بعبارة تناقض بالزيادة أو النقص ما ذكر فى الإنجيل الآخر. وقد ذكرنا بعض هذه الاختلافات فى بيان معجزات عيسى عليه الصلاة والسلام.

٥ ـ إنجيل برنابا:

كان «برنابا» من أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته والتبشير باقتراب ملكوت السموات وقد جاء عنه فى كتاب الأعمال ص ٢ (٣٦) ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم إبن الوعظ، وهو لاوى قبرصى. وكان هذا الرجل موثوقاً به فى الكنيسة ثقة تامة وينذب لوعظ الناس المدعوين للدخول فى الدين. ص١١ (٢٢) فسمع الخبر عنهم فى أذان الكنيسة التى فى أورشليم فأرسلوا برنابا لكى يجتاز إلى أنطاقيه (٢٣) الذى لما أتى ورأى نعمه الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب (٢٤) لأنه كان رجلا صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان فإنضم إلى الرب جمع غفير. ص١١ (٢٩) فحتم التلاميذ حسبما تيسر لكل منهم أن يرسل كل واحد شيئاً خدمة إلى الأخوة الساكنين فى اليهودية (٣٠) ففعلوا ذلك مرسلين إلى المشايخ بيد برنابا وشاول. ص١٢ (٢٥) ورجع برنابا وشاول من أورشليم بعد ما كملا الخدمه وأخذا معهما يوحنا الملقب مرقس.

ص١٣ (٢) وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس أفرزوا إلى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه.

ص١٥ (١١) لكن بنعمه الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضاً.

(١٢) فسكت الجمهور كله وكانوا يسمعون برنابا وبولس يتحدثان بجميع ما صنع الله من الآيات والعجائب فى الأمم بواسطتهم.

ص١٣ (٣٤) أنه أقامه من الأموات غير عتيد أن يعود أيضاً إلى فساد فهكذا قال إنى سأعطيكم مراحم داود الصادقة (٣٥) ولذلك قال أيضاً فى مزمور آخر لن تدع قدوسك يرى فساداً (٣٦) لأن داود بعد ما خدم جيله بمشوره الله وقد انضم إلى آبائه ورأى فساده (٣٧) وأما الذى أقامه الله فلم يرى فساداً.

ص١٥ (١) وانحدر قوم من اليهود وجعلوا يعلمون الإخوة أنه إن لم تختنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا، فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة المعنى رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى

أورشليم من أجل هذه المسألة.

ص ١٥ (٢٩) أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم المخنوق والزنا التى إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون. وكونوا معافين.

ص١٥ (٣٥) أما بولس وبرنابا فأقاما فى أنطاقية يعلمان ويبشران مع آخرين كثيرين، أيضاً بكلمة الرب من هذه المقدمة وما جاء عن برنابا فى كتبهم أنه من أتباع المسيح ومن الحواريين أو (التلاميذ) كما كانوا يطلقون عليهم وعددهم اثنى عشر. وكان من المميزين فى إخلاصهم بنشر الدعوة واقتراب ملكوت السموات. وهذا الرجل (برنابا) وُجِد له إنجيل كان من الأولى به أن يكون من أهم أناجيلهم ولكنه من وجهة نظرهم أخطأ خطأ فادحاً.. لماذا؟ سأجيبكم فيما يأتى وإنجيل برنابا شأنه شأن باقى الأناجيل متى ولوقا ويوحنا ومرقس يحكى قصة وهو منقطع السند كباقى الأناجيل الأربعة وهذا الإنجيل يقول فيه مترجمة الدكتور «خليل سعادة» يرحمه الله. تضاربت فيه آراء الباحثين وتشعبت بخصوصه مذاهب المؤرخين وخبطوا فيه ضلالة وهدى وتلمسوا حقيقة بين رشاد وهوى واستنطقوا الآثار والأسفار واستفسروا الأعصار والأمصار فما ظفروا بعد كل ذلك بما يشفى منهم عليلاً أويبرد لهم غليلاً.

وهذ الإنجيل كانت نسخته بمكتبة البابا «سكنس» بروما (الفاتيكان) واختلسها أسقف يقال له «فرامرينو» حين عثر عليه مصادفة فقرأها وأعتنق الإسلام. ذلك فى أواخر القرن السادس عشر. ويقول المترجم: أنه يرى أن كاتب إنجيل برنابا يهودى أندلسى متمكن من الديانة اليهودية والإطلاع عليها قد تنصر واطلع إطلاعاً عظيماً على النصرانية. ثم أسلم وأطلع على الديانة الإسلامية. ويرى أن هذا الحل أقرب إلى الصواب. ثم قال: وبعد كل ما تقدم فإن هذا الإنجيل قد أتى على آيات باهرة من الحكمة وطراز راق من الفلسفة الأدبية وأساليب تسحر الألباب ببلاغتها السامية على ما فيها من البساطة فى التعبير، وهو يرمى إلى ترقية العواطف البشرية إلى أفق سام وتنزيهها عن الشهوات البهيمية، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حاثاً على الفضائل مقبحاً للرزائل داعياً الإنسان إلى تضحية نفسه فى سبيل الإحسان إلى الناس حتى يزول منه كل أثر للأنانية ويحيا لنفع إخوانه.

وقال ناشره «السيد محمد رشيد رضا» فى مقدمته: لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا فى أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذى أصدره البابا «جلاسيوس الأول» فى بيان الكتب التى تحرم قراءتها. فقد جاء من ضمنها (إنجيل برنابا) وقد تولى «جلاسيوس » البابوية فى أواخر القرن الخامس للميلاد أى قبل بعثة نبينا محمد ﷺ على أن بعض علماء أوروبا يرتابون اليوم فى ذلك المنشور كما ذكر الدكتور «سعادة» فى مقدمته وإنجيل برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير، وسمو التفكير، والحكمة الواسعة والدقة البارعة، والعبارة المحكمة والمعنى المنسجم، حتى أنه لولم يكن كتاب دين لكان فى الأدب والحكمه كتاباً من الدرجة الأولى.

لماذا أنكر المسيحيين إنجيل برنابا

مع قوة النسبة فى هذا الإنجيل لاتقل عن قوة النسبة فى أناجيلهم الأربعة كما ذكرنا؟ الجواب عن ذلك أن المسيحين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم ووسائلهم فى مسائل جوهرية فى العقيدة، ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد فى مصادر الدين، لتعرف أى الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى، أذلك الإنجيل بما خالف أم الرسائل والأناجيل التى توارثوها؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار، كما سبق أسلافهم إلى إنكاره من قبل.

والأمور التى خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيين الآن تتلخص فى أربعة أمور:

أولها: أنه لم يعتبر المسيح ابن الله، ولم يعتبره إلهاً، وقد ذكر ذلك فى مقدمته فقال: «أيها الأعزاء أن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم، والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذى أمر الله به دائماً مجوزين كل لحم نجس، الذين ضل فى عدادهم أيضاً بولس الذى لاأتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته.

ويقول فى آخر الفصل الثالث والتسعين: أجاب الكاهن أن اليهودية قد اضطربت

لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله. فاضطررت بسبب الشعب إلى أن اتى إلى هنا مع الوالى الرومانى والملك هيرودس فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التى ثارت بسببك، لأن فريقاً يقول أنك الله، وآخر يقول أنك ابن الله، ويقول فريق أنك نبى. أجاب يسوع «وأنت يارئيس الكهنة، لماذا لم تخمد الفتنة، وهل جننت أنت أيضاً، وهل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التى ضللها الشيطان. ولما قال يسوع هذا عاد فقال: أنى أشهد أمام السماء. وأشهد كل ساكن على الأرض. أنى برئ من كل ماقال الناس عنى، من أنى أعظم من بشر، لأنى بشر مولود من إمرأة وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام».

ويقول فى الفصل السبعين: «أجاب يسوع: وما قولكم أنتم فى؟ أجاب بطرس: (إنك المسيح ابن الله) فغضب حينئذ يسوع. وانتهره بغضب قائلاً: إذهب . وانصرف عنى لأنك أنت الشيطان. وتريد أن تسئ إلى»

الأمر الثانى: أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو إسماعيل. وليس باسحاق، كما مذكور فى التوراة. وكما يعتقد المسيحين. وهذا نص ماجاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام: «الحق أقول لكم أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا، لأن الملاك قال: ياإبراهيم. سيعلم العالم كله كيف يحبك الله. أجاب إبراهيم قائلاً:؟ خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحه». فكيف يكون إسحاق البكر. وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين.

الأمر الثالث: هو كما يقول الدكتور سعادة: أن مسيا أوالمسيح المنتظر ليس هو يسوع، بل محمد وقد ذكر محمدا باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الذيول، وقال أنه رسول الله. وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور «لاإله إلا الله محمد رسول الله» ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا: «لاإله إلا الله محمد رسول الله». ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا «أن الآيات التى يفعلها الله على يدى تظهر أنى أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلا لأن أحل رباطات أوسيور حذاء رسول الله الذى تسمونه

مسيا، الذى خلق قبلى، وسيأتى بعدى بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية».

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى التبشير بمحمد ﷺ. لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به، فصرح بما يعلن حقيقته، ويبين ماله من شأن.

الأمر الرابع: أن هذا الإنجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب ولكن شبه لهم، ألقى الله شبهه على يهوذا الإسخريوطى، ويقول فى ذلك برنابا: «الحق أقول أن صوت يهوذا، ووجهه، وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن إعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافه أنه يسوع قال أنه لايموت إلى وشك إنقضاء العالم لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم».

ثم يبين أن يسوع طلب من الله أن ينزله إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه، فنزل ثلاثة أيام، ثم يقول «ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات، وقام قائلاً [أتحسبوننى أنا والله كاذبين]، لأن الله وهبنى أن أعيش، حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم، والحق أقول لكم أنى لم أمت بل يهوذا الخائن. احذروا، لأن الشيطان سيحاول أن يخدعكم. ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل، وفى العالم كله. لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها».

هذا هو إنجيل برنابا فى بعض نصوصه. وهذا ما خالف بقية الأناجيل من مسائل جوهرية، وفى الحق أنه خالف المسيحية القائمة فى خصائصها التى إمتازت بها، فإن تلك المسيحية إمتازت بالتثليث وبنوه المسيح وألوهيته، وكان هذا شعارها الذى به تعرف، وعلامتها التى بها تتميز، وقد خالف كل هذا وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة فى ذلك الأمر الجوهرى ثابتة وهو ينسب الى قديس من قديسيهم فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهرانى المسيحيين لها وقارا رجه فكرية عنيفة، اهتزت بسببها المشاعر والمنازع، فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً مادام قد أتى بمالايعرفونه هم، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية، ينتهون فيها إلى نقضه جملة، أوقبول بعضه، ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة الثابتة بسند أقوى من سنده، ومتن أقرب إلى العقل والفكر من متنه.

ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته، وموازنة نصوصه بالتوراة والأناجيل ورسائل رسلهم، بل القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم، ومما هو مشهور عند المسلمين.

وأن أجل خدمة تسرى إلى الأديان والإنسانية، أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه، وتأتى لنا بالبينات الدالة على هذا النقض، وتوازن بين ماجّاء فيه وماجاء في رسائل بولس.

ليعرف القارئ والباحث أيهما أهدى سبيلا، وأقرب إلى الحق وأوثق به اتصالاً.
هذا بعض ما جاء من كلام الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة يرحمه الله.

ومهما كان من أمر فإن إنجيل برنابا واحد من الأناجيل التى ألفت فى قصة المسيح وإن كان يمتاز عن سائرها بالبلاغة. ودقة التعبير، ويصرح بأمور لعلها هى التى زهدت بالكنيسة فيه حتى حرمه «البابا جلاسيوس» ومن ذلك التصريح باسم (محمد) فى كثير من المواضع وهذا هو خطأه الفادح من وجهة نظرهم. كيف يعقل عن المسيح ذلك؟

ونحن نقول ذلك استناداً إلى إنجيل يبشر بالرسول محمد ﷺ فنحن لا نحتاج إلى مساندة والحمد لله على نعمة الإسلام. ولا نقول فى إنجيل برنابا أنه لايأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه. بل لأن روايته للحوادث أبين وإستقصاءه للأخبار أتم. وإن كان فى نظرى لاتخلو بعض الموضوعات فيه من المبالغات الشعريه.

على أن الدكتور «سعادة» مترجم إنجيل برنابا قال فى مقدمته. بعد أن أفاض فى الاحتمالات والآراء فى إنجيل برنابا بيد أن هناك إنجيلاً يسمى بالإنجيل «الأغنطسى» طمست رسومه وعفت آثاره يبتدئ بمقدمه تندد بالقديس «بولس» وينتهى فيها مثل ذلك من إنجيل برنابا. فمن المحتمل أيضاً أن كاتب الإنجيل «الأغنطسى» أبا لإنجيل برنابا والعكس أيضاً محتمل.

ولو أن إخواننا المسيحيين أبقوا جميع الأناجيل ولم تحرم الكنيسة قراءتها لوصلت إلينا. ولو على نوع من التحريف وكانت معرضاً جميلاً. ولكن ذلك التحريم أحرق

تلك الأناجيل. . . أقول تلك الأناجيل وليس ذلك الإنجيل.

والأناجيل الأربعه التى أقرتها الكنيسة تختلف فى عدد إصحاحاتها. . ،بيانها كالآتى

إنجيل متى: وهو من الحواريين الإثنى عشر وبشر بإنجيله باللغة السريانية بأرض فلسطين. بعد صعود المسيح عليه الصلاة والسلام بثمانى سنين وعدد إصحاحاته ثمانية وستون إصاحاً (٦٨).

إنجيل مرقس: وهو من السبعين وبشر بإنجيله باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد صعود المسيح عليه الصلاة والسلام بإثنى عشرة سنة وعدد إصحاحاته ثمانية وأربعين إصحاحاً (٤٨).

إنجيل لوقا: وهو من السبعين وبشر بإنجيله بالإسكندريه باللغة اليونانية وعدد إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً (٨٣).

إنجيل يوحنا: وهو من الإثنى عشر وبشر بإنجيله فى مدينة أفسس. من بلاد رومية بعد صعود المسيح بثلاثين سنة وعدد إصحاحاته فى النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً (٣٣).

إنجيل الصبوه: وذكر فيه الأشياء التى صدرت عن المسيح فى طفولته ويذكر فيه قدوم المسيح عليه السلام وأمه رضى الله عنها ويوسف النجار إلى مصر.

حتى ماذكر فى الأناجيل ومؤلفيها هناك إختلاف كما لاحظت أيضا عزيزى القارئ عدد الإصحاحات فيها ٦٨، ٤٨، ٨٣، ٣٣. . هل يجوز كل هذا التفاوت وأين كتاب الله فيهم.

بل أن من كتبوا هذه الأناجيل مشكوك فى أنهم من التلاميذ أوحتى تلاميذ التلاميذ

فيقال عن (متى) أن النصارى يجهلون إلى اليوم بأى لغه كتب إنجيله. وغالب ظنهم أنه كتبه باللغة العبرانية ويقال أيضاً عن (لوقا) أنه من السبعين. فإنه لم يكن منهم ولم يرى المسيح وإنما سمع عن المسيح من القوم الذين شاهدوه. أما (يوحنا) فليس مؤكداً أنه

أحد الإثنى عشر لأن الغرض من كتابه هذا الإنجيل إثبات لاهوتية المسيح وذلك كان آخر القرن الأول الميلادى كما ذكرنا فلابد أن يكون يوحنا آخر غير الحوارى.

أما الآن بعد أن عدلت الكنيسه وأضافت وحذفت فأصبح عدد الإصحاحات فى الأناجيل هو متى ٢٧ـ مرقس ١٦ـ لوقا ٢٤ـ يوحنا ٢١ (لاحظ الفرق بينهما)

حتى الحواريين إختلفوا فى أسمائهم فهم عند متى:

(سمعان) الذى يقال له بطرس ـ (أندراوس) أخو سمعان بطرس ـ (يعقوب) بن زبدى.ـ (يوحنا) أخو يعقوب بن زبدى ـ (فيلبس) ـ (برثو لماوس) ـ (توما) ـ (متى العشار) ـ (يعقوب) بن حلفيـ (لباوس) الملقب تداوس ـ (سمعان القانونى) ـ (يهوذا الإسخربوطى)

وهم عند برنابا:

ـ (أندراوس) ـ (بطرس الصياد ـ سمعان) ـ (برنابا) ـ (متى العشار) ـ (يوحنا) بن زبدى ـ (يعقوب) بن زبدى ـ (تداوس) ـ (يهوذا) ـ (برثولماوس) ـ (فيبس) ـ (يعقوب) بن حلفي ـ (يهوذا الإسخربوطى).

ومن ذلك نرى أن برنابا نقص اسمه من الحواريين عند متى إثنين وهما «توما» و«سمعان الغيور» المعروف بالقانونى ووضع مكانهما اسمه واسم «تداوس» فهل الصواب معه؟ ولكن الكنيسه لما رأت إنجيله يخالف ماتهوى حذفت إسمه واسم «سمعان» من بين التلاميذ لأنهما كانا متطابقين فى الرأى؟ قد يكون ذلك وأنهم إكتفوا فى عقابه بهذا مع بقاء إسمه بين الرسل الذين حملوا قسطاً عظيماً فى نشر الدعوه والتبشير بإقتراب ملكوت السموات.

وماكان من الأمر فقد عرفنا أسماء الحواريين على إختلاف رأيى متى وبرنابا.

هؤلاء الحواريون الذين إستجابوا للمسيح عليه السلام، وهم الذين بثهم فى القرى اليهودية ليدعوا الكفار بدعوه المسيح ومن غلا فى شأنه أو كذبه ورد دعوته.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ [المائده: ١١١]

الكتب السماوية أربعة ومواقيتها

قال أبو زرعه الدمشقى: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنى معاويه بن صالح، عمن حدثه.

قال: أنزلت التوراة، على موسى فى ست ليال خلون من شهر رمضان (٦ رمضان)

ونزل الزبور على داود فى إثنى عشر ليلة خلت من شهر رمضان (١٢ رمضان) وذلك بعد التوراه بأربعمائه سنة وإثنين وثمانين سنة (٤٨٢ سنه)

وأنزل الإنجيل على عيسى فى ثمانى عشر ليلة خلت من شهر رمضان (١٨ رمضان) بعد الزبور بألف عام وخمسين عاما. وأنزل الفرقان على محمد (ﷺ) فى أربع وعشرين من شهر رمضان (٢٤ رمضان . بعد الإنجيل بستمائة سنة(٦٠٠).

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثلاثين سنه ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

أحاديث نبوية فى عيسى ووصف محمد عليهما الصلاة والسلام ووصف أمة محمد

قال إسحاق بن بشر: وأنبأنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ومقاتل عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة قال: «أوحى الله عز وجل إلى عيسى جدٍّ فى أمرى ولاتهن واسمع وأطع ياإبن الطاهره البكر البتول إنك من غير فحل وأنا خلقتك آية للعالمين، إياى فاعبد وعلى فتوكل، خذ الكتاب بقوة، فسر لأهل السريانية بلغ من بين يديك أنى أنا الحق الحى القائم الذى لا أزول، صدقوا النبى الأمى العربى صاحب الجمل والتاج (العمامة) والمدرعة والنعلين والهراوة (القضيب) الأنجل العينين الصلت الجبين، الواضح الخدين الجعد الرأس الكث اللحيه المقرون الحاجبين الأقنى الأنف المفلج [(١)] الثنايا، البادى العنفقه [(٢)] الذى كأن عنقه إبريق فضة، وكأن الذهب يجرى فى تراقبه، له شعرات من لبته إلى سرته تجرى كالقضيب، ليس على بطنه ولاعلى صدره شعر غيره، ششن [(٣)] الكف والقدم إذا إلتفت إلتفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر، وينحدر من صبب [(٤)] عرقه فى وجهه كاللؤلؤ وريح المسك تنفح منه ولم ير قبله

(١) المفلج: تباعد بين الأسنان. (٢) العنفقه: الشعيرات الخفيفة بين الشفة السفلى والذقن

(٣) ششنت كفه: غلظت وخشنت. (٤) الصبب: تصبب النهر بكوفى حدور.

ولابعده مثله، الحسن القامة الطيب الرمح نكاح النساء، ذا النسل القليل إنما نسله من مباركة لها بيت يعنى فى الجنة من قصب لانصب فيه ولاصخب، تكفله ياعيسى فى آخر الزمان، كفل زكريا أمك له منها فرخان مستشهدان وله ندى منزلة ليست لأحد من البشر.

كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه.

قال عيسى: يارب وما طوبى؟ قال: (غرس شجرة أنا أغرستها بيدى، فهى للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم، وبردها برد الكافور، وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربه لم يظمأ بعدها أبداً) قال عيسى: يارب اسقنى منها. قال: حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبى وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمه ذلك النبى. قال: يا عيسى أرفعك إلىّ. قال: رب ولم ترفعنى؟ قال: (أرفعك ثم أهبطك فى آخر الزمان، لترى من أمه ذلك النبى العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال أهبطك فى وقت صلاة ثم لا تصلى بهم لأنها مرحومة ولانبى بعد نبيهم)

قال: «يارب أنبئنى عن هذه الأمة المرحومه قال: أمه أحمد هم علماء حكماء كأنهم أنبياء يرضون منى القليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلاإله إلا الله. ياعيسى هم أكثر سكان الجنه لأنه لم تذل ألسن قوم قط بلاإله إلا الله كماذلت ألسنتهم، ولم تزل رقاب قوم قط بالسجود كماذلت به رقابهم».

روى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلى عن عبد الله بن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: أنزلنى من نفسك كهمك، واجعلنى ذخراً فى معادك، وتقرب إلى بالنوافل أحبك، ولاتول غيرى فأخذلك، أصبر على البلاء وارض بالقضاء وكن لمسرتى فيك فإن مسرتى أن أطاع فلاأعصى، وكن منى قريبا وأحيى ذكرى بلسانك، ولتكن مودتى فى صدرك تيقظ من ساعات الغفلة واحكم فى لطيف الفطنة وكن لى راغباً راهباً، وأمت قلبك فى الخشية لى، وراع الليل لحق مسرتي، واظم نهارك ليوم الرى عندى، نافس فى الخيرات جهدك واترف بالخير حيث توجهت، وقم فى

الخلائق بنصيحتى، واحكم فى عبادى بعدلى، فقد أنزلت عليك شفاء وسواس الصدور من مرض النسيان، وجلاء الأبصار من غشاء الكلال، ولاتكن حلسا [١] كأنك مقبوض وأنت حتى تتنفس. ياعيسى ابن مريم ماآمنت بى خليقة إلا خشعت، ولا خشعت لى إلا رجت ثوابى فأشهدك أنها آمنة من عقابى مالم تغير أوتبدل سنتى. ياعيسى ابن مريم البكر البتول إنك على نفسك أيام الحياه بكاء من ودع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها، وارتفعت رغبته فيما عند إلهه، وكن فى ذلك تلين الكلام، وتفشى السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذرا ماهو آت من أمر المعاد، وزلزال شديد الأهوال قبل أن لاينفع أهل ولامال، وأكحل عينك بملول [٢] الحزن إذا ضحك البطالون وكن فى ذلك صابراً محتسباً وطوبى لك إن نالك ماوعدت الصابرين أرج من الدنيا بالله يوماً بيوم وذق مذاقه ماقد حرب منك، أين طعمه؟ ومالم يأتك كيف لذته لله فرح من الدنيا بالبلغة وليكفك منها الخشن الجشيب قد رأيت إلى مايصير، إعمل على حساب فإنك مسؤول، لورأت عيناك ما أعددت لأوليائى الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك.

عيسى فى البرية

كان عيسى عليه الصلاة والسلام بعد أن ترك أمه للمهمة التى كلفه الله بها وهى هداية خراف بيت إسرائيل الضالة. وإعادتهم إلى رشادهم وعبادتهم لله وحده. كان عيسى يسيح فى البرية ليس له منزل يأوى إليه، إنما يسيح فى الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به، فكان أول من أحيا من الموتى أنه مر ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهى تبكى فقال لها: مالك أيتها المرأة؟ فقالت: ماتت إبنتى لم يكن لى ولد غيرها وإننى عاهدت ربى أن لاأبرح من موضعى هذا حتى أذوق ماذاقت من الموت، أو يحييها الله لى فإنظر إليها. فقال لها عيسى: أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟ قالت: نعم. قالوا: فصلى ركعتين. ثم جاء فجلس عند القبر فنادى يافلانة قومى بإذن الرحمن فاخرجى. قال: فتحرك القبر. ثم نادى الثانية فانصدع القبر بإذن الله. ثم نادى الثالثة

---

(١) الحلس: الذى لايبرح المكان..

(٢) ملول: جمع مله وهو رماد حار ينضج فيه الخبز.

فخرجت وهى تنفض عن رأسها من التراب، فقال لها عيسى: ما أبطأ بك عنى؟ فقالت: لما جاءتنى الصيحة الأولى بعث الله لى ملكاً فركب خلقى. ثم جاءتنى الصيحة الثانية. فرجع إلى روحى، ثم جاءتنى الصيحة الثالثة. فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسى وحاجباى وأشفار عينى من مخافة القيامة. ثم أقبلت على أمها. فقالت: ياأماه ماحملك على أن أذوق كرب الموت مرتين؟ ياأماه اصبرى واحتسبى فلاحاجة لى فى الدنيا، ياروح الله وكلمته سل ربى أن يردنى إلى الآخرة وأن يهون على كرب الموت، فدعى ربه فقبضها إليه وإستوت عليها الأرض فبلغ ذلك اليهود فإزدادوا عليه غضبا.

طبيعة معجزات الأنبياء

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، فذكروا أن موسى عليه الصلاة والسلام كانت معجزته ممايناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر ومايننتهى إليه، وعاينوا ماعاينوا من الأمر الباهر الهائل الذى لايمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له، أسرعوا بالسجود لله والدخول فى دين موسى إسلاماً لرب العالمين وهكذا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. بعث فى زمن الطبائعية الحكماء البارعين فى الطب وعلاج المرضى فأرسل بمعجزات لايستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنّى لحكيم إبراء الأكمه؟ الذى هو أسوأ حالاً من الأعمى والأبرص والمجزوم ومن به مرض مزمن وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره هذا مما يعلم كل أحد معجزة داله على صدق من قامت به وعلى قدره من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فَلَفْظُهُ معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أوبسورة وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لافى الحال ولافى الإستقبال فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وماذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل والله تعالى لايشبهه شئ لافى ذاته ولافى صفاته ولافى

أفعاله.

حديث فى أوصاف الرسل

عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة. قال: قال النبى ﷺ **«ليلة أسرى بى رأيت موسى قال فنعته فإذا رجل حسبته قال: مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة». قال: ولقيت عيسى فنعته النبى ﷺ فقال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس»** يعنى الحمام **«ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به»** (١).

وعن محمد بن كثير أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيره عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال النبى ﷺ : **«رأيت عيسى وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر وأما موسى فآدم جسيم سبط (٢) كأنه من رجال الزط»**(٣).

من أقوال عيسى وأفعاله عليه الصلاة والسلام

ـ قال إسحاق بن بشر عن هشام بن حسان عن الحسن قال: إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة قال وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى. قال: وبينما عيسى يوما نائم على حجر قد توسده، وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال: ياعيسى ألست تزعم أنك لاتريد شيئاً من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا. فقال: فأخذ الحجر ورمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا.

ـ قال معتمر بن سليمان: خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافياً باكياً شعثاً مصفر اللون من الجوع، يابس الشفتين من العطش. فقال: السلام عليكم يابنى إسرائيل، أنا الذى أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولاعجب ولافخر أتدرون أين بيتى؟ قالوا: أين بيتك ياروح الله؟ قال: بيتى المساجد وطيبى الماء وإدامى الجوع وسراجى القمر بالليل وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وريحانى بقول الأرض ولباسى الصوف وشعارى خوف رب العزه وجلسائى الزمنى (٤) والمساكين، أصبح وليس

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، باب «٢٤، ٤٨») ومسلم فى (الإيمان، ح/ ٢٧٢).

(٢) سبط: طويل..

(٣) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الأنبياء، باب «٢٤، ٤٨») ومسلم فى (الإيمان، ح/٢٦٦).

(٤) الزمنى: الزمانه العاهه.

لى شئ وأمسى وليس لى شئ وأنا أطيب النفس غير مكوث فمن أغنى منى وأربح.

قال عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا.

وقال: سلونى فإنى لين القلب وإنى صغير عند نفسى.

وقال: كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين بحق ماأقول لكم أن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة وأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وأن عبادة الله ليسوا بالمتنعمين، بحق ماأقول لكم إن شركم عالم لم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله.

وقال: اعتبروا الدنيا ولاتعمروها، وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة والنظر يزرع فى القلب الشهوة وربَّ شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً.

وقال: يابن آدم الضعيف إتق الله حيث ماكنت، وكن فى الدنيا ضيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر، وقلبك التفكير، ولاتهتم برزق غد فإنها خطيئة.

وقال: كما أنه لايستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً فلايتخذ الدنيا قراراً.

وقال: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً إزداد عطشاً حتى قتله.

وقال: إن الشيطان مع الدنيا وفكره من المال، وتزينه مع الهوى وإستمكانه عند الشهوات.

ـ قال الأعمش عن خثيمة: كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول هكذا فاصنعوا بالقرى. وبه قالت إمرأه لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك ولثدى أرضعك. قال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه. وعنه طوبى لمن بكى من ذكر خطيئه وحفظ لسانه ويسعه بيته. وعنه: طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصيه وانتبهت

إلى غير إثم.

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ماأنتن ريحها!! فقال: ما أبيض أسنانها!! لينهاهم عن الغيبة.

ـ قال الثورى: سمعت أبى يقول عن إبراهيم التيمى: قال: قال عيسى لأصحابه:

(بحق أقول لكم من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير)

وقال عيسى عليه السلام: «اعملوا لله ولاتعملوا لبطونكم. انظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح، لاتحرث ولاتحصد والله يرزقها فإن قلتم: نحن أعظم بطوناً من الطير، فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر فإنها تغدوا وتروح لاتحرث ولاتحصد والله يرزقها.

ـ قال الحواريون للمسيح: يامسيح الله انظر إلى مسجد الله ماأحسنه قال: آمين آمين بحق أقول لكم لايترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لايصنع بالذهب ولابالفضة ولابهذه الأحجار التى تعجبكم شيئاً، إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.ـ حكى وهب وغيره عنه وعنه أنه قال لأصحابه :(أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلادواء لكم وإن فيكم خصلتين من الجهل من غير عجب والصبحه من غير سهر)

وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنه؟ قال:(زله العالم إذ يزل بزلته عالم كثير وعنه أنه قال: ياعلماء السوء جعلتم الدنيا على رؤسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء، مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها.

وقال: ياعلماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلاتدخلوها ولاتدعوا المساكين يدخلونها. إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه). وقال محكول:(التقى يحيى وعيسى فصافحه عيسى وهو يضحك،فقال له يحيى: يابن خاله مالى أراك ضاحكاً كأنك قد آمنت؟) فقال له عيسى: مالى أراك عابساً كأنك قد يئست؟ فأوحى الله إليهما أن أحبكما إلى أبشكما بصاحبه)

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: (قد كنتم فيما هو أضيق منه من أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسع وسع).

وقال أبو عمر الضرير: بلغنى أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً. والآثار فى مثل هذا كثيرة.

- طوبى للمساكين بالروح.. فإن لهم ملكوت السموات والأرض - طوبى للحزانى فإنهم سيتعزون - طوبى للودعاء فإنهم يسترثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر.. فإنهم سيشبعون - طوبى للرحماء.. فإنهم سيرحمون - طوبى لأنقياء القلب.. فإنهم سيعاينون الله - طوبى للمضطهدين من أجل الحق.. فإن لهم ملكون السموات.

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا . وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٩]

الله سبحانه وتعالى يقول أنه رفعه إلى السماء بعد ماتوفاه بالنوم إشفاقاً عليه.

كان من الممكن عزيزى القارئ وعزيزتى القارئة الاكتفاء بتلك الآيات المباركة الواضحة. حتى نرد على إدعاءات النصارى بصلب المسيح وقتله بوشايه اليهود وفعلهم.

ولكنا حرصًا على إيضاح وفضح ومقارنة ما يقولون فى أناجيلهم التى اختلفت

حتى فى عملية الصلب عمن حضر منهم وقت القبض على شبيهه ومن حضر التحقيق معه ومن حضر عمليه الصلب والقيام الذى إدعوه من القبر. فسأوجز فيمايلى قدر المستطاع ماجاء فى أناجيلهم ومكائدهم له.

أثارت دعوة عيسى إلى عباده الله وحده لاشريك له كهنة اليهود.

فقد كانت دعوته تهديداً لهم فى منزلتهم أمام الناس وفى ثرواتهم التى يجنونها من صناديق النذور التى ينذرها الناس وهم فى أمس الحاجة لها. لقد هاجمهم عيسى كثيراً وآن الأوان لهم أن يتخلصوا منه ولكن قبل ذلك يجب عليهم أن يضعوه أمام الناس فى حرج لايجد لنفسه فيه مخرجاً.

كانت شريعة موسى تقضى برجم الزانية (كما فى الإسلام وكل الأديان فالمشرع واحد هو الله) وأحضر كهنه اليهود إمرأه خاطئه تستحق الرجم. والتفوا حول عيسى فى المعبد يسألونه؟ ألا تقضى الشريعة برجم الخاطئه؟ قال عيسى نعم. قالوا هذه المرأة زانية.

نظر عيسى إلى المرأة ونظر إلى الكهنة . كان يعلم أن الكهنة أعظم خطأ من المرأة، كان يعرف أنهم أشد ظلماً منها. وكان الكهنة والناس من حولهم ينتظرون جوابه. فإن قال أنها تستحق القتل وأنها تستحق الموت فقد هدم بنفسه شريعة الحب والتسامح التى جاء بها.

فهم عيسى مايرمون إليه من مؤامرتهم.. وابتسم فأضاء وجهه ونظر إلى الكهنة، وعاد ونظر إلى المرأه وقال لهم (من كان منكم بلاخطيئة فليرمها بحجر)

إرتفعت كلمته وسط سكون المعبد تضع قانوناً جديداً للحكم على الخطأ.. ليحكم على الخطأ من لايخطئ. لايستحق أحد من البشر الخطاه أن يدين غيره من البشر أويحكم عليه.. إنما يحكم الله المنزه المتعال وحده.. والله أرحم الراحمين.

خرج عيسى من المعبد فأسرعت المرأة وراءه.. أخرجت من ثيابها قنينة بها عطر.. وهوت على قدميه تقبلها وتغسلها بالعطر والدموع. بعدها جففت قدميه بشعرها. كان المسيح يمثل لها ولغيرها. ذلك الأمل الأخير فى الخلاص.. وتلك القدره اللامتناهية

على الرحمة . . وخرج وراء عيسى بعض من الكهنة والناس وقف كبير الكهنة بينهم يعجب من أمر عيسى الذى يهدد مكانتهم بين الناس . ونظر إليه عيسى وسأله . دائن له مدينان : أحدهما مدين بخمسمائة دينار والآخر بخمسين . لم يكن مع أى منهما مايسدد دينه . . وسامحهما الدائن . قال الكاهن نعم . أيهما أكثر حبا له؟

قال الكاهن : الذى سامحه فى الأكثر .

قال عيسى : حكمت بالصواب . . انظر لهذه المرأة . . لقد دخلت أنا بيتك فلم تقدم لى ماء لغسل وجهى . . ولكنها غسلت وجهى بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها . . كذلك لم تقبلنى أنت قبلة واحدة ، لكنها لم تكف عن تقبيل قدمى . . ثم قال لكبير الكهنة قلبك أنت عظيم القسوة ، ولكنها تحمل قلباً يمتلئ بالحب . ومن أحب كثيراً غفرت له خطاياه .

استدار عيسى إلى المرأة وأمرها أن تنهض من الأرض وهو يقول أغفر لها خطاياها أراد عيسى أن يعلم كهنه اليهود أن الدعاه إلى الله ليسوا جلادين منتدبين لتطبيق حكم الشريعة دون نظر إلى المجتمع الذى تجرى فيه الخطيئة . إنما يجئ الدعاه إلى الله أساساً رحمه بالناس . إن إرسال النبى هو ذاته يعنى رحمة الله تعالى بقومه وزمانه . والرحمة هى هدف كل هذه الدعوات الإلهية أفلت عيسى من كيدهم منتصراً عليهم . . زاد مقتهم عليه وأمعنوا التفكير فى الوقيعة به .

يقول المفسرون أن عيسى أحيا أربعة أنفس .

العازر ، وكان صديقاً له . . وابناً لامرأة عجوز . . وبنتاً كانت وحيدة أمها . . وذكرنا ذلك قبلاً وهم ثلاثة ماتوا فى أيامه . . فلما رأى الكهنة ذلك قالوا له : إنك تحيى من كان موتهم قريباً فلعلهم لم يموتوا بل أصابتهم سكته (رغم أن العازر . . كان بعد أربعة أيام من موته) وطلبوا منه أن يبعث من الموت سام بن نوح .

يقول المفسرون أنه سألهم أن يدلوه على قبره . . فخرج القوم وهو معهم حتى انتهوا إلى قبره ، فدعا الله أن يحييه فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب رأسه .

قال له عيسى كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيب .

قال سام: ياروح الله إنك دعوتنى فسمعت صوتاً يقول: أجب روح الله فظننت أن القيامة قد قامت. فمن هول ذلك شاب رأسى.

ومهما يكن من أمر القصص التى تروى عن إحياء عيسى للموتى، فنحن لانعرف من السياق القرآنى تفصيلات محدده لذلك، كل مايذكره الله تعالى أن عيسى أحيى الموتى بإذنه، ونحن نصدق أنه أحياهم، وإن كنا لانعرف هل عادوا بعدها إلى الموت أم عاشوا فترة.

أفلت عيسى من كيدهم أيضاً.. رغم مارأوه بأعينهم إلا أنهم خوفاً على مكانتهم بين الناس والأموال الكثيرة التى يجنونها من نزورهم وفتاواهم وبيعهم المغفرة من الذنوب ووعود الجنة بالأموال. أمعنت شياطينهم فى الكيد له.. ولكن هذه المرة يجب أن يوقعوا بينه وبين الحاكم وكما جاء فى إنجيل متى إصحاح ٢٢ (١٥) حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمه (١٦) فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: يامعلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولاتبالى بأحد لأنك لاتنظر إلى وجوه الناس (١٧) فقل لنا ماذا تظن أيجوز أن تعطى جزيه لقيصر أم لا (١٨) فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجبروننى يامراؤون (١٩) أرونى معامله الجزيه. فقدموا له ديناراً (٢٠) فقال لهم لمن هذه الصورة والكتابة (٢١) قالوا لقيصر فقال لهم (إعطوا إذن مالقيصر لقيصر ومالله لله).

لم يفلح طوائف اليهود من الفريسيون ولاالصدوقيين وعادوا لشياطينهم من الإنس يمعنون فى التفكير.. لم يعد لنا حيلة معه فى إحراجه بين الناس وليكن هذه المرة وقيعتنا له تكون مباشره إلى الحاكم فى الكيد له والتدبير لقتله. واجتمع مجلس (السنهدريم) وهو المجلس التشريعى الأعلى لليهود للتآمر على عيسى.. وعاد التآمر يأخذ شكلاً جديداً فلما إختمر هذا الأمر فى أنفسهم شكوا أمره إلى الوالى. وزينوا شكواهم بما يستدعى إهتمام الوالى بأن إدعوا عليه أنه يقول أنه ملك اليهود وأنهم لايقرون بملك سوى قيصر رومية.

فأرسل الوالى جنداً للقبض على المسيح عيسى بن مريم فلما أتوا ولم يبق إلا القبض عليه.

العشاء الأخير

قال ابن جرير: وحدثنا المثنى. حدثنا إسحاق. حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال: أحضرونى الليلة فإن لى إليكم حاجة فلمااجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال: ألا من رد على شيئاً الليلة مماأصنع فليس منى ولاأنا منه، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ماصنعت بكم الليلة مماخدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدى، فليكن لكم بى أسوة؟ فإنكم ترون أنى خيركم فلا يتعظ بعضكم على بعض، ولبيذل بعضكم لبعض نفسه كما بذلت نفسى لكم، وأما حاجتى التى إستعنتكم عليها فتدعون الله وتجتهدون فى الدعاء أن يؤخر أجلى، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم، حتى لم يستطيعوا دعاء فجعل يوقظهم ويقول سبحان الله!! أما تصبرون لى ليلة واحدة تعينونى فيها؟ فقالوا والله ماندرى مالنا، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر، ومانطيق الليلة سمراً ومانريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال: يذهب بالراعى، وتتفرق الغنم، وجعل يأتى بكلام نحو هذا ينعى به نفسه ثم قال: الحق ليكفرن بى أحدكم، قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبعنى أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى .

الخيانة

خرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين. فقالوا: هذا من صحابه فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه. ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه. فلما أصبح أتى أحد الحواريين اليهود، فقال: ما تجعلون لى إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهما، فأخذها ودلهم عليه، وكان شبه عليه قبل ذلك، فأخذوه، واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه، ويقولون: أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون أفلا تنجى نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التى أرادوا أن

يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ماشبه لهم فمكث سبعاً ثم إن أمه والمرأة التى كان يداوبها عيسى فأبرأها الله من الجنون، جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب (إن كان مايزعمون حقاً. من قبضوا عليه هو المسيح لماذا لم يدفع الإيذاء الشديد عنه؟).

حديث عن لقاء العزراء وأختها بالمسيح بعد الصلب المزعوم

حكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب فيما بلغه: أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعه أيام، وهى تحسب أنه إبنها أن ينزل جسده، فأجابهم إلى ذلك ودفن هناك فقالت مريم لأم يحيى: ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ فقالت وممن أستتر؟ فقالت: من هذا الرجل الذى هو عند القبر؟ فقالت أم يحيى: إنى لا أرى أحدا، فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به فاستوقفته أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل وعرفته: يامريم أين تريدين؟ فقالت قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهداً به قال: يامريم إن هذا ليس المسيح إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا، ولكن هذا الفتى الذى ألقى شبهه عليه وصلب وقتل مكانه. وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلايدرون مافعلْ به، فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضه (١) كذا وكذا فإنك تلقين المسيح. قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضه. فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى فى الغيضه. فلما رآها أسرع إليها وأكبّ عليها، فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال: ياأمه إن القوم لم يقتلونى، ولكن الله رفعنى إليه وأذن لى فى لقائك، والموت يأتيك قريباً فاصبرى واذكرى الله كثيراً، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المره حتى ماتت. قال: وبلغنى أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنه رضى الله عنها وأرضاها.

حديث عن لقاء العزراء بالمسيح وعلامة يوم القيامة

روى الضحاك عن ابن عباس: أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه

---

(١) الغيضه: المكان الملتف بالشجر.

حتى جلس عليها، وجاءتة مريم فودعته وبكت، ثم رفع وهى تنظر، وألقى إليها عيسى برداً له وقال: هذا علامه مابينى وبينك يوم القيامة. وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها، وكانت تحبه حباً شديداً لأنه توفر عليها حبه من جهتى الوالدين إذ لاأب له، وكانت لاتفارقه سفراً ولا حضراً.

سبب تعظيم المسيحيين للصليب واتخاذه رمزاً للدين

بعد ما يقرب من ثلاثمائة سنة من صعود المسيح عليه الصلاة والسلام دخل الروم فى دين النصرانية وانتشر بينهم ففى عهد قسطنطين بن قسطن بانى المدينة المنسوبة إليه (القسطنطينية) كان اليهود لما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته، جعلوا مكانه مطرحاً للقمامه والنجاسة وجيف الميتات والقازورات، فلم يزل كذلك حتى كان فى زمان قسطنتين المذكور، فعمدت أمه هيلانه الحرانيه الفندقدانية فإستخرجته من هناك معتقدة أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التى صلب عليها المصلوب ومعها خشبتا اللصان اللذان صلبا معه. وحارت الملكة فى أيهم التى صلب عليها المسيح طبقاً لما يعتقدون فجاءها فى المنام من يقول لها أن تضع مريضاً عليها فإن عوفى على إحداها فتكون هى. ففعلت وعوفى على إحداها وذكروا أنه مامسها ذو عاهة إلا عوفى، فالله أعلم أكان هذا صحيحاً أم لا؟ وهل كان ذا لأن ذلك الرجل الذى بذل نفسه كان رجلاً صالحاً أوكان هذه محنة وفتنة لأمه النصارى فى ذلك اليوم حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ؟ ومن ثم اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها وأمرت أم الملك هيلانه فأزيلت تلك القمامة وبنى مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهى هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التى يقال لها: القمامة باعتبار ماكان عندها، ويسمونها القيامة يعنون التى يقوم جسد المسيح منها. ثم أمرت هيلانه بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقازوراته على الصخرة التى هى قبلة اليهود، فلم يزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس، فأزال عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى.

• • •

عقيدة الصلب والفداء عند النصارى

يقول النصارى فى ذلك أن (آدم) وهو أول كل البشر قد عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التى نهاه عن الأكل منها. فصار خاطئاً وصار جميع ذريته خطاه مستحقين للعقاب فى الآخرة بالهلاك الأبدى. وقد جاء جميع أبناء آدم خطاه مذنبين! فهم يحملون وزر ذنوبهم ووزر ذنب أبيهم الذى هو أصل لذنوبهم.

ولما كان الله تعالى من صفته العدل والرحمة، فمن عدله أنه لايترك الجريمة دون عقاب وإلا لم يكن عادلاً، والعقاب مناف للرحمة فلايكون رحيماً إذا عاقب ولابد من تحقق العدل والرحمة معاً للخروج من هذا الإشكال شاء الله أن يحل إبنه (تعالى) الذى هو بنفسه الله فى رحم امرأة من ذرية آدم، ويتجسد جنيناً فى رحمها ويولد منها فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة وإلهاً كاملاً من حيث أنه ابن الله ويكون معصوماً من جميع المعاصى، ثم بعد أن يعيش كما يعيش الناس ويأكل ويشرب مما يشربون ويتلذذ ويتألم كما يتلذذون ويتألمون، يأتى أعداء الله وأعداء شريعته ويقتلونه شر قتله وأفظعها، وهى أن يصلبوه ويسمروا يديه ورجليه فى الخشب، ثم يقتلوه بعد أن يلطموه على وجهه ويسخروا منه ويضفروا له إكليلاً من الشوك ويبصقوا فى وجهه! كل ذلك ليفدى البشر من جريمة لم يقترفها هو ولا هم. «أى إسفاف وأى تخريف هذا.. أى عقل يقبله؟» أعيدوا قراءة هذه العبارات وجردوا أنفسكم بالحيدية الكاملة للحكم على مايقولون.

(شاء الله أن يحل إبنه (تعالى) الذى هو نفسه الله فى رحم امرأة من ذرية آدم)

(ويتجسد جنيناً فى رحمها ويولد منها)

(فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث أنه ابن لتلك المرأة. وإلها كاملاً من حيث أنه ابن الله) لاأستطيع القول أكثر من.. الحمد لله على نعمة الإسلام.

تضاربهم فى المعتقدات يكشف جهلهم

أى عدل وأى رحمة أن يضع الخالق نفسه جنيناً فى رحم مخلوق ويولد ويسلم نفسه لفئة ضالة من خلقه يتفننون فى إيذائه والبصق عليه ووضع الشوك فى طريقه وطوقه فى

رأسه وحمله لصليبه الذى سيصلب عليه ويدقونه فيه من يديه ورجليه ويسقونه الخل والعلقم إمعاناً فى إيذائه والتهكم عليه وذلك كله لفداء البشر من خطيئة آدم بأكله من الشجرة االتى نهاه عنها.

ألا يكفى أن يغفر الله لآدم برحمته التى وسعت كل شئ ألا يكفى قول الله تعالى فى سورة البقرة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ . فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: ٣٥ ـ ٣٩] ألم يكن هبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض عقاب؟

ألم يكن من ذرية آدم بعضهم لبعض عدو حتى فى حياته وقتل قابيل لأخيه هابيل عقاب؟ ألم يكن تلقى آدم من ربه كلمات للتوبة بها إلى الله. . فتاب الله عليه. . هى الرحمة والفداء؟ ولكن مابقى من ذلك هو ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والعقاب على ما وصفوا يخالف ماجاء فى كتبهم المقدسه لديهم.

تثنيه. الإصحاح ٢٤ب (١٩) لايُقْتَلُ الآباء عن الأولاد ولايُقْتَلُ الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يُقْتَلُ ولأن الذى يعلق على خشبه ملعون من الله وكيف يلعن الله من لم يخطئ.

تثنيه. الإصحاح ٢١ب (٢٢) وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقته على خشبه (٢٣) فلاتبت جثه على الخشبة بل تدفنه فى ذلك اليوم لأن المعلق ملعون من الله. فلاتنجس أرضك التى يعطيك الرب إلهك نصيباً.

وعلى قول المسيحيين. قد بقى الله تعالى مجرداً عن صفتى العدل والرحمة من زمن عصيان آدم إلى أن إهتدى إلى تلك الحيلة التى ظهرت له قبيل خلق المسيح فى مريم . . تعالى آلله عما يصفون.

• • •

روايات عن من شبه بالمسيح

كثرت الروايات على شبيه عيسى عليه الصلاة والسلام يوم القبض عليه فمنها ما يؤكد أنه يهوذا الإسخربوطى وهو أحد الحواريين الإثنى عشر ومنها ما يقول أنه آخر وأحد هذه الروايات تقول لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه وفى البيت اثنى عشر رجلاً منهم من الحواريين يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بى، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا. فقال له: إجلس ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال: إجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا فقال: أنت هو ذاك فألقى عليه شبه عيسى ورفع عيسى من كوة فى البيت إلى السماء وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فصلبوه وقتلوه فكفر به بعضهم اثنى عشره مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق فقالت طائفة: كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ماشاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقه: كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء. ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها. فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث محمد ﷺ قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [الصف: ١٤]

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعوا الله عز وجل أن يؤخر أجله يعنى ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول فى دين الله. قيل وكان عنده من الحواريين اثنى عشر رجلاً: بطرس. ويعقوب بن زيدا. ويخنس أخو يعقوب. وإندراوس. وفليبس. وأبرثلما. ومتى. وتوماس. ويعقوب بن حلقيا. وتداوس. وفتاتيا. ويودس كريايوطا. وهذا هو الذى دل اليهود على عيسى.

قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجلاً آخر اسمه: سرجس كتمته النصارى، وهو الذى ألقى شبه المسيح عليه فصلب عنه، قال: بعض النصارى يزعم أن الذى صلب عن المسيح وألقى عليه شبهه هو: يودس بن كريايوطا والله أعلم.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم قال: سمعت الفراء يقول في قوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] قال: إنَّ عيسى غاب عن خالته زماناً فأتاها فقام رأس جالوت اليهودى فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب، ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى، فطمس الله عينيه عن عيسى، ثم خرج إلى أصحابه فقال، لم أره ومعه سيف مسلول فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فقال جل ذكره : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب القمى عن هارون بن عنترة عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعه عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقال لهم: سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً. فقال عيسى لأصحابه: من يشترى نفسه اليوم بالجنة؟ فقال رجل: أنا. فخرج إليهم. فقال أنا عيسى وقد صوره الله على صورة عيسى، فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم، وظنوا أنهم قتلوا عيسى، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

• • •

رواية لصلب المسيح لقلة من المسلمين

جعل النصارى من تعذيب المسيح وإهانته ولطمه على وجهه ووضع الشوك فى طريقه وحول رأسه والبصق عليه والاستهزاء به وحمله الصليب الخشبى الذى سيصلب عليه ودقه من يديه ورجليه بالمسامير وتقديم الخل والعلقم له ليشربه إمعاناً بالسخرية منه. جعلوا كل ذلك أصلا من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم لا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولابر ولاتقوى ولاإخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وقبل أن أخوض فيما جاء من اختلافات الأناجيل فى أحداث الصلب وما قبلها وما بعدها وحتى لاأكون قد أخفيت عن القارئ شيئاً مماطلعت عليه فى المراجع المختلفة. سأروى معتقد لبعض المسلمين فى هذه المسأله رغم عدم اقتناعى بها. وهى أن فى نجاة المسيح عليه السلام من عمليه الصلب سراً خاصاً وذلك أن (بيلاطس) الوالى لم ير فيه شراً ولا أمراً موجباً للقتل كما فى متى: إصحاح ٢٧ ب (٢٤): فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئاً بل بالجرى يحدث شغباً أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إنى برئ من دم هذا البار أبصروا أنتم.

لوقا: إصحاح ٢٣ (١٣) فدعا بيلاطس رؤساء الكهنه والعظماء والشعب (١٤) وقال لهم قدمتم إلى هذا الإنسان كمن يفسد الشعب وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هذا الإنسان عله مما تشكون عليه (١٥) ولاهيُرودس أيضاً لأنى أرسلتكم إليه وها لاشئ يستحق الموت صنع منه.

لوقا: إصاح ٢٣ ب (٢٢) فقال (بيلاطس) لهم ثالثة بأى شر عمل هذا إنى لم أجد فيه عله.

يوحنا: ص ١٨ب (٣٨) قال له(ليسوع) بيلاطس ما هو الحق. ولما قال هذا خرج أيضاً إلى اليهود وقال لهم أنا لست أجد فيه عله واحده. من هذا كله:

نجد أن (بيلاطس) كان يعتقد براءة المسيح من كل ما يرميه به اليهود من الإفساد.

أن زوجه بيلاطس كانت عاطفة على يسوع مهتمة بأمره حريصة على أنه لايمس بسوء وقد أوصت زوجها بذلك.

متى: ص٢٧ب (١٩) وإذا كان جالساً على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذلك البار لأننى تألمت كثيراً فى حلم من أجله.

وإذاً فقد علمنا أن المسيح عليه السلام له شفيع هام شفاعته غير مردودة عند بيلاطس.

إن يسوع لم يمكث على خشبة الصلب زمناً طويلاً بل جاء «يوسف» وهو رجل غنى من الرامة وكان من تلاميذ المسيح سراً ولم يكن راضياً عن فعل اليهود، وكذلك جاء «نيقوديموس» وطلب يوسف من بيلاطس أن يسلمه جسد يسوع فتعجب بيلاطس من موته سريعاً.. سأل متعجباً.. أوقد مات؟ وسأل رئيس الشرط ولما علم منه بوفاته أمر بتسليمه ليوسف فأخذه وكفنه ولفة فى كتان ووضعه فى قبر له كان هناك.

ينظر أصحاب هذا الرأى إلى أمر آخر. هو أن المسيح لم تكسر ساقاه على خشبة الصلب ولا بعدها، كما كسرت ساقا كل من اللصين اللذين صلبا معه. ولا سبب لذلك سوى العناية الخاصة التى كانت تحوطه من ناحية الوالى بيلاطس وزوجه ويوسف ونيقوديموس، فاجتماع هذه الاعتبارات جعلهم يقولون أن المسيح تظاهر بالموت أى أنه أظهر للناس أنه مات ولم يكن قد مات، والذى تولى إنزاله رجل من تلاميذه فى الحقيقة، وكان ذلك التظاهر بإيحاء منه، وساعده الوالى على ذلك بأن سلم له فى إنزاله عن الخشبه واليهود فى غفله عما بينه وبين المسيح من العلاقة ولفه ووضعه فى القبر الذى يملكه يوسف وأجاف على الباب حجراً ولما هدأ الناس ودخلوا فى السبت جاء يوسف وأعوانه وأزالوا الحجر وأخذوا يسوع وواروه فى بيته أوبيت نيقوديموس إلى أن برئ من أثر المسامير ثم ذهب إلى بلاد غير البلاد إلى أن تولاه الله.

وهؤلاء يؤولون قوله تعالى ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ بمعنى أن صلبه لم يؤد إلى قتله ولكن شبه لهم أنه قتل على خشبة الصلب، ولم يكونوا على يقين من أنه مات حقيقة وذلك معنى ﴿وماقتلوه يقينا﴾ وقد قرأت هذا الرأى فى كتاب للشيخ أحمد ديدات المسلم الجنوب أفريقى.. الذى اشتهر بمناظراته مع القس الأمريكى إيلى جاكسون فى موضوع (هل الإنجيل كلمة الله)

اختلاف الأناجيل فى أحداث القبض على المسيح وصلبه

ذكرنا أن النصارى اعتنقوا فى عملية الإهانة والتعذيب وصلب المسيح كدعامة أساسية من دعائم عقيدتهم لايقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ولاينفعه عمل صالح ولاعبادة ولابر ولاتقوى ولاخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح.

وفيمايأتى من ذكر لأحداث القبض على المسيح وصلبه كما ذكر فى الأناجيل من اختلافات فى الواقعة الواحدة ليتبين القارئ بنفسه مافيها من الخلل بمجرد المقارنة. واختصاراً سأورد البعض منها وليس كلها .

إنجيل متى الإصحاح ٢٦ب (٣٦)

حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها «جشيمانى» فقال للتلاميذ إجلسوا هاهنا حتى أمضى وأصلى هناك (٣٨) ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب وقال لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت. إمكثوا هاهنا واسهروا معى (٣٩) ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلى قائلاً ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس.

ولكن ليس كما أريد بل كما تريد أنت (٤٠) ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياماً. فقال لبطرس أهكذا ماقدرتم أن تسهروا ساعة واحدة (٤١) اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٤٢) فمضى أيضاً ثانيه وصلى قائلاً ياأبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك (٤٣) ثم جاء فوجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيله (٤٤) فتركهم ومضى أيضا وصلى ثالثة قائلاً ذلك الكلام بعينه (٤٥) ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم ناموا الآن واستريحوا هوذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلم إلى أيدى الخطاه (٤٦) قوموا ننطلق وهوذا الذى يسلمنى قد اقترب (٤٧) وفيما هو يتكلم إذ يهوذا أحد الاثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب (٤٨)) والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذى أقبله هو أمسكوه (٤٩) فللوقت تقدم إلى يسوع وقال: السلام ياسيدى وقبله (٥٠) فقال له يسوع ياصاحب لما جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه (٥١) وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد

رئيس الكهنة فقطع أذنه (٥٢) فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف يهلكون (٥٣) أتظن أنى لاأستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فتقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة (٥٤) فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون (٥٥) فى تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى. كل يوم كنت أجلس معكم أعلم فى الهيكل ولم تمسكونى (٥٦) وأما هذا فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

الإصحاح ٢٧ ب (١١) فوقف يسوع أمام الوالى فسأله الوالى قائلاً أأنت ملك اليهود؟ فقال له يسوع أنت تقول (١٢) وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشئ (١٣) فقال له بيلاطس أما تسمع كم يشهدون عليك (١٤) فلم يجبه ولاعن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جداً.

وكان الوالى معتاداً فى العيد أن يطلق للجميع أسيراً واحداً من أرادوه (١٦) وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس (١٧) ففيما هم مجتمعون قال لهم بيلاطس من تريدون أن أطلق لكم باراباس أم يسوع الذى يدعى المسيح (١٨) لأنه علم أنهم أسلموا حسداً (١٩) وإذ كان جالساً على كرسى الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة إياك وذلك البار لأنى تألمت اليوم كثيراً فى حلم من أجله (٢٠) ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع (٢١) فأجاب الوالى وقال مَنْ من الاثنين تريدون أن أطلق لكم فقالوا باراباس (٢٢) قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح قال له الجميع ليصلب (٢٣) قال الوالى وأى شر عمل فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليصلب (٢٤) فلما رأى بيلاطس أنه لاينفع شيئاً بل بالحري يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إنى برئ من دم هذا البار أبصروا وأنتم (٢٥) فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا (٢٦) حينئذ أطلق لهم باراباس وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب (٢٧) وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: السلام ياملك اليهود (٣٠) وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه (٣١) وبعدما استهزؤا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب (٣٢) وفيما هم خارجون وجدوا إنساناً قيروانياً اسمه

«سمعان» فسخروه ليحمل صليبه (٣٣) ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة (٣٤) أعطوه خلاً ممزوجاً بمرارة ليشرب ولما ذاق لم يرد أن يشرب.

وفى إنجيل مرقس: يتكلم عن نفس الأحداث يقول: فى الإصحاح ١٤ب (٣٢) وجاءوا إلى ضيعة اسمها جشيمانى فقال لتلاميذه اجلسوا هاهنا حتى أصلى (٣٣) ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب (٣٤) فقال لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت إمكثوا هنا واسهروا (٣٥) ثم تقدم قليلاً وخر على الأرض وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة إن أمكن (٣٦) وقال ياأبا الأب كل شئ مستطاع لك. فأجز عنى هذه الكأس ولكن ليكن لاماأريد أنا بل ما تريد أنت (٣٧) ثم جاء ووجدهم نياماً فقال لبطرس ياسمعان أنت نائم أما قدرت أن تسهر ساعه واحدة (٣٨) اسهرواوصلوا لئلا تدخلوا فى تجربة أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف (٣٩) ومضى أيضاً وصلى قائلا ذلك الكلام بعينه (٤٠) ثم رجع ووجدهم أيضاً نياماً إذ كانت أعينهم ثقيلة فلم يعلموا بماذا يجيبونه ثم جاء ثالثة وقال لهم ناموا الآن واستريحوا يكفى قد أتت الساعة هو ذا ابن الانسان يسلم إلى أيدى الخطاة (٤١) قوموا لنذهب هوذا الذى يسلمنى قد اقترب (٤٢) وللوقت فيما هو يتكلم أقبل يهوذا واحد من الإثنى عشر (٤٣) ومعه جمع كثير وسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ (٤٤) وكان مسلمة قد أعطاهم علامة قائلاً: الذى أقبله هو هو أمسكوه وامضوا به بحرص (٤٥) فجاء للوقت وتقدم إليه قائلاً ياسيدى ياسيدى. وقبله (٤٦) فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه (٤٧) فاستل واحد من الحاضرين السيف وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه (٤٨) فأجاب يسوع وقال لهم كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذونى (٤٩) كل يوم كنت معكم فى الهيكل ولم تمسكونى ولكن لكى تكمل الكتب (٥٠) فتركه الجميع وهربوا (٥١) وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشباب فترك الإزار وهرب منهم عرياناً.

وفى إنجيل يوحنا الإصحاح ١٨ ب (١) قال يسوع هذا وخرج مع تلاميذه وعبر «وادى قدرون» حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه (٢) وكان يهوذا مسلمة يعرف الموضع لأن يسوع إجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه (٣) فأخذ الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح (٤) فخرج يسوع وهو عالم

بكل مايأتى عليه وقال لهم من تطلبون (٥) أجابوه يسوع الناصرى قال لهم يسوع أنا هو. وكان يهوذا مسلمة أيضاً واقفاً معهم (٦) فلما قال لهم إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض (٧) فسألهم أيضاً من تطلبون. فقالوا يسوع الناصرى (٨) أجاب يسوع قد قلت لكم أنى أنا هو فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون (٩) ليتم القول الذى قاله إن الذين أعطيتنى لم أهلك منهم أحداً (١٠) ثم إن سمعان بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى وكان اسم العبد ملخس (١١) فقال يسوع لبطرس إجعل سيفك فى الغمد. الكأس التى أعطانى الأب ألا أشربها؟ (١٢) ثم إن الجند والقائد وخدام القائد قبضوا على يسوع وأوثقوه (١٣) ومضوا به إلى «حنان» أولاً لأنه كان حما (قيافا) الذى كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة (١٤) وكان قيافا هو الذى أشار على اليهود أنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب.

إن ماجاء فى الأناجيل الأربعة فى تلك الواقعة الهامة بل التى يدعيها المسيحيين ويجعلونها أساس إيمانهم من أول وهلة فى مقارنة ماذكروه نجد أن خلافاتهم فى سرد الأحداث يجعل شهادتها لاتصلح أن تكون مستنداً يثبت به أمر له من الأهمية مثل مالمسألة صلب المسيح.

وخلافاتهم هى:

ـ إن متى يقول أن يسوع جاء مع تلاميذه إلى قرية جشيمانى، ووافقه مرقس. وخالفهما لوقا وقال إلى جبل الزيتون. وقال يوحنا: غير وادى قدرون حيث كان بستان. وعبارة يوحنا قريبة من عبارة لوقا فى المعنى.

ـ قال متى ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب ووافقه مرقس وخالف لوقا فى ذلك وذكر أنه انفصل عنهم رمية حجر وصار يصلى. وكذلك أسقط يوحنا هذه العبارة

ـ ذكر متى أنه قال لمن معه: «نفسى حزينة حتى الموت امكثوا هاهنا واسهروا معى وأنه كان يصلى قائلاً ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس وليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت» ثم جاء إلى التلاميذ فوجدهم نياماً فعاتب بطرس وأمرهم بالسهر، ثم صلى

وعاد إليهم نياماً فعاد وصلى ثالثة، ثم جاء إلى التلاميذ فقال لهم ناموا واستريحوا وأنبأهم أن ابن الإنسان يسلم إلى أيدى خطاه. ثم قال: قوموا ننطلق هوذا الذى يسلمنى قد اقترب وعبارة مرقس توافق متى فى المعنى.

وأما لوقا فزاد أمرين (أحدهما) أن ملكاً من السماء نزل إلى المسيح يقويه وهو يصلى. (ثانيهما) أنه كان يصلى بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. وأسقط مجيئه إلى التلاميذ المرة الثالثة وأما يوحنا وهو أحد الثلاثة الذين انفرد بهم يسوع عن سائر التلاميذ فقد أسقط ذلك كله ولم نذكر شيئاً منه وهو دليل على عدم حصول شئ من ذلك.

وإذا كان الملك جاء وهم نيام فماالذى أدراهم به؟ وإذا كان عرقه كأنه قطرات دم وهم نيام فى جوف الليل لم يروا شيئاً فكيف يثبتون ذلك.

وإذا كان الحواريون هم خلاصة من آمن بالمسيح وقد علموا معجزاته ورأوها بأعينهم كيف يتركونه ويهربوا لحظة القبض عليه.

وإذا كانوا يعتقدون بأنه الإلاه كيف يقول الإله لهم نفسى حزينة جداً حتى الموت. . إذا كان حزنه بهذه الشدة أليس الإله أو إبن الإله بقادر على أن يخلص نفسه من هذه الشدة التى هو فيها. والتى بلغ خوفه أن عرقه كقطرات الدم أى فى حالة رعب شديد وممن من فئة من عبيده ومخلوقاته.

قال متى وفيما هو يتكلم إذا يهوذا أحد الإثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذى سلمه أعطاهم علامة قائلاً: الذى أقبله هو هو أمسكوه فللوقت تقدم إلى يسوع وقال السلام ياسيدى وقبله. فقال يسوع ياصاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادى على يسوع وأمسكوه.

وافق مرقس متى فى المعنى. وقال لوقا أن المسيح قال له: يايهوذا أبقبله تسلم ابن الإنسان؟ بدل قوله ياصاحب لماذا جئت وزاد لفظ «والكتبة» قبل شيوخ الشعب وأسقط يوحنا «الكتبه وشيوخ الشعب» وزاد (الفريسيين) ولم يذكر أن يهوذا قبله أودل عليه. بل قال أنه كان واقفاً معهم وزاد أن المسيح خرج إليهم وقال لهم من تطلبون قالوا يسوع

الناصرى فقال لهم أنا هو وأنه لما قال لهم ذلك رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض. ثم أعاد سؤاله وأعادوا الجواب ثم قال فإن كنتم تطلبوننى فدعوا هؤلاء يذهبون (إن كانوا رجعوا إلى الوراء وسقطوا. . دل ذلك على أنها من معجزات السيد المسيح وتكررت مرة ثانية فلماذا بعد ذلك قبضوا عليه ولم تكمل المعجزة) خاصة وأنهم حاولوا إمساكه كثيراً فى الهيكل وكان الله ينجيه منهم.

ـ ذكر متى أنهم قبضوا على يسوع ثم أن بطرس استل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح برد سيفه إلى مكانه وقال أتظن أنى لاأستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشاً من الملائكة فكيف تكمل الكتب؟ إنه هكذا ينبغى أن يكون ثم قال: وأما هذا كله فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء. حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا.

أما مرقس فقد وافقه فى المعنى إلا هرب التلاميذ كلهم. وزاد قوله : وتبعه شاب لابساً إزاراً على عريه فأمسكه الشباب فترك الإزار وهرب عرياناً وهو يريد بذلك الشاب يوحنا ذلك الغلام الذى كان المسيح يحبه وأما لوقا فلم يذكر من ذلك كله سوى أن بطرس ضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فأمره المسيح بأن يغمد سيفه وانفرد عن الجميع بأن المسيح لمس أذنه وأبرأها وأما يوحنا فلم يزد شيئاً بل نقص جملاً وانفرد بذكر اسم العبد الذى قطعت أذنه أن اسمه «ملخس».

ـ إن المحاورة التى قصها يوحنا بين المسيح وطالبه وقوله لهم: من تطلبون؟ وقولهم يسوع الناصرى ورجوعهم وسقوطهم بعد قوله لهم أنا هو تدل دلالة واضحة على أنهم رجعوا بالمطلوب ومن جهة أخرى تفيد أن، أنا هو، فأمسكوا به فإنهم لايشكون فى يوحنا لم يذكر تقبيله إياه ولاتسليمه لهم بل المسيح هو الذى دلهم على نفسه إن كان هو الذى قبض عليه.

ـ يقول يوحنا أنهم ذهبوا للقبض عليه، وجاء «يهوذا» إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح وقد انفرد يوحنا بذلك عن الثلاثة وذلك معقول لأن الوقت كان ليلاً وهم لايعرفون المسيح، ولذلك استأجروا «يهوذا الإسخربوطى» للدلالة عليه، وهم لم يدلوهم عليه ولم يشر إليه حسب رواية يوحنا. وكل من تعرض صادقاً أوكاذباً وقال أنا

يسوع فهم صدقوه وأخذوه ولاسبيل إلى التحقق من شخصيته مادام يهوذا ساكناً والليل يساعد على ذلك.

ـ انفرد لوقا بأن رؤساء الكهنة كانوا قد ذهبوا للقبض عليه.

بعد القبض على عيسى

يقول متى ـ الإصحاح ٢٦ب (٥٧) والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى «قيافا» رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ (٥٨) وأما بطرس فتبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة فدخل إلى داخل وجلس بين الخدام (٥٩) وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه (٦٠) فلم يجدوا ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا. ولكن أخيراً تقدم شاهدا زور (٦١) وقالا: هذا قال إنى أقدر أن أنقض هيكل الله وفى ثلاثة أيام أبنيه (٦٢) فقام رئيس الكهنة وقال له أما تجيب بشئ؟ ماذا يشهد به هذان عليك (٦٣) وأما يسوع فكان ساكتاً. فأجاب رئيس الكهنة وقال له أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله (٦٤) قال له يسوع أنت قلت وأيضاً أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوه وآتياً على سحاب السماء (٦٥) فمزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه قائلاً قد جدف. ما حاجتنا بعد إلى شهود. هاقد سمعتم تجديفه (٦٦) ماترون فأجابوا وقالوا إنه مستوجب الموت (٦٧) حينئذ بصقوا فى وجهه ولكموه. وآخرون لطموه (٦٨) قائلين تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك (٦٩) أما بطرس فكان جالساً خارجاً فى الدار. فجاءت إليه جارية قائلة وأنت كنت مع يسوع الجليلى (٧٠) فأنكر قدام الجميع قائلاً لست أدرى ما تقولين (٧١) ثم إذا خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت للذين هناك وهذا كان مع يسوع الناصرى (٧٢) فأنكر أيضاً بقسم أنى لست أعرف الرجل (٧٣) وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقاً أنت أيضاً منهم فإن لغته تظهرك (٧٤) فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنى لاأعرف الرجل. وللوقت صاح الديك (٧٥) فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات فخرج إلى خارج وبكى بكاء مراً.

ـ يقول متى إن الذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى (قيافا) رئيس الكهنة حيث اجتمع الكتبة والشيوخ ووافق على ذلك مرقس ولوقا. وأما يوحنا فقال أنهم أوثقوه وذهبوا إلى

(حنان) حما (قيافا) فخالف الثلاثة فى ذلك.

ـ ذكر متى: أن بطرس تبع يسوع من بعيد إلى دار رئيس الكهنة ووافقه مرقس ولوقا وأما يوحنا فخالفهم وذكر أن بطرس تبع يسوع هو والتلميذ الآخر «يعنى يوحنا» خالف الثلاثة فى ذلك.

ذكر متى: إن بطرس كان خارجاً الدار فجاءت إليه جارية وقالت وأنت كنت مع يسوع الجليلى؟ فأنكر قدام الجميع. ثم إذا خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت وهذا كان مع يسوع الناصرى فأنكر بقسم أنى لست أعرف الرجل، وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقاً أنت أيضاً منهم. فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أنى لاأعرف الرجل، وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات فخرج إلى خارج وبكى بكاء مراً.

وأما مرقس فقد ذكر هذه الحادثة ولكنه جعل بطرس داخل الدار يستدفئ فقالت له الجارية ذلك وأنكر، وأنها هى بنفسها التى رأته فى الدهليز وقالت للحاضرين إنه منهم وليست جارية أخرى ـ كما زعم متى ـ وإن الديك صاح عقب المرة الأولى لابعد المرات الثلاث. وأنه فى المرة الثالثة صاح الديك مرة واحدة عند متى بعد إنكار بطرس ثلاثة مرات، وصياحه عند مرقس مرتين!.

وجعل عبارة المسيح له «أنت تنكرنى ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك مرتين» وأما لوقا فجعل سؤال الجارية له مرة واحدة هى الأولى فأنكر، وأن سؤاله فى المرتين الأخيرتين كان من رجلين لامن جارية ورجل، وزاد قوله فالتفت الرب ونظر إلى بطرس فتذكر كلام الرب.

وأما يوحنا فقال إن دخول بطرس كان برجاء الغلام «يوحنا» للبوابة التى قالت لبطرس: ألست أنت أيضاً من تلاميذ هذا الإنسان؟ قال ذاك لست أنا. وإن الغلام كان معروفاً عند رئيس الكهنة ودخل مع يسوع أول الأمر ثم رجا البوابة فى إدخال بطرس وإن المصطلين قالوا له أيضاً: ألست أنت من تلاميذه؟ فأنكر وقال له واحد من عبيد رئيس الكهنة ـ وهو نسيب الذى قطع بطرس أذنه ـ أما رأيتك أنا معه فى البستان؟ فأنكر أيضا وللوقت صاح الديك.

فانظروا فتح الله عليكم إلى هذه المسألة الصغيرة كم فيها من التناقض؟

ـ ذكر متى أن رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه فلم يجدوا، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا!

كيف هذا التناقض أيعقل عاقل أن يقبل هذا الكلام ـ(كانوا يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه فلم يجدوا، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا) وكأن كاتب هذا الكلام كان فى حالة سكر أو ماشابه ذلك. ويعتدون بمثل هذا الكلام ويسمون هذه الكتب بالكتب المقدسة. أى قدسية هذه التى هى من فعل إنسان يتناقض مع الآخرين ويتناقض مع نفسه ولايعنى ما يكتب أما مرقس فكان أكثر حذقاً وأوفر لباقه إذ قال: وكان رؤساء الكهنة والجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه فلم يجدوا لأن كثيرين شهدوا عليه زوراً ولم تتفق شهادتهم.

والعجيب من أمر إنجيل متى إذ يقول «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكى يقتلوه» كأنهم إذا وجدوا شهادة حق بإدانته لايقبلونها لأنها شهادة حق ! وهم لا يطلبون إلا شهادة الزور !

ـ المفهوم صراحة ـ من عبارة كل من متى ومرقس ـ أن المحاكمة والمناقشة بين الكهنة ورئيسهم من جهة وبين يسوع من ناحية أخرى كانت ليلاً عقب القبض عليه ووصوله إلى دار رئيس الكهنة، ولكن لوقا ويوحنا جعلا المحاكمة صباحاً.

وبعد عزيزى القارئ وعزيزتى القارئه. ذكرت كل ذلك التناقض تفصيلاً فى مرحلتى ما قبل القبض ومابعده وعن محاكمة من يدعونه المسيح وحتى لاأزيد ملل القارئ من كثرة التفاصيل فى جزئيات المحاكمه. . .

فقد استمر التناقض الصارخ فى عمليه خلع ثياب المقبوض عليه وإهانته ووضع ثياب أخرى عليه بلون آخر وعملية الذهاب به إلى مكان الصلب وهل هو الذى حمل الصليب أم شخص آخر وتفاصيل عمليه الصلب وما قدموه له ليشربه. . وقيل أنه تم جلده قبل الصلب ومنهم من لم يذكر ذلك وكل جزئية من مابعد الصلب والقيام من القبر وشهودها. تناقضهم فيها واضح.

ولكنا من ذلك كله لانجد شاهداً واحداً من الرجال ولامن النساء ـ سواء أكان موافقاً للمسيح أومنافياً له قد شاهد المسيح وهو فى القبر وشاهده يخرج منه وإنما يقول الذين يزعمون أنهم شاهدوه أنهم رأوه خارج القبر، وهو يشهد لأهل الإسلام أن الذى قتل سواه، وأما هو فقد ظل سليماً معافى مبرأ من الوقوع فى أيدى أعدائه.

القرآن يؤكد عبودية المسيح لله الواحد

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقره: ١١٦].

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾

[النساء: ١٥٧]

وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

[النساء: ١٧١ ـ ١٧٢]

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائده: ١٧]

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي

إسْرَائيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائده: ٧٣ ـ ٧٥]

وقال تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]

وقال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢]

وقال تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ .. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٩ ـ ٦١]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

وقال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص] هذا بعض ما جاء فى القرآن الكريم وكله ناطق بالصراحة والوضوح والصدق وغير قابل للتأويل.

• • •

عقيدة النصارى

النصارى لما أزاعوا المسيحية بين الوثنيين الذين كانوا يدينون بالأقانيم وتجسد الآلهة والصلب والفداء ودخلوا فى المسيحية حاملين لتلك العقيدة ـ أحبوا أن يجذبوا هذه الفئة الكبيرة العدد من الناس. وقد اعتادت هذه الفئة على تعدد الآلهة.. (إلاه للنماء وإلاه للخير وإلاه للشر وإلاه للنسل وإلاه للمطر وإلاه للحب وغيرها وغيرها لكل منحى من مناحى الحياة إلاه. فيصعب على هذه الفئة أن تجزبهم لعبادة إلاه واحد. وكان الصلب عقوبة من يجرمونه على جريمة تستحق فقد عمد النصارى إلى خلق عقيده لهم تقول أن الله مركب من ثلاث أقانيم: الأب والإبن والروح القدس. وهذه كلها واحد. فانحدر الله الذى هو الأب أوالابن ـ على اختلاف أقوالهم وحل فى مريم وتجسد إنساناً وولد منها وهو «يسوع» إلى آخر مايدعون.

وهذاالكلام لم يقله المسيح ولم يعلم به، ولكن المسيحيين لما أذاعوا المسيحية بين هؤلاء الوثنيين أرادوا أن يقتربوا من منهجهم فى العبادة حتى تكون المسافة أقرب إليهم فى الإقناع والإقتناع فهذه من العوامل التى آلت بهم إلى عبادة المسيح الذى هو برئ منهم ومن أفعالهم وأقوالهم وقد جاء فى القرآن الكثير من الآيات فى الرد عليهم.

قال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائده: ١٧].

وقال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائده: ٧٢].

وقال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائده: ٧٥].

وقال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبه: ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٤ ـ ٣٦].

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

يؤلهون المسيح وهو يعترف بعبوديته لله

فى أناجيلهم والرسائل التى كتبها قديسيهم تنطق عليهم بالحق وتثبت أنه عبد رسول ـ فى إنجيل يوحنا: الإصحاح ١ ب (٥١) من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة السماء يصعدون وينزلون على إبن الإنسان. . (على المسيح الذى هو ابن الإنسان).

ـ فى إنجيل يوحنا: الإصحاح ٤ ب (٦) يسوع قد تعب من السفر: (وهل يتعب إن كان إلاهاً).

ـ فى إنجيل يوحنا: الإصحاح ٣ ب (٢٦) فجاءوا إلى يوحنا المعمدان وقالوا له: يامعلم هو الذى كان معك فى عبر الأردن، الذى أنت شهدت له هو يعمد والجميع يأتون إليه، أجاب يوحنا وقال لايقدر إنسان أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أُعْطِيَ من السماء أنتم أنفسكم تشهدون لى أنى قلت لست أنا المسيح بل إنى مرسل قدامه. (يحيى يشهد بأن المسيح إنسان لايقدر أن يأخذ شيئاً إن لم يكن قد أعطى من السماء) .

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٣ ب (٣٤) لأن الذى أرسله الله يتكلم بكلام الله لأنه ليس بكيل يعطى الله الروح (فأنتم ترون أن يحيى جعل المسيح رسولاً لله يتكلم بكلام الله).

- فى إنجيل يوحنا ص٤ (٣٤) قال لهم يسوع طعامى أن أعمل مشيئه الذى أرسلنى وأتمم عمله.

- فى إنجيل يوحنا ص٤ (٤٤) لأن يسوع نفسه شهد أن ليس لنبى كرامة فى وطنه.

- فى إنجيل يوحنا ص٤ (١٩) قالت له الإمرأة ياسيدى أرى أنك نبى.

- فى إنجيل يوحنا ص٤ (٥٢) أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى فمتى جاء ذلك يخبرنا بكل شئ قال لها يسوع أنا الذى يكلمك هو (يثبت لها أنه نبى وأنه المسيح الذى وعدوا به).

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٥(٢٤) الذى يرانى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبديه.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٥(٤٤) كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجد بعضكم من بعض والمجد الذى من الإله الواحد لستم تقبلونه.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٦ (٢٩) أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٧ (١٦ ـ ١٨) أجابهم يسوع وقال تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى. من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٧ب (٢٨) فنادى يسوع وهو يعلم فى الهيكل قائلاً

تعرفوننى من أين أنا ومن نفسى لم آت بل الذى أرسلنى هو حق.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٧ب (٣٣) فقال لهم يسوع أنا معكم زماناً يسيراً بعد أن أمضى إلى الذى أرسلنى.

- فى إنجيل يوحنا الإصحاح ٧ب (٤٠) وكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقه هو النبى. آخرون قالوا هذا هو المسيح - والمسيح لم يهدهم إلى الصواب بأنه الله أوابن الله.

- فى إنجيل يوحنا ص ٧ (٥١) فتش وانظر أنه لم يقم نبى من الجليل. فرؤساء الكهنة والفريسيون ينكرون عليه ما يدعيه من أنه نبى.

- يوحنا ص ٨ (٢٢) الذى أرسلنى هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقول للعالم.

- يوحنا ص ١١ (٤٢) ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى.

- يوحنا ص ١٢ (٢٨) أيها الأب نجنى من هذه الساعة - (كيف يكون إلها ويطلب النجاة).

- يوحنا ص ١٣ (١٦) ليس عبد أعظم من سيده ولارسول أعظم من مرسله.

حجة النصارى فى ألهية المسيح

يدعى النصارى أن المسيح إله وابن إله بألفاظ وردت فى بعض الأناجيل التى صنعوها مثل إطلاق لفظ «ابن الله» عليه.

وهو دليل واه واهن لأن هذا الإطلاق معارض بإطلاقه «ابن الإنسان» على نفسه وبإطلاق «ابن داود» أيضاً على نفسه. فلابد من حمل هذا الإطلاق على معنى لايتنافى مع ماثبت من جلال الله وتنزهه عما لايليق به.

ـ من يقارن بين ما جاء بإنجيل مرقس الإصحاح ١٥ ب (٩) ولما رأى قائد المائة الواقف مقابلة أنه صريح هكذا وأسلم الروح قال حقاً كان هذا الإنسان باراً علم أنهم كانوا يطلقون على «البار» ابن الله بلافارق بين المسيح وغيره من بنى الإنسان.

وقد كانوا يستعملون لفظ «ابن الله» فى حق الصالح كما يطلقون ابن «إبليس» على الطالح.

ـ جاء فى متى ص ٥ (٩) طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون (٤٥) باركوا لأعينكم أحسنوا إلى مبغضيكم صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم (٤٦) لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات.

ـ وفى يوحنا ص (٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم فقالوا إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله (٤٢) فقال لهم يسوع لوكان الله أباكم لكنتم تحبوننى (٤٤) أنتم من أب هو «إبليس» وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق، متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مماله لأنه كذاب وأبو الكذاب وهو إنما يريد أنتم عاصون الله مطيعون للشيطان.

ـ الرسالة الأولى ليوحنا ٣ ص (٩) كل من هو مولود من الله لايفعل خطيئة لأن زرعه يثبت فيه ولايستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله (١٠) بهذا أولاد الله ظاهرون وأولاد إبليس.

ـ ص٤ (٧) كل من يحب فقد ولد من الله.

ـ ص٥ (١) كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله وكل من يحب الولد يحب المولود منه (٢) بهذا نعرف أننا نحب أولاد الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه.

ـ يوحنا ص ٢٠ (١٧) لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ولكن إذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلاهى وإلهكم.

ـ متى ص (٦) ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض لكى يغفر الخطايا.

ـ جاء فى الإصحاح الرابع من سفر الخروج (٢٢) وتقول له هذا مايقول الرب إبنى بكرى إسرائيل (٣٣) فقلت لك أطلق إبنى ليعبدنى.

ـ جاء فى مزمور ٨٨ (٢٠) وجدت داود عبدى فمسحته بدهن قدسى (٢٦) وهو يدعونى أنت أبى وإلهى وناصر خلاصى (٢٧) وأنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من كل ملوك الأرض.

ـ أرميا الإصحاح ٣١ (٩) إنى صرت أبا لإسرائيل وأفرام هو بكرى.

ـ صمويل ثان إصحاح ٧ قول الله فى حق سليمان «وأنا أكون له أباً وهو يكون لى إبناً»

هذا ما جاء فى حجتهم ولوكان كل مايسميه الله إبناً يحمل على النبوة الحقيقية ويكون إلهاً مستوجباً للعباده لكان كل بنى إسرائيل آلهه لأن الله أطلق على شعب إسرائيل قول إبنى.

فضائل عيسى عليه الصلاة والسلام وشمائله

قال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائده: ٧٥].

لماذا سمى بالمسيح؟

قيل: سمى المسيح لمسحه الأرض، وهو سياحته فيها وفراراه بدينه من الفتن فى ذلك الزمان أشده تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام. وقيل لأنه كان ممسوح القدمين.

قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ

الإنجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ﴾ [المائده: ٤٦] وقال تعالى: ﴿وآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَات وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقره: ٨٧] والآيات فى ذلك كثيرة جداً وقد تقدم ماثبت فى الصحيحين: «**ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد، فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن فى الحجاب**»(١).

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بى فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران**» (٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**» (٣).

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة لعلات، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين مخصرتين، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويعطل الملل حتى يهلك فى زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً، والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لايضر بعضهم بعضاً، فيمكث ماشاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه**» (٤)

---

(١) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (ح/ ١٣٨٤) فتح البارى (٣/ ٢٨٩) ومسلم فى (القدر، ح/ ٢٢ ـ ٢٣).
حديث متفق عليه رواه البخارى ومسلم

(٢) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب «١٤٥» ومسلم فى (الإيمان، ح/ ٢٤١).
رواه البخارى

(٣) صحيح. أخرجه البخارى (ح/ ٣٤٤٥) وأحمد (١/ ٢٣، ٢٤). رواه البخارى

(٤) صحيح. متفق عليه. أخرجه البخارى (٤/ ٢٠٣ فتح البارى) ومسلم فى (العقائد، ح/ ١٤٥).

«وإنه ينزل على المناره البيضاء بدمشق، وقد أقيمت صلاة الصبح، فيقول له إمام المسلمين: تقدم ياروح الله فصل، فيقول: لا بعضكم على بعض أمراء مكرمه الله هذه الأمة»

وفي رواية: «فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك فيصلى خلفه. ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدّ فيقتله بيده الكريمة» (١).

ذكر حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولايقبل من أحد إلا الإسلام وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أومعتمراً أوليثنيهما (٢) ويقيم أربعين سنة. ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه هذا والله أعلم.

• • •

وصية عيسى عليه الصلاة والسلام قبل أن يرفع

ذكر ابن جرير عن محمد ابن إسحاق: أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصى الحواريين بأن يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وعيّن كل واحد منهم من طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح إليهم. وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبه إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى الأخرى، وهؤلاء الأربعة منهم إثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا ومنهم اثنين من أصحابه وهما مرقس ولوقا فالله أعلم. وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال

---

(١) صحيح. أخرجه الترمذي في (الفتن، باب «٦٢») وصححه الشيخ الألباني وغيره.

(٢) صحيح. أخرجه الترمذي في (الفتن، باب «٥٧») وابن ماجة في (الفتن، باب «٢٣٣») وأحمد (١/ ٤، ٧).

له ضينا وكان مختفياً فى مغارة داخل الباب الشرقى قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودى وكان ظالماً غاشماً مبغضاً للمسيح ولماجاء به. وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به فى البلد. ثم رجمه حتى الموت رحمه الله.

ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله فلقاه عند كوكباً فلما واجه أصحاب المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه.

فلما رأى ذلك وقع فى نفسه تصديق المسيح، فجاء إليه واعتذر مماصنع به فقبل منه، وسأله أن يمسح عينيه ليرد عليه بصره فقال: إذهب إلى ضينا عندك بدمشق فى طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك. فجاء إليه فدعا فرد عليه بصره وحسن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وبنيت له كنيسة باسمه فهى: كنيسه بولس المشهوره بدمشق.

الإسلام وأصحاب الديانات الأخرى

لم ينكر الإسلام معجزات عيسى بل أضاف عليها ما لم يذكره أصحاب الأناجيل الأربعة ولم ينكر مآثر وسجايا وخلق عيسى عليه الصلاة والسلام وأهدافه النبيلة فيما يود أن يزرعه فى خلق أتباعه لينشروه بين الناس وقد ذكرنا أنه مر وأصحابه بجيفة كلب ميت فقالوا مأبشع وأنتن هذه الرائحة ولكنه قال «إنظروا إلى بياض أسنانه» فهو يريد لهم ألا يذكروا إلا الخير والجمال ولاينظروا إلى القبيح وقيل أنه رأى رجل يسرق. فقال يافلان أسرقت. قال لا والله ما سرقت.

قال آمنت بالله وكذبت بصرى. أى أنه يقول له آمنت بالله.. أى صدقتك وكذبت بصرى لأنك حلفت.

وقد أوصانا الإسلام خيراً بأهل الكتاب من أصحاب الديانات الأخرى ونهانا رسول الله ﷺ عن إيذائهم.

وقد خص القرآن النصارى بأنهم أقرب الأديان مودة إلى الإسلام قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائده: ٨٢] وأثنى الله تعالى على أتباع المسيح الذين ساروا على هديه.

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧].

أى أن المسيحية ديانة توحيد فى أصلها ومن الصعب أن يهجر كل أتباعها التوحيد وربما اختلفت ألفاظهم المعبره عن فهمهم عن الفاظنا. وليس لنا أن نجبر أحداً على فهمنا.

أن فى النصارى قسيسين ورهبانا لايستكبرون على الله.. وإنما هم خاضعون له.

ـ أن فى قلوب الذين يتبعون عيسى رأفة ورحمة.. ولاتتولد الرأفه والرحمة إلا من الإيمان باليوم الآخر. وقد أصدر الله تعالى أوامره إلى المسلمين أن يعاملوا أهل الكتب السابقه عليهم معامله كريمة، كما كفل الإسلام حرية العقيدة لغيره من الخلق.

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]

وقال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقره: ٢٥٦].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

كما نرى أن الآيات تتحدث عن معاملة المسيحيين كأفراد. كما تتحدث عن معاملة عقائدهم كعقائد وبالنسبة للنصارى.. نرى الآيات تأمر بمبادلتهم المودة، إذ يصرح النص

أنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا. وإذا كان الله تبارك وتعالى هو الذى يصرح بذلك، فقد وجب على المسلمين أن يبادلوا النصارى ودا بود.

أما عقائدهم ففى القرآن آيات تمنع من إكراه الناس بأى صورة من الصور. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]

ذلك أن الإيمان بالإكراه ليس إيماناً فهو ينقصه القناعة بالإختيار الحر وهو شرط الإيمان. ولعل من تمام كمال الإسلام موقفه هذا.

فلقد بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً. وفى غربة الإسلام الأولى كان المسلمون يبنون الفرد المسلم أولاً فلما تم بناؤه تم بناء الدوله الإسلامية. ولم نسمع أن أحداً منهم كان يشتبك فى جدال لاينتهى حول عقائد الآخرين لأن هداية الآخرين إلى الله عمل جميل ورائع.

ولكن هذه الهداية تستوجب هدايه النفس أولاً إلى الله. ولوهدى المسلمون أنفسهم إلى الله لهدى الله بهم من يشاء من عباده.

القرآن يثبت لعيسى معجزتين لم يذكرا فى الأناجيل

أثبت القرآن لعيسى من المعجزات التى لم يرد لها ذكر فى الأناجيل.

الأولى: معجزة كلامه وهو رضيع فى المهد.

الثانيه: معجزة المائدة التى أنزلت من السماء.

كما أثبت له كرامه إنقاذه من أيدى اليهود فلم يسمح لهم بتعذيبه أوقتله بل رفعه الله إليه وفى هذا نقول أن محمد ﷺ كان بينه وبين عيسى حوالى ستمائة سنة ولم يكن بينهما نبى فماالذى يضيره لووافق النصارى على زعمهم بصلب المسيح وقتله على أيدى اليهود الذين أذوا النبى وتآمروا عليه لقتله أكثر من مرة وخانوا العهد معه ولكنه لم يتكلم عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى. وقرآن أنزله الله عليه مؤكدا على عدم قتله قال

تعالى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩]

المسيح واليوم الآخر

يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة فيما هو متحقق موجهاً كلامه لنبيه ورسوله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وهو أعلم بما حدث ممن اتبعوه ولكنه سبحانه وتعالى يوضح لنا براءه نبيه وأمه من إتخاذ أتباعه لهما إلاهين من دون الله. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائده: ١١٦ ـ ١١٩]

ويقول الحق تبارك وتعالى في محكم آياته عن رسله وتفضيل بعضهم على بعض وتأييده ومساندتهم في سورة البقره :الآيه ٢٥٣. ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ صدق الله العظيم.

*****

الختام ومسكه

يتساءل البعض لماذا كان كل هؤلاء الأنبياء والرسل من بنى إسرائيل؟

أقول أن الله سبحانه وتعالى من خلق آدم أبو البشر والرسل والأنبياء جميعاً وفى حياته ﷺ مارس إبليس اللعين عمله فى فتنه بنى آدم وغوايتهم حتى اقتتل بعضهم بعضاً وقتل الأخ أخيه وانحرفوا عن عبادة الله الواحد وعبدوا الأصنام وأرسل فيهم أنبياء ورسل شتى وفى زمن مابعد الطوفان ونوح تفرق أبناء نوح فى الأرض ونطقوا بألسنة مختلفة وانحرف من نسلهم من عبد الأصنام والكواكب والنار ولم يكن يعبد الله من بعدهم فى الأرض إلا بنى إسرائيل ولكنهم مع عبادة الله قد حرفوا مانزل على أنبيائهم من توجيه لعبادة الله الواحد وما نزل على موسى وداود وقتلوا أنبياء الله ورسله إليهم وفى قصص ماسبق من الأنبياء ما حكى عن ظلمهم وانحرافهم وتآمرهم حتى جاءهم عيسى مؤيداً من الله وبالإنجيل فكذبوه ورموا أمه العذراء البتول مريم بأشبع تهمه توجه لعذراء طاهرة واتهموها بالزنى واتهموه بالسحر والكذب وحاولوا الفتك به وهو يعظهم ويعظ كهنتهم فى الهيكل وينجيه الله من شرهم فما كان منهم إلا التدبير لقتله كما قتلوا العديد من الأنبياء من قبله.

ولكن الله أنجاه وأسقط شبهة على غيره فأخذوه وعذبوه وأهانوه ووضعوا الشوك فى طريقه وطرقوا به رأسه وبصقوا فى وجهه ودقوا المسامير فى يديه ورجليه وقتلوه... قتلوا شبيهة ظنهم بأنه نبى الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

وإنى لأعجب من هؤلاء الغافلين عن قدرة الله فى خلقه... فلو نظر أى عاقل لمساحة وجه الإنسان طولاً وعرضاً لوجدها بضعه سنتيمترات قليله ومع ذلك كل هذه الملايين... بل البلايين من البشر من أول خلق آدم إلى اليوم لا تجد من بينهم من يشبه الآخر إلا النذر اليسير حتى فى (التوائم المتطابقة) التى من بويضه واحده انقسمت ليخرج منها ذكران أو أنثتان متشابهتان فى كل الملامح... ومع ذلك يستطيع الأب والأم ومن

يعايشهما أن يفرق بينهما في الملامح.. وكل من نظن أنهم يتشابهون بالكلية كشعوب الصين واليابان ينطبق عليهم نفس القول.

فكيف نستبعد على الخالق المبدع العظيم الذى من هذه المساحة الضيقة للوجه لا نجد بينها من يتشابه إلا فى النذر اليسير حتى فى شكل الأسنان حتى فى الصوت وبصمات الأصابع كل هذه العوامل المعجزة في الخلق وما تم اكتشافه من تفرد كل إنسان بحامض نووى خاص لا يشبهه إنسان آخر. وما سيتم من اكتشافات أخرى أيكون كثيراً على الله أن يخلق شبيهاً لرسوله لينجيه من شر أعدائه؟

أيصدقون طوفان نوح ويصدقون حوت يونس ويصدقون معجزات موسى وداود وسليمان وما أيد الله به عيسى ولا يصدقون شبه له خلقه الله على وجه عدوه.

إذا كان الإنسان ذلك المخلوق الضعيف الذى لم يؤت من العلم إلا قليلاً... يستطيع الآن أن يغير من ملامح الوجه بعمليات جراحيه تجميلية وأن يصنع قناع يضعه على وجه آخر ليحمل ملامح غيره.

ألم نقرأ فى التاريخ القريب عن أشخاص حلت مكان بعض الرؤساء وقادة الجيوش فى أماكن والآخر يكون فى مكان آخر غيره ليضلل أعدائه. ألم نسمع عن بديل لرؤساء حاليين.. بل أكثر من بديل أيكون كثيراً على الله أن يخلق شبيهاً لرسوله لينجيه من شر أعدائه؟

*****

العبرة من قصص الأنبياء

إن الله سبحانه وتعالى اختص من خلقه أنبياء ورسل منهم خليل الله ومنهم كليم الله وكانت لهم منزلة من رحمة الله وتقديره لهم وبإنتهاء التكليف لهم تنتهى حياتهم فمنهم من قضى ومنهم من رفعه إليه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام ٦١، ٦٢] ـ صدق الله العظيم.

تم بحمد الله وفضله وتوفيقه

حسن إبراهيم البدوى

٣٠ شعبان ١٤٢٥ هجرية

١٤ أكتوبر ٢٠٠٤ ميلادية

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الأحاديث النبوية الشريفة.

٣ ـ تفسير فى ظلال القرآن. للشيخ الشهيد سيد قطب يرحمه الله.

٤ ـ المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة القرآن والسنة ـ وزراة الأوقاف.

٥ ـ صفوه التفاسير. للأستاذ محمد على الصابونى ـ الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى ـ مكه المكرمه.

٦ ـ البداية والنهاية. للإمام الحافظ أبو الفداء ـ إسماعيل بن كثير الدمشقى ـ يرحمه الله.

٧ ـ جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام ـ للإمام العلامة بن قيم الجوزية ـ يرحمه الله.

٨ ـ قصص الأنبياء. للأستاذ/ عبد الوهاب النجار ـ يرحمه الله.

٩ ـ أنبياء الله. للأستاذ/ أحمد بهجت ـ متعه الله بالصحة والعافية وطول العمر.

١٠ ـ إنجيل يوحنا.

١١ ـ إنجيل متى.

١٢ ـ إنجيل لوقا.

١٣ ـ إنجيل برنابا. ترجمة الدكتور خليل سعادة يرحمه الله.

*****

فهرس موسوعة الأنبياء

النبى ﷺ	الصفحة